

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتاب المنصف اختياراته في الرسم وأثرها على مصاحف المغرب

د . عبد الكريم بوغزالث
جامعة الوادي

الملخص:

يتناول هذا البحث كتابا هاما في علم الرسم القرآني هو كتاب المنصف للإمام البلنسي، وقد كان لهذا الكتاب الأثر البالغ لدى المغاربة في رسم مصاحفهم، وقد تمثل ذلك في جملة من المسائل التي اختلفت فيها المصاحف في المشرق مع المصاحف في المغرب، وسبب ذلك هو سكوت إمام الرسم المقدم أبي داود سليمان بن نجاح عن بعض الكلمات فحمل المشاركة سكوته على إثبات ألفات تلك الكلمات، واتبع المغاربة في ذلك ما اختاره البلنسي في كتابه المنصف.

Summary:

This research deals with an important book in the science of koranic writing which is Almancif to the Imam Albalanci. This book has had a deep impact on the writing of their copies of the koran. This has been represented in a number of issues that differed in copies of the Koran in the Orient with copies of the Koran in the Maghreb. The reason for that is the silence of the preferred Imam Abi Dawood Sulaiman bin Najah for some words, therefore Easterners have put the Alif letters of those words, and the Maghrebis follow Albalanci choice in his book Almancif .

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد: فمن العلماء الذين كانت لهم اليد الطولى في خدمة كتاب الله تعالى، للإمام أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البليسي، حيث نظم كتاب التزويل للإمام أبي داود سليمان بن نجاح، وله فيها اختيارات صرح بها رحمه الله تعالى.

ولأهمية المنظومة واختيارات الإمام فيها رجع مذهبه علماء المغاربة واعتمدها نسّاخ مصاحفهم، مخالفين بذلك ما عليه مصاحف المشاركة في مسائل مخصوصة.

وإدراكا مني لأهمية هذه المنظومة المفقودة حاولت جمع ما تبقى منها عارضا اختيارات الإمام فيها وتأثير ذلك على رسم مصاحف المغاربة.

وسأتكلم عن هذا الأمر في المطالب الآتية:

المطلب الأول: تعريف بالمؤلف والمؤلف

المطلب الثاني: ما تبقى من منصف البليسي

المطلب الثالث: اختياراته في الرسم وأثرها في رسم مصاحف المغاربة.

خاتمة.

الإمام أبو الحسن البنسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

المطلب الأول: تعريف المؤلف والمؤلف

سأتناول في هذا المطلب التعريف بالإمام البنسني وكتابه المنصف.

أولاً: التعريف بالإمام البنسني

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البنسني، الأستاذ العالم الثقة، قرأ الكثير على أبي داود ولازمه سنين عديدة، لأنه زوج أمه، نشأ في حجره، وسمع منه كتباً كثيرة، وهو أجل أصحابه وأثبتهم.

انتهت إليه رئاسة الإقراء في زمانه، قرأ عليه أبو القاسم الشاطبي وغيره. مات

سنة: 564هـ¹.

ثانياً: التعريف بالكتاب:

اسمه: المنصف. نظمه في زمن الأمير عبد المؤمن أول أمراء الموحدين بعد

المهدي، وأكمله في النصف من شعبان سنة: 563هـ.

قال الإمام البنسني في صدر المنصف:

مُنْصَرِّمًا أبلغت نفي عذراً	وَأِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ الْعُمُرَا
عن إتباع الرسم حرفاً حرفاً	في رجز قصدت فيه الكشفاً
على الذي قد جاء في القرآن	دون زيادة ولا نقصان
عن ابن لبّ من ذوي الدرايه	إذ كنت قد أخذتُه رِوَايَه
في عصره من أهل هذا الشان	وكان شيخاً خص بالإتقان
ذي العلم بالترجيل والأحكام	حدثني عن شيخه المَعَامِي

¹ - غاية النهاية غاية النهاية في طبقات القراء، محمد بن الجزري، عني بنشره: ج

برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 3 سنة: 1402هـ/1982م، 1/573-

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
وكل ما ذكرته فعنه أخذته مما استفدت منه¹
أهمية الكتاب:

- 1- الكتاب عمدة مصاحف أهل المغرب عند الاختلاف: وهذا في أغلب المواضع.
 - 2- أنه نظم كتاب التزويل لأبي داود، وكتاب التزويل أجلّ كتاب في هجاء المصاحف.
 - 3 - اعتماد الخراز عليه في نظمه: مورد الظمان، وكان ذلك في خمسة عشر كلمة.
- قال الخراز في مورد الظمان:

وربما ذكرت بعض أحرف مما تضمن كتاب المنصف²
قال أبو الحسن التزوالي: والذي زاده من المنصف هو نحو اثني عشر موضعا³.

المطلب الثاني: ما تبقى من منصف البلسني

ينقسم ما تبقى من منصف البلسني إلى قسمين:

¹ - تنبيه العطشان على مورد الظمان، حسين بن طلحة الرجرجي الشوشاوي، رسالة ماجستير من أول المخطوط إلى باب حذف الياء في القرآن الكريم، دراسة وتحقيق: محمد سالم حرشة، إشراف: رجب محمد غيث، جامعة المرقب كلية الآداب والعلوم ترهونة، الجماهيرية العربية الليبية، العام الجامعي: 2005-2006م. ص 187، وفتح المنان المروي بمورد الظمان، عبد الواحد بن عاشر الفاسي المغربي، رسالة دكتوراه من أول الكتاب إلى آخره، دراسة وتحقيق: عبد الكريم بوغزالة، إشراف الدكتور: أبي بكر كافي، نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر قسنطينة سنة: 1429-1430هـ/2008-2009م، ص 396-397.

² - منظومة مورد الظمان في رسم أحرف القرآن ومتن الذيل، ويليه منظومة الإعلان بتكميل مورد الظمان، تحقيق: أشرف محمد فؤاد طلعت، مكتبة الإمام البخاري، ط 2 سنة: 1427هـ/2006م، ص 8.

³ - مجموع البيان في شرح ألفاظ مورد الظمان، لأبي الحسن التزوالي، مخطوط بمكتبة الحرم المدني، برقم: 3، ق/13-أ، وانظر أيضا تنبيه العطشان، ص 185.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
 قسم حكاة الخراز في مورده عنه، وقسم أورده الأئمة ابن آحطا في التبيان، أو
 الرجراحي في تنبيه العطشان، أو ابن عاشر في فتح المنان أو يشتركون في النقل، وبيان
 ذلك:

القسم الأول: ما حكاة الخراز في مورد الظمان:

1 — حذف ألف: ﴿شَعَكِرَ﴾ حيث وقع¹.

2، 3 — حذف ألف لفظي: ﴿الْأَسْبَبَ﴾ و﴿الْعَمَمَ﴾ مطلقا².

4 — حذف ألف ﴿عَدُوَّةَ﴾ مطلقا³.

5 — حذف ألف ﴿يُضَاهُونَ﴾⁴.

6 — حذف ألف: ﴿يَسْتَجِرُونَ﴾ مطلقا⁵.

7 — حذف ألف ﴿كَادَتْ﴾⁶.

8 — حذف ألف ﴿كَذِبَةَ﴾ مطلقا⁷.

القسم الثاني: ما أورده الأئمة ابن آحطا في التبيان أو الرجراحي في تنبيه
 العطشان أو ابن عاشر في فتح المنان:

¹ — منظومة مورد الظمان: البيت 106، 107، ص 13.

² — منظومة مورد الظمان: البيت 136، ص 15.

³ — منظومة مورد الظمان: البيت 180، ص 18.

⁴ — منظومة مورد الظمان: البيت 193، ص 19.

⁵ — منظومة مورد الظمان: البيت 211، 212، ص 20.

⁶ — منظومة مورد الظمان: البيت 225، ص 21.

⁷ — منظومة مورد الظمان: البيت 251، 252، ص 23.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
 ما تبقى من منصف البلنسي المفقود، محفوظ في تبيان ابن آحطا، وتنبيه
 الرجراجي، وفتح ابن عاشر، وفيما يأتي عرض لتلك النصوص:

1- ثبت ألف ﴿ءَايَاتِنَا﴾ في الموضعين الثاني والثالث في سورة يونس وهما: ﴿وَإِذَا
 تَتَلَّوْا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا بَيَّنَّتْ﴾ [آية: 15]، ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ [آية: 21].
 قال البلنسي:

ءَايَاتُنَا فِي يُونُسٍ حَرْفَانِ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا وَالثَّانِي
 مِنْ قَبْلِ وَبَعْدِ مَكْرٍ أَلْفٍ مَعْرُوفَةٌ وَعَبَّرَ ذَيْنِ عِنْدَنَا مَحْذُوفَةٌ¹

2، 3، 4، 5- ثبت ألف: ﴿فَتَيَّانِ﴾، و﴿أَخْبَارِ﴾، و﴿سُؤَاعَا﴾، و﴿أَجْبَارًا﴾.

أما ﴿فَتَيَّانِ﴾: ففي قول الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ
 مَعَهُ اللَّيْلَ حَنَفِيًّا...﴾ (٣٦).

وَأما (أخبار): فمن أمثله قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ
 إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ
 أَنْبَارِكُمْ...﴾ (١٤).

وَأما ﴿سُؤَاعَا﴾: ففي قول الله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا
 نَذْرَ لَآ إِلَهَتِكُمْ وَلَا نَذْرَ لَآ وَدَا وَلَا سُؤَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣).

وَأما ﴿أَجْبَارًا﴾: ففي قول الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَجْبَارًا﴾ (٣٦).
 قال البلنسي في المنصف:

¹ - تنبيه العطشان ص 278.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

وَفَتَيَانٍ مِثْلَهَا وَأَحْبَارٌ ثُمَّ سُوعًا وَكَذَلِكَ أَبْكَارٌ¹

6- حذف ألف ﴿الْعِظَمَ﴾ مطلقاً.

قال في المنصف: ثم ضعفاً مثل ذلك وعظماً².

7- حذف ألف ﴿ضِعْفًا﴾ وهو في سورة النساء: ﴿وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ لَوْ

تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيدًا ﴿٩﴾.

قال في المنصف: ثم ضعفاً مثل ذلك وعظماً³.

8، 9- حذف ألف لفظي: ﴿الرَّضْعَةَ﴾ و﴿وَوَقَاهُمْ﴾.

قال في المنصف: ثم الرضعة كذا وقاهم⁴.

10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20، 21، 22- حذف ألف

الألفاظ: ﴿قُلِ اصْلِحْ﴾، ﴿ظَلَّمْ﴾، ﴿تَلَوْتَهُ﴾، ﴿سُجِّلَ السَّلَامُ﴾،

﴿عُلِّمٌ﴾، ﴿حَلَّفَ﴾، ﴿غَلَّظَ﴾، ﴿لَاهِيَةً﴾، ﴿التَّلَاقُ﴾،

﴿عَلَنِيةً﴾، ﴿فَلَانًا﴾، ﴿لِيمٌ﴾، ﴿لِزْبٌ﴾ وكل ألف معانقة للام.

قال في المنصف:

¹ - تنبيه العطشان ص 357، وفتح المنان (الشطر الأول فقط) ص 543.

² - فتح المنان ص 555.

³ - فتح المنان ص 555.

⁴ - فتح المنان ص 650.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
 وحذفوا الألف بعد السلام وفي أولئك وفي لكنا
 وفي المئكة والبلاد وفي سلسلا وفي خلائف
 وفي غلام كل ذاك باد وفي ثلاثة بلا مخالف

ومثله البلاغ والخالق وفي الضلال بعد والضلالة
 وفي الضلال بعد والضلالة ومن سلاله ولا خلال
 واللعنون مثلها واللعينين في كل ما قد أثبتوا بلام
 ثم ملقوا وكذا يلقوا وفي ظلالهم وفي الكلاله
 ومن خلال كذا الأغلال واللت أيضا بعد ثم اللعينين
 أو باثنتين الحذف في الإمام¹

23، 24. حذف ألف ﴿الْجَهْلِيَّةُ﴾ و﴿وَفَصَلَهُ﴾.
 قال في المنصف: والجاهلية كذا فصله².

25. 38. حذف ألف: ﴿حُسْبَانًا﴾ المنسوب، و﴿خَلِيقُ﴾،
 و﴿الطُّغُوتُ﴾، و﴿طَغِينَا﴾ و﴿فَلَقَ الْحَبَّ﴾، و﴿بِشْرُوهُنَّ﴾
 و﴿إِحْسِنُ﴾ و﴿إِحْسَانًا﴾ و﴿تَرْضَيْتُمْ﴾ و﴿الْإِنْسَانَ﴾ و﴿يَحْسِبُهُ﴾ و﴿غَضِبْنَا﴾
 و﴿مِيقَاتِنَا﴾، لفظ (الأعمال).

قال في المنصف:

ومثله الطُّغُوتُ مع طَغِينَا و﴿بِشْرُوهُنَّ﴾ معاً وإِحْسِنُ
 و﴿فَلَقَ الْحَبَّ﴾ كذا حُسْبَانًا ثم تَرْضَيْتُمْ ولفظ الإنسان

¹ - التبيان لابن آحطا 1/ 318، وتنبية العطشان، ص 396.

² - فتح المنان ص 634.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
وقال أيضا:

ومل يحسبه غضبنا ميقنا كذلكم إحسنا

وحيث جاء بعد لفظ الأعمال وخلق بالحذف دون إشكال¹

39، 40 — حذف ألف: ﴿صَاحِبٌ﴾ مطلقا، و ﴿جَاهِدُوا﴾:

قال في المنصف: وجاهدوا ولفظه صاحب².

41، 42 — حذف ألف: ﴿ذُرَيْبَاتِنَا﴾ و ﴿كَفَّارَةٌ﴾.

قال في المنصف: ومثال ذريباتنا كفارة³.

43، 44 — حذف ألف: ﴿الْأَدْبَرُ﴾ مطلقا، و ﴿مَوْزِينَهُ﴾

قال في المنصف: ثم موزينه، الأدبـر⁴.

45، 46، 47 — حذف ألف: ﴿أَعْنَقُهُمْ﴾ و ﴿بِخَعٍ﴾ و ﴿خَاضِعِينَ﴾.

قال في المنصف: وخبخع وأعناقهم وخبضعين⁵.

48، 49 — حذف ألف: ﴿أَضْغَتْ﴾ و ﴿عَالِمٌ﴾

قال في المنصف: وثم أضغث وثم عالـم⁶.

¹ - فتح المنان ص 645-646.

² - فتح المنان ص 677.

³ - فتح المنان ص 628.

⁴ - فتح المنان ص 684.

⁵ - فتح المنان ص 686.

⁶ - فتح المنان ص 652.

50، 51، 52 — حذف الألف بعد الهاء من ﴿أَيْه﴾ في النور والزخرف والرحمن

قال البلنسي:

وَحَدَفُهَا هُنَا بُعِيدَ الْهَاءِ عَلَى سَبِيلِ اللَّفْظِ فِي الْأَدَاءِ
لَأَنَّهَا فِي الدَّرَجِ دَلْبًا تَذَهَبُ لِلْسَّاكِنِينَ وَلِذَا لَا تُكْتَبُ
وَمَعَ ذَلِكَ قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بَضْمَهَا دَرَجًا وَقَالَ الشَّاعِرُ
يَأْيُهُ الصَّبُّ اللَّجُوجُ النَّفْسِ أَقْصَرُ عَنِ الْبَيْضِ الْحِسَانِ اللَّعْسِ
فَضَمَّهَا شَاعِرٌ ذَاكَ الْوَقْتِ وَكَانَ فِي النَّظْمِ قَرِينِ السِّتْرِ¹

المطلب الثالث: اختياراته في الرسم وأثرها في رسم مصاحف المغاربة.

أتناول في هذا المطلب اختيارات الإمام البلنسي في نظمه، وبيان أثر هذه

الاختيارات في مصاحف المغاربة:

1 — 2 — حذف ألفي: ﴿إِحْسَنُ﴾ و﴿شَعَيْرٌ﴾ حيث وقعاً:

حكى الخراز مذهب أبي داود بحذف ألف كل موضع ﴿إِحْسَنُ﴾ عدا

الأول منه، وهو الوارد في قول الله تعالى: ﴿وَيَا لَوْلَا لَيْنَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 83].

وحذف ألف كل موضع ﴿شَعَيْرٌ﴾ عدا الأول منه، وهو الوارد في قول الله

تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 158].

الذي جرى به العمل في مصاحف المشاركة هو الحذف إلا في الموضعين الأولين

المذكورين في الكلمتين لسكوت أبي داود عنهما، وجرى به عمل المغاربة هو الحذف مطلقاً حتى في الموضعين الأولين على ما اختاره البلنسي في منصفه.

¹ - تنبيه العطشان ص 517.

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

قال ابن عاشر: يترجح الحذف في ﴿إِحْسَانٍ﴾ و﴿شَعَائِرٍ﴾ الأولين حملا على النظائر¹.

قال ابن القاضي: ﴿إِحْسَانًا﴾ سكت عنه في التثنية، ونص المنصف على حذفه فترجح الحذف لنص المنصف وللحمل على النظائر، وقال: ﴿شَعَائِرٍ﴾ كـ: ﴿إِحْسَانٍ﴾².

3 - حذف ألف ﴿أَلْعَظَمَ﴾ مطلقا.

سكت أبو داود عن موضع البقرة، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى أَلْعَظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا﴾ [البقرة: 259]. قال في المنصف: ثم ضعفاً مثل ذلك وعظماً.

والعمل في: ﴿أَلْعَظَمَ﴾ على الحذف عند المغاربة في جميع ألفاظه إلا موضع القيامة، إتباعاً للمنصف.

والعمل عند المشاركة على الحذف إلا موضعي البقرة والقيامة إتباعاً لأبي داود¹.

¹ - فتح المنان ص 525.

² - بيان الخلاف ق/40أ، بيان الخلاف والاستحسان وما أغفله مورد الظمان وما سكت عنه التثنية ذو البرهان، عبد الرحمن ابن القاضي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الحامة الجزائر، برقم: 392 ضمن مجموع، وتبعه أيضا المارغني، وبه قال الناطي، ونسب الحذف لمصحف ابن الجزري، وقال عن الإثبات: "وهو خلاف الضابط". ينظر: دليل الخيران على مورد الظمان، إبراهيم بن أحمد المارغني، دار الكتب الجزائر، ص 67-68، ونثر المرجان في رسم نظم القرآن، محمد غوث بن ناصر الدين محمد بن نظام الدين أحمد الناطي الأركاني، مطبعة عثمان بريس حيدر آباد دكن الهند، 1/175، 241.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

4 - حذف ألف ﴿ضِعْفًا﴾، وهو في سورة النساء: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا

مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿١﴾﴾

قال في المنصف: ثم ضِعْفًا مثل ذلك وَعَظْمًا.

سكت أبو داود عن هذا الموضع ونص عليه الداني، وجرى عمل المغاربة على ما

اختاره البلنسي².

5، 6- حذف ألف لفظي: ﴿الْأَسْبَبَ﴾ و﴿الْغَمَّ﴾ مطلقاً.

قال في مورد الظمان:

وَالْمُنْصِفُ الْأَسْبَابَ وَالْغَمَّامَ قُلْ *** وَأَبْنُ نَجَاحٍ مَا سِوَى الْبِكْرِ نَقَلَ

نقل الخراز في هذا البيت عن أبي داود حذف ألف لفظي: ﴿الْأَسْبَبَ﴾

و﴿الْغَمَّ﴾ ما عدى الواقع في سورة البقرة من اللفظين فإنه سكت عنهما.

والمسكوت عنهما المواضع الآتية: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:

166]. ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَّ﴾ [البقرة: 57]. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمِّ﴾ [البقرة: 210].

أثبت المشاركة ألف لفظ: (الأسباب) و (الغمام) الواقع في البقرة.

¹ - ينظر: دليل الحيران، ص 77، وسمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين، علي محمد الضباع، قرأه ونقحه وأذن بتدريسه: محمد علي خلف الحسيني، مطبعة المشهد الحسيني، ط 1، ص 53، ولطائف البيان في رسم القرآن شرح مورد الظمان، أحمد محمد أبو زيتحار، مكتبة القاهرة مصر، ط 3 سنة: 1429هـ/2008م، 1/35-36.

² - ينظر: فتح المنان ص 555.

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
والذي جرى به عمل المغاربة هو الحذف مطلقا في اللفظين على ما اختاره
البلسني في منصفه¹.

7- حذف ألف لفظ: ﴿الرَّضْعَةَ﴾ مطلقا.

قال في المنصف: ثم الرضعة كذا وقولهم.

سكت أبو داود عن موضع البقرة، وهو: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ

الرَّضْعَةَ﴾ [البقرة: 233]، ونص على حذف² الواقع في سورة النساء فقط وهو:

﴿وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرَّضَعَةِ﴾ [النساء: 23].

جرى عمل المشاركة على الإثبات في موضع البقرة لسكوت أبي داود.

وجرى به عمل المغاربة هو الحذف مطلقا في الموضعين على ما اختاره البلسني

في منصفه³.

8-20 حذف ألف الألفاظ: ﴿قُلِ اصْلِحْ﴾، ﴿ظَلَمَ﴾،

﴿تَلَوْتَهُ﴾، ﴿سُبُلِ السَّلَامِ﴾، ﴿عُلِمَ﴾، ﴿حَلَفَ﴾، ﴿غَلَطَ﴾،

¹ - ينظر فتح المنان ص 575.

² - ينظر: مختصر التبيين لهجاء التثنية، أبو داود سليمان بن نجاح، دراسة وتحقيق: أحمد بن معمر شرشال، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية بالتعاون مع مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، ط 1 سنة: 1423هـ/2002م، 398/2.

³ - ينظر: دليل الحيران ص 107.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

﴿لَاهِيَةً﴾، ﴿التَّلَقُّ﴾، ﴿عَلَانِيَةً﴾، ﴿فَلَانًا﴾، ﴿لِيم﴾،
﴿لَزِب﴾.

قال الخراز في مورده:

ومع لام ذكره تتبعنا نجل نجاح موضعا فموضعا
ثم قال: وَأُطْلِقَتْ فِي مُنْصِفٍ، فَالْكَاتِبُ مُخَيَّرٌ فِي رَسْمِهَا.....
فأبو داود نقل حذف الألف المصاحبة للام، وتتبع مواضعها كلمة كلمة،
وسكت عن ثلاثة عشر لفظا - المذكور حذفها لصاحب المنصف - لم يتعرض لها
بحذف ولا إثبات.
ومواضعها كالاتي:

1- ﴿قُلِ اصْلِحْ﴾: موضع البقرة ﴿قُلِ اصْلِحْ لَّهُمْ حَيْرٌ﴾ [البقرة: 220].

سكت أبو داود عن هذا الموضع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.
وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلنسي، ونسبته الحذف للإمام، وحملوا
على النظائر، ولأن أبا داود قال في الموضع الذي قبل هذا الموضع: وقد ذكر، أي
بالحذف.

قال أبو الحسن التزوالي أحد شراح مورد الخراز: مذهب المنصف مشهور¹.

قال الإمام عبد الواحد الرجراجي في رسميته في باب حذف الألف بعد اللام:

بلاغ إصلاح كلام ثم تسقط في الله وفي اللهم¹

¹ - ينظر: التبيان، ق/252-أ، وتبنيه العطشان، ص 393، ومجموع البيان، ق/35-أ، وشرح
المحاصي على مورد الظمان في الرسم، أبو عبد الله محمد اليصلي المعروف بالمحاصي، مخطوط
محفوظ بمكتبة الحرم المدني، ق/91-أ، ودليل الحيران، ص88، وسمير الطالبين، ص 58.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

2- ﴿ظَلَمَ﴾: موضع آل عمران [آية: 182]: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

سكت أبو داود عن هذا الموضع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلنسي، ونسبته الحذف للإمام، وحملوا

على نظائره².

3- ﴿تَلَوْتَهُ﴾: في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ

تَلَوْتَهُ﴾ [البقرة: 121].

سكت أبو داود عن هذا الموضع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلنسي، ونسبته الحذف للإمام³.

4- ﴿سُئِلَ السَّلَامُ﴾، في العقود: ﴿مَنْ أَتَبَعَ رِضْوَانَهُ سُئِلَ

السَّلَامُ﴾ [المائدة: 16].

سكت أبو داود عن هذا الموضع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلنسي، ونسبته الحذف للإمام، وحملوا

على النظائر، بل قد حكى الإجماع على حذفه: الداني والشاطبي والليث والجعبري

¹ - المنهاج في شرح رسمية الرجراج ص 101.

² - ينظر: ينظر: التبيان، ق/252-أ، وتنبية العطشان، ص 393، ومجموع البيان، ق/35-أ، وشرح المحاصي، ق/91-أ، ودليل الحيران، ص88، وسمير الطالبين، ص 58.

³ - ينظر: ينظر: التبيان، ق/252-أ، وتنبية العطشان، ص 393، ومجموع البيان، ق/35-أ، وشرح المحاصي، ق/91-أ، ودليل الحيران، ص88، وسمير الطالبين، ص 59.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
والسخاوي، وابن القاضي، والصواب الحذف كما هو الإجماع. قال ابن القاضي:
بالحذف لنص الداني.

قال محمد علي خلف الحسيني شيخ القراء والمقارئ المصرية سابقا: فلا التفت
إلى ما ذكره فيه بعضهم من الخلاف عن المورد¹.

5 — ﴿عَلَّمَ﴾، في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾ [آل
عمران: 40].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلنسي، ونسبته الحذف للإمام، وحملوا
على النظائر.

وقد حكى الناططي الإجماع على حذفه فقال: أجمع أرباب الرسم على حذف
الألف بعد اللام منه في القرآن للاختصار حيثما وقع وكيف ما وقع، وحكى حذفه
الداني وابن القاضي والسيوطي.

مع العلم أن أبا داود قد نص على حذف نظائره، بل قال في خمسه: وهجاؤه
مذكور، ولم يتقدم له ظنا منه أنه قد تقدم وهو لا يذكر إلا الحذف، وقال في موضع
مريم: تقدم ذكره كله¹.

¹ - ينظر: المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط، عثمان بن سعيد
الداني، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبعة الترقى، دمشق سورية، ط سنة: 1359هـ/1940م،
ص 11، 17، والوسيلة، ص 123، 263-266، والجميلة، ق/94، والدرة الصقيلة، ق/55-أ،
والتبيان، ق/252-أ، وتنبيه العطشان، ص 393، 397، ومجموع البيان، ق/35-أ، وشرح
المحاصي، ق/91-أ، وبيان الخلاف، ق/40، وسمير الطالبين، ص 57 الحاشية رقم 1.

6- ﴿حَلْفٌ﴾، في نون: ﴿وَلَا تُطَعُ كُلُّ حَلْفٍ﴾ [القلم: 10].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام².

7- ﴿غَلْظٌ﴾، في التحريم: ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلْظٌ شَدَادٌ﴾ [التحريم: 6].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام³.

8- ﴿لَهِيَةٌ﴾ ففي الأنبياء إخباراً عن الناس: ﴿لَهِيَةٌ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنبياء: 3].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام⁴.

¹ - ينظر: مختصر التبيين لهجاء التنزيل، والمقنع، ص، 17، والتبيان، ق/252-أ، وتنبية العطشان، ص 393، 394، ومجموع البيان، ق/35-أ، وشرح المجاصي، ق/91-أ، الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار المعرفة، بيروت لبنان، 213/2، ونثر المرجان، 25/1، 420، ودليل الحيران، ص 88، وبيان الخلاف والاستحسان وما أغفله مورد الظمان وما سكت عنه التنزيل ذو البرهان، عبد الرحمن ابن القاضي، مخطوط بالمكتبة الوطنية الحامة الجزائر، برقم: 392 ضمن مجموع، ق/40-أ، وسمير الطالبين، ص 58، وسفير العالمين، 198/1.

² - ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

³ - ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

⁴ - ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

9- ﴿التَّلْقِ﴾، في المؤمن: ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلْقِ﴾ [غافر: 15].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام.

مع العلم أن الدابي حين ذكر بعض أفراد مادة: (الملاقاة) بالحذف، قال: حيث

وقع¹.

10- ﴿عَلَنِيةً﴾، في كل مواضعه، ومنها موضع البقرة: ﴿الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَنِيةً﴾ [البقرة: 274].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام، وحملوا

على نظائره².

11- ﴿فَلَانًا﴾، في الفرقان: ﴿لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: 28].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام³.

12- ﴿لِيم﴾ في العقود: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لِيم﴾ [المائدة: 54].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني، ونسبته الحذف للإمام¹.

¹ - ينظر: المتنع، ص 18، وتنبية العطشان، ص 401، والتبيان، ق/253، ودليل الحيران، ص

88، وسمير الطالبين، ص 59.

² - ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

³ - ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

13 — ﴿لُزِبٌ﴾، في الصفات: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لُّزْبٍ﴾ [الصفات: 11].

سكت أبو داود عن هذا الموضوع فجرى عمل المشاركة على الإثبات.
وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البليسي، ونسبته الحذف للإمام².

21 — حذف ألف ﴿عَدْوَةٌ﴾ مطلقاً.

حذف أبو داود ألف ﴿عَدْوَةٌ﴾ ما عدى الكلمة الأولى منها، والتي هي في
المائدة: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدْوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 14]. وأما البليسي فبالحذف
مطلقاً.

سكت أبو داود عن هذا الموضوع الذي في سورة المائدة فجرى عمل المشاركة
على الإثبات.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البليسي على حذفه كما نقل الخراز،
وحملا على النظائر، ورجحه ابن القاضي والمارغني³.

22 — حذف ألف: ﴿حُسْبَانًا﴾ المنصوب، و﴿فَلِقَ الْحَبِّ﴾.

1 — حذف ألف: ﴿حُسْبَانًا﴾ المنصوب، وهو في موضعين:

¹ — ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

² — ينظر: دليل الحيران، ص 88، وسمير الطالبين، ص 59.

³ — ينظر: تنبيه العطشان، ص 448، وبيان الخلاف، ق/40-ب، ودليل الحيران، ص 103.

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

في الأنعام: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: 96]، وفي

الكهف: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: 40]. وهي على وزن (فُعْلَانٌ) المثبت عند أبي عمرو.

قال الخراز: وذكر الداني وزن فُعْلَانٌ بألف ثابتة ك: العدوان¹

نص الداني على ثبت ألفه، وسكت أبو داود عنه فجرى عمل المشاركة على

الإثبات. وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني على حذفه.

2 - حذف ألف: ﴿فَلِقُ الْحَبِّ﴾. وهو في سورة الأنعام ﴿فَلِقُ الْحَبِّ﴾

وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95].

نص الداني على ثبت ألفه، قال الخراز:

ووزن فُعْلَانٌ وفاعل ثبت في مقنع إلا التي تقدمت²

لكن نص أبو عمرو على الخلاف فيه، فقال في المقنع: وفي الأنعام في بعض

المصاحف: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ﴾ بالألف، وفي بعضها: ﴿فَلِقُ﴾ بغير ألف.

قال ابن عاشر: وهذه العبارة كما قال الشارح: ليس فيها تصريح بذكر

الخلاف، ولكن سكوته عن ذكر غيرهما يقتضي أنه ثابت لهما³.

جرى عمل المشاركة على الإثبات لنص الداني على الخلاف فيه لأن الإثبات

هو الأصل، وسكوت أبي داود عن ذكر الخلاف فيه، وحكى الحذف فقط، ونص ابن

أشته أنه بالإثبات في المصحف الإمام ومصاحف أهل المدينة.

¹ - منظومة مورد الظمان، البيت: 217، ص 20.

² - منظومة مورد الظمان، البيت: 254، ص 23.

³ - فتح المنان ص 644.

الإمام أبو الحسن البنسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة
وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البنسني على حذفه، قال ابن القاضي:
العمل بالحذف¹.

23 — حذف ألف: ﴿صَاحِبٍ﴾ مطلقاً:

قال في المنصف: وجهدوا لفظه صَاحِبٍ

نص أبو داود² على حذف الموضوعين: في التوبة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحْزَنْ﴾ [التوبة: 40] ومثله في الكهف: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، وسكت
عن بقية المواضع، ونص البنسني على الحذف مطلقاً ومنها الموضوعين: في الكهف:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ [الكهف: 37]، وفي نون: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْمُتُونِ﴾
[القلم: 48].

جرى عمل المشاركة على الإثبات في غير المجرور باللام لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على الحذف مطلقاً لنص البنسني على حذفه.

24 — حذف ألف: ﴿أَعْنَقْتَهُمْ﴾

حذف أبو داود ألف: ﴿أَعْنَقْتَهُمْ﴾ المضاف إلى ضمير الغائبين، الواقع في غير الرعد.

¹ - ينظر: الدرّة الصقيلة في شرح العقيلة، أبو بكر بن أبي محمد عبد الغني المشتهر باللبيب،
مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة، برقم: 300838، ق/31-أ، والمقنع، ص 93، ودليل
الحيران، ص 105، وفتح المنان ص 644، وبيان الخلاف، ق/40-ب، والوسيلة إلى كشف
العقيلة، أبو الحسن علم الدين علي بن محمد السخاوي، تحقيق وتقديم: مولاي محمد
الإدريسي الطاهري، مكتبة الرشد الرياض السعودية، ط 3 سنة: 1426هـ/2005م، ص
139-140.

² - مختصر التبيين 623/3.

الإمام أبو الحسن البليسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

كموضع الشعراء: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقَهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ [الشعراء: 4]، وسكت عن

موضع الرعد وهو: ﴿وَأَوْلَيْتِكَ الْأَعْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: 5].

جرى عمل المشاركة على الإثبات في موضع الرعد لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على الحذف في موضع الرعد لنص البليسي على حذفه.

قال ابن القاضي: العمل الإثبات، والأولى الحذف للنظائر والنص¹.

25 _ حذف ألف: ﴿يَسْتَخِرُونَ﴾ مطلقا.

حذف أبو داود ﴿يَسْتَخِرُونَ﴾ سواء كان مفتتحا بياء الغائب أو مفتتحا بئاء

المخاطب إلا الواقع في سورة الأعراف، فإنه سكت عنه، وهو ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا

يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

جرى عمل المشاركة على الإثبات لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البليسي على حذفه.

قال ابن القاضي: وحذفه أولى².

26 _ حذف ألف ﴿كَدَّتْ﴾

وهو في سورة القصص ﴿إِنْ كَدَّتْ لُنْبُدِي بِهٖ﴾ [القصص: 10].

قال الخراز:

..... ومنصف كادت متى رسمتا

¹ - ينظر: التبيان، ق/264-ب، وتنبيه العطشان، ص 469-470، ومجموع البيان، ق/46-ب،

وبيان الخلاف، ق/41، ودليل الحيران، ص 112، وسمير الطالبين، ص 60.

² - ينظر: فتح المنان ص 708، وبيان الخلاف، ق/40-ب، ودليل الحيران، ص 119.

الإمام أبو الحسن البلسني وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

قال التحيبي إذ قال ما نصه: ﴿كَدَّتْ﴾ بغير ألف عن البلسني¹.

جرى عمل المشاركة على الإثبات لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني على حذفه².

27 — حذف ألف ﴿كَذِبَةٌ﴾ مطلقا

حذف أبو داود موضع العلق فقط وسكت عن موضع الواقعة.

جرى عمل المشاركة على الإثبات لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على الحذف لنص البلسني على حذفه.

قال ابن القاضي: العمل بالإثبات، وحذفه أولى للنظائر³.

28 — حذف ألف ﴿الْأَعْنَابُ﴾ مطلقا.

حذف أبو داود ألف ﴿الْأَعْنَابُ﴾ إلا الموضعين الأولين وهما: في البقرة:

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ ...﴾ [البقرة: 266]. وفي

الأنعام: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ...﴾ [الأنعام: 99].

جرى عمل المشاركة في الموضعين على الإثبات لسكوت أبي داود.

وجرى عمل المغاربة على جميع ألفاظ: (الأعنب) لنص البلسني على حذفه¹.

¹ - ينظر: فتح المنان ص 738.

² - ينظر: فتح المنان ص 738، ودليل الحيران، ص 126، وسمير الطالبين، ص 57.

³ - ينظر: فتح المنان ص 791، وبيان الخلاف، ق/42-ب، ودليل الحيران، ص 139، وسمير الطالبين، ص 56، ولطائف البيان، 92/1.

الإمام أبو الحسن البلنسي وكتابه المنصف ----- د. عبد الكريم بوغزالة

خاتمة :

بعد هذه الجولة في هذا البحث مع ما تبقى من كتاب المنصف أذكر بعض النتائج التي توصلت إليها:

أولاً: عناية الأمة الإسلامية عناية فائقة بالمصحف الشريف، والتي لم تعهد في تاريخ البشرية لكتاب غيره على مدى الأعصار والأمصار، نسخا ورسمًا ونقطًا وإعرابًا، وبينوا المكي منه والمدني وعدوا آياته، وأوضحوا لغاته ومخارج حروفه...

ثانياً: لم يحظ الإمام البلنسي بدراسة وافية لحياته الشخصية والعلمية، وإنني في هذا البحث ذكرت جزء من حياته وعرفت بكتابه المنصف، وعرضت ما تبقى منه.

ثالثاً: كشف البحث عن القيمة التي حظي بها كتاب المنصف عند المغاربة.

رابعاً: مكانة وقيمة المدرسة القرآنية المغربية وخدمتها لكتاب الله تعالى.

خامساً: إمامة البلنسي في علم الرسم القرآني مما جعل المغاربة يختارون مذهبه.

وأخيراً أسأل الله العلي القدير أن أكون ممن خدم الكتاب العزيز بهذه البحث

المتواضع، وأن يكون نواة لحسم كثير من المسائل في هذا الفن.

وأسأله سبحانه أن يغفر لنا إن أخطأنا وأن يتجاوز عنا إن أسأنا، وأن يغفر لنا

ولن له حق علينا وللمؤمنين جميعاً والحمد لله رب العالمين.

¹ - ينظر: مختصر التبيين، 3/735، 768-769، 774، والتبيان، ق/247-248، وتنبية العطشان، ص 367، ومجموع البيان، ق/31-ب، وشرح المحاصي، ق/89-ب، ودليل الحيران، ص 77، وسمير الطالبين، ص 60.

الأنهار في القرآن الكريم - دراسة موضوعية



د. مروان وحيد شعبان
أبجاعت الكنديت بدبي

الملخص:

تناول البحث دراسة موضوعية عن الأنهار في القرآن الكريم، حيث ورودت عشرات الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأنهار من حيث مصدرها، ومنبعها، ومجراها، ومصباتها، وما يرافق ذلك من إنبات النبات، وإرواء الأحياء، وتغذية العيون والينابيع، ورفد البحيرات والبحار، وكذلك بيان حديث القرآن الكريم عن الأنهار كوسيلة تربوية ترغيبية يعرضها كتاب الله تعالى ليستجيش العواطف الإيمانية في نفوس المسلمين، محفزاً لهم على العمل الصالح لدخول الجنة والتمتع بنعيمها، ومن هذا النعيم المقيم الأنهار المتنوعة فيها.

ويهدف البحث من هذه الدراسة إلى بيان الإطار العام لظاهرة الأنهار في القرآن الكريم، والإشارة إلى محاورها وتفرعاتها، في سياق دراسة موضوعية تضيف جديداً في هذا الحقل التفسيري، تأصيلاً لهذا العلم من جانب، وترسيخاً لمفهوم الإيمان بالقرآن الكريم الذي ما فرط الله تبارك وتعالى فيه من شيء من جانب آخر.

Abstract

This research is an objective study of rivers in the Glorious Quran. Scores of verses mentioned rivers as related to their sources, springs, running courses and estuaries. It also deals with the, springs, lakes and seas into which the rivers feed. The study explains how the Quran uses rivers as an educational means to elicit passion of the faithful for good deeds which lead to enjoying everlasting paradise. The study also deals with the phenomenon of rivers as a means to enrich faith in Allah.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

أهمية البحث: الأهّار هبة ربانية عظيمة أنعم الله تبارك وتعالى بها على الأحياء في الأرض، وذكرها في عشرات الآيات القرآنية في سياق بيان نعمه وآلائه على خلقه، لما لها من فوائد همة تعود بالنفع على الإنسان والحيوان والنبات، حيث تجري في سبل متعرّجة وسط الوديان، والممرات الجبلية، ووسط الغابات، وفي المناطق الجليدية، ووسط الحدائق والمراعي والمروج، لذلك عاش الإنسان على ضفاف الأهّار، وسجلت كثير من الحضارات القديمة تاريخها وسجل حياتها على حافتي الأهّار، لأن الأهّار تعني للإنسان المياه العذبة التي تروي ظمأه، وليطهو طعامه، وليغتسل ويتطهر، وهي مصدر من مصادر الثروة السمكية، ووسيلة عبور ونقل من مكان لآخر.

من هنا تعرض القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة للحديث عن الأهّار ومنابعها ومصادرها، وعن علاقتها بالجبال، وفوائدها في الاستعمالات المتعددة، لذلك

الأهّار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
سنعرض الآيات الكريمة التي تحدّثت عن الأهّار على شكل مجموعات، ونرى دلالاتها
ومعانيها من خلال كتب التفسير، وما دوّنه علماء الأرض حول الأهّار.

منهجية البحث: سلكت في البحث منهجي الاستقراء والتحليل، حيث قمت
بجمع طائفة من الآيات المباركة التي تحدّثت عن الأهّار على شكل مجموعات، ثم قمت
بفرزها حسب مقاصدها، ثم عمدت إلى تتبع أقوال المفسرين القدامى والمعاصرين في
الآية الكريمة، معلقاً على أفواهم ببعض الفوائد العلمية للأهّار، وأسّمت البحث: "الأهّار
في القرآن الكريم".

الجديد في البحث: إضافة جديدة للدراسات الموضوعية في القرآن الكريم، حيث
لم أحد - فيما وقفت عليه - دراسة موضوعية قامت بجمع الآيات التي تحدّثت عن
الأهّار في القرآن الكريم، وفرزها حسب موضوعاتها، ودرستها وتفسيرها وبيّانها، بما
يتناسب مع سياقها ومقاصدها.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المقدمة: تناولت في المقدمة أهمية الأهّار كنعمة وعطية ربانية على الأحياء،
وأشرت إلى أهمية البحث والجديد فيه، والمنهج الذي اتبعته وسرت عليه.

المبحث الأول: مصدر مياه الأهّار: حيث قمت بتعريف الأهّار في اللغة
والاصطلاح، ثم أشرت إلى أن القرآن الكريم يبيّن إلى أن مصدر مياه الأهّار هو الماء
النازل من السماء، والذي يشكل أودية تمتلئ وتفيض وتجري بالأهّار.

المبحث الثاني: علاقة مياه الأهّار بالجبال: ذلك أن القرآن الكريم يقترن في
بعض آياته المباركة بين مياه الأهّار وبين الجبال، ليشير إلى وجود علاقة بينهما، وخاصة
إن كانت الجبال شامخات عاليات.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان

المبحث الثالث: الأَنْهَارُ من نعيم الجنة: حيث يجعل القرآن الكريم من الأهوار

صورة من الصور النعيم في الجنة، ويعرض لأنواع الأهوار المباركة فيها، وذلك ترغيباً للعباد للمسارعة في الصالحات والقربات.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج، والجديد الذي توصلت إليه...

وأسأل الله تبارك وتعالى القبول، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: مصدر مياه الأهوار: تحدث القرآن الكريم عن مصدر مياه

الأهوار، وقرر أن مصدرها إنما هو من ماء السماء، وفي ذلك كثير من الآيات الكريمة، لكن قبل عرضها ودراستها يجدر بنا تعريف مصطلح "الأهوار" في اللغة والاصطلاح.

تعريف الأهوار لغة:

يقول الإمام الفراهيدي: النَّهْرُ لُغَةٌ فِي النَّهْرِ، والجميع: نُهْرٌ وَأَنْهَارٌ، واستنهر

النَّهْرُ، أي: أخذ مجراه مَوْضِعاً مَكِيناً، والمنهَرُ: مَوْضِعُ النَّهْرِ يَحْتَفِرُهُ الْمَاءُ¹.

ويقول ابن فارس: نهر: النهر معروف، ويقال: إن النهار يجمع على النهر،

واستنهر النهر، إذا أخذ مجراه، وأهترت الدم: أسلته، وأهر الماء: جرى، ونهر نهر: كثير الماء².

¹ - كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - بيروت، د.ت، 44/4، وانظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987م، 2/840.

² - مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م،

تعريف الأهوار اصطلاحاً:

يمكن تعريف الأهوار عند علماء الأرض على أنها: المياه الجارية باتجاه مستوى البحر في مجاري طبيعية حفرتها لنفسها، وتحصل الأهوار على مياهها بطريق مباشر، أو غير مباشر من مياه الأمطار، ومن مظاهر التساقط الأخرى¹.

وهناك مجموعة من الآيات المباركة تتحدث عن مصدر مياه الأهوار منها قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا...﴾². وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾³.

والآية الكريمة الأولى أشارت بوضوح إلى أن مصدر مياه الأهوار هو السماء، فالله تبارك وتعالى أنزل من السماء ماء، فامتألت الأودية بالماء، وتشكلت الأهوار الكبيرة والسواقي الصغيرة كل بقدره.

أقوال المفسرين:

يقول الإمام البيضاوي: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) من السحاب أو من السماء نفسها، فإن المبادئ منها، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ أَهْمَارُ جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فانتسح فيه، واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأنَّ المطر يأتي على تناوب بين

845/1، وانظر: المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م، 3/21.

¹ - أسس الجغرافيا الطبيعية، د. يسرى الجوهري، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط (2) 1999، ص 218.

² - سورة الرعد: 17.

³ - سورة الأنعام: 6.

الأثمار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
البقاع، (بَقَدَرَهَا) بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها في الصغر
والكبر، (فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا) رفعه والزبد وضر الغليان، رايياً: عالياً¹.

وقال الإمام الخازن: المراد جرى الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه
بقدرها، قال مجاهد: بمثلها، وقال ابن جريج: الصغير بقدره والكبير بقدره، وقيل:
بمقدار مائها وإنما نكر أودية لأن المطر إذا نزل لا يعم جميع².

ويقول الإمام محمد أبو زهرة: هذه الآية الكريمة فيها بيان نعمة الله تعالى على
الناس، فيما يتزل من ماء يجري في الأودية والأثمار فينتفع به الناس آماداً، يأمنون فيها
على أنفسهم وزرعهم وضرعهم من العطش الشديد، والجدب، وضياع الحرث
والنسل³...

قوله تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) السماء هي العلو، والماء يتزل من المزن، وهي
السحاب الثقال، وتلك نعمة من الله أنعمها على الناس، نزلت من السماء على الجبال
أو المرتفعات فتحدرت عليها المياه وسالت حتى كونت أودية وأنهاراً، وهذا قوله تعالى:

¹ - أنوار التتزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي
البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى -
1418 هـ، 185/3، وانظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن
غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة:
الأولى، 1420 هـ - 2000 م، 409/16.

² - لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشحيحي أبو
الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت،
الطبعة: الأولى - 1415 هـ، 12/3.

³ - زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي-القاهرة،
د.ت، 3928/8.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
(فَسَأَلَتْ أُوْدِيَّةٌ بِقَدْرِهَا)، الأودية جمع واد، وهو المكان الذي يجري فيه الماء، وليست الأودية هي التي تسيل، إنما الذي يسيل هو الماء الذي يجري فيها، وأطلقت الأودية وأريد ماؤها من قبيل إطلاق المحل وإرادة ما يحل فيه، أي أهل ناضيه، وقيل: سألت الأودية وأريد الماء؛ لأن السيل شديدا عنيفا قد طم، حتى اختفت الأودية من شدته فصار الناظر لا يرى إلا المياه المتدفقة، وكان حكمه على ما يراه، كما على محله، وقوله تعالى: (بِقَدْرِهَا) وقرئ بسكون الدال كما بفتحها، والمراد بمقدار ما يملؤها، وقيل: بما قدر لها من ماء يكفي الناس في معاشهم وزرعهم وضرعهم، ويصح إرادة المعنيين، والنص يحتمل الجمع، ولا تعارض بينهما، و (الزبد) ما يحمل الماء عند جريانه وجيشانه من أتربة وغيرها، وإن هذا بلا ريب يذهب ولا يبقى، بل أحيانا يكون رغبة بيددها الهواء، فهي كأزيز الموج يصطخب ولا يبقى منه شيء¹.

وجرياً على عادة مجموعة من المفسرين كالإمام الرازي، والزمخشري، والألوسي، وغير هؤلاء الأئمة الكبار، في توسيع مدلول الآيات الكريمة على ضوء العلوم المعاصرة، من باب الزيادة في التفسير والبيان، لا من باب الإعجاز العلمي فليس هذا البحث مكانه، نزيد مسألة مصدر مياه الأهوار وضوحاً وبيانياً في ضوء العلم.
فالأهوار صورة من صور المياه السطحية، والتي تعتمد أساساً على كميات المياه المتساقطة على الأجزاء اليابسة من الأرض، وهي تمثل الكمية المائية التي لا قدرة للتربة على امتصاصها بسبب قوة مصدرها وكثرة روافدها، لذلك تتجمع هذه المياه في الوديان والجاري المكشوفة لتكوّن السيول والجداول والأهوار...

¹ - المصدر السابق: 3929/8، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، قدّم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والتشّـر، صيدا - بيروت، 1412 هـ - 1992 م، 40/7.

الأهمار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
تقول الباحثة الجيولوجية آن تيري هويت¹: حياة الأهمار تبدأ مع سقوط المطر على الأرض، ونرى الأمطار وهي تتساقط ثم تسير في مجارٍ متعرّجة فوق كل منحدر، فإذا التقى منحدران تجمع المجران فوقهما، ويقل عدد مجاري المياه الصغيرة ولكنها تقوى وتشتد وتحفر هذه الجداول القوية في الأرض، ويشق كل منها أخدوداً وتكبر الأحاديث والغدران، ويزداد عمق الأخدود ويصبح وادياً، وبترسب الماء ويترشح من جانبي الوادي، وحين تتشبع الأرض بالماء كالإسفنجة، تعود لتطلقه إلى مجراه، ويتكرر سقوط المطر سنة بعد أخرى، ومن اليمين واليسار تجيء الجداول والروافد لتصل بالمجرى الرئيسي وتغذيه، ليتحول إلى نهر فتي شاب، يسير منتعشاً مليئاً بالحوية بسبب اندفاعه فوق منحدر حاد².

فمياه الأمطار هي المصدر الرئيسي لكل المياه التي تجري جرياناً سطحياً فوق الأرض، وحين تسقط الأمطار يتبخر بعضها، ويتسرب جزء آخر في مسام الصخور، وخلال الفواصل والشقوق والفوالق الصخرية، أو يخترن في البحيرات والمستنقعات والغطاءات والأودية الجليدية، بينما ينحدر الباقي مكوناً المجاري المائية³.

¹ - آن تيري هويت: نشأت في ولاية نيواإنجلد وتخرجت من جامعة بروان، ثم حصلت على الماجستير من جامعة ستانفرد، لها العديد من المؤلفات منها: العوالم المفقودة، الذي صدر عام 1941، والذي يعتبر من أجمل الكتب التي صدرت في العصر الحديث عن الحفريات القديمة، وكذلك كتاب كل شيء عن الصخور المتغيرة، وكتاب كل شيء عن النجوم، وغيرها من الكتب. الأهمار العظيمة في العالم، آن تيري هويت، ترجمة: محمد عبد الفتاح إبراهيم، دار المعاف القاهرة، ط (7) 1992، مقدمة المترجم، ص 11.

² - الأهمار العظيمة في العالم، آن تيري هويت، ترجمة: محمد عبد الفتاح، ص 19.

³ - الجيومورفولوجيا، د. جودة حسنين جودة، ص 95.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
كما ورد ذكر منابع الأهوار من الأحجار، التي احتزلت المياه الجوفية القادمة من
السماء، ثم تعرضت لضغط أو صدع فاندفعت المياه القوية لتشكل نهراً جارياً، وهذه
بعض الآيات في ذلك: يقول الله تعالى: ﴿...وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ﴾¹.

ويقول تعالى: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا
نَهْرًا﴾².

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحِيلٍ وَعَيْنٌ فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارُ
خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾³.

ففي تفسير الطبري: ﴿...وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾، وإن من
الحجارة حجارة يتفجر منها الماء الذي تكون منه الأهوار، فاستغنى بذكر الماء عن ذكر
الأهوار، وإنما ذكر فقال منه للفظ ما، والتفجر: التفاعل، من فجر الماء، وذلك إذا تزل
خارجاً من منبعه، وكل سائل شخص خارجاً من موضعه ومكانه فقد انفجر ماء، كان
ذلك أو دماً أو صديداً ذلك... ﴿وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء﴾ يعني بقوله جل
ثناؤه، وإن من الحجارة لحجارة تشقق، وتشققها: تصدعها، وإنما هي لما يتشقق، ولكن
الناء أدغمت في الشين فصارت شيئاً مشددة، وقوله: ﴿فيخرج منه الماء﴾ فيكون عيناً
نابغة وأهواراً جارية)⁴.

¹ - سورة البقرة: 74.

² - سورة الكهف: 33.

³ - سورة الإسراء: 91.

⁴ - جامع البيان، للطبري، 1/361.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
وجاء في «التفسير الواضح الميسر»: أي وإن من الحجاره ما يلين فتندفق منه
الأهوار بالماء السلسيل، وإن من الحجاره ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله، فينزع منه
الماء عيوناً جاريات، وإن من هذه الحجاره ما يتصدع ويهبط من أعالي الجبال، خوفاً
من الله وفزعاً، فالحجاره تلين وتخشع، وقلوبكم قاسية صلبة لا تلين ولا تخشع¹.

يقول العلماء: المياه الباطنية: هي المياه التي تقع تحت سطح الأرض، أو في
الطبقات العليا من القشرة الأرضية، وتسربت هذه المياه إلى داخل الأرض خلال
مسامات التربة والصخور والشقوق الصخرية، أو من الجاري النهريه والبحيرات،
وتتجمع المياه الباطنية في طبقة صخرية مسامية تسمى: الطبقة الحاملة للمياه، وهي عادة
مشبعة بالمياه، ولذا تعرف أيضاً باسم منطقة التشبع، ويطلق على الحد الأعلى لهذه
الطبقة مستوى الماء الباطني، وتقع الطبقة الحاملة للمياه غالباً بين طبقتين من الصخور
القليلة المسامات أو النفاذية².

وأما عن مصدر المياه الباطنية، فيرى العلماء أن مصدرها ماء السماء، أي مطر
التساقط، فعندما تسقط الأمطار أو تذوب الثلوج، فإن مياهها تتسرب إلى باطن
الأرض، ومقدار نفاذ الماء إلى داخل الأرض، يعتمد على الظروف المناخية ونوعيه
السطح والتضاريس، وإن لذرات كثير من العناصر التي تدخل في تركيب الصخور،
قابلية عظيمه لامتناس الرطوبة من الجو مباشرة، ومن جهة أخرى فإن المياه تدخل في
التركيب الداخلي لكثير من الصخور، فمثلاً تشكل المياه «20%» من الجبس، ولا

¹ - التفسير الواضح الميسر، محمد على الصابوني، ص 33.

² - مورفولوجيا سطح الأرض، د. فتحي أبو راضي، ص 464.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
يمكن فصل الماء من التركيب الصخري إلا بالحرارة الشديدة، التي قد تصل إلى «400»
درجة مئوية¹.

إذن مصدر مياه الأهوار أساساً إنما هو من ماء السماء، وقد ذكر القرآن الكريم
أن الأهوار تتفجر من الصخور، أي إن ماء السماء الهاطل يتسرب إلى الأرض عبر
مسامات التربة، ويتجمع على شكل خزانات مائية، وبسبب ضغط أو كسر يتدفق
الماء، فإن كان الماء يسيراً جرى وتشكل بصورة نبع أو عين، وإن كان التدفق قوياً،
ومخزون الماء كبيراً، جرى مشكلاً نهراً جارياً ﴿...وإنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ﴾².

المبحث الثاني: علاقة مياه الأهوار بالجبال: يقرن القرآن الكريم بين مياه الأهوار

وبين الجبال في بعض الآيات، ليدلنا على أن هناك علاقة بينهما، وخاصة إن كانت
الجبال شامخات، وهذه بعض الآيات في ذلك.

- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ
فِيهَا زَوْجِينَ مِثْلَيْنِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾³.
- ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾⁴
- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلْ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْهَ مَعَ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁵.

¹ - مورفولوجيا سطح الأرض، د. فتحي أبو راضي، ص 465، وانظر: الجيومورفولوجيا التطبيقية،

د. خلق حسين الدليمي، الأهلية، عمان، ط (1) 2001، ص 64.

² - سورة البقرة: 74.

³ - سورة الرعد: الآية 3.

⁴ - سورة النحل: الآية 15.

⁵ - سورة النمل: الآية 61.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان

- ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾¹.

تُشير هذه الآيات المباركة إلى علاقة واضحة بين مياه الأهوار والجبال، وخاصة في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ فالآية تشير إلى علاقة متينة بين الجبال الشامخات والماء الفرات، فكلما كانت الجبال ذات شموخ وارتفاع وعلو، كان نصيب الماء فيها أعزر، واستأهلت لتكون محطة لواردات الثلوج المتركمة وقطر الماء المنهمر، وذاك الماء الذي ينساب من قممها وسفوحها يكون عذباً فراتاً سائغاً للشاربين...

أقوال المفسرين:

جاء في تفسير «روح المعاني»: ﴿ شَامِخَاتٍ ﴾ مرتفعات، ومنه شمخ بأنفه، وإنَّ في الأرض جبالاتاً لم تعرف ولم يوقف عليها، فأرض الله تعالى واسعة، وفيها ما لم يعلمه إلا الله عز وجل، ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ أي عذباً، وذلك بأن خلقناه في أصولها، وأجريناه لكم منها في أهوار، وأنبعنا في منابع تستمد مما استودعناه فيها، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك، والماء المنزل من السماء².

¹ - سورة المرسلات: الآية 27.

² - روح المعاني، للألوسي، 178/28، وانظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن، عبد المنعم تغليب، القاهرة، دار السلام، ط (1) 1416هـ/1995، 3836/7.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
وفي تفسير «أنوار التنزيل» للإمام البيضاوي نجد المعنى ذاته: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْاسِيَ شَمِخَاتٍ﴾ جبلاً ثوابت طويلاً والتنكير للتفخيم، أو الإشعار بأن فيها ما لم يعرف ولم ير، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ بخلق الأهوار والمنابع فيها¹.

ويحلل الإمام الرازي مسألة الارتباط بين الجبال والأهوار، والجبال والمياه الجوفية تحليلاً علمياً رائعاً، يحتم على الذي يقرأ كلامه أن يقول: إن الإمام الرازي على سعة اطلاعه ورسوخه في العلوم الشرعية، هو كذلك من كبار علماء الكونيات آنذاك، إنه يتحدث هنا عن احتباس المياه في الأحجار ثم تفجرها على شكل أهوار، يقول رحمه الله تعالى: من الاستدلال بأحوال الجبال، أن بسببها تتولد الأهوار على وجه الأرض، وذلك أن الحجر جسم صلب، فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة، ثم إنهما لكثرتما وقوتما تنقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولد الأهوار هو من هذا الوجه، ولهذا السبب ففي أكثر الأحيان أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأهوار مثل ما في هذه الآية².

إن الإنسان ليصاب بالدهشة عندما يقرأ تفسير هؤلاء العلماء رضي الله عنهم، وهم يتحدثون عن هذه الحقائق العلمية منذ قرون مضت، ولم يكن في عصرهم، ولا حتى بعدهم بقرون، الآليات والمعدات التقنية المتطورة، التي من شأنها أن تكشف عن

¹ - أنوار التنزيل، للبيضاوي، 433/5، وانظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد الخازن، بغداد مكتبة المثنى، د.ت، 369/4، وانظر: تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق، ياسر إبراهيم وغنيم عباس الرياض، دار الوطن، 1997، 130/6

² - التفسير الكبير، للرازي، 8/19، وانظر: تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي، تحقيق، عبد الرحمن السورتي، بيروت، المنشورات العلمية، د.ت، 716/2.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
أسرار المياه وارتباطها بالجبال الشامخات، ولكنهم يستلهمون هذه المعطيات العلمية من
وحي القرآن العظيم، الذي حوى علم الأولين وعلم الآخرين.

إذن الحق سبحانه وتعالى أقام علاقة بين الأهوار والجبال، وصورة هذه العلاقة أن
المرحلة الأولى من حياة وتكون الأهوار إنما تبتدئ من الجبال، إذ تتساقط عليها الأمطار،
ثم تتجمع المياه من سفوح الجبال، وهي منحدره لتتحفر مجاريها بعد ذلك، وخاصة إن
كانت الجبال عالية شامخة، فإنها تكون محطة لاستقبال الثلوج والمياه، وهذه الحقيقة ما
أدركها العلماء إلا في أواخر القرن الثامن عشر...

يقول الدكتور حسن سيد أبو العنين في كتابه "أصول الجيومورفولوجيا": اعتقد
جيولوجيو القرن الثامن عشر، أن معظم الأهوار الحالية قد شقت مجاريها بواسطة مياه
البحار والمحيطات التي تسربت إلى اليابسة المجاورة، وتكونت تبعاً لتعرض سطح الأرض
لحدوث حركات تصدع عظمى، نجم عنها تكوين المجاري النهرية على طول أسطح
الصدوع والفوالق، ولكن سرعان ما تغيرت هذه التأملات الشخصية في أواخر القرن
التاسع عشر... وقد أكدت هذه الدراسات المختلفة أن المجاري النهرية تتكون بفعل
تجمع المسيلات المائية والأودية الجبلية في أعاليها، وتتحدر كلها لتكون مجرى محددًا
عميقًا، ينحدر صوب الانحدارات السفلى، وقد يصب مياهه في النهاية في بحر أو بحيرة،
وعندما يشق النهر مجراه تبدأ في نفس الوقت عملية اتساع واديه، ويساعد في ذلك فعل
الروافد الجبلية السريعة الجريان¹.

إن هذه الآلية القرآنية تربط بين ارتفاع الجبال وتكون الجليد الذي يكلل هاماتها،
لانخفاض حرارتها تحت الصفر، فالبرودة تكثف بخار الماء الموجود بالجو على قمم هذه
الجبال، إذا زاد ارتفاعها عند حد خاص يتوقف على موقعها قدره 1.2 ، 2.7 ، 5.5

¹ - أصول الجيومورفولوجيا، د. حسن سيد أبو العنين، ص 381.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
كم، بالنسبة لجبال النرويج والألب والكليمينجارو على الترتيب، لأن هذه الارتفاعات هي الحد الأدنى لتكون الثلج الدائم لانخفاض حرارتها بالدرجة اللازمة لتكثيف البخار من الهواء الرطب المحيط بها في هذه المناطق على الترتيب، وهذا الماء يتجمد على هيئة ثلج يغطي القمم والسفوح الشاخمة الباردة، وينصهر هذا الثلج تحت ضغط الجليد العلوي المتراكم فوقه باستمرار، فيسيل الماء العذب على سفوح هذه الجبال بتأثير الجاذبية إلى أسفل، ولن تنفذ هذه الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها السفلى، لأنها كما تسيل باستمرار تتجدد أيضاً باستمرار عملية التكثف لبخار الماء من الجو المحيط بهذه القمم، ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأهوار إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها، وتكثير الماء في هذه الآية يفيد العموم، بحيث يشمل كلاً من ماء الأمطار والماء المنحدر من جليد شوامخ الجبال التي تعمل كالإسفنج، لتجميع وترشيح الماء العذب النقي من بخار الجو المحيط.

فالارتفاعات العالية، تؤدي إلى انخفاض درجة حرارة هذه القمم، التي تستطيع بذلك تكثيف بخار الماء في الهواء الرطب المحيط بها، وهذا الماء المتكثف يتجمد على هيئة ثلج، يغطي هذه القمم الشاخمة وينصهر هذا الثلج تحت ضغط الطبقات الثلجية المتراكمة فوقه، ويتحول إلى ماء عذب يسيل على سفوح الجبال منحدرًا بتأثير الجاذبية إلى أسفل¹.

جاء في «دائرة المعارف الثقافية» نجد حول هذه الحقيقة ما يلي: عندما تدفع الرياح كتلة هوائية حارة مشبعة ببخار الماء، وتصادف في طريقها منطقة جبلية، تصطدم الكتلة الهوائية بالجبال فتوقف مسيرتها، لكن الريح تستمر في دفعها، مما يجبرها على الارتفاع، وكلما ارتفعت هذه الكتلة انخفضت درجات الحرارة المحيطة، مما يؤدي

¹ - المعارف الكونية، إعداد، نخبة من العلماء، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998، ص 299.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
إلى تكثف قسم كبير من رطوبتها، وتشكيل تراكم غيمي يكمل القمة في النهاية على
شكل ضباب¹.

إنّ الجبال هي الخزانات الكبرى للمياه الجوفية، والمغذي الرئيس للأهوار الدائمة
الجريان، من هنا ولهذا الاعتبار ربط القرآن الكريم بين الرواسي والأهوار... فالحجارة في
أسفل الجبال العالية تتفجر منها المياه الجوفية تحت ضغط هائل، لذلك تتدفق الأهوار
الدائمة الجريان، أما المياه الجوفية في التلال فإنها لا تفجر الصخور في أسفل التلال، بل
تشققها لتنساب منها المياه على شكل عيون، قد تتحول إلى جداول، إضافة إلى أن
الجبال الشاهقة ذات أحواض مائية كبيرة أيضاً، تزود المياه الجوفية وتساهم في
الفيضانات المتكررة في الأهوار، والتي تنري السهول الفيضية بما تحمله من طمي مهم
للزراعة والحياة².

وحتى منابع الأهوار بعدما تتجمع المياه المتساقطة، تحت الجبال فإنها بسبب
ظروف خاصة تتفجر على شكل أهوار، إذ أنّ لكل قارة من قارات العالم أهوارها
الكبرى الدائمة، وجميعها تنبع من مناطق جبلية رطبة، أو من قمم جبلية شاهقة تغطيها
الثلوج، وبعد ذلك تخترق مجاريها مناطق وفيرة الأمطار في معظمها، أو مناطق
صحراوية شديدة الجفاف في الجزء الأكبر من مجاريها³.

المبحث الثالث: الأهوار من نعيم الجنة: في العديد من الآيات المباركة، يذكر
ربنا سبحانه وتعالى الأهوار على أنها صورة من صور النعيم المقيم لأهل الجنان، وبالتالي
يجعل الأهوار وسيلة ترغيبية للعمل الصالح والقربات، وهذه بعض الآيات في ذلك:

¹ - دائرة المعارف الثقافية، الأرض، بيروت، إعداد ونشر، المركز الثقافي الحديث، ط (1) 2000،
48/3.

² - الكون والماء، د. سليمان الطراونة، عمان، دار الفرقان، ط (1) 2000، ص 98

³ - مورفولوجيا سطح الأرض، د. فتحي أبو راضي، ص 462.

الأثمار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
يقول تعالى: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾¹، وهذه الآية الكريمة تبين أن
سبب دخول الجنة أمران: الإيمان، بالحق وتصديقه والإذعان به، والعمل الصالح وهو
وصف عام لكل عمل نافع لذاته، وقصد به وجه المنفعة للناس، فالصالحات تشمل كل
الفرائض الشرعية والعمل الطيب والقول الطيب...

أقوال المفسرين:

وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بأنها النعيم المقيم، فالأثمار تجري من تحتها، أي
أن الأثمار تجري من تحت الأشجار، فتجري فيها متخللة أشجارها فيكون المنظر بهيحاء،
وتكون متعة النفس بالظلال، ومنظر الماء يجري، والخضرة التي تسر النفس، وتمتع
القلب، ويكون مع ذلك الأُنس الروحي بالائتلاف والأمن والسلام².

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾³، في هذه الآية المباركة
رتب الحق عز وجل دخول الجنات والتمتع بنعيمها وأثمارها على طاعة الله ورسوله،
في الحدود التي رسمها الشارع الحكيم في آيات الموارث التي تصدرت هذه الخاتمة النبيلة
بدخول الجنات، يقول الدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره "المنير": تلك الأحكام المتقدمة
من بيان أموال اليتامى وأحكام الأزواج وأحوال الموارث، هي حدود الله، أي فرائضه
ومقاديره وأحكامه التي جعلها الله قانون الأسرة في شأن اليتامى، والرابطة الزوجية،
وقسمة الموارث بين الورثة بحسب قربهم من الميت، واحتياجهم إليه، وفقدهم له عند

¹ - سورة إبراهيم: الآية 23.

² - انظر: زهرة التفاسير، 4019/8.

³ - سورة النساء: الآية 13.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
 عدمه، هي حدود الله وأحكامه فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولا يصح لمسلم أن يتخطاها ومن يطع الله باتباع ما شرعه من الدين وأنزله على رسوله الكريم، ويطع الرسول باتباع ما بلغ به عن ربه من أحكام وآيات، يدخله جنات تجري من تحتها الأهوار، ونحن نؤمن بما نعتقد أنها أرفع من كل نعيم في الدنيا، وأن الطائعين خالدون فيها، وذلك هو الفوز العظيم: وهو الظفر والفلاح الذي لا يماثله فوز في الدنيا¹.

ويقول عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾².

حيث يبشر الحق تبارك وتعالى المتقين في هذه الآية الكريمة، بما قد وعدهم به في دار الدنيا، فالذين اتقوه في السر والعلن، والتزموا أوامره، واحتنبوا نواحيه، وساروا على شرعه، وأخلصوا له تبارك وتعالى، لهم جنات تجري من تحتها الأهوار، والأهوار أنواع وأصناف، ففي الجنة أهوار من ماء لا يأسن كماء الدنيا، أي لا يتغير أبداً، وأهوار من لبن لم يتغير طعمه، أي يحمض، كما تتغير ألبان الدنيا، لأنها لم تخرج من ضروع الإبل والغنم والبقر فلا يعود حامضاً ولا ما يكره من الطعوم، وأهوار من خمر لذة للشاربين، أي: لذيدة لهم، طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون بخلاف خمر الدنيا فإنها كريهة عند الشرب، وأهوار من عسل مصفى مما يخالطه من الشمع والعكر والكدر...

ويبين الإمام الرازي سبب اختيار هذه الأصناف من الأهوار في الجنة فيقول:
 اختار الأهوار من الأجناس الأربعة، وذلك لأن المشروب إما أن يشرب لطعمه، وإما أن

¹ - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ، 287/4.

² - سورة محمد: 15.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
يشرب لأمر غير عائد إلى الطعم، فإن كان للطعم فالطعم تسعة: المر والمالح والحريف
والحامض والعفص والقابض والتنفه والحلو والدسم، أذها الحلو والدسم، لكن أحلى
الأشياء العسل فذكره، وأما أدسم الأشياء فالدهن، لكن الدسومة إذا تمحضت لا
تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو في الغالب، وأما
اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولاً فذكره الله
تعالى.

وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فإن الخمر فيها أمر يشربها
الشارب لأجله، هي كريهة الطعم باتفاق من يشربها، وحصول التواتر به، ثم عرى كل
واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بما الدنيا، فالماء يتغير
يقال: أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن فهو آسن وأسن اللبن إذا بقي زماناً، تغير
طعمه، والخمر يكرهه الشارب عند الشرب، والعسل يشوبه أجزاء من الشمع ومن
النحل يموت فيه كثيراً¹.

وفي الحديث عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:
«إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأهوار بعد»²،

¹ - مفاتيح الغيب التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي
الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ،
47/28.

² - أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك الترمذي، أبو عيسى
تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر
الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975م، في صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهوار الجنة، رقم:
(2571) والدارمي سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الدارمي، تحقيق: حسين سليم

الأثمار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
قال الإمام الطيبي في تعليقه على الحديث: يريد بالبحر مثل دجلة والفرات ونحوهما،
وبالنهر مثل نهر معقل¹ حيث تشقق من أحدهما، ثم منه تشقق جداول، والظاهر أن
المراد بالبحار المذكورة هي أصول الأثمار المسطورة في القرآن، كما قال تعالى: {فيها
أثمار من ماء غير آسن وأثمار من لبن لم يتغير طعمه وأثمار من خمر لذة للشاربين وأثمار
من عسل مصفى} وقوله: ثم تشقق بحذف إحدى التاءين أي: تفترق الأثمار إلى
الجداول بعد تحقق الأثمار إلى بساتين الأبرار وتحت قصور الأخيار، على أنه قد يقال:
المراد بالبحار هي الأثمار، وإنما سميت أثماراً لجريانها بخلاف بحار الدنيا، فإن الغالب منها
أثما في محل القرار².

ويشير الإمام المناوي إلى السرّ من وراء هذه التسلسل والترتيب في الأثمار
فيقول: (إن في الجنة بحر الماء) غير الآسن (وبحر العسل) المصفى (وبحر اللبن) أي الذي
لم يتغير طعمه (وبحر الخمر) الذي هو لذة للشاربين (ثم تشقق الأثمار بعد)، خص هذه
الأثمار بالذكر لأنها أفضل أشربة النوع الإنساني، وقدم الماء لأنه حياة النفوس، وثني

أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ -
2000م، في الرقائق، باب في أثمار الجنة، رقم: (2836).

¹ - نهر معقل بالبصرة نسبة إلى الصحابي الجليل معقل بن يسار المزني الصحابي. انظر: خلاصة الأثر
في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن محمد المحي الحموي الأصل، دار صادر - بيروت،
280/2.

² - انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي
القاري، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002م، 3598/9.

الأهّار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
بالعسل لأنه شفاء، وثلث باللبن لأنه الفطرة، وختم بالخمّر إشارة إلى أن من حرّمه في
الدنيا لا يجرّمه في الآخرة¹.

الخاتمة:

البحث عبارة عن دراسة موضوعية للقرآن الكريم، تحدّثت في مقدمته على أهمية
البحث، من حيث ورود عشرات الآيات الكريمة التي تتحدّث عن مياه الأهّار في القرآن
الكريم، ثم بيّنت المنهج المتبع في البحث، والجديد فيه.
وفي المبحث الأول عرضت لتعريف الأهّار في اللغة والاصطلاح، ثم أشرت إلى
أن القرآن الكريم تحدّث عن مصدر مياه الأهّار، شارحاً ذلك بأقوال المفسرين، وبعض
علماء الأرض.

وفي المبحث الثاني عبّرت للحديث عن علاقة ارتباط الجبال بالأهّار، وما تنتجه
هذه العلاقة من تكثف الماء وهطوله ليشكل الأهّار الجارية.

وفي المبحث الثالث تحدّثت عن الأهّار كوسيلة تربوية ترغيبية يعرضها القرآن
الكريم ليستجيش العواطف الإيمانية في نفوس المسلمين، محفّزاً لهم على العمل الصالح
لدخول الجنة والتمتع بنعيمها، ومن هذا النعيم المقيم الأهّار المتنوعة فيها.

أهم نتائج البحث:

1- ضرورة التركيز على الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم، والإفادة منها
في إثراء المكتبة الإسلامية، وحقل الدعوة إلى الله تعالى.

¹ - التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي،
مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، الطبعة: الثالثة، 1408هـ - 1988م، 325/1، وانظر: فيض
القدر شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، المكتبة
التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356، 2/466.

- الأهّار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
- 2- الأهّار في القرآن الكريم موضوع خصب يصلح لأن يكون رسالة ماجستير أو دكتوراه، على ضوء ما ذهب إليه المفسرون الأجلاء، وعلى معطيات العلوم المعاصرة، مع ضرورة التقيّد بالمنهج العلمي في الدراسات الكونية في القرآن، وعدم الشطط وتحميل النصوص ما لا تحتمل.
- 3- لم أسلك في البحث منهج الإعجاز العلمي، بل هي دراسة موضوعية ترتكز على أقوال المفسرين، وتتوسع مدلول الآيات الكريمة في ضوء التفسير العلمي لا الإعجاز العلمي والفرق بينهما معروف.
- 4- القرآن الكريم أشار بوضوح إلى أن مصدر مياه الأهّار، هو الماء النازل من السماء.
- 5- قرر القرآن الكريم أن ماء السماء الغزير، هو الذي يشكل أودية تفيض بالماء فيسيل، فتتشكل الأهّار.
- 6- ربط القرآن الكريم بين شموخ الجبال وارتفاعها وبين هطول الأمطار، وهذه ظاهرة مشاهدة مرئية حيث تصطدم الغيوم برؤوس الجبال فتتهطل الأمطار.
- 7- ساق القرآن الكريم الآيات المباركة التي تتحدث عن أهّار الجنة، في إطار الترغيب للعمل الصالح والتمتع بأهّار الجنة.

الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتب.

1. أسس الجغرافيا الطبيعية، د. يسرى الجوهري، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثانية، 1999.
2. أصول الجيومورفولوجيا، د. حسن سيد أبو العينين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة العاشرة، 1989.
3. الأهوار العظيمة في العالم، آن تيري هويت، ترجمة: محمد عبد الفتاح إبراهيم، دار المعارف القاهرة، الطبعة السابعة، 1992، مقدمة المترجم.
4. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
5. تفسير القرآن، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق، ياسر إبراهيم وغنيم عباس الرياض، دار الوطن، 1997.
6. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية، 1418 هـ.
7. التفسير الواضح الميسر، الشيخ محمد علي الصابوني، دار الأفق، بيروت، الطبعة الأولى، 2001.
8. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي، تحقيق، عبد الرحمن السورتي، بيروت، المنشورات العلمية، د.ت.

- الأهبار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
9. التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، مكتبة الإمام الشافعي - الرياض، الطبعة: الثالثة، 1408هـ - 1988م.
10. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
11. الجيومورفولوجيا التطبيقية، د. خلق حسين الدليمي، الأهلية، عمان، الطبعة: الأولى 2001.
12. الجيومورفولوجيا، د. حسنين جودة، دار المعركة الجامعية، الاسكندرية، 2000.
13. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن محمد الحجي الحموي الأصل، دار صادر - بيروت.
14. دائرة المعارف الثقافية، الأرض، بيروت، إعداد ونشر، المركز الثقافي الحديث، الطبعة: الأولى 2000.
15. روح المعاني والسبع المثاني، محمد الألويسي أبو الفضل بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
16. زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي-القاهرة، د.ت.
17. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن موسى بن الضحاك الترمذي، أبو عيسى تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975م.

- الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
18. سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 2000م.
19. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987م.
20. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، قدّم له وراجعته: خادم العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيداً - بيروت، 1412 هـ - 1992م.
21. فتح الرحمن في تفسير القرآن، عبد المنعم تعليب، القاهرة، دار السلام، الطبعة: الأولى 1416هـ/1995.
22. فيض التقدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، الطبعة: الأولى، 1356.
23. كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال - بيروت، د.ت.
24. الكون والماء، د. سليمان الطراونة، عمان، دار الفرقان، الطبعة: الأولى، 2000.
25. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد الخازن، بغداد مكتبة المثنى، د.ت.

- الأهوار في القرآن الكريم ----- د. مروان وحيد شعبان
26. لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1415 هـ.
27. مجمل اللغة لابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - 1406 هـ - 1986 م.
28. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م.
29. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2002 م.
30. المعارف الكونية، إعداد، نخبة من العلماء، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998.
31. مفاتيح الغيب التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
32. مورفولوجيا سطح الأرض، د. فتحي عبد العزيز أبو راضي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل

أ. نور الدين تومي

جامعة الوادي

الملخص:

يتطرق هذا البحث إلى إبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب نقد الحديث عند الأئمة النقاد، ويتمثل هذا الجانب في مسألة تعليل الأحاديث بالمذاكرة، حيث تناول البحث مفهوم المذاكرة، وفوائدها وأغراضها، والتحمل في مجلس المذاكرة والتساهل فيه، ثم تناول تعليل الأئمة لبعض الأحاديث بسبب أنها أخذت في مجلس المذاكرة، وقد خلص هذا البحث إلى بعض النتائج تبين من خلالها سعة حفظ الأئمة، ومذاكرتهم لألوف الأحاديث، الأوقات الطويلة وهذا مما يوقفهم على دقائق العلم بهذه الروايات، وحرصهم على ضبط وحفظ الأحاديث قبل مجلس المذاكرة، كما تبين من خلال البحث دقة علم الأئمة النقاد، وتبحرهم في العلم بالروايات والوقوف على غوامضها.

Summary:

This research aims to display an important side from the various "hadith" criticism sides dealt with most critics. This side is represented in the weakening of these speeches "elahadith" by consultation, where this research addresses the concept of "the consultation, its advantages, goals.... In addition, it talks about the weakening of "Elaima" to some speeches "elahadith" because they are discussed in the meeting of the consultation. The research concluded some results show the capacity of "imams" and their consulting to thousands of speeches "ahadith", and this helps them in discovering science's accuracies to these narrations and lead them to set and learn by heart these speeches before the meeting of the consultation. Moreover, it can be seen from this research the

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
accuracy of science with “imams” and their surfing on the
science of narrations and discussing their vagueness.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين
أما بعد:

فمن المعلوم عند أولى الألباب، أن شرف العلم من شرف المعلوم، وأن أشرف
العلوم على الإطلاق، العلم المتعلق بالوحيين الكتاب والسنة، لأنَّ فيهما الإخبار عن
أشرف معلوم وهو الله ﷻ، وما يتعلق بدلالة كتابه وسنة رسوله ﷺ.
ولما كانت السنة النبوية شارحة لكتاب الله ومبيِّنة له، كانت من هذا الباب من
أشرف العلوم.

ويُعدُّ علم العلل من أدقِّ علومها، بل هو أدقُّ أنواع علوم السنة النبوية وأجلُّها،
به يتم تمحيص السنة النبوية، وغربلتها من كل دخيل، وبه يعرف المردود من المقبول
من حديث النبي ﷺ.

وقد حاز قَصَبُ السبق في هذا العلم الدقيق، وفي بَقِيَّةِ علوم الحديث الأئمة
الجهابذة التُّقَاد¹ من أهل العصور الذهبية لهذا العلم، فقد عايشوا الرواية ووقفوا على
تفاصيلها ودقائقها وجزئياتها.

ولذلك فمن أراد خدمة السنة النبوية، ومن أراد البحث العلمي الدقيق المثمر
والصحيح في علومها -إن شاء الله-، وخصوصاً في مسألة التصحيح والتعليل فعليه
أن يلتزم غرز الأئمة، وذلك بالرجوع إلى كلام هؤلاء الجهابذة التُّقَاد الموثوقة في كتبهم،
وفي كتب غيرهم من العلماء ممن نقل كلامهم، ويجب أن يكون كلامهم هو النَّبْرَس

¹ - يعتقد كثير من الباحثين أن أكثر علم هؤلاء الأئمة وكلامهم على الأحاديث لم يصل إلينا وهذا خطأ منشأه عدم الاطلاع على أقوالهم الموثوقة في كتبهم وكتب غيرهم ممن نقل عنهم.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
الوحيد الذي يُستضاء به في الحكم على الأحاديث، لأنَّهم قد بلغوا بمجموعهم الغاية في
الحفظ والإتقان والإدراك والدقة، لا يدركها إلا من رزقه الله عَلَيْهِ السَّلَامُ الإطِّلاع على
كلامهم وفهمه.

إنَّ كثيرا من الوسائل والآلات في التَّعامل مع الرِّوايات والحكم على الأحاديث
كانت متاحة لأئمَّة النَّقد، وهي معدومة عند من جاء بعدهم تماما¹. بما يوجب علينا
المصير إلى تقليدهم، وأن نجعل كلامهم هو الحَكَم في كل ما بُحِثَ فيه.
لقد بلغ من دقَّة هؤلاء الأئمَّة في النَّقد ما يُحيرُّ العقول، بما يوجب لنا معرفة
قدرهم وقدر علمهم.

وإسهاما منِّي في بيان هذه الدقَّة في النَّقد الحديثي، أردت أن أبيِّن شيئا من ذلك،
في جانب من جوانب اشتغالهم بالحديث، وحفظه وفهمه وتمحيصه، وهذا الجانب هو
جانب المذاكرة .

وقد وقع اختياري على البحث في هذا الجانب الذي له أهميَّة بالغة في تعليل
الأحاديث، الذي غفل عنه كثير ممن يشتغل بالتَّصحيح والتَّضعيف في هذه الأعصر،
ومبحث المذاكرة واسع فيه مسائل كثيرة، كأنواع المذاكرة، وأهميَّة المذاكرة في حفظ
الحديث وفهمه وأداء الحديث في المذاكرة، وأثر المذاكرة في تعليل الحديث، وغيرها من
المسائل.

ويعالج هذا البحث مسألة من هذه المسائل وهي أثر المذاكرة في تعليل
الأحاديث، وقد جعلته في أربعة مباحث:

1- المبحث الأوَّل: مفهوم المذاكرة.

2- المبحث الثَّاني: فوائد وأغراض المذاكرة.

¹ - ينظر: بحث أسس نقد الحديث بين أئمة النقد وعلماء العصر الحديث لحاتم الشريف العوني.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي

3- المبحث الثالث: تحمُّل الحديث بالمذاكرة والتساهل فيه.

4- المبحث الرابع: التعليل بالمذاكرة (أخذ الحديث بالمذاكرة).

المبحث الأوَّل : مفهوم المذاكرة.

المطلب الأوَّل: تعريف المذاكرة لغة.

المذاكرة: مفاعلة من الذكر، والذِّكر هو حفظ الشيء، وهو كذلك جري الشيء على اللسان¹.

المطلب الثاني: تعريف المذاكرة اصطلاحاً.

لم أقف على تعريف المذاكرة عند الأئمة في كتب علوم الحديث، وذلك في ما أحسب لظهور معناها، فهي لا تحتاج أصلاً إلى تعريف لأنَّها ظاهرة المعنى مفهومة . وقد ذكر بعض المعاصرين تعريفات للمذاكرة محاولين إعطاءها المعنى الاصطلاحي.

فقال أحدهم: "هي طرح موضوع للبحث بين اثنين أو أكثر وقد يكون الموضوع مسألة فقهية أو حديثية أو لغوية أو نحوية أو غير ذلك"².
وقال آخر: "هي المجالس التي يجتمع فيها المحدثون لا لقصد الرواية والسَّماع وإنما لقصد مراجعة محفوظهم، أو لإفادة بعضهم بعضاً غرابية الأحاديث وعواليها ومستحسناتها، أو لخصر الأحاديث، الأبواب أو التَّراجم"³.
وقال ثالث: "مُداسة الحديث مع غيرك، أو مع نفسك"⁴.

¹ - ينظر : العين (346/5)، ولسان العرب، ص 1507، وتهذيب اللغة (161/10).

² - إبراهيم بن عبد الله اللاحم: "الجرح والتعديل ص 62".

³ - الشريف حاتم بن عارف العوني: "شرح الموقظة ص 170".

⁴ - بدر العمَّاش: "المذاكرة بين المحدثين ص 202"، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عدد 130.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
ويمكن تعريفها بـ:

"عرض الأحاديث في مجلس ما، لقصده مراجعة المحفوظ وتثبيتته، أو الإفادة، أو الإغراب، أو حصر أحاديث بعض الشيوخ أو بعض الأبواب أو بعض البلدان".
المبحث الثاني: أغراض وفوائد المذاكرة.

من خلال تعريف المذاكرة اصطلاحاً، يمكن استخلاص أغراض وفوائد المذاكرة،
ويمكن حصرها في أربعة أغراض:

أولاً: مراجعة المحفوظ بغرض زيادة ضبطه وتثبيتته.

وهذا هو الغرض الرئيس من عقد مجالس المذاكرة، وقد يسبق التحضير لهذا
المجلس¹ والأمثلة على هذا كثيرة منها:
قال أبو معاوية الضرير: "كان سفيان يأتيني هاهنا، فيذاكرني حديث
الأعمش...."².

وقال إسحاق بن إبراهيم: "كنت أجالس بالعراق: أحمد بن حنبل، ويحيى بن
معين، وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى بن معين
من بينهم: وطريق كذا..."³.
وقال علي بن المديني: "تذاكر وكيع وعبد الرحمن ليلة في مسجد الحرام، فلم
يزالا حتى أذن المؤذن أذان الصبح"⁴.

¹ - قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: "كنا عند أبي أيوب سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي فلم
يأذن للناس أياما، فلما دخلنا عليه واستزدناه قال: بلغني ورود هذا الغلام الرازي -يعني أبا زرعة-
فدرست للالتقاء به ثلاث مائة ألف حديث". "تهذيب الكمال" (31/12).

² - الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (64/1).

³ - المصدر نفسه (293/1).

⁴ - الجامع للخطيب (274/2).

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
وقال وهب بن جرير بن حازم: " كان شعبة يجيء إلى أبي وهو على حمار
فيقول: كيف سمعت الأعمش يحدث بحديث كذا وكذا؟ فيقول أبي: "كذا وكذا"،
فيقول شعبة: هكذا والله سمعت الأعمش يحدث به، فسأله عن أحاديث الأعمش، فإذا
حدثه أبي يقول: هكذا سمعت الأعمش يحدث به ثم يضرب حماره ويذهب"¹.

وقال محمود بن آدم المروزي: " رأيت وكيعا وبشر بن السري يتذاكران ليلة من
العشاء إلى أن نؤدي بالفجر، فلما أصبحا قلنا لبشر: كيف رأيت وكيعا؟ قال: ما
رأيت أحفظ منه"².

وقال أبو زرعة الرّازي: "كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له:
وما يدريك، قال: ذاكرته، فأخذت عليه الأبواب"³.

وقال عبد الله بن أحمد: "لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي فكان كثير المذاكرة له،
فسمعت أبي يقول يوما: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على
نوافلي"⁴.

قال عليُّ بن الحسن بن شقيق: " كنت مع عبد الله بن المبارك في المسجد في ليلة
شتوية باردة، فقمنا لنخرج، فلما كان عند باب المسجد ذاكرني بحديث أو ذاكرته
بحديث، فما زال يذاكرني وأذاكره حتى جاء المؤذن فأذن لصلاة الصُّبح"⁵.

ثانيا: استفادة المحدث بعض الفوائد من الذي يذاكره.

¹ - الكفاية للخطيب ص217.

² - الجرح والتعديل (1/221).

³ - تاريخ بغداد (4/420).

⁴ - تاريخ بغداد (10/327).

⁵ - الجامع (2/276).

المذاكرة عند الحديثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
من فوائد وأغراض المذاكرة استفادة المحدث ممن يذاكره بعض الأحاديث التي
ليست عنده وهذا يعتبر من أهم فوائد المذاكرة.

ومما جاء في ذلك:

قول يحيى بن آدم: "كان أبو معاوية يجلس إلى هذين يتحفظ حديث الأعمش،
يعني: يزيد بن عبد العزيز وقطبة بن عبد العزيز..."¹.

وقال أبو زرعة الرّازي: "قعدت عند أبي الوليد يوماً، فحملت عنه ثمانية عشر
حديثاً، وحدثنا -مذاكرة- من غير أن كتبت منه حرفاً، وتَحَفَّظْتُ عنه كلّهُ"².
وقال أبو إسماعيل الترمذي -وساق حديثاً-: "ذاكرت به بُندارا، ولم يكن
عنده، فكتبه"³.

وقال الأزدي: "كان ابن خراش شيخاً عَسِراً في الحديث، كتبت عنه في المذاكرة
نحو عشرين حديثاً"⁴.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: "كنا نجتمع للمذاكرة وفينا الشاذكوبي، وكان إذا
مر حديث لم يكن عندي علقته، فإن كان صاحبه الذي سمع منه حياً سمعت منه..."⁵.

وقال أحمد بن سعيد بن أبي مریم: "ذاكرت يحيى بن معين يوماً وهو بمصر، عند
أبي مودود عن سليمان بن يسار قال: "مرضت فعادني ابن عمر في يوم مرتين"،

¹ - العلل ومعرفة الرجال برواية عبد الله (473/2).

² - الجرح والتعديل (332/1).

³ - تاريخ بغداد (44/2).

⁴ - المصدر نفسه (288/1).

⁵ - طبقات الحديثين بأصهبان (124/2).

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
فأعجب يحيى بهذا الحديث، وقال لي: " أفدنيه عمّن كتبه "، فصرت معه إلى عبد المنعم
-يعني ابن بشير- فسأله يحيى ...¹.

والأمثلة على هذا كثيرة.

ثالثا : الإغراب .

من الأغراض المهمّة، والمقاصد الكبرى لعقد مجلس المذاكرة هو إغراب بعض
المحدثين على أقرانهم بأحاديث ليست موجودة عندهم، و هذا الغرض وإن كانت له
علاقة بالغرض الذي قبله، إلا أنه يباينه ويُعَايِرُه في كون كثير من مجالس المذاكرة إنّما
تعقد لا لاستفادة المحدثين بعضهم من بعض، وإنّما يقصد فيها اختبار أنفسهم
وحفظهم، وعدد الأحاديث التي يحفظونها، ومحاولة الاستدلال على حفظهم، وذلك
بالحرص على ذكر أحاديث عندهم ليست عند غيرهم فيعقدون مجلسا للمذاكرة لهذا
الغرض، وكان أحدهم إذا أعرب على غيره من الحفاظ فرح بذلك، واستحسنه لأنّ
ذلك يدلُّ على سعة حفظه وقوّة استحضاره.

قال العلامة المعلّمِي: " وكان من عادة المحدثين التّباهي بالإغراب، يحرص كل
منهم على أن يكون عنده من الروايات ما ليس عند الآخرين، لتظهر مزيته عليهم،
وكانوا يتعنّونَ شديدا لتحصيل الغرائب، ويجرّسون على التفرد بها ...، وكانوا إذا
اجتمعوا تذاكروا، فيحرص كلُّ واحد منهم على أن يذكر شيئا ليغرب به على
أصحابه، بأن يكون عنده دونهم، فإذا ظفر بذلك افتخر به عليهم، واشتدَّ سروره،
وإعجابهم وانكسارهم "².

والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

¹ - الضعفاء الكبير للعقيلي (112/3).

² - التنكيل للمعلّمِي (522/2).

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
قال أبو حاتم الرّازي: " قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب عليّ
حديثاً غريباً مسنداً صحيحاً لم أسمع به؛ فله عليّ درهمٌ يتصدق به، وقد حضر على
باب أبي الوليد خلق من الخلق، أبو زرعة فمن دونه، فما تميّاً لأحد منهم أن يغرب
عليّ حديثاً "1.

وقال البخاري: "ذاكرني أصحاب عمرو بن علي الفلاس بحديث، فقلت: لا
أعرفه فسروا بذلك..."2.

وقال شعبة: " ذاكرت قيس بن الرّبيع حديث أبي حصين، فلوّددت أن البيت
وقع عليّ وعليه حتى نموت من كثرة ما كان يغرب علي "3.

وقال عمر بن جعفر البصري: " دخلت الكوفة سنة من السنين وأنا أريد الحج
فالتقيت بأبي العباس ابن عقدة، وبِتُّ عنده تلك اللّيلة، فأخذ يُذاكرني بشيء لا أهتدي
إليه فقلت: يا أبا العباس إيش عند أيوب السخيتاني عن الحسن؟، فذكر حديثين،
فقلت: تحفظ عن أيوب عن الحسن عن أبي برزة أن رجلاً أغلظ لأبي بكر ﷺ فقال
عمر ﷺ: " يا خليفة رسول الله ﷺ! دعني أضرب عنقه " فقال: "مه! يا عمر، ما كانت
لأحد بعد رسول الله ﷺ نفسي وكبّرت وسكتُ، فقلت: "فقال لا أو تذكر لي سماعك
فيه؟ فقلت: حدثنا عبدان قال: حدثنا محمد بن عبيد بن حسان قال: حدثنا سفيان بن
موسى عن أيوب"4.

وقال عليّ بن المديني: " قدمت الكوفة فعنيت بحديث الأعمش فجمعتة، فلمّا
قدمت البصرة لقيت عبد الرّحمن-يعني ابن مهدي- فسلمت عليه فقال: هات يا عليّ

1- الجرح والتعديل (355/1).

2- تاريخ بغداد (18/2).

3- الكامل (41/6).

4- معرفة علوم الحديث للحاكم ص426.

المذاكرة عند الحديثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
ما عندك، فقلت: ما أحد يُفيدني عن الأعمش شيئاً! قال: فغضب، فقال: هذا كلام
أهل العلم؟! ومن يضبط العلم ومن يحيط به، مثلك يتكلم بهذا؟! معك شيء تكتب
فيه؟ قلت: نعم! قال اكتب، قلت: ذاكري فلعله عندي، قال: اكتب ليس أملي عليك
إلا ما ليس عندك قال: فأملى عليّ ثلاثين حديثاً لم أسمع منها حديثاً ثم قال: لا تعد.
قلت: لا أعود.

قال عليّ^١: فلمّا كان بعد سنة جاء سليمان-يعني الشاذكوي- إلى الباب فقال:
امض إلى عبد الرحمن حتى أفضحه اليوم في المناسك، قال عليّ: وكان سليمان من أعلم
أصحابنا بالحج قال: فذهبنا فدخلنا عليه، فسلمنا وجلسنا بين يديه فقال: هاتا ما
عندكما، وأظنك يا سليمان صاحب الخطبة قال: نعم، ما أحد يفيدنا في الحج شيئاً،
فأقبل عليه بمثل ما أقبل عليّ، ثم قال: يا سليمان! ما تقول في رجل قضى المناسك
كلّها إلاّ الطواف بالبيت فوق على أهله، فاندفع سليمان فروى: "يتفرقان حيث
اجتمعا ويجتمعان حيث تفرقا"، قال: ارو "ومتى يجتمعان ومتى يفترقان"، فسكت
سليمان، فقال: اكتب، وأقبل يلقي عليه المسائل ويملي عليه حتى كتبنا ثلاثين مسألة في
كل مسألة يروي الحديث والحديثين ويقول: سألت مالكا، وسألت سفيان وعبيد الله
بن الحسن، قال: فلمّا قمت قال: لا تعد ثانيا، تقول ما قلت، فقمنا، وخرجنا.

قال: فأقبل عليّ سليمان فقال: ايش خرج علينا من صلب مهديّ هذا كأنّه
كان قاعدا معهم، سمعت مالكا وسفيان وعبيد الله^١.

وقال الوزير الأستاذ أبو الفضل بن العميد: "ما كنت أظنُّ أنّ في الدنيا حلاوة
ألذّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة سليمان بن أحمد الطبراني
وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه، وكان الجعابي

¹ - المحدث الفاضل ص 251-252.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
يغلب الطبراني بفظنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتها ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلاّ عندي فقال: هاته، فقال: نا أبو خليفة نا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنا سليمان بن أيوب ومني سمع أبو خليفة فاسمع مني حتى يعلو إسنادك فإنك تروي عن أبي خليفة عني، فحجل الجعابي وغلبه الطبراني، قال ابن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرئاسة ليتها لم تكن لي وكنت الطبراني، وفرحت مثل الفرخ الذي فرح به الطبراني لأجل الحديث أو كما قال¹.

وقد ذكر هذه القصة الرَّافعي في تاريخ قزوين بسياق آخر فقال: "وفي التاريخ لمحمد بن إبراهيم القاضي وغيره، أن أبا الفضل ورد قزوين ويحكى أنه اجتمع عنده بأصبهان في وزارته أبو القاسم الطبراني وأبو أحمد العسال وأبو إسحاق إبراهيم بن حمزة، وأبو محمد بن حيّان، وحضر معهم أبو بكر بن الجعابي، فقال لهم أبو الفضل بن العميد: تذاكروا مع أبي بكر الجعابي، فبدأ ابن الجعابي، فروى أحاديث أغرب بها على القوم، وكان في حملتها أسامي قوم من السلف يعرفون بالكئي وكئي قوماً يعرفون بالأسامي، فقال الطبراني: هذا كله داد أو باب إرجع إلى العلم؛ فهات ما تحفظ فيه عمن تروى في الاستنحاء، فروى ابن الجعابي طريقاً أو طريقين فأخذ الطبراني، يروى عن الدبري وعن أبي بزة الصنعائي، وعن السوسني أصحاب عبد الرزاق، وعن أبي زرعة الدمشقي، ومشائخ الشام، فقال ابن الجعابي: لم يدرك هؤلاء، فقال الطبراني، إنّما أنت صبيّ يا بنيّ، أنت من لقيت، فغضب ابن الجعابي وقال: ثنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي، ثنا سليمان بن أحمد اللّخمي، فضحك الطبراني، وقال: كأنك تريد أن تغرب عليّ، أتعرف سليمان بن أحمد الذي روى عنه أبو خليفة؟، قال: لا قال: أنا هو حدثت

¹ - الجامع (275/2).

المذاكرة عند الحديثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
أبا خليفة وحدث عني أبو خليفة، نعم ثنا محمد بن جعفر الدمياطي الإمام، ثنا علي بن
عبد الله بن جعفر، ثنا وهب بن جرير، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن هشام بن عروة،
عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، قال: "لما مات أبو طالب خرج رسول الله ﷺ، إلى
الطائف ماشيا على قدمه، فدعاهم إلى الله ﷻ فلم يجيبوه فانصرف، فأتى إلى ظل
شجرة، فصلّى ركعتين، ثم قال: "اللهم إليك أشكو ضعفي وقلة حيلتي، وهواني على
الناس أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلي، إلى عدو تبهمني، أم إلى قريب ملكته أمري،
إن لم تكن ساخطا عليّ فلا أبالي، غير أن رحمتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي
أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك، أو يتزل
عليّ سخطك، ولك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"، قال وكان الفضل
بن العميد متكياً، فاستوى جالساً وقال هذا والله شرف، أن يحدث أبو خليفة عن شيخ
من مشايخنا منذ ستين سنة، فضرب ابن الجعابي بيده على ظهر الطبراني، وقال: استوت
حُرمتك يا أبا القاسم، فقال الطبراني: حُرمتي كانت مستوية"¹.

رابعاً: حصر أحاديث بعض الشيوخ أو بعض الأبواب أو بعض البلدان .

من الأغراض التي يُعقد لها مجلس المذاكرة؛ مذاكرة أحاديث شيخ من الشيوخ
المكثرين أو أحاديث باب من أبواب العلم أو أحاديث بلد من البلدان، وذلك كلّ
بقصد حصر أحاديث ذلك الشيخ أو ذلك الباب أو البلد والإحاطة بها.
وهذا الأمر في عمل الأئمة كثير، وخصوصاً في أحاديث الشيوخ ومن الأمثلة
على ذلك.

قال حمّاد بن زيد: "سمعت أيوب ويجي بن عتيق وهشاما يتذاكرون حديث
محمد -يعني: ابن سيرين-"².

¹ - التدوين في أخبار قزوين للرافعي (2/81-83).

² - العلل ومعرفة الرجال (2/465).

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
وقد مرَّ معنا قول أبي معاوية الضرير: "كان سفيان يأتيني هاهنا فيذاكرني
حديث الأعمش".

وقول يحيى بن آدم: "كان أبو معاوية يجلس إلى هذين، يتحفظ حديث الأعمش
- يعني: يزيد بن عبد العزيز، وقطبة بن عبد العزيز-".

ومر معنا كذلك قول وهب بن جرير: "كان شعبة يجيء إلى أبي وهو على
حمار فيقول: كيف سمعت الأعمش يحدث بحديث كذا وكذا؟ فيقول أبي: "كذا وكذا
"، فيقول شعبة: هكذا والله سمعت الأعمش يحدث به، فسأله عن أحاديث الأعمش،
فإذا حدثه أبي يقول: هكذا سمعت الأعمش يحدث به، ثم يضرب حماره ويذهب".

وقال أبو بكر ابن زنجويه: "قدمت مصر فأتيت أحمد بن صالح فسألني من أين
أنت؟ قلت: من بغداد، قال: أين متارك من متزل أحمد بن حنبل، قلت: أنا من
أصحابه، قال: تكتب لي موضع متارك فأني أريد أن أوافي العراق حتى تجمع بيني وبين
أحمد بن حنبل، فكتبت له، فوافي أحمد بن صالح سنة اثني عشرة إلى عفاً فسأل عني
فلقيني، قال: الموعد الذي بيني وبينك، فذهبت به إلى أحمد بن حنبل واستأذنت له،
فقلت: أحمد بن صالح بالباب، فقال: ابن الطيري؟، قلت: نعم، فأذن له فقام إليه
ورحّب به وقربّه وقال له: بلغني عنك أنك جمعت حديث الزهري فتعال حتى نذكر ما
روى الزهري عن أصحاب رسول الله ﷺ فجعلنا يتذاكران ولا يغرب أحدهما على
الآخر حتى فرغنا وما رأيت أحسن من مذاكرتهما، ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن
صالح تعال نذكر ما روى الزهري عن أولاد أصحاب رسول الله ﷺ فجعلنا يتذاكران
ولا يغرب أحدهما على الآخر إلى أن قال أحمد بن حنبل لأحمد بن صالح: عندك عن
الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، قال
النبي ﷺ: "ما يسرني أن لي حمر النعم وأن لي حلف المطييين"، فقال أحمد بن صالح
لأحمد بن حنبل: أنت الأستاذ وتذكر مثل هذا، فجعل أحمد بن حنبل يبتسم ويقول:

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
رواه عن الزهري رجل مقبول أو صالح؛ عبد الرحمن بن إسحاق، قال: من رواه عن
عبد الرحمن بن إسحاق، فقال: حدثناه رجلان ثقتان إسماعيل بن عليّة، وبشر بن
المفضل، فقال أحمد بن صالح لأحمد بن حنبل: سألتك بالله إلا أمليته عليّ، فقال أحمد:
من الكتاب، فقام فدخل وأخرج الكتاب وأملاه عليه، فقال أحمد بن صالح: لو لم
استفد بالعراق إلا هذا الحديث كان كثيرا ثم ودّعه وخرج¹.

وقال قتيبة بن سعيد: "كان وكيع إذا صَلَّى العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل،
فيقف على الباب فيذاكره وكيع، فأخذ وكيع ليلة بعاضدتي الباب، ثم قال: "يا أبا عبد
الله! أريد أن ألقى عليك حديث سفيان، قال: هات، فقال: تحفظ عن سفيان عن سلمة
بن كهيل كذا وكذا؟ فيقول: نعم، حدثنا يحيى فيقول: سلمة كذا وكذا؟ فيقول:
حدثنا عبد الرحمن، فيقول: سفيان عن سلمة كذا وكذا؟ فيقول: أنت حدثتنا، حتى
يفرغ من سلمة، ثم يقول أحمد: فتحفظ عن سلمة كذا وكذا؟ فيقول وكيع: لا، فلا
يزال يلقي عليه ويقول وكيع: لا، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ².

ومن الأمثلة على مذاكرة أحاديث الأبواب:

قال أبو داود الطيالسي: "كنا ببغداد، وكان شعبة وابن إدريس يجتمعون بعد
العصر، يتذاكرون، فذكروا باب المجذوم، فذكر شعبة ما عنده، فقلت: حدثنا ابن أبي
الزناد... فذكر أثر³".

وقال أحمد بن حنبل: "...و قد التقينا على باب ابن عليّة إنّما كُنّا نتذاكر الفقه
والأبواب، لم نكن تلك الأيام نتذاكر المسند، فكُنّا نتذاكر الصّغار وأحاديث الفقه
والأبواب¹".

¹ - الكامل (297/1).

² - مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص76.

³ - الجرح والتعديل (112/4).

المذاكرة عند الحديثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
وقال أبو مسعود أحمد بن الفرات: " كُنَّا نتذاكر الأبواب، فحاضوا في باب،
فجاءوا فيه بخمسة أحاديث، فحجثهم أنا بآخر، فصار سادسا، فنحس أحمد بن حنبل في
صدري - يعني لإعجابه به- "2.

ومن الأمثلة على مذاكرة أحاديث البلدان والشيوخ والأبواب.
قال أبو علي التيسابوري الحافظ: "خرجنا يوما من عند أبي محمد بن صاعد،
وهو - يعني أبا بكر الجعابي - يُسأِرني، وقد توجَّهنا إلى طريق بعيد، فقلت له: يا أبا
بكر إيش أسند الثوري عن منصور؟ فمر في الترجمة، فقلت له: إيش عند أيوب
السختياني عن الحسن؟ فمر فيها، فما زلت أجرُّه من حديث مصر، إلى الشام، إلى
العراق، إلى أفراد الخراسانيين وهو يجيب، فقلت له: إيش روى الأعمش عن أبي صالح،
عن أبي هريرة وأبي سعيد بالشركة³، فأخذ يسرد هذه الترجمة حتى ذكر بضعة عشرة
حديثا، فحبرني حفظه...."4.

والأمثلة على هذا الأمر كثيرة جدا.

المبحث الثالث: تحمل الحديث بالمذاكرة.

إنَّ تحمُّل الحديث في عصر الرواية كان في الغالب يعقد مجالس التَّحديث
والإملاء، فكان الحفَّاظ والحديثون يعقدون هذه المجالس، وكان الطلاب يحضرونها، ثم
يقوم الشيخ بإلقاء مسموعاته على طلابه كما سمعها⁵، قاصدا بذلك ضبط الرواية كما

¹ - العلل ومعرفة الرجال (40/3).

² - تاريخ بغداد (343/4).

³ - يعني: رواية الحديث عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعا.

⁴ - تاريخ بغداد (27/3).

⁵ - هو السماع من لفظ الشيخ.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
تلقاها من مشايخه ثم إلقائها كما سمعها تماما، أو يقوم الطلاب بعرض أحاديث الشيخ
عليه وقراءتها عليه¹، وهو يسمع فإذا وقع شيء نَبَّه عليه.

لكن هناك مجالس أخرى لا يقصد فيها في الغالب تحمُّل الحديث وأخذها، وإنما
يقصدون مراجعة المحفوظ الذي عندهم، وهذه المجالس هي مجالس المذاكرة، فقد كانت
عادة المحدثين عقد مجالس للمذاكرة يكون القصد فيها مراجعة وتثبيت ما عندهم من
الحديث، لكن مع ذلك قد يكون من مقاصد وأغراض المذاكرة الإفادة من هذه المجالس
بأخذ وتحمُّل بعض الأحاديث التي تكون عند بعض المذاكرين وهذا موجود في تصرفهم
وقد مرَّ معنا شيء من ذلك في المبحث السابق.

ومن المعلوم أنَّ مجالس المذاكرة يُتساهل فيها مالا يُتساهل في مجالس التحديث²؛
لكن بعض الرواة قد يتحمَّل بعض الأحاديث في مجلس المذاكرة - والذي يقع فيها
التساهل مالا يقع في مجلس التحديث - فيقع بسبب ذلك بعض الأوهام والأخطاء التي
تؤثر على هذه الأحاديث، وقد اختلف الأئمة في التحمُّل بطريق المذاكرة³ بسبب هذا
التساهل في هذا المجلس.

¹ - هو العرض أو القراءة على الشيخ.

² - قال عبد الرحمن بن مهدي: "... إذا ذكرت تساهلت في الحديث" (الجامع 37/2)، وقال
الخطيب - وهو يتكلم على اختصار الحديث -: "ومنهم من يكتبها مسندة ويرويها مرسل على معنى
المذاكرة والتنبية ليطلب إسنادها المتصل ويسأل عنه" (الكفاية ص 396)، وقال العلائي: "...إرسال
الراوي لا ينحصر في كون شيخه ضعيفا بل يحتمل أنه سمعه مرسلًا أو أثر الاختصار أو كان في
المذاكرة..." (جامع التحصيل ص 95-96)، وقال الذهبي: "...إذ المذاكرة يتسمح فيها" (الموقظة
ص 64).

³ - قال ابن الصلاح: "وكان جماعة من حفاظهم يمنعون من أن يحمل عنهم في المذاكرة شيء؛ منهم:
عبد الرحمن بن مهدي، وأبو زرعة الرازي، وروينا عن ابن المبارك وغيره؛ وذلك لما يقع فيها من
المساهلة". (علوم الحديث: 234)، وقال أحمد بن سليمان التستري: "قال حدثني أبو زرعة الرازي

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي

المبحث الرابع: التعليل بالمذاكرة (أو بالأوهام والأخطاء الناتجة عن مجلس المذاكرة).

من خلال ما تقدّم في المبحث الثالث، وهو أنّ مجلس المذاكرة يقع فيه من التساهل في عرض الأحاديث وعدم الاهتمام الكبير بصيغ التحديث، وأحوال نقل الرواية من الاتصال وغيرها، -لأنّ القصد غالباً هو تثبيت المحفوظ- فإنّه قد وقع الكثير من الرواة عند تحمّلهم للكثير من الأحاديث في هذه المجالس ما أثار ذلك في مروياتهم، فقد طعن الأئمّة في كثير من الأحاديث وضعّفوها بسبب أنّ بعض الرواة قد أخذ هذه الأحاديث مذاكرة، فوهم فيها، بإدخال إسناد في إسناد، أو تركيب متن لإسناد متن آخر، أو إرسال موصول، وغيرها من الأوهام، وهذا مما يدلّ على الدقّة المتناهية التي كان يتعامل بها النقاد الجهابذة مع الروايات والقرائن المحتفة بها، والملايسات التي جاءت بها هذه الروايات، بما يتوجّب علينا السير على منهجهم في التعامل مع الأحاديث. والأمثلة في تعليل النقاد للروايات لكونها مما وقع فيها الوهم والغلط في مجلس المذاكرة كثيرة، نذكر منها:

قال عبد الرحمن بن مهدي: "كنت عند أبي عوانة، فحدّث بحديث عن الأعمش، فقلت: ليس هذا من حديثك، قال: بلى، قلت: لا، قال: يا سلامة هات

حدثني إبراهيم بن موسى نا عبد الرحمن بن الحكم المروزي عن نوفل بن المطهر قال قال لنا عبد الله بن المبارك لا تحملوا عني في المذاكرة شيئاً، قال أبو زرعة: وقال إبراهيم لا تحملوا عني في المذاكرة شيئاً، قال أحمد: وقال لي أبو زرعة: لا تحملوا عني في المذاكرة شيئاً". (الجامع: 2/ 37)، وفي لفظ آخر قال: "سمعت أبا زرعة يقول: لا تكتبوا عني بالمذاكرة، فإني أخاف أن تحملوا خطأ، هذا ابن المبارك كره أن يحمل عنه بالمذاكرة، وقال لي إبراهيم بن موسى: لا تحملوا عني بالمذاكرة شيئاً". (سير أعلام النبلاء: 13/ 80)، وقال عبد الرحمن بن مهدي: "حرام عليكم أن تأخذوا عني في المذاكرة حديثاً لأني إذا ذاكرت تساهلت في الحديث". (الجامع: 2/ 37).

المذاكرة عند الحديث وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
 الدَّرَج، فَأُخْرِجَتْ، فنظر فيه فإذا ليس الحديث فيه، فقال: صدقت يا أبا سعيد! صدقت
 يا أبا سعيد!، فمن أين أوتيت؟ قلت: ذُكِرَتْ به وأنت شاب، فظننت أنك سمعته "1.
 وقال يحيى بن معين: " لقيت عليَّ بنَ عاصم على الجسر، فقلت: كيف حديث
 مطرّف عن الشعبي: من زوّج كريمته؟ فقال: حدّثنا مطرّف عن الشعبي، فقلت: لم
 تسمع هذا من مطرّف قط، وليس هذا حديثك، قال: فأكذب؟ فاستحييت منه
 وقلت: ذُكِرَتْ به فوق في قلبك فظننت أنك سمعته ولم تسمعه، وليس هو من
 حديثك"2.

وقال ابن حبان في داود بن الزُّبرقان: "كان داود بن الزُّبرقان شيخا صالحا يحفظ
 الحديث، ويذاكر به، ولكنه كان يهتم في المذاكرة ويغلط في الرواية إذا حدث من
 حفظه، ويأتي عن الثقات بما ليس من أحاديثهم"3.

وقال ابن حبان أيضا في منصور بن سقير-ويقال سقير-: "منصور بن سقير أبو
 النضر شيخ بغداد يروى عن موسى بن أعين وعبيد الله بن عمرو المقلوبات، لا يجوز
 الاحتجاج به إذا انفرد، روى عن موسى بن أعين قال: حدّثنا عبيد الله بن عمر عن
 نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل ليكون من أهل الصلّاة والزُّكّاة
 والحجّ والعمرة والجهاد-حتى ذكر سهام الخير- وما يجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله "
 حدّثناه عليُّ بن عبدالله بن مبشر بواسط قال: حدّثنا جابر بن كردى قال: حدّثنا
 منصور بن سقير.

وهذا خير مقلوب تتبّعته مدّة لأن أجد لهذا الحديث أصلا أرجع إليه فلم أراه إلا
 من حديث إسحق بن أبي فروة عن نافع عن ابن عمر، وإسحق بن أبي فروة ليس بشيء

1- الجامع (39/2).

2- سؤالات البرذعي لأبي زرعة ص395-396.

3- المحروحين (357/1).

المذاكرة عند الحديثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
في الحديث وعبيد الله بن عمرو سمع من إسحق بن أبي فروة، فكأن موسى ابن أعين سمعه من عبيد الله بن عمرو في المذاكرة عن إسحق بن أبي فروة فحكاه فسمعه منصور بن سقير عنه فسقط عليه إسحق بن أبي فروة، ووأو من عمرو فصار عبيدالله بن عمر عن نافع"1.

وقال ابن خزيمة: " لما دخلت بخارى، ففني أوّل مجلس حضرت مجلس الأمير إسماعيل بن أحمد في جماعة من أهل العلم، فذكرت بحضرته أحاديث فقال الأمير: "حدثنا أبي، حدثنا يزيد بن هارون، عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أمّتي أمةٌ مرحومة... " الحديث . فقلت: أيّد الله الأمير، ما حدث بهذا أنس، ولا حميد ولا يزيد بن هارون، فسكت، و قال: "كيف؟"، قلت: هذا حديث أبي موسى الأشعري، ومداره عليه، فلما قمنا من المجلس قال لي أبو علي صالح بن محمد البغدادي: "يا أبا بكر! جزاك الله خيراً، فإنه قد ذكر لنا هذا الإسناد غير مرة ولم يجسر واحد منا أن يرده عليه"2.

وقال الترمذي: "حدثنا أبو كريب وأبو هشام الرفاعي وأبو السائب والحسين بن الأسود قالوا: حدثنا أبو أسامة عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة عن جده أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: "الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد".

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه من قبل إسناده، وقد روي من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وآله، وإنّما يستغرب من حديث أبي موسى، سألت محمود بن غيلان عن هذا الحديث فقال: هذا حديث أبي كريب عن أبي أسامة، وسألت محمّد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث أبي كريب عن أبي أسامة، لم نعرفه إلا من

1 - المصدر نفسه(40/3).

2 - معرفة علوم الحديث ص432.

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
حديث أبي كريب عن أبي أسامة، فقلت له: حدّثنا غير واحد عن أبي أسامة بهذا،
فجعل يتعجب وقال: ما علمت أنّ أحدا حدّث بهذا غير أبي كريب، وقال محمّد: كنّا
نرى أنّ أبا كريب أخذ هذا الحديث عن أبي أسامة مذاكرة"¹.

قال ابن رجب معلقا على كلام الترمذي: "وأما حديث أبي موسى هذا فأخرجه
مسلم عن أبي كريب، وقد استغربه غير واحد من هذا الوجه، وذكروا أنّ أبا كريب
تفرّد به، منهم البخاري وأبو زرعة، وذكر لأبي زرعة من رواه عن أبي أسامة غير أبي
كريب؟ فكأنّه أشار إلى أنّهم قد أخذوه منه، وحسين بن الأسود كان يتّهم بسرقة
الحديث، وأبو هاشم فيه ضعف أيضا، وظاهر كلام أحمد يدلُّ على استنكار هذا
الحديث أيضا...، وما حكاه الترمذي عن البخاري هاهنا أنّه قال: كنا نرى أنّ أبا
كريب أخذ هذا عن أبي أسامة في المذاكرة، فهو تعليل للحديث، فإنّ أبا أسامة لم يرو
هذا الحديث عنه أحد من الثقات غير أبي كريب، والمذاكرة يحصل فيها تسامح، بخلاف
حال السّماع أو الإملاء"².

وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكره لحديث رواه ابنُ أبي السّري: "..... وهذا
إسناد مجهول، ولعلّ ابن أبي السّري حدث به من حفظه في المذاكرة، فوهم في اسم
البخري بن عبيد، والله أعلم"³.

وأقوال المحدثين في هذا المعنى كثيرة والله أعلم.

الخاتمة

ومّا سبق تبين دقة علم الأئمة النقاد وفحص نظرهم وتبحرهم في دقائق علم

العلل.

¹ - العلل الصغير المطبوع في آخر الجامع للترمذي ص 614.

² - شرح علل الترمذي (1/441-442).

³ - التلخيص الحبير (1/99-100).

المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي

وفي ختام البحث نقول: إنه يمكن إبراز عدة أمور من خلال هذا البحث:

1- سعة حفظ الأئمة.

2- مذاكرة الأئمة لألوف الأحاديث، الأوقات الطويلة وهذا مما يوقفهم على دقائق العلم بهذه الروايات.

3- الحرص على ضبط وحفظ الأحاديث قبل مجلس المذاكرة لكي لا يغرب بعضهم على بعض.

4- من فوائد مجلس المذاكرة تثبيت الحفظ، واستفادة بعض الأحاديث والوقوف على دقائق الروايات .

5- دقة الأئمة المتناهية في تعليل الروايات، والتعليل بالمذاكرة نموذج من هذه الدقة.

ومما سبق ذكره تتبين دقة علم الأئمة النقاد، وتبحرهم في العلم بالروايات والوقوف على غوامضها، وذلك راجع لعلمهم بأحوال الرواة والروايات والقرائن والملابسات المختلفة بها؛ مما يوجب علينا تقديرهم ومعرفة حقهم واتباعهم في الحكم على الأحاديث.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أسس نقد الحديث بين أئمة النقد وأهل العصر الحديث (ضمن كتابه: إيضاعات بحثية في علوم السنة النبوية وبعض المسائل الشرعية)، الشريف حاتم العوني، دار الصيمعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: 1428هـ، الرياض/ المملكة العربية السعودية.

2- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

3- التدوين في أخبار قزوين، أبو القاسم الرافعي.

- المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
- 4- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني.
- 5- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من أباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، تخريج الألباني وزهير الشاويش وعبد الرزاق حمزة، المكتب الإسلامي، بيروت/ لبنان.
- 6- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف، الطبعة الثانية: 1415 / 1994م، مؤسسة الرسالة، بيروت/ لبنان.
- 7- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.
- 8- الجامع لأدب الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيقك محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض/ المملكة العربية السعودية.
- 9- جامع التحصيل في أحكام المراسيل، صلاح الدين العلائي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية: 1407/ 1997م.
- 10- الجرح والتعديل، لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت/ لبنان.
- 11- الجرح والتعديل، إبراهيم اللاحم، الطبعة الأولى: 1424/ 2003م مكتبة الرشد، الرياض/ المملكة العربية السعودية.
- 12- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1403 / 1983م.
- 13- الضعفاء الكبير، لأبي جعفر العقيلي، تحقيق عبد المعطي قلجعي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: 1404 / 1984م، بيروت / لبنان.

- المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
- 14- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبو محمد الأنصاري، تحقيق: عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، الطبعة الثانية، 1412 - 1992، مؤسسة الرسالة - بيروت/ لبنان
- 15- شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق نور الدين عتر، دار العطاء للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1421/ 2001. الرياض/ المملكة العربية السعودية.
- 14- الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد ابن عدي الجرجاني، تحقيق: أحمد عبد الموجود وعلي معوض، الطبعة الأولى: 1418/ 1997م، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان
- 16- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي.
- 17- الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، الطبعة الهندية.
- 18- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي. دار المعارف القاهرة.
- 19 - العلل الصغير المطبوع في آخر الجامع للترمذي، اعتنى به فريق من الباحثين، دار الأفكار الدولية.
- 20- العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد بن حنبل برواية ابنه عبد الله، تحقيق: وصي الله عباس، الطبعة الثانية: 1422/ 2001م، دار الخاني، الرياض/ المملكة العربية السعودية.
- 21- المجروحين من المحدثين، أبو حاتم بن حبان، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الأولى: 1420/ 2000م، دار الصيمعي، الرياض/ المملكة العربية السعودية.

- المذاكرة عند المحدثين وأثرها في التعليل-----أ. نور الدين تومي
- 22- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، الطبعة الأولى: 1391/1979م، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان.
- 23- معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: أحمد بن فارس السلولم، الطبعة الأولى: 1424/2003 دار ابن حزم، بيروت/ لبنان.
- 24- مناقب الإمام أحمد، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الثانية: 1409/1988م، دار هجر للنشر والتوزيع.
- 25- الموقظة في علم مصطلح الحديث، شمس الدين الذهبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى: 1412هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت/ لبنان.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي



د. بلقاسم حديد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

الملخص:

ما يُبين في هذا البحث أن منهج البحث في أصول الفقه المذهبي لا يختلف فيه في الجملة، بعض المذاهب عن بعض؛ ولهذا لم نخصّصه بمذهب معين؛ فأصول المذاهب الموروثة واحدة، وما يعرض فيها من خلاف قليل، وإن كان بعضهم أمثل من بعض، وعظم الخلاف مرده إلى تباين اصطلاحهم، وهو قد يكون في المذهب الواحد، ثم ليس وراء الحق بعد معرفته غاية.

والاختلاف في هذا الأمر مرجعه إلى ما يرتبط بالفهم بمراتبه التي أشرنا إليها، سواء في معرفة مراد الله تعالى، أم في إقامة الدليل عليه.

Abstract :

What is illustrated in this research-paper is that: theresearch methodology in The Jurisprudence's Roots Rituals does not differ in the total regarding the rites between each other; that is why we have not specified it with a particular rite, for the origin of The Rites is one and what is shown as difference between them is few; even though, some of them are more similar then others.

The great difference is caused by diversity in their technical terms, that can exist in one Rite itself; then there is no truth to be known after it as a goal.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد

The difference in this matter is referred to what is linked to the classes (degrees) of understanding that we have mentioned before, either in knowing the purpose of The Almighty Allah's Legislation or the making of evidence on it.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه،

أما بعد:

فإنه غير خاف موضع أصول الفقه من الدين، فهو سبيل معرفة الحق وتثبيت الصدق فيما جاء به النبي ﷺ، غير أن اختلاف مناهج الناظرين في الأصول وامتزاج بعضها ببعض مع طول الأمد، داعية إلى تتبع ذلك فيما أثر عنهم؛ لميز صالحه من فاسده، بحسب ما قام عليه من برهان، وقد ألفتنا طائفة غير قليلة من كتبة الأصول يزعمون أن اتضاح مناهج الأصول تزداد كلما تأخر الزمان، وطائفة أخرى منهم لا يعدون في المناهج بعد عصر الأئمة غير طريقتين أو ما يقاربهما، وطائفة غير أولئك يجمعون بين المفترق ويفرقون بين المجتمع، فكان حريا بمن أطلع على ذلك أو شيء منه أن يرتق خلله، ويقيم أوده بحسب ما يبلغه الوسع.

ولهذا، رأينا في هذا الموضوع أن نبين ولو باختصار ما صادفنا من ذلك في كتب الأصول قديمها وحديثها، مضافا إلى ما اجتمع لدينا قبل من مباحث غيرها، في بحث ترجمته منهج البحث في أصول الفقه المذهبي من غير تعيين بمذهب لعله سنذكرها بعد هذا إن شاء الله.

وما فيه الكلام من مقصدنا هنا قسمان، أحدهما لبيان أن أصول المذاهب المختلفة في الجملة واحدة، وثانيهما لبيان أسباب الاختلاف في ذلك بوجهيها -على ما سنذكره بحول الله تعالى-.

القسم الأول: في بيان أن أصول المذاهب المختلفة في الجملة واحدة

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
أصول الفقه هي أدلة الفقه الإجمالية، وقواعده، ويندرج في هذا أمران أدلة الفقه
نفسها وتوصل محصلها إلى الفقه الذي هو الفهم عن الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد يطلق
بعضهم الفقه على جملة الأحكام المنتزعة من الكتاب أو السنة، وهو اصطلاح.
وإذا عرف هذا، فإن المنهج المتبع في مذهب من المذاهب في استثمار الأصول لا
يختلف في الجملة عن غيره لعدة أمور نذكر أهمها:

منها: أن نسبة المذاهب إلى أصحابها لا يعني أنها من إنشائهم، بل لا بد أن
تستند إلى أصول وقواعد سندها الوحي المتزل، إما رواية وأمرها ظاهر، وإما دراية،
فلأن الأمر فيها لا يعدو الكشف والبيان كما هو معلوم في الأصول، ويشهد لهذا ما
أثر عن أصحاب المذاهب أنفسهم، مما تواتر عنهم أنهم يأخذون بكتاب الله تعالى، ثم
بسنة رسول الله ﷺ، ثم بأقوال الصحابة وما إلى ذلك. فأبو حنيفة -رحمه الله- ينتهي
فقده إلى أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، وقد روى غير واحد عن أبي يوسف -رحمه
الله- قال: سمعت أبا حنيفة يقول إذا جاء الحديث عن النبي ﷺ عن الثقات أخذنا به،
فإذا جاء عن أصحابه لم نخرج عن أقوالهم، فإذا جاء عن التابعين زحمتهم¹، ومالك
يستمد علمه من علم أهل المدينة، وينتهي إلى عمر رضي الله عنه وغيره، قال علي بن المديني:
أخذ عن زيد -ابن ثابت- ممن كان يتبع راية واحد وعشرون رجلاً، ثم صار علم
هؤلاء هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس²، بل إن من أهل العلم من يذهب في وصف

¹ - انظر: أخبار أبي حنيفة للقاضي أبي عبد الله حسين بن علي الصيمري، 1405هـ-1985م، عالم
الكتب، بيروت.

² - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، ج1، ص35، ط1،
1418هـ-1998م، دار الكتب العلمية، بيروت.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
مالك بالإتباع إلى الأمد الأقصى¹.

والشافعي: لا يختلف في الجملة عن تقدمه، إذ كان على مذهب أهل الحجاز،
وكان مذهبه على طريقة المكيين أصحاب ابن جريح، ثم أخذ بعد عن مالك²، وجالس
أصحاب أبي حنيفة وما إلى ذلك³.

وأحمد مذهبه لا خفاء به، إذ عمدته السنن والآثار، بل لقد قيل بأنه كان أعلم
من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان⁴.
فكل المذاهب فيما ذكرنا وغيره تستند إلى أصول شرعية، وإن كان بعضهم قد
يختص بأنه من أهل الرأي أو من أهل الحديث.

ومنها: أن الاختلاف بين المذاهب إنما يرجع بعضه إلى الاختلاف في
الاصطلاح، سواء كان من قبيل الألفاظ أسماء وغيرها، أم لا على ما سيأتي، وهذا قد
يكون في المذهب الواحد وإن كان على وجه أقل مما هو عليه بين المذاهب. ولذلك
نجدهم يفرقون في الفتاوى والكتب بين أهل بلد وآخر، على ما هو الشائع عند الحنفية
والمالكية خاصة، وقد ذكر السمرقندي عن كتب الحنفية في هذا النهج أنها قسمان:
قسم وقع في غاية الإحكام والإتقان لصدوره من جمع الفروع والأصول وتبحر في
علوم المشروع والمعقول... ومثل بماخذ الشرائع ونحوه للماتربدي ونحوه، وقسم وقع في

¹ - انظر: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، لأحمد الريسوني، ص74 فما فوق، ط4، 1416هـ -
1995م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

² - مجموع الفتاوى: لتقي الدين أحمد بن تيمية، ط2، 1421هـ - 2001م، دار الوفاء، المنصورة،
مصر، ج20، ص182.

³ - انظر: مسألة الاحتجاج بالشافعي، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: معل إبراهيم ملا
خاطر، ص70 فما فوق، المكتبة الأقرية، باكستان.

⁴ - مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج20، ص127 فما فوق.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
نهاية التحقيق والمعاني وحسن الترتيب والمباني لصدوره ممن تصدى لاستخراج الفروع
من ظواهر المسموع غير أنهم لما لم يتمهروا في دقائق الأصول وفضايا العقول أفضى
رأيهم إلى رأي المخالفين في بعض الفصول... ثم ذكر بأن الصنف الأول هُجر إما
لوعورته وإما لقصور الهمم¹.

ومنها: أن المقصود من البحث في أصول أي مذهب هو معرفة مراد الله تعالى
من كلامه، ومعرفة صحته وتقريره، وهما مطلوب العقلاء من مذهب واحد أم من
مذاهب مختلفة، إذ لا يجوز عقلا ولا شرعا أن يعرف الحق ولا يتبع، ولهذا الذي ذكرنا
وغيره جرينا في دراسة منهج البحث في أصول الفقه المذهبي على وجه أعم يشمل
المذاهب كلها، بل العلوم الشرعية وغيرها لتعظم الفائدة، وتتم ولا شك في أن ذا من
أجل المقاصد الشرعية.

القسم الثاني: أسباب الاختلاف في أصول الفقه المذهبي:

ما أوردنا قبل يشير إلى أن المتفق عليه بين أئمة المذاهب في الأصول أكثر من
المختلف فيه، وهم إنما اختلفوا فيما اختلفوا فيه لأجل اختلافهم في طرق الاستدلال
بالقواعد على المطالب الشرعية، وهي إما معرفة مراد الله من كلامه، وإما بيان صحته
وتقريره وكلامهما لا ينفك عن الآخر، وقد كانا على الجادة قبل عروض العوارض
ورسوخها على طول الأمد، ولذلك سوف نجمل أسباب الاختلاف بحسب ما اشرنا
إليه من دينك المطلبين:

أولاً: في معرفة مراد الله تعالى من كلامه ومرجعه إلى:

التفاوت في الفهم: وله مرتبتان: الأولى: ما يرجع إلى الفهم نفسه لا إلى شيء
غيره، ومرجع هذه المرتبة إلى أمرين: خلقي وكسي، ولكل منهما أثر في الآخر زيادة

¹ - ميزان الأصول في نتائج القبول، لأبي بكر أحمد السمرقندي، ص53. در محمد زكي عبد البر:
ط2، (1418هـ-1997م)، مكتبة التراث، القاهرة.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
 ونقصانا، ولهذا جاء في الحديث عن جحافة ﷺ قال: قلت لعلي ﷺ: هل عندكم شيء
 من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا
 فهما يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة... (الحديث)»¹. وهذا لأن الحقيق
 بالمدح والذم هو الكسبي باجتهاد صاحبه في إدراك حدود ألفاظ الشرع ومعانيها أو
 تقاعسه في ذلك على أن الخلاف هنا عتيد، إذ لا يخفى أن في الألفاظ ما هو غريب وما
 هو خفي في دلالاته، لاحتمال باشتراك لفظي أو معنوي أو غير ذلك، وأن في المعاني ما
 هو من صميم العربية، وما هو من تصرفات النبي ﷺ في فهمه كتاب الله تعالى، ولهذا
 اختلف الصحابة في معرفة طرق الاستنباط تبعا لاختلافهم في أسباب ذلك، غير أن
 اختلافهم خير من اختلاف من بعدهم، لقلته، وانتفاء سوء أثره، ولهذا كانوا لمن بعدهم
 أصلا يحندي فضلا عما عرفوا به من حسن الفهم وصدق القول والعمل².

وأعلم أن ما ذكره أهل العلم في أسباب الاختلاف في القواعد أو الأحكام، لا
 تخرج في الجملة عما ذكرنا؛ إذ كان ذلك شائعا في السلف، بل وفي الخلف³، وإنما
 اشتهر غيره حين شاعت الاصطلاحات؛ إذ الألفاظ ما كانت مرتبطة فهمها بما يحتف بها
 من القرائن، وهي مغنية في باها عما سواها من اصطلاح، ولا سند له إلا شيوخه في
 مباحث الناس.

المرتبة الثانية: ما يرجع إلى شيء عارض: وفيه يزداد التفاوت في الفهم فضلا
 عما تقدم إذا تعلق الأمر بالاصطلاح الحادث الذي شاع أمره بعد عصر الأئمة بقليل
 وشمل ذلك شتى الألفاظ أسماء وغيرها، وليس يخاف أن الاصطلاح صاد عن الفهم

¹ - أخرجه البخاري.

² - انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، ج1، ص13-15، ط1، 1421هـ -
 2000م، مكتبة دار البيان، دمشق.

³ - انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج20، ص129 فما فوق.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
السليم كلاً أو بعضاً وهو على أنواع أربعة.

الأول: ما يوافق القرآن والسنة، ولا شك في جواز هذا، بل في وجوبه، إذ المقصود من أهل هذه الملة أن تكون أقوالهم وأفعالهم تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ بقدر المستطاع، إذ لا مدح ولا ذم إلا على ما وافق ذلك أو خالفه، فما وافقه الصق بالمصلحة كوفور الأجر، ولهذا قالوا: التعبد بالذكر والدعاء أفضل ما كان بألفاظ الشرع¹، وشيوع أسباب الاختلاف والاجتماع عند التزام ذلك كما كان الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان على ذلك، وسد منافذ الطعن في الدين على أعداء الإسلام والمسلمين وغير ذلك من المصالح المحلوبة بسبب حفظ مراسم الشرع، حتى يستوي في الوقوف عليه الأول والآخر، وأما في حال إغفال ذلك فاختلاف ما ذكرنا كله أو بعضه كائن.

الثاني: ما لم يوافق ألفاظ الشرع ولم يخالفها، وكان معناه مستقيماً كما في كثير من اصطلاح العربية ونحوها، وكذا الصنائع وما إلى ذلك، وهذا النوع أيضاً مما تستسيغه الشريعة ولا تأباه وهو من الوسائل جارياً على أساليب العرب كما كان يفعل الأوائل.

الثالث: ما كان يخالف القرآن والسنة من وجه دون وجه، وهذا على المنع حتى يبين حقه من باطله، وقد وقع من هذا قدر لا بأس به في الفروع والأصول، كالرأي والقياس، والاستحسان، والتحسين التقيح، والجبر والاختيار، وما إلى ذلك، وكذلك ما يعرف عند الدارسين في دلالات الألفاظ بالظاهر والنص ونحوه، وكذلك القطع وما إلى ذلك، وإن كان بعض هذه المواضع قد يجعلها كثير منهم خاصة بطوائف دون آخريين، وليس الأمر على ذلك، وأكثر الخلاف الواقع بين الأمة، إنما مرده إلى هذا

¹ - انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام للغر بن عبد السلام، 1410هـ-1990، مؤسسة الريام،

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
النوع من الاصطلاح.

الرابع: ما كان يخالف القرآن والسنة، وهذا غير جائز أصلاً إلا إذا أُلجأت إليه حاجة ماسة، كأن يحتاج إليه في مخاطبة أهل الضلال والكفر بعد بيان بطلانه بطريق¹، ومن أمثلة هذا النوع لفظ العقل، وهو دليل خاص توطأ عليه طوائف المتكلمين² وإن اختلفوا في بعض تفاصيله، وكذلك المعقول في خلاف المحسوس وما إلى ذلك³.

فهذه أنواع الاصطلاحات الشائعة في كلام الناس، ممن لهم اختصاص بالشرع وغيره، ويظهر منها أهمية هذا الموضوع في فهم ما بأيدي الناس من الأصول، بل جميع العلوم - كما رأينا-؛ ولذلك كان في إغفاله محض الهلكة، ولهذا التزم أهل بعض العلم أنه لا ينبغي من مذاهب الأصوليين إلا التأني عنها، غير أنه لم ينبج من شرك الاصطلاح عند بحثه بعض المسائل⁴.

كما يظهر أن كثيراً من كتبة الأصول يقصرون الخلاف في دراسة المناهج على الحنفية والجمهور، ويترجمون لها بطريقة الفقهاء وطريقة المتكلمين، وليس الأمر على

¹ - انظر: درء تعارض العقل والنقل لتقي الدين ابن تيمية، ج1، ص140. 1417هـ-1997م، دار الكتب العلمية، بيروت.

² - وهو دليل الأعراض على ما هو شائع عند المعتزلة والأشعرية وغيرهم، ودليل العقل: مبني على نفي الجسمية عن الخالق عز وجل، لأن الجسم لا ينفك من الحوادث أو الأكواد الأربعة، وهي الاجتماع، والافتراق والحركة والسكون، أو لأن الجسم مركب من الأجزاء المفردة التي هي الجواهر، وما كان بهذه المتابة فهو حادث لا محال.

³ - لأن المعقول بهذا المعنى لا وجود له إلا في الذهن، فإن جرى مثل هذا في مسائل الديانة الكبار مثل: وجود الباري سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته، ووجود ملائكته وما إلى ذلك من الغيوب، أفضى إلى شر عظيم، ونحن نعلم أن ما ذكر من مسائل كلها مما يمكن الإحساس به في الجملة.

⁴ - انظر: تعاليل الأحكام، لمصطفى شليبي، ص5-6، 128، 1401هـ-1981م، النهضة العربية، بيروت.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
ذلك كما رأينا؛ إذ لم يظهر ذلك إلا بعد عصر الأئمة، فضلا عن أن إطلاق لفظ
الفقهاء على الحنفية لا سيما المتأخرون منهم ليس بسديد، وإنما هو مجرد اصطلاح¹.
ولا بد من الإشارة بعد هذا إلى أن تداخل الاصطلاحات أفضى إلى التباس
المذاهب في كثير من المواضع، وهذا على خلاف ما يقوله بعضهم من دعوى تمايزها
كلما تأخر الزمان².

ثانيا: معرفة صحة مراد الله تعالى من كلامه وتقريره:

وهذا الموضوع مما وقع فيه التجاذب كثيرا بين أهل العلم ومنشأ ذلك عدم القول
بالدليل المعين، وهو على ضربين:
الأول: عدم القول بالدليل المعين بإطلاق: مثل نفي القياس ونحوه عند الظاهرية
ومن هنا نحوهم³، وكذا نفي دليل الخطاب عندهم وعند أصحاب أبي حنيفة ومن
وافقهم من غيرهم⁴.

¹ - ولهذا لا تجد إطلاقه عند كثير من أهل العمل حتى بعد شيوع التقليد. انظر مثلا: قواطع الأدلة في
أصول الفقه لابن السمعاني، ج1، ص18-19، ط1، 1418هـ-1997م، دار الكتب العلمية،
بيروت. انظر: الإنصاف في بيان أسباب الخلاف لولي الله الدهلوي، ج2، ص88، ط2، 1404هـ،
دار الفنائس، بيروت.

² - انظر: دراسة تاريخية للفقه وأصوله، لمصطفى سعيد الخن، ص160 فما فوق، ط1، 1404هـ-
1984م، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق.

³ - انظر: المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، ص351 فما فوق، ت: محمد محيي الدين عبد
الحميد، دار الكتاب العربي، القطعية والظنية في الأدلة الشرعية، لبلقاسم حديد، ص97، بحث
مرقون، قدم لنيل شهادة الماجستير في أصول الفقه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد
الخامس، الرباط، المغرب. تيسير التحرير، ج1، ص98 فما وفق.

⁴ - انظر: الفصول في الأصول لأبي بكر محمد بن علي الحصاص، ج1، ص153، ط1، 1420هـ-
2000م، دار الكتب العلمية، بيروت.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد

الثاني: عدم القول بالدليل في موضع دون موضع.

وهذا نحو ترك الاستدلال بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ وإجماع الأمة، وهو ما يسمى بالدليل الشرعي على المطالب العقلية عند المتكلمين وهي عندهم إثبات وجود الباري عز وجل وإثبات النبوة والتوحيد وما إلى ذلك، قالوا: لأن ذلك يفضي إلى الدور، أو لأن دلالة الألفاظ لا تفيد اليقين¹.

وهذا الثاني قول بعضهم كالرازي والآمدي ومن نحا نحوهما، وأما الذي قبله فقول جميعهم، غير أن هذين القولين مرجعهما إلى شيء واحد وهو القول بدليل العقل، وهو دليل خاص ابتدعه جمع من النظائر وهم المتكلمون، وإن اختلفوا في بعض تفاصيله قالوا بأنه أصل الدين؛ فضارت معظم نصوص الشرع واردة مورد الاحتمال، بل كثير منهم بالغ وقال: كل شرع عارض هذا الدليل مؤول أو مردود. ولهذا آل أمر طائفة من هؤلاء إلى أن لا يشترط في أصول الفقه أن تكون قطعية، إذ المقصود منها العمل لا العلم² غير أن الموغلين في ذلك من هؤلاء زعموا أن لا قطع مستفاد من دلالة الألفاظ. ومن هنا تدرك أن من اشترط القطع في أصول الفقه، وهم معظم الأصوليين ليسوا على طريقة واحدة من حيث القرب أو البعد من طريقة من تقدم ذكرهم، وتشرف على أخطر المواضع نزاعاً بين الخائضين في الأصول، وهو التأويل، على أن للخلاف في هذا الشأن غير ما ذكر مظهرين آخرين:

¹ - انظر: الحصول في علم أصول الفقه لأبي محمد عمر بن الطيب الرازي، ج1، ص222 فما فوق، ط1، 1420هـ-1999م، دار الكتب العصرية، صيدا، بيروت، أبكار الأفكار، لسيف الدين الآمدي، ج1، ص143، ت: أحمد زيد المزيدي، ط1، 1424هـ-2003م، دار الكتب العلمية، بيروت..

² - انظر: المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري، ج2 ص19، دار الكتب العلمية، بيروت، والمسودة في أصول الفقه لآل تيمية، ص473 فما فوق.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
الأول: أن مدلول القطع عند من اشترطه في أصول الفقه ليس واحدا بل هو
عند جمهور الحنفية ومن وافقهم أعم مما عند غيرهم، إذ يعتبرون الألفاظ العامة،
والمطلقة قطعية، وهي ظنية عند الجمهور¹، ولهذا اختلفوا في الجمع بين الأدلة ونحوه
عند عروض التعارض بينها، فاشتروا تساويها في القوة إلا بشروط، واقتران البيان
بالمبين².

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الظاهرية مذهبهم في القطع قريب من مذهب
أكثر الحنفية، في اللفظ العام والمطلق، ويزيدون عليهم في أن كل ما ثبت عن الشرع
فهو مقطوع به³.

الثاني: ما قد يندرج في ذلك من التعصب للمذهب باعتماد اصطلاح خاص، أو
تقسيم خاص كما هو الشأن عند الحنفية، لا سيما المتأخرون منهم ونحن نعلم أن
أصول الحنفية لم تدون إلا بعد مضي أعيان المذهب على ما عرف من طريقتهم في
التأصيل⁴، وهي التوصل إلى الأصول من خلال الفروع، وكذلك الأمر عند الظاهرية
كابن حزم ونحوه، فإنكار القطع في مثل هذا الحال في الجملة عارض.

واعلم أن ما ذكرنا من الضربين مآلهما واحد أيضا، وهو القول بالترجيح من
غير مرجح عند من ينكر المعاني كابن حزم - رحمه الله - ونحوه، إذ يقول بأن الله تعالى

¹ - انظر التلويح على التوضيح لمن التنقيح، لسعد الدين التفتازاني، ج2، ص9، دار الكتب العلمية، بيروت، وكذلك تيسير التحرير لمحمد أمين المعروف بأمرير باد شاه، ج3، ص13، دار الكتب العلمية، بيروت.

² - انظر: التوضيح لمن التنقيح في صدر الشريعة، ج1، ص43-44.

³ - انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم الظاهري، ج3، ص402، ج8، ص594 فما فوق، ط2، 1407هـ، دار الجيل بيروت.

⁴ - انظر: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، لولي الله الدهلوي، ج1، ص88.

منهج البحث في أصول الفقه المذهبي ----- د. بلقاسم حديد
يفعل ما يشاء من غير مراعاة معنى، وعند من لا ينكر المعاني هو أيضا كذلك كما عند
الحنفية ونحوهم، في إنكارهم المفهوم المخالف؛ إذ تجوز أن يدع الله تعالى شيئا كلفه
عباده من غير بيان هو مما يناقض أصولهم، وكذلك كل من عارض الشرع بعقل أو
بمسمى دليل لم يأذن به الله، سواء قال من يلتزم ذلك: الألفاظ لا تفيدهم اليقين أم لم
يقبل، إذ لا مرية أن الله يفعل ما يشاء أي ما كان فعله قولاً أم غيره، ولا فعل إلا عند
تمام الإرادة، ولا معنى لها إذا قيل إنها قديمة أو أنها حادثة ما لم يقارنها أثرها، فآل الأمر
إلى القول بالترجيح من غير مرجح، وهذا مما يصرح به معظم هؤلاء.

وعلى هذا، فاشتراط القطع أو عدمه راجع لما قلنا من اصطلاح.

وقد يقال هنا لا يمكن اشتراط القطع؛ إذ لا شك في وجود مسائل كثيرة ضمن
الأصول، وهي ظنية، وأجاب بعضهم بأن «حد الأصول إبانة القاطع في العمل بها،
وإنما لا بد من ذكرها ليتبين المدلول ويرتبط الدليل به»¹. وهذا الجواب مما تمسك به
أكثر الأصوليين، والحق أن هذا القطع ليس فيه التزاع؛ إذ القطع في الجملة لا يستلزم
القطع في التفصيل، ومن هنا قالوا لا بد من رجوع المعنى المظنون إلى المعنى المقطوع به.
فهذا جملة ما في هذا الموضوع، وإلا فتفصيلها يطول، ولسنا بصدده الآن.

وبعد: فقد أتينا بما يتعلق في الجملة بمنهج البحث في أصول الفقه المذهبي، وقد
تبين أن الترجمة به أولى من تخصيصه بمذهب معين، وأن الخلاف في هذا الفن مرجعه
إلى ما يتعلق بالفهم بمراتبه التي أشرنا إليها، سواء في معرفة مراد الشرع، أم في إقامة
الدليل على ذلك، وباللغة تعالى التوفيق.

¹ - البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي الجويني، ج1، ص 79، ت: عبد العظيم محمود الذيب، ط4،
1418هـ، الوفاء، المنصورة. وكذلك التلخيص في أصول الفقه له، ص7، ط1، 1424هـ-2003م،
دار الكتب العلمية، بيروت.

جهود الإمام عبد أحميد بن باديس في مواجهة المشكلات العقدية والفكرية للنخبة المتعلمة باللسان الفرنسي د. نور الدين سكال

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

يتناول المقال جانبا من الجهود الإصلاحية للإمام ابن باديس لم تحظ بالاهتمام الكافي من قبل الدارسين، حيث يعرض المقال للأوضاع التي كانت عليها النخبة المتخرجة من المدارس الفرنسية في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ويوضح أسباب ابتعاد هذه النخبة عن الدين في نظر الإمام ابن باديس، ويقف عند مجموعة من المشكلات الفكرية والعقدية التي كانت تعاني منها، والمتمثلة في نظرة هذه النخبة للعلاقة بين الدين والعقل، و اغترارها بالعلم الحديث وافتائها به، ونظرهما لعلاقة الدين بالنهضة، ويوضح جهود الإمام ابن باديس في مساعدة هذه النخبة على تجاوز هذه المشكلات.

Abstract

This article discusses the reform efforts of Imam Ibn Badis on elite graduate of the French school in the period of the French occupation of Algeria, and describes the situation in which she found herself, and explains its causes concealing Imam Ibn Badis, and cites some intellectual and doctrinal issues which this elite suffered, tell the relationship between faith and reason, and the relationship between religion and rebirth, and illustrates Ibn Badis efforts to help this elite to overcome these problems.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال

تمهيد

اكتفت غالب الدراسات التي كتبت عن الفكر الإصلاحّي للإمام عبد الحميد بن باديس أو توقفت عند بيانها لجهوده الإصلاحية في المجال العقدي من حياة المجتمع الجزائري بالتأكيد على جهوده في محاربة مظاهر الشرك في ممارسات كثير من أفراد هذا المجتمع، رغم أنّ جهوده شملت فئات متعدّدة في الواقع الذي رام إصلاحه، منها الفئة المتعلّمة باللسان العربي، والفئة المثقفة باللسان الفرنسي، وأصحاب الطرق الصوفية. ومن الجوانب المهمّة جدا في جهود الإمام الإصلاحية التي لم تدرس بشكل كاف، رغم الأهمية التي كان يوليها لها الإمام نفسه، والحركة الإصلاحية التي كان من قياداتها، ما يتعلّق بالنخبة المتعلّمة باللسان الفرنسي والمشكلات العقديّة والفكرية التي كانت تعاني منها، وجهود الإمام ابن باديس في تمكين هذه النخبة من تجاوز هذه المشكلات، واستعادتها إلى رحم الأمة الجزائرية لتساهم بقدراتها العلمية والعقلية في النهضة بمجتمعها.

وأحاول في هذه المقال الوقوف عند بعض المشكلات الفكرية والعقدية لهذه النخبة في عهد ابن باديس، وجهود الإمام في معالجتها، وذلك من خلال العناصر الآتية:

1- الأوضاع الفكرية والعقدية والنفسية للنخبة المتعلّمة باللسان الفرنسي:

حين نعود إلى آثار الإمام ابن باديس نجد خصوصا عديدة قدّم لنا فيها الإمام وصفا للحالة الفكرية والعقدية والنفسية التي كانت عليها النخبة المتعلّمة المتخرجة من المدارس الفرنسية في الجزائر.

من هذه النصوص قول الإمام ابن باديس متحدّثا عن استحواذ المدارس الفرنسية على تعليم أبناء الجزائريين، والتأثيرات السلبية لهذا التعليم على شخصيتهم، وذلك حين قال: " لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليس له مدارس تعلّمه، وليس له رجال يدافعون عنه، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
دائم مستمّر، ويا ليتّه كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس
الأجنبية، التي لا تعطّيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسّفاسف،
حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها.

هذه هي الحالة التي كنّا عليها في تاريخنا الحديث، وما كنّا لنرضى بها أو نبقى
عليها وقد ولدتنا أمهات مسلمات جزائريات يأتين إلا أن نبقى كما ولدنا، وتأتي
ثقافتنا ألا نرجع إلا لما عليه كنّا¹.

وأكد في هذا النص أن هذه المدارس لا تعطي للجزائريين إلاّ تعليمًا هزيلًا
يشغلهم بسفاسف الأمور، مع حرمانهم من تعلّم دينهم ولغتهم وتاريخهم، وهو ما
يترتب عليه في كثير من الحالات -مع وجود استثناءات قليلة- موقف سلبى من هؤلاء
تجاه دينهم وقوميتهم، أشار إليه الإمام بعبارة دقيقة في هذا النص: " حتى إذا خرجوا
منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها".

وقال في سياق آخر مبينًا الآثار الخطيرة لهذا التعليم على شخصية الشباب
الجزائري المتخرّج من هذه المدارس: " شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه
ومجده، وقبّح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء - إلا منه - أمله، وحقّره في
نفسه تحقيرًا"².

وكان الأمل في سدّ هذا الخلل، والتقليل من الآثار السيئة للتعليم الفرنسي على
الشباب الجزائري في مدارس التعليم العربي الحرّ والقائمين عليها من المتعلّمين باللسان
العربي، ولكنّ هذه المؤسسات لم تكن قادرة على القيام بهذا الدور بسبب الجمود الذي
كانت تعاني منه في مقرراتها، وفقدان المتخرجين منها لفهم جيّد لمشكلات عصرهم،
وافترادهم القدرة على معالجة هذه المشكلات، وكان أعظم ما قاموا به الدخول في

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: ج4، ص.148.

2 - أحمد حماني: صراع بين البدعة والسنة، ج1، ص.57.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
 صراع مع المتعلّمين باللّسان الفرنسي حيث اتهموه بالكفر، وردّ عليهم هؤلاء فاتهموهم
 بالجمود والبعد عن قضايا العصر، أشار الإمام ابن باديس إلى هذا الأمر بقوله: "العلوم
 في الجزائر كما أظنّها في غيرها، منها علوم تؤخذ باللّسان العربي وهي علوم الدّين
 واللّسان، ومنها علوم تؤخذ باللّسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران، وقد كان
 الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام، كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على
 تيه وضلال، فهؤلاء يعتبرون الآخريّن أحجاراً... وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً.."¹.

2- نموذج المثقف المثالي في نظر ابن باديس

يعتبر الإمام ابن باديس قدرة المتعلّم على المحافظة على أصالته مع سعيه لتحصيل
 ما أمكنه من علوم العصر من أهمّ ميزات المثقف الذي يستطيع نفع المجتمع الذي ينتمي
 إليه، والمساهمة في نهضته من كبوته وتخلّفه.

ونجده يضرب الأمثلة على ذلك ببعض العلماء والمتعلّمين من أمثال أستاذه
 البشير صفر، فقد ذكر في كلمة ألقاها بتونس سنة 1937م- في ذكرى وفاة أستاذه -
 أنّ أستاذه جمع في شخصيته ثلاث صفات لا يتصف بها إلا الكاملون من العلماء
 العاملين، فجعل في مقدّماتها محافظته على أصالته في ثقافته الإسلامية، وعدم افتتانه بما
 تلقاه من علوم ومعارف إنسانية واجتماعية غربية في باريس، وهو ما أهّله لخدمة مجتمعه
 في ميدان التعليم وميادين أخرى خدمة متميّزة، يقول الإمام ابن باديس عنه: "إنّه رجل
 بنى ما أخذه من العلوم باللّغات الأجنبية على ثقافة إسلامية عربية، وبذلك استطاع أن
 يخدم أمّته وأن يحتلّ قلبها"².

1 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس: ج4، ص.116.

2 - المصدر نفسه ، ص.317.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال

3- المشكلات العقديّة والفكرية للمتعلمين باللسان الفرنسي وجهود الإمام

في معالجتها:

كان للفئة المتعلّمة باللسان الفرنسي مشكلاتها العقديّة والفكرية الخاصّة التي

تعاين منها، وأهمّ أسباب هذه المشكلات في نظر الإمام ابن باديس سببان اثنان هما:

* حرمان هذه النخبة من تعلم دينها وفق منهج سليم يعطي للعقل مكانته التي

يستحقّها.

* تأثر هذه النخبة ببعض أفكار المثقفين الفرنسيين والغربيين في موقفهم من

الدين المسيحي.

ومن خلال قراءتي لآثار الإمام وتتبعي لأعماله الإصلاحية وجدت أنّ أهمّ

المشكلات العقديّة والفكرية التي تتعلّق بهذه الفئة، ثلاث مشكلات أساسية:

* مشكلة تتعلّق بالعلاقة بين الدين والعقل.

* مشكلة الاغترار بالعلم والافتتان به.

* مشكلة علاقة الدين بالنهضة.

أولاً- مشكلة العلاقة بين الدين والعقل:

فقد كان لدى هذه الفئة صعوبات كبيرة في التوفيق بين ما حصلّته من معارف

ترفع من شأن العقل وتقديسه، وبين ما لاحظته في طرح بعض المتعلمين باللسان العربي

من قضايا فيها استصغار من شأن العقل ودوره في تحصيل المعرفة وبناء الأحكام في

الموضوعات المختلفة.

وقد أشار الشيخ ابن باديس إلى معاناة هذه النخبة من هذه المشكلة في تكوينها

حين دعا إلى انتشارها ممّا هي فيه فقال: "انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من

وهدة الشكّ في كلّ شيء يعزى إلى الدين بسبب ما يجده من خرافات وسخافات لا

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
يمكن للعقل أن يصدقها، وأن يعزّوها إلى دين اشتهر بآصاله بالعقل اتصّالا وثيقا، بحيث
لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم"¹.

ولما كان من أهداف العمل الإصلاحي للإمام ابن باديس إنقاذ هذه الفئة
واستعادتها إلى رحم مجتمعتها ليستفيد من معارفها، وتقوده في نهضته، فقد حرص على
التوجّه بخطاب خاص إلى هذه الفئة يبين فيه مدى تقدير الإسلام كدين للعقل، واعتباره
أعظم وسيلة زوّد الله بها الإنسان لتحصيل المعارف وتنميتها، لكنه ينبهها في المقابل أن
هذا العقل مهما كانت قدراته كبيرة فإنها تبقى عاجزة عن فهم بعض الأسرار في الخلق،
يقول الشيخ ابن باديس: "قد رأيت كيف يقف العقل عاجزا أمام بعض أسرار الخلق
والقدر والشرع والقرآن، مع يقينه بما علم منها أن ما عجز عن إدراكه ما هو إلا مثل
ما عرف من الحق والحكمة والنعمة، إذ الجميع- ما عرف وما عجز عنه- من إله واحد
حكيم خبير رحمان رحيم.

فليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائما هذه الحقيقة، وهي
ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال
عن إدراكها، فيكون عمله في خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف
واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حدّ توصله إليه
معلوماته وآلاته، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب
من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في
ضلالة أو حيرة.

فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيّات سببا في صدّ العقول
عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل"².

¹ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 3، ص. 253.

² - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص. 361.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
وكذلك كان يفعل الإمام ابن باديس مع هذه النخبة حين تردّ عليها بعض
الشبهات في دينها بسبب بعض قراءتها لمفكرين غربيين ينتقدون الإسلام ويشيرون حوله
الشبهات، من ذلك ما ذكره من لقائه بأحد المثقفين الجزائريين بمدينة سوق اهراس ممّن
أشكل عليهم فهم قضية القدر، حيث يقول الشيخ ابن باديس: " وكانت بعده مسائل
مما كان يجده السيد جازي في كتب الفرنسيين عن الإسلام والمسلمين ويعسر عليه
فهمها وخصوصا مسألة القدر، ففهمته مسألة الاختيار الذي يجده في نفسه، وحرية
الإرادة التي يُبنى عليها فعله، وقيام الحجة عليه بما، وهو لا يستطيع إنكارهما"¹.

ثانياً- مشكلة الاغترار بالعلم الحديث:

هذه هي المشكلة الأولى التي كان الشيخ ابن باديس يعمل على تمكين هذه الفئة
من تجاوزها، أما المشكلة الثانية، فتعتبر امتداداً لها، وتمثل في اغترار أفراد من هذه
النخبة بما توصل إليه العلم الحديث من اكتشافات، واعتبارهم أن لها الكلمة الأخيرة في
الحكم ببطلان ما يخالفها، ولو كانت نصوصاً قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة.
ونجد في كتابات الإمام ابن باديس بياناً لهذه المشكلة، واجتهاداً في تقديم
العلاجات لها، من خلال ما كان يمتلكه من معارف كونية واجتماعية بالإضافة إلى
رسوخه في علوم الشريعة الإسلامية، حيث كان يبيّن لهذه النخبة أن أموراً كثيرة مما
اكتشفه الإنسان في العصر الحديث، قد جاءت مصدّقة لما ورد في القرآن الكريم، مما
يدل على عظمة ما يتضمّنه هذا الكتاب من معارف، وعلى أن مصدره الوحي الإلهي،
وكمثال على هذه المعالجة نقتبس هذا النص من آثار الشيخ ابن باديس لتأخذ صورة
عن جهوده مع هذه الفئة، ففي تفسيره لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّ
فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: 12]، قال: "واتفق علماء

¹ - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4 ، ص. 240.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أنّ جُرم القمر-كالأرض-
كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحُمُوّ والحرارة ثم برد، فكانت إضاءةه
في أزمان حموّه، وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله
الله حجةً لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبرهانا لدينه على البشر مهما ترقّوا في العلم،
وتقدموا في العرفان.

فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفا أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفرادا قليلين
من علماء الفلك، وأن حموّ جرمه أولا وزواله بالبرود ثانيا ما عرف إلا في هذا العهد
الأخير.

والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرنا نبي
أمي من أمّة كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقوله إلا
بوحى من الله الذي خلق الخلائق، وعلم حقائقها¹.

كما كان يبين لهم أن ما يظهر من تعارض بين حقائق توصل إليها العلم
الحديث وبين نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة إنما يرجع سببه إلى قصور في
فهم هذه النصوص، أو غياب معطيات كاملة تمكّنا من فهمها فهما صحيحا، ويمكن
أن نضرب المثل على جهود الشيخ ابن باديس في إقناع هذه النخبة بهذا المنهج بما قاله
تعليقا على حديث عائشة رضي الله عنها أنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
إِذَا اشْتَكَى الْإِنْسَانَ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ فَرْحَةٌ أَوْ جَرَحٌ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَأْصِبُهُ هَكَذَا وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَابَتَهُ بِالْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا " بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا

¹ - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص. 77.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
 بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا يَا ذَنْ رَبَّنَا"¹، حيث أكدّ أنه لا يصح عقلا وعلما
 المسارعة إلى إنكار ما يدلّ عليه هذا النص وغيره من النصوص الواردة في الكتاب
 والسنة، لمجرد ملاحظة مخالفتها لما قرّره العلم، وإنما ينبغي التريث حتى يظهر من
 الكشوف العلمية ما يمكن أن يدلنا على المعنى الصحيح لما تضمّنه هذا النص، أو بتعبير
 الإمام ابن باديس: " وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدييره في الاجتماع ما
 يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه
 أفهامهم"².

ثمّ يؤكّد الإمام ابن باديس على حقيقة أنّ الزمن كفيّل بإظهار التأويل الصحيح
 لكثير من النصوص المشكّلة على الفهم في القرآن والسنة، فيقول: " إن القرآن كتاب
 الدهر، ومعجزته الخالدة، فلا يستقلّ بتفسيره إلاّ الزمن، وكذلك كلام نبينا المبين له.
 فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات
 الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصلّقها من سنن
 الكون .

وكم فسّرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن
 ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخّرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله
 صلى الله عليه وسلم {وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ}³ ⁴.

1 - أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: الجامع الصحيح ، كتاب السلام، باب استحباب
 الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة، ج.7، ص.17 .

2 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.411.

3 - أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، د.ط، دار الكتاب العربي،
 بيروت، د.ت، ج.11، ص.30.

4 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.411.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكحال
وبهذه الطريقة جمع الشيخ ابن باديس في توجيهه هذه النخبة " بين تكريم العقل
وبين وجوب تواضعه، حتى لا يضلّ الإنسان في الإعجاب بنفسه وعقله"¹.

ثالثاً- مشكلة علاقة الدين بالنهضة:

أمّا المشكلة الثالثة التي تعاني منها هذه النخبة فتتمثل في الاعتقاد السائد عند
كثير من أفرادها بأنّ التزام الجزائريين وغيرهم من المسلمين بالدّين هو سبب تخلفهم،
وأنة لا مطمع لهم في أيّ تقدّم إلاّ إذا فعلوا ما فعله الغربيون من قبلهم حين تخلصوا من
هيمنة الكنيسة وفكرها الخرافي على تفكيرهم، وفتحوا المجال واسعا أمام عقولهم.
وكان الإمام ابن باديس في كتاباته الموجهة إلى هذه النخبة يؤكد أن الإسلام لم
يكن في يوم من الأيام سببا لتخلف معتنقيه، وإنما على العكس من ذلك كان أعظم
سبب حفزهم على صناعة حضارة امتد عطاؤها للمجتمع الإنساني لقرون من الزمن،
وأنّ ما يرى من تخلف في حياة المسلمين وغيرهم، إنّما مرده إلى إهمال المسلمين الأخذ
بالأسباب التي يأمر دينهم بالأخذ بها.

ومن كتاباته لهذه الفئة في الموضوع قوله: "وقد أفادت الآية²... أنّ أسباب الحياة
والعمران والتقدّم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأنّ من تمسك بسبب بلغ-بإذن
الله- إلى مسببه، سواء أكان برا أم فاجرا، مؤمنا أم كافرا.

وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد
تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدينة الحقّة بالعلوم والصناعات لما أخذوا بأسبابها
كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتّى كادوا يكونون دون الأمم كلّها بإهمال تلك

¹ - محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ط2،
ص.98.

² - الآية هي قوله تعالى: { كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
 الأسباب ، فحسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذلّ
 والانحطاط ، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلاّ إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ
 بتلك الأسباب.

فهذه الآية من أجمع الدواء لفتنة المسلم بغيره المتقدّم، لما فيها من بيان أنّ المسلم
 ما تأخر بسبب إسلامه، وأنّ غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأنّ السبب في التقدّم والتأخر
 هو التمسك والترك للأسباب¹.

ومع تأكّيده على أهمية الأخذ بالأسباب أو تركها في التقدّم أو التأخر، فإنّ
 الشيخ ابن باديس لا يُغفل لفت انتباه هذه الفئة إلى ما يقرّره القرآن في نصوص كثيرة
 من أنّ من أهم أسباب تغيير حال الناس نحو الأحسن التزامهم بالإيمان بالله ومقتضياته،
 وذلك حين يعلّق على مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية أشارت إلى أسباب هلاك
 المجتمعات والأمم، منها الآيات الثلاث الآتية: {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا
 وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾} [الكهف: 59] ، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ
 بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾} [هود: 117] ، {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا
 وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾} [القصص: 59] ، حيث يقول: "وقد عرفنا في الآيات
 المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لتتقي تلك الأسباب فنسلم أو نقلع عنها فننجو، فإن
 بطلان السبب يقتضي بطلان المسبّب.

وقد ذكر لنا في كتابه أمة أفلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعدما كان
 يتزل بها، ليؤكّد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبّب فقال تعالى: {إِلَّا قَوْمَ
 يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ
 ﴿٩٨﴾} [يونس: 98].

¹ - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص.91.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكحال
 فمبادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر كشف عنهم العذاب، وأرشدنا في
 ضمن هذا إلى العلاج الناجع في كشف العذاب وإبطال أسبابه وهو الإيمان، كما
 أرشدنا الله إليه أيضا في قوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} [يونس:
 98]، أي نجاتها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلا لذلك، وأرشدنا إليها أيضا في
 قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ} [الأعراف: 96]، فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لنا في حالتنا لأننا إذا
 التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب"¹.

كما انتقد الشيخ ابن باديس الطريقة التي ينظر بها أفراد هذه النخبة إلى المدينة
 الغربية باعتبارها تمثل النموذج الكامل في الصلاح والتقدم، فبين بعض الجوانب التي
 أخفقت فيها هذه المدينة رغم نجاحها في الجانب المادي حيث قال: "رأى بعض الناس
 المدينة الغربية المسيطرة اليوم على الأرض- وهي مدينة مادية في نهجها وغايتها
 ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان-، فقالوا: إن رجال هذه
 المدينة هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ(الصالحون)
 في الآية² الصالحون لعمارة الأرض، فيا لله للقرآن وللإنسان من هذا التحريف
 السخيف، كأن عمارة الأرض هي كل شيء، ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق،
 واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعُدبت الإنسانية بالأزمات الخائفة، ورُوّعت
 بالفتن والحروب الجارفة، وهُدّدت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية، من أصلها والمدينة
 من أساسها.

¹ - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 165- 166.

² - الآية هي قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ} (١٠٥) [الأنبياء : 105].

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سكّحال
هذه هي البلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدينة التي عمّرت الأرض
وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرّف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل
والرحمة والإحسان وإصلاح الإنسان ليصلح العمران"¹.

ونختم حديثنا عن هذه المشكلة بتوجيه قدّمه لبعض الطلبة الذين توجّهوا لدراسة
العلوم الحديثة في باريس، توجيه جمع فيه بين ضرورة المعرفة الدقيقة بأسباب هوض هذه
المجتمعات، وأخذ ما يناسب مجتمعهم وثقافته ودينه، يقول الإمام ابن باديس موجّهاً: "
فإذا أردنا أن نقتبس منهم كما اقتبسوا منا، ونأخذ عنهم كما أخذوا عنا، فعلينا أن
نخالطهم، ونخالطهم في ديارهم حيث مظاهر مدنيتهم الفخمة في مؤسساتهم العلمية
والصناعية والتجارية، في أحزابهم على اختلاف مبادئها، في جمعياتهم على اختلاف
غاياتها، في عظمائهم أصحاب الأدمغة الكبيرة التي تمسك بدفة السياسة، وتدير لولب
التجارة، وتسير سفينة العلم، فالذين يخالطونهم هذه المخالطة بتمام تبصر وحسن
استفادة، يخدمون أنفسهم وأمتهم خدمة لا تقدر، خدمة تكون أساساً للتقدم والرفق.

فلهذا نرى ما عزم عليه أفراد متنوّرون من شباننا الناهض من إيفاد وفد إلى
الديار الفرنسية من أهم المشاريع التي يجب تأييدها وشكر القائمين بها"².

هذه بعض المشكلات العقديّة والفكرية التي كانت النخبة المتعلّمة باللسان
الفرنسي تعاني منها، وبعض جهود الإمام ابن باديس في معالجتها، ويحتاج الموضوع
لأهميته إلى دراسة أشمل وأعمق من خلال آثار الإمام، وأعمال جمعية العلماء، لإبراز
دور الحركة الإصلاحية في استعادة كثير من أفراد هذه النخبة إلى رحم مجتمعا في
فكرها وعقيدها ولغتها وقوميتها.

1 - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 209- 210.

2 - عبد الحميد بن باديس: آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج5، ص. 429-430.

جهود ابن باديس في مواجهة المشكلات العقديّة والفكرية----- د. نور الدين سـكـحـال

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري

- دراسة فكرية تربوية -

أ. عبد الحكيم كرام

المدرسة العليا للأساتذة- قسنطينة.-

الملخص :

العودة إلى التراث مهمة تربوية حضارية، إذا تمت في شروط علمية عقلانية، تتجاوز الهوى إلى الاتصال الشعوري بمنجزات الأسلاف، وذلك من أجل ربط حلقات الماضي بالحاضر لأن الوجدان لا يقبل الانفصام.

وحتى يستطيع المربون القيام بذلك، عليهم أن يربطوا الجيل الجديد بتراثه، من خلال انتقاء الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء، وفي مقدمة هذه الحصيلة القيم الإنسانية العالية. دون أن يتخلى هذا الجيل عن الأكاداس الفكرية والمنجزات العلمية التي يزرع بها عصرنا، وذلك من أجل أن يكسب رهان التحدي الحضاري المرفوع أمامه.

Abstract

Return to the legacy of civilization is an educational task if it refers to reasonable scientific conditions, beyond the emotional passion to connect the achievements of predecessors, to connect the elements of the past with the present, because the conscience can not accept the dichotomy.

And so the educators to do so, they must link the new generation with its heritage, through the selection of specific viable outcome, and the outcome of high human values. Without that prevent this generation of stacks of intellectual and scientific achievements that characterize our times, in order to win a bet cultural challenge presented to him.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام

مقدمة :

يتميز الفكر التربوي في المجتمعات النامية بالهشاشة، والتفكك، مما يجعله أقرب إلى الانفعال منه إلى الفعل، بالنسبة لما يدور حوله من أحداث، وما يستجد من مستجدات، فيعجز في كثير من الأحيان، عن أن يقوم بدور فعال في السيطرة على حركة الواقع. هذا على عكس ما يحدث في المجتمع المتقدم، الذي نجد الفكر فيه على درجة عالية من الحيوية والثراء والفعالية، يقوم بدوره في التصحيح والتوجيه¹.

ومن أبرز مظاهر التفكك والهشاشة، التي يعاني منها الفكر التربوي في المجتمعات النامية، اضطرابه في مسألة الحفاظ على الهوية الوطنية والقومية، والتاريخ. وهي مسائل حساسة ومترابطة لا تتحمل التراخي، بل إنها تكتسي أهمية في وقتنا الراهن — ربما أكثر من أي وقت مضى — بالنسبة لكثير من بلدان العالم، لا سيما النامية منها، وهذا يعود إلى حداثة عهدها بالاستقرار، وبحثها عن النموذج الإيديولوجي الأمثل²، الذي تستمد منه سياستها وخططها التربوية، إذ يصنفها الدارسون هذه البلدان بأنها صاحبة "النمط الإيديولوجي الحائر"، المتردد في اختياره بين الإيديولوجيات

¹ - سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، 113، الكويت 1987، ص ص 5 — 6 .

² - الإيديولوجيا (l'idéologie) هي نسق من الأفكار أو رؤية متكاملة ومنهج وفلسفة تعكس مبادئ المجتمع، وعلاقاته المادية والمعنوية، وهي جملة من الأفكار مبنية على ما أمكن التحقق منه على أساس من الواقع والتجربة، وبهذا فإن الإيديولوجيا هي الرؤية الفلسفية التي تتبناها سلطة الدولة لتوجيه الأفراد والجماعات كما تحدد وجهة نظرهم واتخاذ المواقف الفكرية سواء من الثقافات المتداولة فيما بينهم أو لمواجهة الثقافات الواردة باتخاذ الصالح منها وترك غير المناسب. [أنظر سعيد التل وآخرون: المرجع في مبادئ التربية، دار الشرق للنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1993، ص 62].

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام المتصارعة¹، ومن ثم فإنها تكاد لا تقوى على المحافظة على بقاءها الثقافي، بين الدول المتفوقة في جميع النواحي الحضارية، التي ترفع أمام الدول النامية تحديات من نوع ثقافي، قبل أي نوع آخر من التحديات، مستعينة في ذلك بوسائلها المختلفة، وآلياتها المتعددة: الفكرية، والثقافية، والاقتصادية، والإعلامية، شديدة التأثير، في ظل العولمة الثقافية على وجه الخصوص، التي يروّج أصحابها إلى أنها قدر لا يمكن الهروب منه، إذ بزعمهم: " أن العولمة ذات الاتجاه الليبرالي المغربي في التطرف، هي من قبيل الحتميات الاقتصادية والتكنولوجية الشبيهة بالأحداث الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها"². وهذا كما هو واضح تحدّ صارخ، يكاد يجرف الدّول النّامية إلى ساحته، ساحته التي لا ترحم الضعيف، والبقاء فيها للإنسان الأقوى: ثقافيا وفكريا، وتكنولوجيا، وبكلمة مختصرة الأقوى حضاريا.

والسؤال المطروح :

إلى أي مدى يمكن للتربية أن تسهم في بناء شخصية الإنسان الجزائري، والمحافظة على هويته عن طريق ربطه بترائه الحضاري؟

قبل التوسيع، لابد أن نضع تحديدا أوليا للمفاهيم الأساسية الواردة في المقدمة السابقة، والمشكلة لبنية السؤال المطروح المنبثق عنها، ثم سنتطرق بالتحليل إلى جملة من العوائق التي تعيق المجتمع الجزائري خاصة والعربي عامة، عن النهوض، كما تقف أمام سبل تحقيق التواصل الإيجابي مع التراث. ثم سنعرض لتجربة اليابان الرائدة في عصرنا

¹ - هذا النمط يوجد في الدول النامية، وهو نمط متردد في استخدام أي من الانماط الايديولوجية التمييزية وتبنيها، دون تمكنه من بلورة نمط خاص به وذلك نتيجة مشاكل عديدة يعاني منها تعود إلى تخلفه في التنمية البشرية والاقتصادية ... الخ، المرجع نفسه، ص 156.

² - هانس بيترمان، هارالد شومان: فح العولمة، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، 238، الكويت 1998، ص 10 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
بتمكّنها من مساندة الركب الحضاري باستفادتها من تراثها. ثم سنناقش الرأي القائل
بعدم جدوى العودة إلى التراث، باعتباره غير حضاري، ولا يمكنه أن ينسجم مع ما
حققته الإنسانية من قفزات في سلم التطور العلمي والصناعي بالدرجة الأولى، مركزين
على إحدى مسائل التراث الجوهريّة وهي اللغة، وبالتحديد في سياقنا هذا لغتنا العربيّة.
وفي الأخير سنتعرض إلى جملة من مفردات التراث الحضاري التي نرى أنه من واجبنا
التنويه بها.

**أولاً- مفهوم الفكر التربوي، دور التربية، مفهوم التراث، مفهوم الحضارة،
ومفهوم الهوية:**

1- الفكر التربوي:

"الفكر التربوي" مصطلح يشير إلى النشاط الفكري الذي يتخذ من فلسفة ما
وسيلة لتنظيم العمل التربوي في كلياته وجزئياته وتحقيق الأهداف التي يسعى إليها
(...) وهناك من يقصر التفلسف التربوي على التحليل والتوضيح المنطقي للأفكار
وهناك من يقصره على تحليل الواقع الثقافي للمجتمع وتحليل واستنباط أهداف جديدة.
ويتميز التفلسف التربوي بعدة خصائص منها:

- أ - محاولة الوصول إلى نوع من العمومية والشمول.
- ب - محاولة التمسك بالاتجاه العقلائي.
- ج - محاولة استقراء الواقع والبعد عن التأمّلات الذاتية.
- د - محاولة الوعي بكل القوى والمؤثرات الفكرية حوله.
- هـ - محاولة الكشف عن المتناقضات بين الفكر والواقع¹.

¹ - لطفي بركات أحمد: المعجم التربوي في الأصول الفكرية والثقافية للتربية، دار الوطن للنشر
والطباعة والإعلام، ط1، الرياض 1984. ص ص 56 - 57 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
أما عن المسالك التي ينبغي على المفكر التربوي أن يسلكها، عند قيامه بعملية
التفلسف التربوي، فيذهب "عبد الله عبد الدائم" أن على المفكر التربوي أن يفتح
حوارا متعدد الجوانب، متسع الأبعاد، فيحاور علوم التربية وما تقدمه من معطيات،
ويحاور المتعلم، ويكشف عن ميوله وصبواته، ويعمل مشتركا معه من أجل بناء واقع
تربوي جديد، وفوق هذا وذاك يحاور المجتمع في شتى مجالاته الاقتصادية والاجتماعية
والسياسية، ذلك أن "الفلسفة التربوية ينبغي أن تكون بمثابة الملتقى الذي تجتمع عنده
جميع المشكلات المتعلقة بالوجود، لتحلل وتناقش وتستخلص منها الاتجاهات المرجوة
للتربية. وهذا الحوار الشامل مع الواقع الموجود، الواقع التربوي بأبعاده المختلفة، والواقع
الاجتماعي بمعانيه المختلفة (...). هو الذي يدلنا في النهاية، لا على ما هي عليه التربية
فحسب، بل على ما ينبغي أن تكون عليه، أي يولد غايات التربية وأهدافها
وفلسفتها"¹.

وبناء على ما سبق يمكن القول أن المفكر التربوي يعمل على تجسيد فلسفة
تربوية، تكون " هي الخريطة الفكرية التي تحدد لنا، خصائص، ونوع ووجهة ومسار
البناء.. بناء الإنسان"².

2- دور التربية :

وضع مفكرو التربية أدوارا مختلفة للتربية: معرفية، وسلوكية، وروحية،
وأخلاقية؛ واختلفوا في أي من هذه الجوانب له حق الأولوية على باقي الجوانب. لكننا
في هذه المداخلة نتبنى الرأي الذي يجعل تربية الشخصية من الزاوية القيمية الأخلاقية

¹ - عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت
2000، ص 61 .

² - سعيد اسماعيل علي: فلسفات تربوية معاصرة، سلسلة عالم المعرفة، 198، الكويت 1995 ص
6.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
والثقافية، من أولى أولويات العمل التربوي¹. حيث يتمثل دور التربية — حسب هذا
الرأي — في المحافظة على قيم المجتمع، وتنقيتها، وترقيتها بما يتوافق وروح العصر، دون
الوقوع في التجاذبات الإيديولوجية، التي قد تنحرف بالتربية عن مسارها الذي يهدف
إلى صنع الإنسان المتوازن، وبالتالي حفظ كيان المجتمع من الذوبان، وذلك عن طريق
التنسيق والتعاون بين المدرسة من جهة، وبين المؤسسات التي لها دور كبير في التأثير
سلباً أو إيجاباً، في تربية وتوجيه النشء من جهة أخرى، بحيث تسير برامج هذه
المؤسسات (البيت، دور العبادة، الجمعيات، النوادي، وأجهزة الإعلام) ووسائل تأثيرها
في خط متواز مع أهداف التربية المثلى، حتى لا ينشأ الطفل وقد تولدت في نفسه عقد
كثيرة، وتكونت عنده الازدواجية، فيصبح نمياً مقسماً بين مختلف الاتجاهات
والانتماءات، ويغدو ولاؤه مضطرباً مزعزعا، وبالتالي تصبح مهمة تربيته مهمة شاقة².

3- التراث :

يتحلى التراث في الآثار المكتوبة وغير المكتوبة، كما يراد بكلمة تراث الكتب
المخطوطة التي ورثها الخلف عن السلف، فالتراث كما جاء في "معجم المصطلحات
العربية في اللغة والأدب" هو " ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية، مما يعتبر
نفيسا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه. مثال على ذلك: (...) ما تحتويه المتاحف
والمكتبات من آثار تعتبر جزء من حضارة الإنسان"³.

¹ - محمد منير مرسي: فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، عالم الكتب، (د ط)، القاهرة 1992، ص 80 .

² - مجدي عزيز إبراهيم: المنهج التربوي والتحدي، عالم الكتب، ط 2، القاهرة 2002، ص 20 .

³ - كامل المهندس ومجدي وهبه: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ط2، بيروت 1984، ص 93.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
وحسب هذا التعريف فالتراث يتكوّن من خلال تراكم عادات وتقاليد وتجارب
وخبرات وعلوم، شعب من الشعوب، وهو جزءٌ أساسي من قوامه الاجتماعي
الحضاري الخلفي، يوثق علائقه بالأجيال السالفة التي عملت على تكوين هذا التراث
واغناؤه. فالتراث أداة لثبيت كل إرث ثقافي لم يتطرق الشك إلى أصالته، وبهذا فهو
مكوّن من مكونات الحضارة التي ينتمي إليها¹.

4 - الحضارة :

رغم التداخل الموجود بين مصطلحي الثقافة والحضارة، إلا أن مفهوم الحضارة
يعد أشمل من مفهوم الثقافة؛ والحضارة (Civilisation) كما تعرفها "الموسوعة
السياسية" "مشتقة (من الحضرم والمدنية) وهي مجموعة المنجزات الفكرية والأخلاقية
والصناعية، التي يحققها مجتمع معين في مسيرته لتحقيق الرقي والتقدم"².
ويركز البعض في استخدام مصطلح الحضارة على الناحية الثقافية، بينما
يستخدمها البعض الآخر على أساس أنها سيادة العقل في المجتمع. أما استخدامها
المعاصر فقد شدّد على ما تضمّنه من التطور العلمي والتكنولوجي، وما يفرزه هذا
التقدم من إنجازات في الميادين الأخرى³.

ويذهب "مالك بن نبي" أن الحضارة هي عبارة عن "جملة العوامل المعنوية
والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة

¹ - جان فرنسوا دورتيه (إشراف): معجم العلوم الإنسانية، ترجمة جورج كتورة، مجد المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 2009، ص 215 .

² - عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
ط 2، بيروت 1985، ص 349.

³ - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
لتقدمه¹، ويضيف "مالك بن نبي" في تحديد مفهوم الحضارة أنها سياج حصانة للإنسان
تحميه من الهمجية².

والجدير بالذكر في سياق تعريفه "مالك بن نبي" أن الحضارة هنا" لا توضع في
مقابل البداوة، لأن هذا التصور يطمس معالم البداوة التي تمثل إحدى روافد حضارة
مجتمعنا العربي الإسلامي، والتي تغنى بحاسنها تراثنا الأدبي، وهذا يتماشى تماما مع
المفهوم الانثروبولوجي للحضارة، الذي يجعلها ليست صفة خاصة بالمجتمعات المتطورة
فقط، بل صفة تصدق على كافة المجتمعات الإنسانية، التي يصح القول أنها قد عرفت
شكلا من أشكال الحضارة نطلق عليه اسم الثقافة³.

5- الهوية :

الهوية هي الشفرة التي يمكن للفرد بواسطتها أن يعرف نفسه في علاقته
بالجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، والتي عن طريقها بالمقابل يتعرف عليه الآخرون
باعتباره منتما إلى تلك الجماعة. وهي شفرة تتجمع عناصرها العرقية على مدى تاريخ
الجماعة، من خلال تراثها الإبداعي الثقافي، الذي يطبع حياتها في الحاضر، وتسعى إلى
الحفاظ عليه في المستقبل، وتتجلى الهوية في اللغة بشقيها اللفظي والرمزي، إضافة إلى
العادات .

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار الفكر،

ط1، بيروت 1971، ص 50 .

² - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

³ - راجع جان فرنسوا دورتيه: معجم العلوم الإنسانية، ص ص 350-351 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
وليست الهوية هي كل هذا فقط، بل يمتد مفهوم الهوية ليشمل الملامح
البيولوجية والنفسية التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها
وحيويتها بينهم، من خلال الأساطير، والقيم، والتراث الثقافي¹.
ومن خلال هذا التعريف يتجلى لنا مدى الارتباط الوجودي بين التراث الثقافي
الحضاري وبين الهوية.

ثانياً — عوائق الاتصال بالتراث :

لقد شاعت في عصرنا حالة من خشية الالتفات إلى الخلف بعد أن أذيعت بين
بعض المفكرين الرّهبة من فكرة "الماضوية" و"العودة المأزومة إلى التراث"، الأمر الذي
كرّس لديهم سوء نظرة لصورة التراث، أو بتعبير آخر استعلاء عليه، وهذا برأينا جانب
هام من أزمة النهضة التي يعاني منها المجتمع العربي عامة ومجتمعنا الجزائري خاصة،
ونقصد هنا فئة من الطبقة المثقفة والمتعلمة، المستلبة ثقافياً من طرف الثقافة الغربية،
ابتداءً بشريحة هامة من النخبة المثقفة، وانتهاءً عند الجيل الصاعد المتعلم على يد هذه
النخبة أو المتأثر بها، عن طريق التعليم والتربية، أو بوسائل التثقيف المتعددة. ما سيجعل
هذا الجيل الصاعد يأخذ بهذه الصورة غير السليمة والضبابية للتراث، بل وحتى
المشوهة، في مستقبل حياته.

وحتى نفهم الصورة الحاضرة التي يبدو عليها تراثنا في عيون كثير من مثقفينا،
يحسن بنا في بداية مقالنا هذا أن نستحضر جملة من الأسباب أو العوائق التاريخية
والمعرفية التي أدت إلى ما هي عليه هذه الصورة اليوم من الانحراف والتشوّه .

¹ - راجع رشاد عبد الله الشامي: إشكالية اليهودية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، 224، الكويت
1997. ص 5 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام

1- عوائق زرعها المستشرقون :

عرّف المفكر الجزائري " مالك بن نبي" المستشرقين بأنهم: " الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"¹، و صنفهم إلى صنفين :
أ- من حيث الزمن: طبقتان، قدماء أمثال: " توماس الاكوييني"، ومحدثون أمثال: "كارادي فو" و"جولد زيهر" .

ب - من حيث الاتجاه العام: طبقتان، منتقدين أو مشوهين، ومادحين .

فالقدماء من المستشرقين عملوا على تشويه صورة العربي والمسلم والإسلام في العالم الغربي من جهة، كما عملوا، من جهة أخرى، على دراسة شعوب وحضارات الشرق، لمعرفة أسرارها العقائدية والفكرية، فترجموا "القرآن" و"عقيدة ابن تومرت" زعيم حركة الموحدين التي خشيتها الغرب في ذلك الوقت .

أما طائفة المستشرقين المادحين، فمنهم فئة كتبت لنصرة الحقيقة العلمية والتاريخ، ومن أجل مجتمعهم الغربي في نفس الوقت، وهنا يلفت "مالك بن نبي" نظرنا إلى أن هذا المدح له أثر مرضي إذ جعل منه بعض المتعلمين في المرحلة الاستعمارية مرهما مسكنا، أو حقنة اعتزاز تدفع عنهم المهانة التي لحقت بهم من جراء اصطدامهم بالثقافة الغربية التي أحدثت شللا في جهاز الحصانة الثقافية، وأصبح المتعلمون ناهيك عن العامة يعانون من مركّب نقص عميق .

ولقد نبه "مالك بن نبي" إلى مساوئ وقع أعمال المستشرقين المادحة للحضارة والتراث الإسلامي، على من يطرب لها، حيث شبه المنتشي بأعمال السلف، بالفقير الذي لا يملك قوت يومه، ويتسلى بالتحدث عما كان يملك أجداده من ثروات طائلة،

¹ - مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1966، ص 5.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
فتسليته هذه تبعد عن فكره مؤقتا الشعور بالفقر لكنها لا تجعله غنيا بمجرد ذلك
الحديث¹.

2- عوائق نمّائها الاستعمار وأحيائها :

كان نتيجة أعمال المستشرقين السابقة الذكر من جهة، وما ألحقه الاستعمار
من هزائم عسكرية تجذّر مركب النقص في المجتمعات المستعمرة، من جهة أخرى —
وبلادنا على وجه التحديد قد عانت ربما أكثر من أي بلاد أخرى من هذين الطرفين
— كانت نتيجة ذلك انقسام المفكرين عندنا إلى اتجاهين:

أولهما: يدعو إلى الأخذ بالفنون والعلوم والصناعات الغربية، حتى اللباس، بل
اللسان، ونسيان كل ما يقابل هذه المنتجات محليا من تراثنا².
وثانيهما: حاول التغلب على مركّب نقصه بالبحث عن "حقنة اعتزاز للتغلب
على المهانة التي أصابته من الثقافة الغربية المنتصرة"³.

ولعل الاتجاه الأول كان أكثر تأثيرا في الناحية الفكرية والسياسية والاجتماعية،
بينما بقي الاتجاه الثاني — ولنسمه بالخافظ — في عمق المجتمع بشرائحه المتوسطة
والفقيرة، والتي عانت أكثر من غيرها الإذلال والاستبعاد من طرف المستعمر؛ وإن كان
"مالك بن نبي" نفسه لا ينكر ما لهذا الاتجاه الثاني — المعتر بما لدى الأجداد من أمجاد
— من أثر تربوي نفسي مسه شخصيا في طفولته⁴.

3- عوائق ذاتية (رواسب نفسية) في الإنسان الجزائري :

¹ - مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص 13.

² - المرجع نفسه، ص 10.

³ - المرجع نفسه، ص 12.

⁴ - المرجع نفسه، ص 13.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
إن عوامل الأُمّية التي كانت نتيجة الحقبة الاستعمارية الطويلة، وما انجر عنها
من ردود أفعال عاطفية، وعدم حمل مسألة التراث الحضاري، وعلى رأسها اللغة
العربية، محمل الجد، زادت من ابتعاد مجتمعنا عن جذوره الممتدة إلى تراثه الثقافي
والحضاري. وهذا يعود كما أرجعه " عبد الله شريط " في كتابه: "من واقع الثقافة
الجزائرية"، إلى جملة من العادات السيئة المنفشية في المجتمع الجزائري، والتي تعمل عملا
مثبطا للحياة الثقافية، في وسط المثقفين أنفسهم، مما ينعكس مباشرة على المؤسسات
التربوية والتوجيهية، ومن هذه العادات السلبية :

— نفسية الاستهلاك، سواء للثقافة الموروثة أو للثقافة الوافدة .

— الجمود والكسل واللامبالاة في تناول القضايا المصيرية، وعلى رأسها قضية
اللغة العربية، لغة المجتمع الثقافية، وحاملة تراثه .

— الانهزامية، واحتقار الشعب لنفسه أمام الثقافة الوافدة¹.

فهذه العادات التي تفتشت في المجتمع الجزائري، حسب رأي "عبد الله شريط"
تعمل عملا مثبطا قويا لتمسك مجتمعنا الجزائري بجذوره الممتدة إلى تراثه الثقافي
والحضاري.

ثالثا : التحديث ليس متناقضا مع الحفاظ على الذات والاعتزاز بالتراث:

يمثل أمامنا في هذا المضمار نموذج (التجربة اليابانية)، التي نجحت إلى حدّ بعيد
في التوصل إلى حل معادلة "التراث والعصرنة"، ولنقف على أهم المرتكزات في تجربة
اليابان التحديثية، التي استندت فيها على إرثها الحضاري العريق، وهي كالتالي:

— اعتبار اليابانيين الأوروبيين الغزاة بـرابرة، يجب دحرهم والتفوق عليهم .

¹ - عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر 1981،

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
— التمسك بقيم "الكونفوشيوسية" الجديدة، التي يشدد مفكروها على ضرورة
تدريس التاريخ، والتربية والأخلاق، كل ذلك من أجل ترسيخ التعاليم الأصلية المبنية
على ثقافة المجتمع وتراثه .

— إيلاء المصلحين اليابانيين الحفاظ على الثقافة التراثية، إبان عملية التحديث،
الأهمية القصوى في برامجهم الإصلاحية، واعتبارهم أن التحديث الذي يقود إلى التفريط
في الثقافة التراثية هو أقصر طريق للتغريب، ولا يقود أبداً إلى الحداثة الحقيقية¹.

— القيادة المتنورة في عهد الأباطور "مايجي" الذي امتدت فترة حكمه (1868
— 1912) والذين جاؤوا من بعده، جعلت من الثقافة التقليدية ركائز وطنية صلبة
لمواجهة ثقافة التغريب .

فلم يُسمح لمقولات الثقافة الغربية باختراق النسيج المتماسك للمجتمع الياباني،
ولم يعتمد نموذجاً غريباً واحداً منها بعينه لتطبيقه، وفضل اقتباس ما هو مفيد من
النماذج الغربية، وطرح ما يقود للتغريب. ونتيجة ذلك نجحت اليابان في الانتقال من
مرحلة نقل التكنولوجيا والعلوم (مرحلة الاقتباس)، إلى مرحلة تطويرها، والمشاركة في
تصنيعها عالمياً (مرحلة الإبداع والتجديد)².

وهكذا اتخذت اليابان من الثقافة التراثية ركيزة أساسية لعملية التحديث، انطلاقاً
من الرأي القائل بأن الثقافة التراثية هي التي تحدد ملامح الشخصية القومية لأي شعب
من الشعوب. كما فهم اليابانيون أن التراث بحد ذاته قد يكون حافزاً للتقدم كما قد
يكون معيقاً جدياً له، لذا قاموا برسم إستراتيجية شاملة طويلة الأمد يقوم فيها
المصلحون بعملية الأخذ

¹ - مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم
المعرفة، الكويت 1999، ص 22 .

² - المرجع نفسه، ص 292 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
بتطوير الجوانب الإيجابية من التراث.

ولم تسر النهضة اليابانية في طريق معبدة، بل اعترضت سبيلها تحديات كبرى واجهها اليابانيون بتضحيات تكفؤها للحفاظ على أصالة عريقة، تحميها حداثة مفتوحة بشكل مدرّوس على جميع ثمار التغيير والثقافات العصرية، تتعامل معه بثقة القادر على الاستيعاب والتطوير والإبداع¹. تضحيات مست جميع طبقات المجتمع، وكمثال على ما نقول مساهمة "طبقة الساموراي"، وهي طبقة عسكرية في الأساس كانت تعيش — لقرون طويلة — بشكل طفيلي على حساب القوى المنتجة، ونظرا لأنها كانت على قدر من المعرفة والعلوم العصرية أفضل من غيرها من الطبقات، تنازلت هذه الطبقة عن امتيازاتها استجابة للإصلاحات التي نادى إليها الأباطور المستنير، فلعبت " شريحة الساموراي" دورا أساسيا في نشر الثقافة اليابانية، وفي تعليم الفقراء من اليابانيين².

ولا بد أن نشير في نهاية هذا العرض الوجيز للتجربة اليابانية، أن هناك كثير من الباحثين الذين لم يتوقعوا نجاحا لليابان معلّين آراءهم بأسباب مختلفة منها:

- الطبيعة القاسية لليابان، و فقرها من المعادن.

- حب الكسل والرّضا والقناعة بالقليل عند الإنسان الياباني، وعدم قدرته على إدارة الأعمال على أسس عصرية، نظرا لإغراقه في تقاليد الموروثة على جميع المستويات، فينبغي ألاّ يكون للياباني أي علاقة بالأعمال الصناعية الحديثة، لأنه لا يملك أي ذكاء يمكنه من إدارتها .

- التجربة اليابانية مجرد تقليد لتجارب التحديث الغربية ولن تصمد طويلا³.

¹ - المرجع نفسه، ص 23 .

² - المرجع نفسه، ص 230 .

³ - المرجع نفسه، ص 16 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
وما يمكن أن نستخلصه من هذه التجربة، أن اليابان استطاعت الخروج من
منطق الرفض أو القبول إلى الخيار الثالث، المتمثل في الحفاظ على أحسن ما في القديم،
والأخذ بأحسن ما في الجديد مع الذكاء والحكمة في تعاملها مع الغرب أي دون
التفريط في هويتها الثقافية والحضارية، عن طريق العمل الشاق للحاق بركب الحضارة،
لأنها فهمت واعتبرت من دروس التعامل مع الغرب، فتعاملت معه بسلاحه وهو العلم،
وأسهمت في دفع عجلة التقدم العلمي والتكنولوجي، التي يقودها الغرب، حتى
أصبحت جزءاً منه، رغم الاختلاف الكبير في الثقافة والنظرة إلى التراث.

رابعا : أهمية اللغة العربية وضرورة تغيير النظرة إليها:

قال الفيلسوف الألماني "فيخته" (1762 - 1814): "اللغة روح الشعب"¹، بمعنى
أما حاملة فكره، وحافظة تراثه وصورة شخصيته. ومن الأمثلة التي تبرز شدة اعتزاز
الأمة الألمانية بلغتها، ما نشرته جريدة "دي فليت" (Die Welt) الألمانية سنة 1965م،
في مقال لها عنوانه: "لا بكالوريا مع علامة ضعيف، أو ضعيفة في اللغة الألمانية"، تعليقا
على قصة الفتاة التي رسبت في شهادة البكالوريا رغم حصولها على معدل عام عال،
و حين رفعت الفتاة قضيتها إلى المحكمة محتجة، رفضت المحكمة العليا احتجاجها، نظرا
لأن الفتاة متحصلة على نقطة ضعيفة في اللغة الألمانية، ولا يشفع لها أنها تدرس في شعبة
علمية وليست أدبية².

يذكر "مولود قاسم نایت بلقاسم" عن "نيكولاس بوديه" (Nicolas Baudet)
أنه قال: "إن معجزة إسرائيل (...) تتجلى في إحياء [الاسرائيليين لـ] لغة ماتت منذ

¹ - مولود قاسم نایت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، (مقال)
مجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر 1986، الجزائر، ص 28 .

² - مولود قاسم نایت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، ص ص
31 - 32 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
ألقي سنة، هي اللغة العبرية، التي أصبحوا يدرّسون بها الذرة في معهد وايزمان"،
والأكثر من هذا، عندما تعوزهم اصطلاحات علمية، تقنولوجية، يأخذونها من اللغة
العربية، يأخذون الجذر من كلمة عربية، نظرا إلى القرب بين اللغتين ونظرا لعراقة اللغة
العربية في تقاليدھا العلمية، ونظرا لثرائھا ومرونتھا، وسلاستها، وسهولة الاشتقاق
منھا. يأخذون من العربية الجذر ويضيفون إليه السوابق واللواحق (les Les suffixes
et préfixes) وينحتون، ويبدعون المصطلحات التقنية لأدق ما تنشئه العلوم
والتقنولوجيا اليوم (...)" ونحن نقول أنھا عاجزة¹.

ويشير "مولود قاسم نايت بلقاسم" بهذه العبارة الأخيرة إلى من يتجاهلون ثراء
اللغة العربية ومرونتھا، ويرون أنھا مجرد لغة تراثية عتيقة، تصلح لأن توضع في المتاحف،
هي والتراث الذي تحمله .

ورغم الحماس الذي يدافع به الكثيرون عن اللغة العربية، إلا أن هناك دراسات
هي الأخرى، على درجة من الموضوعية، تذهب إلى أن اللغة العربية رغم ثرائھا
الكامن، لازالت في حقيقة أمرھا تعاني من عجزھا عن تسمية المكتشفات العلمية، وهذا
يعود لقلة مساهمة الناطقين باللغة العربية في التقدم العلمي، وبعدهم عن المفاهيم
الحضارية التي تولدت عنها تلك المكتشفات العلمية.

ذلك أن تسمية الشيء تتطلب إدراكا لخصائصه، وما اجتهد مجامع اللغة العربية
— حسب ما يرى هؤلاء — إلا اجتهدا من الدرجة الثانية، لأنه اجتهد لا لتسمية
الأشياء بصورة مباشرة، وإنما هو بحث لإيجاد الكلمة العربية المقابلة لنظيرتها الأجنبية،
فالمصطلح العربي ينوب عن الكلمة الأجنبية التي بدورها تنوب عن الشيء، فالمصطلح

¹ - المرجع نفسه، ص 27.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
العربي يظل مجرد إشارة، ولا يرقى إلى مستوى العلامة. والعلامة اللغوية هي التي تنوب
عن الشيء، وتعني عن إحضاره، والتي بها يزول الغموض الذي يشوب لغة الإشارات¹.
وهنا نتساءل، ما دامت اللغة بتلك الأهمية التي حددها " فيخته"، كيف نوظف
أواصر الجيل الحاضر بتراث أسلافه وذخيرتهم قليلة؟ كم نسبة طلبة العلوم الإنسانية
القادرين على قراءة كتب التراث؟

إن قلة ذخيرة المتعلم من اللغة الأم أمر خطير للغاية، فكما أنه يؤدي بالمتعلم إلى
الجهل بمجريات الحياة وحضارة العصر، فإنه يؤدي به أيضا إلى الجهل بترائه، فيقوده إلى
الانفصال عنه لجهله بقيمته ومكانته، ومن ثم التنكر له، أو الانتقاص من شأنه نظرا
لتضاؤل روح الانتماء إليه والاعتزاز به، الأمر الذي يؤول بالمتعلم إلى الشعور بالدونية،
وإلى التنكر إلى مثل أمته وقيمها الحضارية، أو اتهام هذه الأمة بالتخلف والضعف،
واتهام لغتها بالقصور والعجز. وقد يقود ذلك إلى التشبث بقيم حضارية غريبة، ولغة
أجنبية دخيلة على أمها البديل، فيؤول الأمر بالتالي إلى ضياع الهوية وفقدان أو ضياع
الذات².

والجيل الحاضر من الطلبة اليوم، يبدو أنه يعاني من هزال، ليس في لغته الأم
فقط، بل حتى في اللغات الأجنبية، فهو يكاد يتعد ابتعادا كبيرا عن ثقافة عصره، فلا
يجد أمامه إلا القشور كي يتشبث بها، ويبدو أن الجيل السابق كان أوفر حظا، من
امتلاكه زمام اللغتين العربية والأجنبية، ثم حدث الانحدار، يقول "زكي نجيب محمود":
"مألا الساحة جيل جديد فقد القدرة اللغوية بشعبتيها العربية والأجنبية فلا هو يستطيع

¹ - حنفي بن عيسى: العربية الحديثة والتحدي التقني، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، سبتمبر-
أكتوبر 1986، الجزائر، ص ص 218 - 219 .

² - أحمد محمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة،
212، الكويت 1996، ص 310.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
قراءة الأصول العربية في عيونها ولا هو يستطيع أن يكون على صلة بما تنتجه ثقافة
الغرب"¹.

ولقد بحث المهتمون بالتربية موضوع تردي استعمال اللغة العربية الفصحى،
المنطوقة والمكتوبة، لدى المتعلمين، وأرجعوه إلى أسباب متعددة، منها:

— تزايد عدد المتعلمين في مقابل قلة التجهيزات التعليمية، في كل مراحل
التعليم خاصة الابتدائية منها .

— منافسة اللغات الأجنبية للغة العربية، عن طريق تفوق مناهجها ووسائلها
التعليمية .

— تعليم العلوم باللّغة الأجنبية، وانعكاسه على حركة التأليف باللغة الأولى، مما
يؤدي إلى الاكتفاء أحيانا بالكتب المستوردة من مراجع مدونة باللغات الأجنبية .

— توفر فرص العمل المغربية لمتقن اللغة الأجنبية لا العربية.

— الانبهار باللغات الأجنبية، انعكاسا لما تضحخه الفضائيات من برامج وأفلام
عالية الصنع.

— عدم قيام وسائل الإعلام بدورها كشريك هام في تنمية اللغة الوطنية،
ولجوؤها إلى استخدام اللهجات العامية في تقديم برامجها، بل استعمال الألفاظ المتبدلة
والتراكيب المرتجلة والمحرفة، أو الصيغ اللغوية الدخيلة، والعبارات المترجمة ترجمة ناقصة
أو غير سليمة².

وعلينا أن نعي تماما أنه إذا كانت هناك لغات قديمة كاللغة اليابانية، أو لغات
ميتة كاللغة العبرية قد تم إحيائها كما ذكرنا، فإن اللّغة العربية بـمميزاتها الفريدة تحمل
في طياتها أكثر من اللّغتين المذكورتين. كما لا يخفى أن ما يوجّه للّغة من اتهامات

¹ - زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، دار الشروق، ط 2، القاهرة - بيروت 1993، ص 179.

² - أحمد محمد العتوق، الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، ص 16 - 17.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام بالعجز، ومن صنع عقبات التخلف والتثبيط في وجهها — رغم عوامل القوة الكامنة والظاهرة للغة العربية، ورغم اتساع رقعة الناطقين بها — هو قطع للطريق نحو الرجوع إلى التراث المكتوب والمنطوق باللّغة العربية، ذلك أنه كلما كان الإنسان أقل استيعاباً لمفردات لغة من اللغات كلما ضعفت معرفته بحضارة تلك اللّغة، كما أنه كلما كان أقل معرفة بتلك الحضارة صعب عليه تعلم لغتها فهناك تلازم قوي بين الجانبين، " فاللّغة وخصائصها مظهر من أوضح مظاهر روح الحضارة، فيها خصائصها وبها مميزاتا وطابعها"¹.

خامساً: التراث و تصحيح النظرة إليه و طرق إحيائه عن طريق التربية :

لابد أن نؤكد في بداية هذه النقطة، على أن تعميم الحكم بأن كتب التراث جميعاً قد تجاوزها الزمن هو خطأ في الحكم على قضية كبرى من حياتنا الثقافية، وسر الوقوع في هذا الخطأ، هو النظرة الضيقة للتراث وكأنه كتاب واحد يمكن تجاوزه، فليس التراث من القلة أو البساطة التي يتصورها البعض، بل القلة هي في الدراسات التي تناولت التراث، ورغم هذه القلة فإنها لم تسلم من القصور، بل إن جلّها قد أنقصت من قيمة التراث، ولقد أكد "طه عبد الرحمن" في كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث" على هذا الأمر، من أن بعض الباحثين في التراث رغم عدم إجادتهم للغة التراث، وتقليدهم للمناهج الحديثة دون امتلاك ناصيتها، فإنهم نقلوا هذه المناهج إلى غير أصولها، فخرّجوا التراث عن مقتضاها وأفتوا بإلغائه أو

بخصره. ويعلق "طه عبد الرحمن" على هذه الأعمال بقوله: "والملاحظ أن هذه الأعمال، وإن اختلفت في تحليلاتها وتنظيراتها واستنتاجاتها بحسب اختلاف اعتقادات وتقارير وفرضيات أصحابها، فإنها تكاد تجنح جميعها إلى الأخذ بنظرة انتقائية تجرئ

¹ - مجموعة من المستشرقين: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، (د ط)، القاهرة 1940. (مقدمة المترجم، صفحة ي).

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
التراث تجزئياً¹، لهذا كانت تلك الأعمال قاصرة عن الإحاطة بالقيمة الحقيقية للتراث،
والتي يرى "طه عبد الرحمن" أنها تتجلى في منزلته المعنوية المتميزة التي تهبه وجوداً ثقافياً
وروحياً مستقلاً بمبادئه وتصوراتهِ وآلياته التي أنتجته.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فيحسن بنا أن نقرأ تراثنا ونعيد قراءته بعقلانية
وروحانية معاً، دون الانزلاق في المدح أو القدح، وبالتالي علينا أن ندرك أن تراث
السلف ليس تحفة نحنو عليها ونزعاها، بقدر ما هو كتب تدرس وتناقش، من كتب في
اللغة، وكتب في العلوم، ودواوين للشعر، وكتب في الفقه، وغيرها من سائر ذخائر
الماضي. فلا يصح التقوقع على التراث وإدارة الظهر للواقع المعاش، وترك هذه الأكادس
الفكرية التي يزرعها عصرنا، لننطوي على أنفسنا².

إن العودة للتراث مهمة تربوية حضارية إذا تمت في شروط علمية عقلانية،
تتجاوز الهوى إلى الاتصال الشعوري بمنجزات السلف، وذلك من أجل ربط حلقات
الماضي بالحاضر لأن الوجدان لا يقبل الانفصام. كما أن ما نأخذه من كتب التراث
مرهونة قيمته بما "يوشي" للمتعلم بانطباع يساعد على نسج شخصيته وتعميق هويته.
وفي هذا الشأن يرى المفكر "زكي نجيب محمود" أن ما يجعل تراثنا يُبعث حياً، إذا ما
تمثله قراؤه تمثلاً تتوحد به قلوبهم بقلوب كاتبه، فيحس قراء التراث بما أحس به
كاتبه، وفي تلك اللحظة تتوحد هوية القارئ المعاصر بهوية الكاتب القديم، ثم بتراكم
التأثيرات يوماً بعد يوم تكون خيوط الانتماء إلى الهوية قد نسجت في النفوس³.

¹ - طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء
- بيروت 1993، ص 21.

² - زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، ص 131.

³ - المرجع نفسه، ص 138.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
ورغم التقارب المطلوب بين المرء وتراثه، بين حاضره وماضيه، إلا أن عليه ألاّ
يذوب في الماضي وينسى الحاضر، بل عليه أن يناقش أسلافه، فيقبل منهم ما يحل به
مشكلات حاضره ويعينه على تحديد أهدافه، وتقييمه للأشياء من حوله، وي طرح ما
كان مناسباً لعصر أسلافه دون عصره .

ومن هنا ينبغي على التربية أن تربط الجيل الجديد بتراثه من خلال انتقاء
الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء، والمتمثلة في القيم الإنسانية العالية، وعلى رأسها "عقيدة
التوحيد" التي تدفع إلى توحيد الإنسان المعاصر، يقول "زكي نجيب محمود": "... فنحن
وإن كنا نود لأنفسنا أن نشارك ديانا في علومها الجديدة (...). إلا أننا نود كذلك لو
أعطينا ديانا شيئاً مما عندنا، والذي عندنا هو عقيدة "التوحيد" لو سرت بكل قوتها في
قلوب البشر، لتتج عنها بالضرورة توحيد للإنسان المعاصر، يشفيه من التمزق النفسي
الذي جعله يرتفع بالعلم إلى ذروة ويهوى في الوقت نفسه إلى هاوية تعمي بصيرته حتى
ليقذف بلدانا بأسرها بقنابله التي صنعها بعلمه"¹.

ولعل أحسن ما في تراثنا، والذي يجدر أن نلقنه أبناءنا، هو روح الجدية والوقار
ويقظة الضمير، وهي أخلاقيات يعرفها العربي والغربي عن حضارتنا وتراثنا، نذكر هنا
من المستشرقين والمؤرخين الغربيين والفلاسفة والباحثين الذين شهدوا بمكانة الحضارة
الإسلامية، لا على سبيل الحصر: "جولد زيهر"، "آدم مترز"، "جوزيف شاخت"،
"أرنولد توينبي"، "أوزفالد شبنغلر"، "غوستاف لوبون"، "زيغريد هونكه".

لكن هذه القيم لن تصل إلى أبنائنا صافية ما لم تتحسن لغتهم العربية، وهذا
يقع على عاتق المربين، ذلك أن مهمة التربية هي أن تهذب وترهف الحاسة الفطرية
للغة، ليميز التلميذ بين الأجل والأقبح، ولن تتحقق الصلة بين الماضي والحاضر، إلا إذا

¹ - زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، ص 129.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
تغيرت وجهة النظر إلى طبيعة اللغة، لنبتها في نفوس أبنائنا وبناتنا، وذلك حتى يمتلكوا
القدرة على الشعور بحياة ما يقرؤونه مما كتبه الأسلاف متمثلاً لهم إنساناً يتحدث
إليهم، لا ليتقبلوا ما يقول بل ليحاوروه.

سادساً: نموذجين من الحصيلة النوعية الصالحة للبقاء من تراثنا الحضاري :

سنقف عند اثنين من العوامل الحضارية من تراثنا:

1 — البيئة الصالحة للإبداع وأثرها في ظهور " جابر بن حيان " وعلماء

آخرين :

إن العائد إلى نصوص "جابر بن حيان" يقرأ عن كذب أن ظهوره في ذلك
العصر أهم من اكتشافاته النظرية والعملية، ففي مجال النظر أصبح من المعروف لدى
المختصين في تاريخ العلوم — على الأقل — سبقه للفلاسفة المحدثين في رده الاستدلال
الاستقرائي إلى العادة وحدها، وليس إلى الضرورة العقلية¹، وفي مجال التطبيق: تجاربه
الناجحة الكثيرة في علم الكيمياء، وقد عده كثير من الباحثين بسببها مؤسس علم
الكيمياء الحديث.

لكن الأهم من هذا فيما يخص موضوعنا، البيئة الصالحة التي وجد فيها "جابر
بن حيان"، والتي ساعدته على أن يبدع كل ما أبدع، فقد ذكر "جابر بن حيان" أن
بداياته كانت متواضعة في عهده، مثله مثل أساتذته وزملائه، وأن مصنفاً القدماء
كأفلاطون وأرسطو وهرمس وغيرهم، كانت تحمل الغث والسمين، كما كان ينقصها
التركيز والانسجام. مما يثبت لنا أن التطور الذي أحدثه "جابر بن حيان" في الكيمياء
كان وليد ظروف خاصة ومجتمع جديد، تهيأت فيه عناصر ضرورية لأن تبتدئ فيه

¹ - توفيق الطويل، في تراثنا العربي، سلسلة عالم المعرفة، 87، الكويت 1985، ص 49 .

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
مرحلة جديدة للعلم هذه العناصر هي ما يعرف في عصرنا بالبيئة الإبداعية، والتي نحن
في أمس الحاجة إليها اليوم¹.

ونسوق هنا أمثلة لعلماء آخرين عاشوا في نفس تلك البيئة الإبداعية فجرت
على أيديهم إبداعات كثيرة جعلتهم يحققون طفرات في تاريخ العلم، لا زالت الإنسانية
تستفيد منها وتطورها، من مثل إبداعات: ابن سينا في الفلسفة، والطب، والطب
النفسي والكيمياوي، وقصته في علاج مريض الوهم معروفة. والطبيب "ابن جميع" (من
أبناء القرن الرابع الهجري، الثاني عشر الميلادي) الذي نبغ في الإنعاش، والذي أورد لنا
"ابن أبي أصيبعة" إحدى أخباره عندما أنقذ شخصا عدّ ميتاً، يقول: "حدثني بعض
المصريين أن ابن جميع كان يوماً جالساً في دكانه عند سوق القناديل بفسطاط مصر،
وقد مرت جنازة فلما نظر إليها صاح بأهل الميت، وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت،
وأهم إن دفنوه فإنما يدفونه حياً [...] ثم إن بعضهم قال لبعض هذا الذي يقوله ما
يضرنا أننا نمتحنه، فإن كان حقاً فهو الذي نريده، وإن لم يكن حقاً فما يتغير علينا
شيء. فاستدعوه إليهم وقالوا: بين الذي قلت لنا، فأمرهم بالمصير إلى البيت، وأن
يتزعوا عن الميت أكفانه، وقال لهم احملوه إلى الحمام، ثم سكب عليه الماء الحار، وأحمى
بدنه ونظله بنطولات، وعطّسه فأرأوا فيه أدنى حس، وتحرك حركة خفيفة. فقال أبشروا
بعافيته، ثم تم علاجه إلى أن أفاق وصلح (...). ثم أنه سئل بعد ذلك من أين علمت أن
ذلك الميت، وهو محمول وعليه الأكفان، أن فيه روحاً؟ فقال: إني نظرت إلى قدميه
فوجدتهما قائمتين، وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة، فحدثت أنه حي"².

¹ - فؤاد سيزيكيين، مكانة المسلمين والعرب في تاريخ علم الكيمياء: (مقال) بمجلة الثقافة، العدد
95، أكتوبر 1986، الجزائر، ص 126.

² - ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل
وجمع: امرؤ القيس بن الطحان، ج 2، المطبعة الوهبية، ط 1، القاهرة 1882، ص 113.

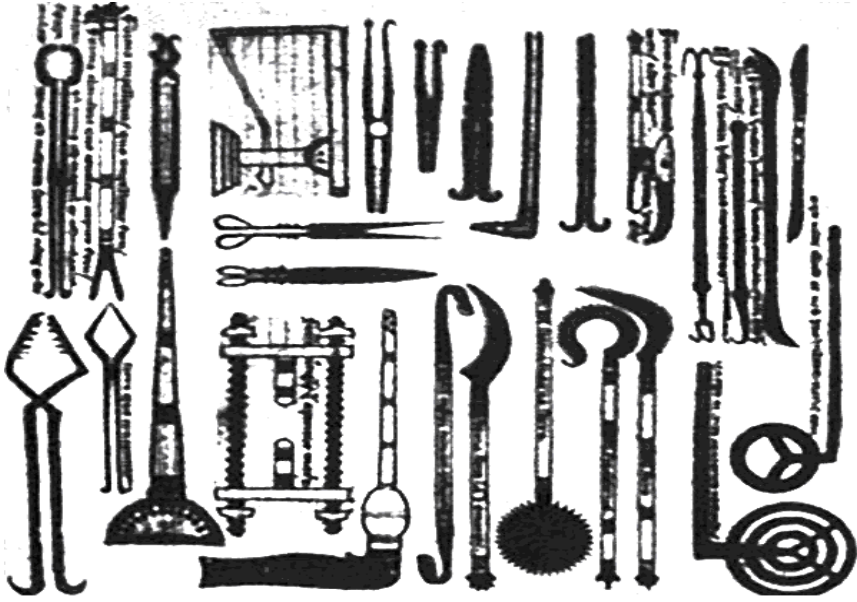
الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
إن ما قام به " ابن جميع" في عملية الإنعاش هو تصرف صحيح، فبعد أن أحمى
بدن مريضه سكب على وجهه ورأسه مزيجاً من الماء وبعض المواد المثيرة والمنعشة
لتندفع في المجاري التنفسية العليا لتنبه عملية التنفس، بعد أن جرى تنشيط الدورة
الدموية.

أما "أبو القاسم خلف بن عباس" الزهراوي الأندلسي (ت 427 هـ، 1035 م)
صاحب دائرة المعارف الطبية الكبيرة، وتقع في ثلاثين جزءاً تسمى: (التصريف لمن
عجز عن التأليف)، وينقسم هذا الكتاب إلى قسم طبي وقسم صيدلاني. كما
كان "الزهراوي" مخترعاً لأدوات الجراحة، التي عرفتها أوروبا من بعده، وأنه أول من
استعملها بنجاح في شق القصبه الهوائية Trachiolomie، كما استعمل هذه الأدوات
في علاج أمراض أخرى. يقول عنه "عبد الرحمن مرحبا" إن: " كثيرا من الأدوات
الطبية المعروضة ترجع إلى الزهراوي الذي يسميه اللاتينيون Abulcasis (أبو القاسم).
فقد رفع هذا الطبيب من شأن الجراحة العربية وجعلها فرعاً أساسياً من فروع الطب.
ولا غرو بعد ذلك إن وصف بأنه أبو الجراحة"¹.

تبين الصورة التالية أدوات طبية عربية، وهي عبارة عن مقصات، وكلايات،
ومناشير ومشارط، للجراحة تشبه جدا بعض أدوات الجراحة العصرية. عُرضت لأول
مرة في مهرجان العالم الإسلامي الذي عقد بلندن بداية ربيع 1976²:

¹ - عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، دار الجيل، ط 1، بيروت 1998، ص
290-292.

² - المرجع نفسه، ص 293 .



2 — جهود الجاحظ العقلانية ودورها في تأسيس اللحمة الحضارية :

يجد المتأمل في تراثنا العربي والإسلامي أن روح الوحدة قد استوعبت الاختلافات المذهبية، والدينية، والعرقية التي تهدد أمن واستقرار أي مجتمع، إذا لم تتوفر لديه البصيرة النافذة التي ترى أن التعدد ميزة تثري الحياة بدل إثارة الاختلافات .

هذه البصيرة النافذة جعلت "الجاحظ" المفكر المعتزلي العقلاني، يكتب في نبذ العصبية العربية والعصبيات الشّعوبية، التي كادت أن تمزق جسم الأمة الإسلامية في عصره، فكتب عددا من الرسائل خصص كل واحدة منها للانتصار لطائفة من الطوائف، وذلك مثل : "مناقب الترك"، و"فخر السودان على البيضان" و"مفاخرة قحطان"، و"تفضيل عدنان". قصد من وراء هذه الرسائل أن يبين أن الفضل والفضائل هي من نصيب كل جماعة من هذه الجماعات، وما دامت الفضائل في الجميع، فإن

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
الحقيقة الموضوعية لا بد وأن تكون مع التآلف والائتلاف، للاشتراك في الفضائل
ولشيوعتها بين الأمم والأجناس والجماعات¹.

وهنا نجد أن الجاحظ كان في تلك الأعمال يحمل حسا حضاريا إنسانيا عاليا،
ساهم به في رقي الحضارة العربية الإسلامية، التي يصحّ تماما اعتبارها من الحضارات
الإنسانية العالمية، التي استوعبت الأعراق، والتيارات، والفلسفات، والمعتقدات المختلفة،
فكانت هذه العناصر عوامل قوة وبناء، باستنادها على الوحي والعقل والعلم، فتفوقت
الحضارة العربية الإسلامية بذلك، على الحضارات التي سبقتها في الوجود، ولا زال
إشعاعها مصدر إلهام، للإنسان حتى يومنا هذا، ونصوص التراث المنتشرة في أكبر
متاحف ومكتبات، وجامعات العالم خير دليل على ما نقول.

سابعاً: التمسك الإيجابي بالتراث ركيزة من ركائز الهوية الثقافية وسبيل البقاء

والوجود

للوعي بالهوية معنى شامل، لعل أهم ما يقوم عليه الحفاظ على التراث، لكن
لا بد أن نؤكد هنا على أنه مهما وضعت الاتفاقيات الدولية، أو التشريعات الوطنية
لحماية التراث المادي وغير المادي². فإن ذلك لن يكون ضماناً للمحافظة عليه، ما لم
تشعر شرائح المجتمع، خاصة الشابة بأهمية هذا التراث، وأنه جزء من شخصيتها و
وجودها، ولن يكون ذلك إلا عن طريق التربية بمعناها الواسع : الأسرة، والمدرسة،
النوادي الثقافية، والإعلام الهادف. ليتمكن بذلك الشباب من رؤية تراثه حيا نابضا،

¹ - محمد عمارة: العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، 29، الكويت 1980، ص ص 53 - 54 .

² - راجع محمد سامح عمرو: اتفاقيات اليونسكو في مجال حماية التراث الثقافي، دراسة قانونية
تأصيلية وتحليلية، (مقال) بالجملة العربية للثقافة، العدد 52، مارس 2008، المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم، تونس، ص ص 35 - 70.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
يستلهم منه العبر والدروس، والحكمة، وباختصار على أنه وسيلة من وسائل بقائه،
نظراً لما يجتزنه من ثراء تشتمل عليه مكوناته .

وبالإضافة إلى النماذج العلمية الحضارية الآنفه الذكر، نضيف أيضاً — في نهاية

مقالنا هذا — عناصر لها أهميتها من التراث الشعبي منها :

- الأدب الشعبي، وفنون القول المتواترة مشافهة من جيل إلى جيل، بما تحمله من

حكم ومعارف وتصورات .

- ما حسن من العادات والتقاليد، وما تتضمنه من الممارسات التي كرستها

الأجيال السابقة عرفاً وعادات

متوارثة .

- فنون الموسيقى والغناء وغيرها من الفنون الشعبية، بما تحمله من تعبيرات

جمالية .

- الحرف والصناعات الشعبية، بما تحمله من دلالات حضارية (نفسية

واجتماعية)¹ .

خاتمة :

لا بأس في خاتمة هذه الدراسة، أن نؤكد على أهمية تعزيز الارتباط الوجداني،

والمعرفي بين الجيل الجديد من المتعلمين، وماضي أمتهم حتى لا يجرموا تاريخهم، ويأتي

من يعبث بهويتهم، فلا يجدون ملجأً إذ ذاك إلا التبعية، فنحسر عقولهم وضمائرهم .

ففهم الفرد، وتمثله لتراث أجداده، الذي يعبر عن أسلوب حياتهم، ونظرهم إلى

الوجود، يكونّ عنصراً من عناصر ثقافته، ويوطد وشائج القربى بينه وبين الجماعة التي

¹ - عبد الحميد حواس، التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي، (مقال) بالمجلة

العربية للثقافة، العدد 52، مارس 2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص ص

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
ينتمي إليها، ويعطيه معنى لممارساته في حياته نفسها، شريطة ألا يدعوه ذلك إلى
الانغلاق على الذات والانكفاء فيها، بتمجيد الماضي واجتراره على حساب المستقبل .
وليتمثل هذا الجيل ما يتضمنه قول " أبي العلاء المعري " من دعوة إلى الإبداع
والابتكار، دون وجل مما أبدعه السابقون، حين قال:

إني وإن كنت أخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وأختم هذه المقالة بهذا القول الصائب — إلى حد كبير — "لزكي نجيب
محمود"، الذي يدعونا فيه إلى أن نستوحي من تراثنا الغني، ما يحركنا إلى حفظ كياننا،
والإسهام الحضاري في حاضرنا، بقوله: "هناك جماعات من الناس لا تجد لها تاريخا
فتصيد لنفسها أسطورة تحرك الناس إلى القوة، ونحن نحمل وراء ظهورنا تاريخا حقيقيا
شده الزمان وشهد له، وهو تاريخ لو تقسمه أهل الكوكب الأرضي جميعا لكفاهم
دافعا شريفا نحو هدف شريف، ومع ذلك لم نستطع نحن أصحابه أن نستوحيه سداد
العمل لتحقيق القوة التي نعتصم بها من الهوى والهوان"¹.

قائمة المراجع:

أولا: المؤلفات:

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نقل وجمع: امرؤ القيس بن الطحان، ج 2، المطبعة الوهبية، ط 1، القاهرة 1882.
- أحمد محمد المعتوق: الحصيلة اللغوية، أهميتها- مصادرها- وسائل تنميتها، سلسلة عالم المعرفة 212، الكويت 1996.
- توفيق الطويل: في تراثنا العربي، سلسلة عالم المعرفة، 87، الكويت 1985 .

¹ - زكي نجيب محمود : عربي بين ثقافتين، ص 22.

- الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
- رشاد عبد الله الشامي: إشكالية اليهودية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، 224، الكويت 1997.
- زكي نجيب محمود: عربي بين ثقافتين، دار الشروق، ط 2، القاهرة - بيروت 1993.
- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء - بيروت 1993.
- سعيد إسماعيل علي: الفكر التربوي العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، 113، الكويت 1987.
- سعيد التل وآخرون: المرجع في مبادئ التربية، دار الشرق للنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1993.
- عبد الرحمن مرحبا: المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، دار الجيل، ط 1، بيروت 1998.
- عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر 1981.
- عبد الله عبد الدائم: نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، بيروت 2000.
- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين، وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1966.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار الفكر، ط 1، بيروت 1971.
- مجدي عزيز إبراهيم: المنهج التربوي والتحدي، عالم الكتب، ط 2، القاهرة 2002.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام
- مجموعة من المستشرقين: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1940. (مقدمة المترجم، صفحة ي).
- محمد عمارة: العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، 29، الكويت 1980.
- محمد منير مرسي: فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، عالم الكتب، (د. ط.)، القاهرة 1992.

- مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، سلسلة عالم المعرفة، 252، ديسمبر 1999، الكويت.
- هانس بيترمان: هارالد شومان، فخر العولمة، ترجمة: عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، 238، الكويت 1998.

ثانياً: الدوريات:

- حنفي بن عيسى: العربية الحديثة والتحدي التقني، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، سبتمبر - أكتوبر 1986، الجزائر.
- عبد الحميد حواس: التراث الثقافي غير المادي في الوطن العربي من منظور عربي، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس 2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
- فؤاد سيزيكيين: مكانة المسلمين والعرب في تاريخ علم الكيمياء، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر 1986، الجزائر.
- محمد سامح عمرو: اتفاقيات اليونسكو في مجال حماية التراث الثقافي، دراسة قانونية تأصيلية وتحليلية، (مقال) بالمجلة العربية للثقافة، العدد 52، مارس 2008، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
- مولود قاسم نيت بلقاسم: نعيب الإنسانيات والعيب فينا وما للإنسانيات عيب سوانا، (مقال) بمجلة الثقافة، العدد 95، أكتوبر 1986، الجزائر.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام

ثالثاً: المعاجم والموسوعات:

- جان فرنسوا دورتيه (إشراف): معجم العلوم الإنسانية، ترجمة: جورج كتورة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت 2009.
- كامل المهندس ومجدي وهبه: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط 2، بيروت 1984.
- لطفي بركات أحمد: المعجم التربوي في الأصول الفكرية والثقافية للتربية، دار الوطن للنشر والطباعة والإعلام، ط1، الرياض 1984.
- عبد الوهاب الكيالي (وآخرون): موسوعة السياسة، ج 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، بيروت 1985.

الأهمية التربوية للارتباط بالتراث الحضاري ----- أ. عبد الحكيم كرام

تقييم برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر:

دراسة حالة مؤسستي CARAJUS و SAFILAIT نموذجاً

أ.د. السعيد بربيش أ. مريم والي

جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تقييم برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر بصفة عامة و دراسة حالة مؤسستي CARAJUS و SAFILAIT بصفة خاصة، بغرض معرفة مدى نجاعة هذه البرامج في تحقيق الأهداف المنوطة بها، وبالتالي إبراز نقاط القوة والضعف ومن ثم تقديم بعض الاقتراحات للتخفيف من حدة المشكل المطروح.

الكلمات الدالة: المؤسسات الصغيرة والمتوسطة - التأهيل - التقييم.

ABSTRACT

The purpose of this article is to assess the program of upgrading of small and medium enterprises in Algeria, and this through a case study of two companies: CARAJUS and SAFILAIT.

The study of the implementation of this program would allow us to know the level of achievement of various objectives assigned to it and its strengths and weaknesses. On the basis of the results we propose solutions that we consider adequate to solve the problems that are encountered.

Keywords: SMEs, upgrade, assessment.

مقدمة:

عرفت السياسة الاقتصادية في الجزائر تحولات وتغيرات جذرية، اتسمت في بدايتها باعتماد تطبيق الاقتصاد الاشتراكي القائم على التخطيط المركزي، والذي أولت

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي مهمة إدارته إلى جهاز الدولة بغية إرساء قواعد اقتصاد عصري وفعال يضمن الخروج من التخلف والتبعية، لكن الفشل الذي مني به هذا التوجه إثر الأزمات والمشاكل الداخلية والخارجية جعل الجزائر تتجه نحو تبني النظام الرأسمالي الذي يعتمد على الانفتاح على الخارج من خلال تطبيق آليات السوق وإجراء جملة من الإصلاحات الهيكلية والاقتصادية العميقة التي تهدف إلى تحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية، إلا أنه مهما كانت التغيرات في التوجهات التنموية فإن مضمونها ظل قائما على استغلال الثروة النفطية في التوصل إلى تحقيق الأهداف المرجوة منها.

وفي ظل التطورات العالمية الراهنة كان لزاما على الاقتصاد الجزائري التكيف مع الوضعية الجديدة التي تتميز بالتنافسية، خاصة في ظل دخول اتفاقية الشراكة الأوروبية جزائرية حيز التطبيق، وسعيها للانضمام إلى المنظمة العالمية للتجارة، الأمر الذي أدى إلى ضرورة التوجه نحو إستراتيجية جديدة تعتمد على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة كقاطرة للتنمية الاقتصادية، وهذا ما يتطلب ضرورة تأهيلها بغرض التوافق مع المعطيات الدولية الجديدة لتحقيق نتائج إيجابية، ومن خلال هذه الورقة البحثية سيتم عرض وتقييم برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر مع دراسة حالة مؤسستي كاراجي وسافي لي نموذجاً.

إشكالية الدراسة:

تتمحور إشكالية هذه الورقة البحثية في طرح التساؤل الرئيسي التالي:

إلى أي مدى حققت برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر

الأهداف المرجوة منها؟

و يتفرع عن ذلك عدة أسئلة منها:

- ما هو برنامج التأهيل، أهدافه، وما هي معوقاته؟

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- هل هناك مؤسسات حققت نتائج إيجابية من انخراطها في برامج تأهيل
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؟

فرضيات الدراسة:

ولمعالجة الإشكالية السابقة تم طرح الفرضيات التالية:
- تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر يسمح لها بالتنافسية والاندماج
في الاقتصاد العالمي؛

- حققت برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالشراكة الأجنبية نتائج
معتبرة مقارنة بنتائج برامج التأهيل الوطنية؛
- حققت بعض المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاصة المنخرطة في برامج
التأهيل نتائج إيجابية نسبية.

أهمية وأهداف الدراسة:

ترجع أهمية الدراسة لكونها تهدف إلى:
- تسليط الضوء على الوضعية الراهنة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في
الجزائر؛

- البحث عن العوامل التي تساعد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة على الاندماج
في الاقتصاد العالمي بأقل الأضرار؛
- محاولة تقديم حوصلة حول أهم نتائج برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة
والمتوسطة وتحليلها.

حدود الدراسة:

تمثلت حدود الدراسة في تقييم فترة تطبيق برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة
والمتوسطة في الجزائر والممتدة من 2000 إلى 2012 وهي فترة تنفيذ برامج التأهيل

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي واختيار مؤسستي CARAJUS و SAFILAIT كنموذج كونهما من أبرز المؤسسات التي استفادت من هذا البرنامج.

المنهج المتبع والأدوات المستخدمة:

لمعالجة الإشكالية المطروحة تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي وذلك من خلال عرض مفاهيم التأهيل، مبادئ برامج التأهيل، أهدافها وتقديم النتائج، كما تم إتباع منهج دراسة الحالة من خلال عرض البيانات المتحصل عليها من المؤسستين محل الدراسة، أما أدوات البحث فقد تم الاعتماد على الملتقيات، التقارير، الوثائق الرسمية للوزارة ومواقع الانترنت، كما تم استعمال الجداول، الأشكال والإحصائيات لترجمة نتائج الدراسة.

الدراسات السابقة: من بين الدراسات التي تناولت الموضوع:

- جمال بلخياط¹ (2006): متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الجزائرية في ظل التحولات الاقتصادية الراهنة، ومن خلال هذه الدراسة أبرز الباحث أهمية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الاقتصاد الجزائري، بالإضافة إلى عرض أهم متطلبات تأهيل هذا القطاع والصعوبات التي تواجهه، كذلك أكد على ضرورة تأهيلها لتحسين موقعها ودورها في الاقتصاد؛

- ابتسام بوشويط² (2010): آليات تمويل برامج المؤسسات الاقتصادية الجزائرية" دراسة تحليلية لنتائج برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية"، وقد خلصت هذه

¹ - جمال بلخياط: متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الجزائرية في ظل التحولات الاقتصادية الراهنة، الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية، 17-18 أبريل 2006.

² - ابتسام بوشويط: آليات تمويل برامج المؤسسات الاقتصادية الجزائرية" دراسة تحليلية لنتائج برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية"، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة 2010.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
الدراسة إلى أن برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية لم تتقدم بشكل قوي مقارنة بعدد
المؤسسات المبرمج تأهيلها ضمن أهداف برامج التأهيل وذلك لمجموع العراقيل التي
واجهت هذه البرامج؛

- الأخضر عزي، أ. هواري خيثر¹ (2011): محاولة لدراسة خيار تأهيل
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر خلال الفترة المرجعية (1962-2008)،
وتوصل الباحثان من خلال هذا البحث إلى أهمية وضع خطة تنموية للتحكم في
مقومات المنافسة، توطيد العلاقة بين منشأة العمل الصناعي وهياكل التعليم العالي
ومراكز البحث التطبيقي، كما بينا أن برنامج التأهيل يعتمد على الإدارة التي يجب أن
تسند إلى الكفاءات العلمية المتخصصة؛

- بريش السعيد² (2013): تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة"النتائج
والدروس المستفادة"، ومن خلال هذه الدراسة تم التوصل إلى أن التأخر في استكمال
إجراءات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة يجعلها تابعة لمؤسسات أجنبية تغزو
الأسواق الوطنية. بمتوجاتها، كما أن العولمة تشكل ضغطا على الاقتصاد الوطني الذي
تعاين قدراته من حيث التكيف والانفتاح من عدة نقائص تندثر بزوال مظاهر التصنيع
وكل ما هو إنتاج وطني، ولتفادي أثر التفكك الصناعي الخيار الوحيد للمؤسسات

¹ - الأخضر عزي، أ. هواري خيثر: محاولة لدراسة خيار تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في
الجزائر خلال الفترة المرجعية (1962-2008)، ورقة بحثية مقدمة في الملتقى الوطني الأول حول دور
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في تحقيق التنمية بالجزائر خلال الفترة 2000-2010، بومرداس 18-
19 ماي 2011.

² - بريش السعيد: تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة"النتائج والدروس المستفادة"، ورقة بحثية
مقدمة في الملتقى الدولي حول المقاولاتية والاحتواء المالي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، جامعة
باجي مختار- عنابة، 12-13 ديسمبر 2013.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي الصغيرة والمتوسطة هو استكمال إجراءات التأهيل واعتبار ذلك خيار دائم و ليس إجراء مؤقتاً، حيث أن التأهيل لا يخص المؤسسة وحدها بل يتعدى اهتمامه إلى المتعاملين الآخرين الذين تتقاطع تعاملاتهم مع المؤسسة بدءا بالبيئة العامة للمؤسسة ومرونتها التشغيلية وانتهاء بمحيطها الداخلي الخاص .

- في حين أن هذه الورقة البحثية تسعى إلى تقييم برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر للوقوف على النتائج المحققة وتحليلها والتوصل إلى العراقيل التي واجهت هذه البرامج ، خاصة وأن الجزائر تنفذ برنامج تأهيل جديد للفترة 2010-2014 لتفادي الأخطاء والاستفادة من الإيجابيات.

تقسيم الدراسة:

- بغرض معالجة الإشكالية المطروحة قسم هذا البحث إلى أربع محاور هي: ماهية برامج التأهيل، برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، نتائج برامج التأهيل، ودراسة حالة مؤسستي CARAJUS و SAFILAIT.

المحور الأول: ماهية برامج التأهيل

تكمن أهمية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في مساهمة هذا القطاع الحيوي في إنعاش الاقتصاد الوطني، رفع القيمة المضافة، وتخفيض معدل البطالة، ومن هذا المنطلق تبرز أهمية برامج تأهيل هذه المؤسسات التي تسعى لتحسين أدائها وتعزيز قدرتها التنافسية، حيث يعمل برنامج التأهيل على تشجيع الاستثمار وتقويم مسار المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، من خلال تحفيز نقاط قوتها والتغلب على نقاط الضعف التي تعاني منها جراء الصعوبات التي تواجهها في البيئة الداخلية والخارجية ونتيجة للانفتاح الاقتصادي وما يرافقه من ظاهرة العولمة والتطور التقني والتكنولوجي السريع.

ويسعى هذا البحث إلى عرض نتائج برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

وتحليلها.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

أولاً: تعريف التأهيل

لقد اختلفت تعاريف التأهيل باختلاف الأنظمة الاقتصادية، لكنها اتفقت

جميعها على أن التأهيل هو العملية التي تقترن بتحسين تنافسية المؤسسات الاقتصادية.

و من بين أهمها:

- تعريف منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية *ONUDI التأهيل على أنه:

"مجموعة من البرامج التي وضعت خصيصا للدول النامية التي تمر بمرحلة انتقالية

من أجل تسهيل اندماجها ضمن الاقتصاد الدولي الجديد والتكيف مع مختلف التغيرات العالمية"¹؛

- وتعريف الغرفة الجزائرية للتجارة الصناعية على أن التأهيل هو:

"مجموعة من الإجراءات المادية وغير المادية الموضوعة حيز التنفيذ من أجل رفع

أداء وتنافسية المؤسسة"²؛ فبرنامج التأهيل يعبر عن مجموعة من الإجراءات التي تتخذها

السلطات بهدف تحسين موقع المؤسسة في السوق ورفع أدائها الاقتصادي حتى تضمن

استمراريتها في ظل المنافسة الدولية المتزايدة؛ كما تعتبر عملية التأهيل مرحلة انتقالية

للمؤسسة من مستوى إلى مستوى آخر يتميز بالكفاءة والمردودية لمواكبة التطورات

الحالية في الميدان الاقتصادي، كما أنها الوسيلة المثالية لرفع الكفاءة الإنتاجية

للمؤسسات وتعزيز وتحسين قدراتها التنافسية.

ويعبر التأهيل عن مجموعة من العمليات ذات طابع تكنولوجي تقني، تسييري،

تهدف إلى الوصول بالمؤسسة إلى المستوى الذي تكون عليه المؤسسات المنافسة الوطنية

¹ - Mustapha Benbada : La mise à niveau des PME/PMI , ministère de la PME et de l'artisanat, Algérie, Novembre 2006,p07

² - Mise à niveau des entreprises: la chambre de commerce et d'industrie
www.caci.dz/publicat/textmiseaniveau.htm

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي منها والأجنبية، أي جعلها تتمتع بقدرة تنافسية من خلال المنتجات الجيدة التي تستجيب للنوعية وتحقيق الأرباح.

ثانيا: مبادئ برنامج التأهيل

ترمي برامج تأهيل المؤسسات إلى تحسين أداء المؤسسات وتقوية تنافسيتها في إطار انفتاح الحدود وتساعد وتيرة المنافسة، لكن هذا يتطلب توفر حملة من المبادئ لنجاح هذه البرامج وتحقيق النتائج المرجوة. حيث يعتبر برنامج تأهيل المؤسسات الاقتصادية الجزائرية مسارا دائما لتحسين تنافسيتها ويتضمن جملة من المبادئ تتمثل فيما يلي¹:

المبدأ الأول: يتولى برنامج التأهيل توجيه السياسات العامة لوزارة الصناعة وإعادة الهيكلة ووزارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ويكون ذلك عن طريق مايلي:

- وضع برنامج المؤسسات والمحيط الذي تنشط فيه؛
- وضع برنامج تحسيسي وإعلامي لتوضيح السياسة الصناعية العامة لمختلف المتعاملين؛

- وضع سياسة صناعية لاستخدامها كعامل مساعد لبرامج الدعم.

المبدأ الثاني: تتمثل مهمة برنامج تأهيل المؤسسات الجزائرية في إبراز الهيئات المرافقة للمؤسسة في إطار مجهوداتها لإعادة هيكلة مصالحها ويكون ذلك عن طريق:

- تنظيم الدورات التكوينية المتخصصة؛
- تنظيم تسيير المناطق الحرة؛
- إشراك البنوك والمؤسسات المالية.

¹ - تشام فاروق/تشام كمال: دور وأهمية التأهيل في رفع القدرة التنافسية للمؤسسات دراسة مقارنة " الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية" 17-18 أبريل 2006 الشلف.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
المبدأ الثالث: يعتبر برنامج تأهيل المؤسسات الجزائرية عملية مستمرة الزمن تبنى
أساسا على التجديد، البحث والتطوير، أي أنه مسار دائم لتحسين قدراتها وذلك عن
طريق إدخال مناهج وطرق جديدة لتسييرها.

ثالثا: أهداف و معوقات برنامج التأهيل

● أهداف برنامج التأهيل

إن تنفيذ برنامج تأهيل المؤسسات الاقتصادية الجزائرية يستجيب لهذه الأهداف:

- تحسين تنافسية المؤسسات عن طريق الخضوع لمعايير الجودة وتحسين نوعية

المنتجات؛

- الاعتماد على إدارة مسؤولة والحفاظ على مكانة المؤسسة في السوق المحلي

وإدماجها في السوق العالمي؛

- خلق مناصب عمل جديدة حيث يهدف البرنامج إلى الاحتفاظ بالعمالة

وأیضا العمل على تحسينها وخلق مناصب شغل جديدة للمساهمة في الحد من البطالة¹؛

- العمل على خلق جو إداري يتماشى والتطورات الاقتصادية والعالمية المبنية

على اقتصاد السوق؛

- التعاون على تحسين البنية التحتية من شبكات الطرق والمواصلات

والاتصالات؛

- الإسراع في نشر أحدث التكنولوجيا في هذا المجال؛

- تنمية الموارد البشرية وتأهيلها بما يواكب الكفاءات العالمية للحد من البطالة

وعدم الاعتماد على العمالة الخارجية؛

- نقل التكنولوجيا والمعرفة لدى دول جنوب البحر المتوسط¹؛

¹ - M.EIHachemi: PME Un facteur de création de richesses et d'emplois, magazine
l'actuel international , N°87, Janvier 2008, p27.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- ضرورة إعطاء ديناميكية جديدة لدعم المؤسسات تقوم على البحث عن
النجاح وتكون مرافقة لبرنامج الهيكلة والجهاز(بنك-مؤسسات)؛

- ضرورة مرافقة المؤسسة في جهودها من أجل الاندماج في اقتصاد السوق
خاصة مع الإنشاء التدريجي لمنطقة التبادل الحر مع الإتحاد الأوروبي ومع أفق الانضمام
إلى المنظمة العالمية للتجارة².

● معوقات تجسيد برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية

تعرض برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية جملة من العقبات يمكن تلخيص أهمها
فيما يلي:

- **ضعف التمويل:** تبقى المبالغ المخصصة لتجسيد هذه البرامج شحيحة مقارنة
مع ما هو مخطط، وما هو موجود على أرض الواقع؛

- **نقص الخبرة:** إن عملية الإشراف على مثل هذه البرامج مسيرة من أشخاص
ذوي خبرة متواضعة يعتمدون على نسخ بعض التجارب الأجنبية أكثر من اعتمادهم
على ما تعانيه المؤسسات الجزائرية؛

- **عدم توافق طبيعة المؤسسات مع شروط البرامج:** إن الشروط التي تضعها
برامج التأهيل لا تتوافق ووضعية المؤسسات الجزائرية، أي أن البرامج غير مرنة، ومن
أهم ما يمكن تقديمه هو تقسيم المؤسسات إلى عينات تخضع كل عينة منها لبرنامج هو
جزء من برنامج واسع أو تُصَب فيه (العينة)؛

¹ - وثيقة داخلية للمندوبية الداخلية للوكالة الوطنية لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ص ص
39-40.

² - أ.عروب رتيبة/أ.ريحي كريمة: تأهيل المؤسسات الصغيرة و المتوسطة" الملتقى الدولي حول
متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية" 17-18 أبريل 2006 جامعة
الشلف.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- **بيروقراطية التسيير:** إن من أهم العوائق التي تعيق تسيير أو تجسيد برامج
التأهيل على أرض الواقع البيروقراطية في التسيير، وتتمثل في الإهمال الإداري، وعدم
احترام الجدول الزمني المخطط له لتحقيق مراحل معينة من البرنامج؛

- **غياب الوعي لدى أصحاب المؤسسات:** تبقى المؤسسات الجزائرية جاهلة
لدورها الحقيقي وموقعها في الاقتصاد الوطني، الذي يحتم عليها تبني برنامج التأهيل،
كضرورة لا بد منها للرقى بالاقتصاد من خلال تنمية مجموع المؤسسات، ورغم أن
الانخراط ضمن هذا البرنامج اختيارا يرجع لصاحب المؤسسة إلا أنه أصبح لزاما لأن
الموارد البشرية مطالبة بالمشاركة في خلق القيمة المضافة.

رابعا: آليات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر

إن تأهيل قطاع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الأوضاع الراهنة منوط
باكتساب مجموعة من القومات المتمركزة حول روح الشفافية والحكم الرشيد
والانفتاح على المبادلات الدولية، وفي هذا الإطار تم تقديم هذه الاقتراحات لتفادي
المعوقات المذكورة سابقا¹:

- ضرورة تأهيل البيئة الاقتصادية؛
- السعي لإصلاح المنظومة المصرفية؛
- تحسين الكفاءة الإنتاجية وفق المقاييس والمواصفات الدولية من أجل ضمان
نجاح فرص الانضمام إلى منطقة التبادل الحر مع الإتحاد الأوروبي ودخول المنظمة العالمية
للتجارة؛

¹ - تشام فاروق/تشام كمال: دور و أهمية التأهيل في رفع القدرة التنافسية للمؤسسات دراسة
مقارنة " الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية" 17-
18 أبريل 2006 الشلف.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- تبسيط الإجراءات الجبائية عن طريق إعادة النظر في معدلات بعض الضرائب
والرسوم ومراجعتها دوريا في قوانين المالية لكل سنة؛

المحور الثاني: برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر

من أجل تحسين أداء المؤسسات الجزائرية تم تبني برامج تأهيل تهدف لتعزيز قدرتها التنافسية، ومن خلال هذا البحث سيتم تقييم النتائج التي حققتها والصعوبات التي واجهتها، من خلال الإحصائيات الرسمية المتوفرة وتحليلها.

أولا: البرامج الوطنية لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

الجزائرية

1) البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصناعية¹

أ) تقديم البرنامج: يسعى البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصناعية الذي شرع في تنفيذه سنة 2000 وامتد إلى 2008 والذي تشرف عليه وزارة الصناعة إلى دعم ومرافقة المؤسسات الصناعية العمومية منها والخاصة، التي تشغل أكثر من 20 عاملا لترقية التنافسية الصناعية، من خلال تحسين كفاءات المؤسسات الصناعية وتهيئة محيطها بتكثيف جميع مكوناته من أنشطة مالية، مصرفية، إدارية، جبائية، واجتماعية، ويقدر المبلغ المخصص لتمويل هذا البرنامج بـ 04 مليار دج يُخصص منه مبلغ 02 مليار دج لتأهيل المؤسسات أما المبلغ المتبقي فيخصص لتحديث وإعادة تأهيل المناطق الصناعية.

ب) أهدافه: يهدف هذا البرنامج إلى:

¹ - Actes des assises National da la PME, Ministère de la PME et l'Artisanat, Janvier 2004 ,p184.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- تشجيع المؤسسات الصناعية من خلال تدابير مالية معينة لتحديث أدوات إنتاجها وخاصة الرفع من مستوى تنافسيتها بوضع أنظمة للإنتاج والتنظيم والتسيير
تستجيب للمقاييس والمعايير المعمول بها في القطاع وهذا على مستوى المؤسسة.

- أما على مستوى المحيط المباشر للمؤسسة فقد قامت وزارة الصناعة بتحديد عدة عمليات ارتأت بأنها ذات أولوية وتمثل في: تأهيل المؤسسات والإشهاد بالمطابقة وفق المواصفات الدولية، إعادة تأهيل المناطق الصناعية ومناطق النشاطات، دعم وسائل الضبط (التقييس والملكية الصناعية، والقياس القانونية)، تطوير الخدمات التكنولوجية للدعم والاستشارة لفائدة الصناعة.

ج) إجراءات تأهيل المؤسسات الصناعية: تتمثل إجراءات تأهيل المؤسسات

الصناعية الجزائرية في جملة من العمليات نلخصها فيما يلي:

● تقديم المؤسسة لطلب المساعدة: إن المؤسسة التي تطلب مساعدة مالية في إطار صندوق ترقية التنافسية الصناعية تقدم الملف المتكون من الوثائق السابق ذكرها إلى مديرية تأهيل المؤسسات الاقتصادية؛

● إجراءات الدراسة العامة أو المخففة: يتم التمييز بين نوعين من الدراسة أو

التشخيص وهما:

- دراسة عامة: تشمل المساعدات المالية المتعلقة بالاستثمارات المادية وغير المادية، وتحقق في أجل أقصاه ثمانية أسابيع ويقوم بهذه الدراسة مكتب دراسات تختاره المؤسسة بكل حرية؛

- دراسة مخففة: حيث يكون برنامج التأهيل قصير ومحدود يقتصر على الاستثمارات غير المادية فقط (تكوين، دراسات، مساعدات تقنية، برمجيات...) وتتم هذه الدراسة في أجل أقصاه أربعة أسابيع.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

- تقييم الملف: تقوم مديرية تأهيل المؤسسات الاقتصادية بعملية التقييم المالي، كما يتم تقدير حيوية مخطط التأهيل و التأكد من أن الدراسة العامة أو المخففة تعالج القدرة المالية للمؤسسة؛

- تقديم الملف إلى اللجنة الوطنية للتنافسية الصناعية: بعد قبول مديرية التأهيل ملف المؤسسة الطالبة للانضمام إلى برنامج التّأهيل و ذلك بناء على المعايير السابقة يتم تقديمه إلى اللجنة الوطنية للتنافسية الصناعية مرفقا باستمارة قرار ويمكن للجنة الوطنية للتنافسية الصناعية اتخاذ القرارات التالية:

- قبول الملف و بالتالي تتحصل المؤسسة على المساعدات المالية المحددة .
- إرجاء الملف لإعادة التقييم المعمق للملف ومن ثم إعادة دراسته للمرة الثانية من قبل اللجنة أي أن الملف يعاد إلى المؤسسة من أجل دراسة مكملّة للنقاط الناقصة.
- تنفيذ برنامج التّأهيل: يتم تنفيذ برنامج التّأهيل من خلال تقديم المساعدات المالية ثم متابعة استعمالها.

(2) البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة¹

أ) تقديم البرنامج: يندرج هذا البرنامج في إطار القانون التوجيهي المتضمن ترقية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في إطار تأهيل هذه المؤسسات، بوضع برامج التأهيل المناسبة من أجل تطوير تنافسية المؤسسات وكذلك ترقية المنتج الوطني ليستجيب للمقاييس العالمية، يمتد هذا البرنامج على مدار 06 سنوات ويتم تنفيذه ابتداء من سنة، 2006 ويتم تمويله من طرف صندوق تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة حيث تقدر الميزانية المخصصة له بـ 06 مليار دج.

¹ – Etude de faisabilité du programme national de mise à niveau de la PME, Ministère de la PME et l'Artisanat, Octobre 2003,p05.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

ب) أهدافه: لهذا البرنامج أهداف عامة وأخرى خاصة نوضحها كما يلي:

✓ الأهداف العامة: تتمثل في :

- تحسين تنافسيتها على مستوى الأسعار، الجودة، الإبداع؛
- مواكبة الطرق والسياسات التنظيمية خاصة فيما يتعلق بتسيير الجودة والتكاليف وتأهيل الموارد البشرية والحصول على التقنيات الجديدة والمعرفة التقنية.

✓ الأهداف الخاصة: وتتمثل فيما يلي:

- تحديد ووضع مخطط أعمال لتطوير تنافسية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛
- إعداد وتنفيذ سياسة وطنية لتأهيل هذه المؤسسات وتحسين تنافسيتها؛
- التفاوض حول مخططات ومصادر تمويل البرامج؛
- تحضير وتنفيذ و متابعة برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛
- وضع بنك للمعلومات يخص المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

ج) إجراءات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة: تتمثل أهم إجراءات

تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في المراحل التالية:

- التشخيص الاستراتيجي العام لوضعية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة وإعداد خطة التأهيل ومخطط التمويل؛
- تبني برنامج التأهيل من طرف الوكالة الوطنية لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛

- تنفيذ ومتابعة خطة التأهيل؛

- منح المساعدات المالية؛

وتتمثل المساعدات المالية المقدمة في إطار هذا البرنامج في الآتي:

- 100 % من تكلفة التشخيص الاستراتيجي في حدود 600000 دج؛

- 100 % من تكلفة الاستثمارات غير المادية؛

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- 20% من تكلفة الاستثمارات المادية.

ثانيا: برامج *MEDA لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الجزائرية

تعتبر برامج ميديا للتنمية وتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة أداة لإنجاح
الشراكة الأورو جزائرية، حيث تهدف هذه البرامج لرفع القدرة التنافسية لهذه
المؤسسات وتدعيمها ماديا وتقنيا عن طريق تأهيلها وتأهيل محيطها.

برنامج *ED-PME لدعم وتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة¹:

✓ **تقديم البرنامج:** قامت الجزائر بعقد اتفاق مع الإتحاد الأوروبي بهدف رفع
القدرة التنافسية للمؤسسات الجزائرية الصغيرة والمتوسطة التي تشغل أكثر من 20 عامل
والتي تنشط في القطاع الصناعي أو قطاع الخدمات الصناعية للتمكن من الصمود أمام
المؤسسات الأوروبية، وتقدر الميزانية المخصصة لتمويل هذا البرنامج بمبلغ 62,9 مليون
يورو، 57 مليون يورو مموله من طرف الإتحاد الأوروبي، ويتميز هذا البرنامج بما يلي:

✓ هو برنامج مشترك ما بين اللجنة الأوروبية و وزارة المؤسسات الصغيرة
والمتوسطة والصناعات التقليدية الجزائرية؛

✓ تحدد مدة هذا البرنامج بـ 05 سنوات بداية من شهر سبتمبر 2002 إلى
غاية ديسمبر 2007؛

✓ تقدر الميزانية المخصصة لهذا البرنامج بـ 62,9 مليون يورو؛

✓ يسير هذا البرنامج من طرف فريق مختلط من الخبراء الأوروبيين والجزائريين.

(أ) **أهدافه:** يوجه هذا البرنامج أساسا لتقوية وتحسين تنافسية المؤسسات
الصناعية الخاصة من خلال تطوير السلوكيات والمواقف التسييرية للمقاول إزاء السوق،

¹ - Mme Maachi Imen :société de conseil en développement des Pme,
IVPme,document interne,p18.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي وخصوصا عند ظهور السوق الأورومتوسطي وكذلك تقنيات وطرق التسيير الجيدة والفعالة، كما يهدف هذا البرنامج إلى رفع فعالية ومردودية أكبر لعدد من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ووضع الشروط الملائمة لتطويرها.

ج) نشاطاته: تتمثل النشاطات الرئيسية التي يسعى هذا البرنامج إلى تحقيقها في

الآتي:

- تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛
- دعم تطوير الأدوات والوسائل الجديدة لتمويل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة؛

- تغطية ضمانات صندوق الضمان؛

- تعزيز قدرات جمعيات أرباب العمل والجمعيات الحرفية.

برنامج PME2 لدعم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والتحكم بتكنولوجيا المعلومات والاتصال¹:

تقديم البرنامج: هو برنامج تأهيلي يساعد المؤسسات الجزائرية الصغيرة والمتوسطة على تعزيز قدرتها التنافسية بتحسين أدائها وتوسيع حصتها في السوق، يشرف على هذا المشروع وزارة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والصناعات التقليدية والمفوضية الأوروبية ولكن لا بد من الإشارة إلى أن وزارة الصناعة وترقية الاستثمار ووزارة البريد وتكنولوجيات الاتصال تلعبان دورا هاما في تنسيق نشاطات برنامج الدعم، وقدر المبلغ المخصص لهذا البرنامج بـ 44 مليون أورو، حيث تساهم المفوضية الأوروبية بـ 40 مليون أورو، أما 04 ملايين أورو فتمثل حصة مساهمة

¹ – Programme d'appui aux PME/PMI de la mise à niveau, hotel de Mercure, Algérie, Décembre 2008, p05.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي الجزائر، وتم تحديد مدة البرنامج بـ 34 شهرا بداية من انطلاقه، والذي كان في ماي 2009.

أ) أهدافه: يمكن تلخيص أهداف البرنامج في ثلاثة أهداف رئيسية وهي كالتالي:

- تحسين تنافسية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة من خلال إدماج تكنولوجيا المعلومات والاتصال في تسييرها؛

- التنسيق والمرافقة من طرف الجهات المعنية: وزارة الصناعة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة ووزارة البريد وتكنولوجيات الإعلام والاتصال؛

- تأسيس نظام للجودة على مستوى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

ج) شروط الاستفادة من البرنامج: يجب على المؤسسات التي تريد الاستفادة

من الدعم المقدم من البرنامج والتي تتوفر فيها الشروط التالية:

أن يكون حجم مبيعات المؤسسة يتخطى 100 مليون دج سنويا (مليون أورو)، 50% منها ناتجة عن نشاط صناعي تحويلي؛

يجب أن يتعدى عدد الموظفين 20 عاملا، منهم 03 مدراء على الأقل؛

- تأسيس نظام للجودة على مستوى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

المحور الثالث: نتائج برامج التأهيل

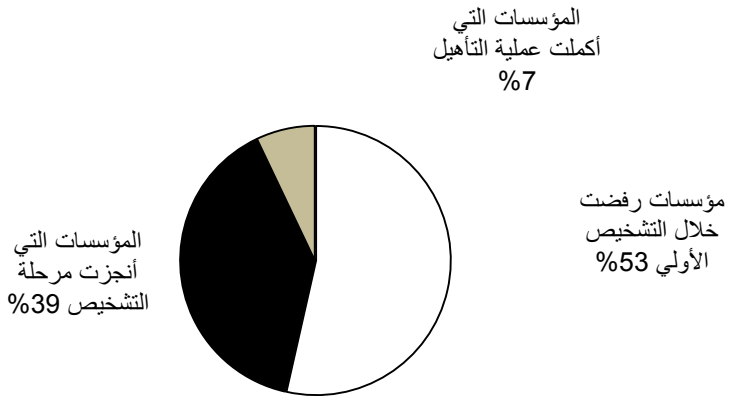
أولا: نتائج برنامج التأهيل الصناعي¹

تقدمت 433 مؤسسة لوضع ملفاتها بنية الانخراط في البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصناعية للحصول على المساعدات المالية من الصندوق الوطني لترقية

¹ - Etat des lieux et perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielles, Ministère de PME de l'industrie et de la promotion de l'investissement, Algérie, Juins 2008, p02.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي التنافسية الصناعية، من بين هذه المؤسسات 239 مؤسسة عمومية و194 مؤسسة خاصة، تم قبول 310 مؤسسة وهو ما يعادل نسبة 71% من المؤسسات التي تقدمت بطلب الانخراط، منها 122 مؤسسة عمومية و188 مؤسسة خاصة للقيام بمرحلة التشخيص وتم رفض 165 مؤسسة أي ما يعادل نسبة 53% من المؤسسات المقبولة، منها 117 مؤسسة عمومية و48 مؤسسة خاصة، ومن بين المؤسسات التي قبلت ملفاتها 145 مؤسسة فقط للاستفادة من الإعانات والمساعدات المالية ، منها 122 مؤسسة نفذت مخططاتها التأهيلية وتمثل نسبة 39% من المؤسسات المقبولة (310 مؤسسة)، و23 مؤسسة اقتصرت إعانتها المالية على الدراسة التشخيصية فقط، وتمثل نسبة 07% من المؤسسات التي قبلت (310 مؤسسة)، وبلغ العدد الإجمالي لعمليات التأهيل 1904 عملية، كانت 1110 عملية لامادية، و794 عمليات مادية.

شكل رقم (01): درجة تقدم 310 مؤسسة في برنامج التأهيل الصناعي



المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على

Agence National de Développement des Petites et Moyennes
Entreprises :

Perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielle,
Document interne, Aout 2008,Algérie, page04.

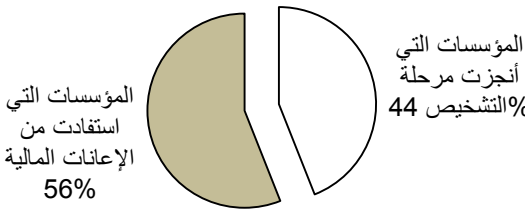
تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
مع ترجمة وتصرف

ثانيا: نتائج البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

تقدمت 375 مؤسسة بطلبات الانخراط في البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، تم قبول 305 مؤسسة، 45 % منها مؤسسات صغيرة ومتوسطة، 55% منها مؤسسات صغيرة جدا، ومن المؤسسات المقبولة 135 مؤسسة استفادت من مرحلة التشخيص وهو ما يعادل نسبة 44% أما المؤسسات الأخرى فقد أكملت عمليات التأهيل الأخرى وتمثل في عمليات التأهيل الخاصة بإدارة الأعمال، المالية، الإنتاج والجودة، وهو ما يعادل نسبة 56% من مجموع المؤسسات التي قبلت في البرنامج.¹

والشكل الموالي يوضح تطور العمليات في البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة:

شكل رقم (02): درجة تقدم 305 مؤسسة في البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة



المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على

1 Commission Européenne , Ministère de la PME et de l'Artisanat : Histoires - D'entreprise, juin 2005, volume2, pp 25-29

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
Agence National de Développement des Petites et Moyennes
Entreprises
Perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielle,
Document interne, Aout 2008, Algérie, page08.

مع ترجمة وبتصرف

ثالثا: نتائج برنامج ED-PME

تمثلت النتائج المحققة من خلال هذا البرنامج إلى غاية 31 أكتوبر 2006 فيما يلي:

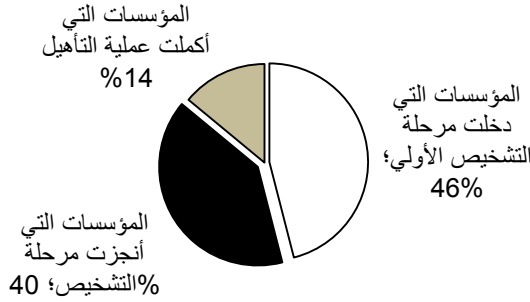
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة المنخرطة في برنامج التأهيل

تقدمت 685 مؤسسة صغيرة ومتوسطة صناعية خاصة للانضمام للبرنامج ، ويمثل هذا العدد نسبة 32 % من إجمالي عدد المؤسسات الصغيرة والمتوسطة التي تنشط في القطاع الصناعي والتي تمثل 2150 مؤسسة، ولقد تم الدخول الفعلي لـ 445 مؤسسة ضمن إجراءات التأهيل أي بنسبة 21% من مؤسسات القطاع الصناعي و بنسبة 65 % من عدد المؤسسات التي تقدمت بطلب الانخراط في البرنامج، أما 179 مؤسسة فقد تخلت عن البرنامج بعد قيامها بعملية التشخيص الأولي وهي تمثل نسبة 40 % من عدد المؤسسات التي انخرطت في البرنامج، أما 61 مؤسسة صغيرة ومتوسطة فقد تمكنت من الحصول على التغطية المالية من الصندوق الوطني لضمان القروض، أي أنها أكملت عملية التأهيل و تمثل نسبة 14% من عدد المؤسسات التي انخرطت في برنامج التأهيل ميّدا، و205 مؤسسة اقتصرت على مرحلة التشخيص وهي تمثل نسبة 46% من المؤسسات التي انخرطت في برنامج التأهيل.¹

¹ - Agence National de Développement des Petites et Moyennes Entreprises : Perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielle, Document interne, Octobre 2010, Algérie, p08.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
شكل رقم (03): درجة تقدم 445 مؤسسة صغيرة ومتوسطة في مراحل برنامج

التأهيل



المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على

Agence National de Développement des Petites et Moyennes
Entreprises :
Perspectives de la mise à niveau des entreprises
industrielle.document interne, Aout 2008,Algérie, page06.

مع ترجمة وبتصرف.

رابعا: انجازات برنامج pme2:

خلال الفترة الأولى من انطلاق البرنامج تم الشروع في تنفيذ التنظيمات واللوجستيات وإتمام إجراءات العمل، وإعداد وتنفيذ الإجراءات العملية على المستويات الثلاثة للبرنامج، وذلك بتدخل مجموعة من الخبراء من مجموعة المساعدة والدعم التقني، إضافة إلى 50 خبيرا آخر من أجل تنفيذ إجراءات البرنامج كما يلي¹:

- دعم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة حيث تم القيام بالعمليات التالية:

✓ تحديد معايير اختيار المؤسسات المعنية بالبرنامج؛

¹ - Ministère de la PME et l'Artisanat, Actes des assises National da la PME, Janvier2004 ,p191

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
تحديد أكثر من 200 مؤسسة، تم اختيار منها 100 مؤسسة لتنفيذ البرنامج؛
✓ دراسات لتحديد احتياجات المؤسسات من أجل إعداد مشاريع المرافقة
والدعم؛

✓ إطلاق مناقصة بـ 10,5 مليون أورو لإنشاء مركز للخبرة للمؤسسات
الصغيرة والمتوسطة.

- الدعم المؤسسي من خلال انطلاق عمليات الخبرة في المجالات التالية:

✓ برنامج إنشاء المراكز التقنية الصناعية؛

✓ استراتيجية تطوير المناولة؛

✓ برنامج استراتيجية الجزائر الالكترونية؛

✓ آليات التمويل وصناديق الضمان؛

✓ المجلس الوطني الاستشاري لترقية المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، جمعية

المنتجين الجزائريين للمشروبات ، الاتحاد الوطني للمتعاملين في الصيدلة والاتحاد المهني
لصناعة السيارات والميكانيك.

- دعم الجودة حيث تم في هذا المجال:

✓ إعداد مشاريع خاصة لدعم وزارة الصناعة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة،

الهيئة الجزائرية للاعتماد، المعهد الجزائري للتقييس، الديوان الوطني للقياس القانونية؛

✓ إعداد إجراءات اختيار هيئات تقييم المطابقة المستفيدة من دعم الاعتماد؛

✓ إعداد قائمة أولية تضم 112 هيئة لتقييم المطابقة بمساهمة هيئات الجودة

لتحديد المستفيدين من البرنامج؛

✓ إعداد سوق الخدمات بـ 07 مليون أورو من أجل الدعم التقني للجودة.

ولقد انتهى هذا البرنامج في 30 ديسمبر 2013، ونتائج هذا البرنامج في طور

المعالجة والتحضير من قبل اللجنة المختصة.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

المحور الرابع: دراسة حالة مؤسستي * * * CARAJUS و * * * SAFILAIT

أولاً: مؤسسة CARAJUS¹

CARAJUS هي مؤسسة عائلية، ملك للسيد رشاش عبد الرزاق، انشأت سنة 1999، وبدأت في الإنتاج سنة 2002 في مجال المشروبات الغذائية، تقع في بلدية الشط، دائرة بن مهدي، ولاية الطارف، مختلف إدارات هذه المؤسسة الصغيرة والمتوسطة والذين اكتسبوا خبرة في قطاع المشروبات.

ثانياً: مؤسسة SAFILAIT²

SAFILAIT هي مؤسسة عائلية صغيرة و متوسطة، تم إنشاؤها في 2002 من طرف السيد سفاري علي وابنه السيد سفاري محمد، وتم الانطلاق في الإنتاج سنة 2004، وهي مختصة في إنتاج الحليب ومشتقاته، تقع هذه المؤسسة في 11 حي سديرة 25140، عين سمارة، ولاية قسنطينة.

ثالثاً: تحليل وتفسير نتائج الدراسة

لقد تمكنت كلا المؤسستين من الاستفادة من برنامج التأهيل ميداً 2 وهو ما يسمى PMEII سنة 2009، تم تقديم استبيان لهاتين المؤسستين لمعرفة نتائج عملية التأهيل، احتوى الاستبيان على أسئلة مغلقة تهدف إلى معرفة المؤسسة و مسيرتها وأخرى لمعرفة رأي المسيرين حول نتائج برامج التأهيل، وسؤال مفتوح يخص تجاوب المؤسسة الصغيرة والمتوسطة مع برنامج التأهيل.

ومن خلال المعلومات التي أدلت بها المؤسستان تم التوصل إلى النتائج التالية:

جدول رقم (01): التعرف على المؤسستين ومسيرتها

¹ - وثائق داخلية لمؤسسة CARAJUS

² - وثائق داخلية لمؤسسة SAFILAIT.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

المستوى التعليمي للمسير	المسير	رقم الأعمال	عدد العمال	قطاع النشاط	نوع المؤسسة	الشكل القانوني	البيانات المؤسسة
جامعي	المالك	10.000.000 دج	48	صناعات غذائية	عائلية	شركة ذات مسؤولية محدودة SARL	CARAJUS
جامعي	المالك	30.000.000 دج	113	صناعات غذائية	عائلية	شركة مساهمة SPA	SAFILAIT

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على الاستبيان

SARL : Société A Responsabilité Limitée.

SPA : Société Par Actions.

تحليل البيانات:

من خلال الإجابة يتضح أن مؤسسة سافلي هي شركة ذات مسؤولية محدودة، أما مؤسسة كاراجي فهي مؤسسة ذات أسهم، وكلا المؤسستين عائليتين تنشطان في قطاع الصناعة الغذائية، وتوظفان من 10 إلى 250 عاملا، وبهذا فهما يندرجان تحت تصنيف المؤسسات الصغيرة والمتوسطة حسب التعريف الخاص بهذا القطاع، وتمثل المؤسسات الصغيرة والمصغرة نسبة 73% من المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر، كما أنهما مسيران من قبل المالك الذين لهما مستوى جامعي وهو مؤشر جيد للرفع من مستوى تسيير المؤسسات.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
جدول (02): قياس مدى تجاوب رؤساء المؤسسات مع برامج تأهيل
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

المؤسسات الصغيرة والمتوسطة	التعرف على البرنامج	نوع الاستقبال	معنى التأهيل لدى أصحاب المؤسسات
CARAJUS	أيام إعلامية تحسيسية	جيد	رفع مستوى المؤسسة وتنميتها باستمرار
SAFILAIT	أيام إعلامية تحسيسية	جيد	نشاط تكوين وتدريب

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على الاستبيان

تحليل البيانات:

تعرفت المؤسسات على برنامج التأهيل عن طريق الأيام الإعلامية التحسيسية حيث كان الاستقبال جيد وهذا يفسر اهتمام الدولة بإنجاح عملية التأهيل، ويؤكد أن حسن الاستقبال له دور إيجابي في تجاوب رؤساء المؤسسات مع البرنامج، أما التأهيل فهو يعني رفع مستوى المؤسسة وتنمية المؤسسة باستمرار، أما بالنسبة لمؤسسة سافي لي فهو نشاط تكوين وتدريب.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر ---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
جدول رقم (03): قياس أثر البرنامج على المؤسسات الصغيرة والمتوسطة

البيانات المؤسسة	الفترة من التشخيص حتى بداية التأهيل	أنواع نشاطات التأهيل	عدد نشاطات التأهيل	الصعوبات التي واجهت المؤسسة	التنافسية لدى المؤسسة	المؤسسة بعد التأهيل	درجة الرضا
CARAJUS	من 06 إلى 12 شهرا	بمجال الإنتاج	01	التأخر في البرنامج	منتجات ذات جودة وسعر مناسب	تحسن نوعية المنتجات وانخفاض التكاليف	رضا المسير
SAFILAIT	من 06 إلى 12 شهرا	بمجال الجودة	01	ارتفاع التكلفة	منتجات ذات جودة وسعر مناسب	تحسن نوعية المنتجات وانخفاض التكاليف	رضا المسير

المصدر: من إعداد الباحثين اعتمادا على الاستبيان

تحليل البيانات:

كانت إجابة المؤسسات أن الفترة ما بين 06 و12 شهرا وهي مدة طويلة نسبيا بالمقارنة مع الفترة المخططة والتي قدرت من 03 إلى 06 أشهر، حيث استفادت مؤسسة كاراجي من نشاطات في مجال الإنتاج، ويعتبر هذا النوع من النشاطات أساس المؤسسة الصناعية فالمؤسسة الصغيرة والمتوسطة الصناعية في الجزائر تعاني مشاكل وضعف في الإنتاج بسبب ضعف التكنولوجيا المستعملة في هذه المؤسسات، بينما استفادت مؤسسة سافي لي من نشاطات في مجال الجودة وبالتحديد العمليات الخاصة

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي بنظام المراقبة بسبب المنافسة، أما عن عدد نشاطات التأهيل فقدت بنشاط واحد فقط ويرجع هذا السبب إلى التأخر في الانطلاق الفعلي للبرنامج، فالمؤسسات التي تابعت نشاطات التأهيل قليلة وهذه النتائج لا تجعلها قادرة على المنافسة، وقد واجهت المؤسسات صعوبات في تنفيذ البرنامج فمسير مؤسسة كاراجي صرح بأن المشكل هو التأخر في تنفيذ البرنامج، أما المشكل الذي واجه مؤسسة سافي لي فهو ارتفاع التكلفة (التكلفة الخاصة التي تساهم بها المؤسسة)، كما أن المؤسستين صرحتا بأن التنافسية لديهم تعني تقديم منتجات ذات جودة وسعر مناسب، رغم أن معنى التنافسية لدى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الخاضعة للتأهيل وهو الرفع من تنافسيتها غير واضح لديهم، كما صرحتا بأن نوعية المنتجات تحسنت وتكاليف الإنتاج انخفضت، وأعلنوا رضاهم عن نشاط التأهيل لكنهم طالبوا بالمزيد من عمليات التأهيل، والملاحظ أن درجة الرضا مرتبطة بعدد نشاطات التأهيل، فكلما زادت عمليات التأهيل زادت درجة الرضا عند أصحاب المؤسسات.

أما آخر سؤال فتمحور حول الاقتراحات التي يمكن تقديمها لبرامج التأهيل الجديدة حيث منهم من ركز على مشكلتي التسيير والإنتاج ، واحترام آجال تنفيذ البرنامج، و منهم من اقترح القروض البنكية كآلية ضمن برامج التأهيل، المتابعة وتقييم نتائج برامج التأهيل على المؤسسات.

ورغم الرضا الذي صرحت به المؤسسات محل الدراسة ورغم الصعوبات التي واجهها البرنامج، وبغرض معالجة وتصحيح الانحرافات في برامج التأهيل فقد لجأت السلطات الجزائرية لتطبيق برنامج جديد لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة خلال الفترة (2010-2014) حيث يهدف البرنامج الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة إلى تأهيل 20.000 مؤسسة، خلال خمس سنوات، بتأهيل المؤسسات ومحيطها، حيث تبلغ التكلفة الإجمالية للبرنامج والتي تتحملها الدولة

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
385.736.000.000 دج أي 3,5 مليار أورو، وتبلغ التكلفة المتوسطة لكل مؤسسة
والمدعمة من طرف الدولة 19.287.000 دج.

أما مصدر التمويل فهو صندوق التخصيص الخاص رقم 124-302 المعنون
"الصندوق الوطني لتأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة"، وتعتبر الوكالة الوطنية لدعم
المؤسسات الصغيرة و المتوسطة أداة لتنفيذ هذا البرنامج، حيث تندرج هياكل إقليمية
"مندوبيات" تقع في المناطق ذات الكثافة العالية من النسيج الصناعي، ويتمثل هدف
البرنامج الوطني للتأهيل في مرافقة المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بهدف تحسين تنافسيتها
بالإضافة إلى دعم وضعية التسويق المحلي والخارجي.¹

الخاتمة:

خلصت هذه الورقة البحثية إلى عدة نتائج من خلال تحليل معطيات برامج
تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة والتي بدورها قدمت مجموعة من التوصيات التي
قد تعمل على معالجة الصعوبات والعراقيل التي واجهت برامج التأهيل وقطاع
المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

- أهم نتائج الورقة البحثية:

من خلال ما سبق من معطيات برامج التأهيل تم التوصل إلى مجموعة من النتائج
من أهمها:

- رغم أن برامج التأهيل كانت محفزة في محتواها من أجل تحسين تنافسية
الاقتصاد والمؤسسة ورفع كفاءتهما إلا أن النتائج المحققة من خلال هذه البرامج كانت
ضئيلة مقارنة مع هو مخطط لها؛

¹ - وثيقة داخلية لوزارة الصناعة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة وترقية الاستثمار، ص ص: 01-

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- يرجع عدم تحقيق برامج التأهيل لأهدافها لعدم توفر المؤسسة لشروط
الاندماج في البرنامج وبالتالي لا تستفيد من المنح والمساعدات؛

- حققت برامج التأهيل بالشراكة مع الاتحاد الأوروبي نتائج معتبرة مقارنة مع
برامج التأهيل الوطنية ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى الخبرة التي يكتسبها الأجانب
في هذا المجال؛

- كما أن فشل معظم هذه البرامج يمكن إرجاعه لعدم القيام بدراسات جدوى
لبرامج التأهيل ونقص المتابعة والتأخر في تنفيذ هذه البرامج.

- تنفيذ برامج التأهيل في فترات متقاربة دون انتظار تقييم النتائج وتحليلها
لاستخلاص نقاط القوة والضعف لتفاديها مستقبلا عامل لفشل البرامج المقبلة.

- اختبار الفرضيات:

من خلال هذه الدراسة تم التوصل إلى أن :

- **الفرضية الأولى** والتي مفادها أن تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في
الجزائر يسمح لها بالتنافسية والاندماج في الاقتصاد العالمي غير محققة وبالتالي نفيها،
فالنتائج المحققة لا تسمح بوصول الاقتصاد الجزائري إلى مستوى التنافسية العالمية، حيث
أن حصة كبيرة من المؤسسات لم تكمل عمليات التأهيل واقتصرت على مرحلة
التشخيص، أما عن المؤسسات التي تم تأهيلها فكان الحظ الأكبر للمؤسسات الخدمية،
والمطلوب هو تحفيز المؤسسات الصناعية والتي يقوم عليها نمو الاقتصاد؛

- **الفرضية الثانية** والمتمثلة في أن برامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة
بالشراكة الأجنبية حققت نتائج معتبرة مقارنة ببرامج التأهيل الوطنية محققة وبالتالي
تأكيدا، حيث أن نسبة المؤسسات التي انخرطت في برامج التأهيل بالشراكة مع الاتحاد
الأوروبي والتي أكملت عمليات التأهيل واستفادت من منح المساعدات أكبر من نسبة
المؤسسات التي انخرطت في البرامج الوطنية؛

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- **الفرضية الثالثة** والتي فحواها أن بعض المؤسسات الصغيرة والمتوسطة حققت نتائج إيجابية نسبيا، محققة وبالتالي تأكيدها، حيث صرحت كلتا المؤسستين بالرضا، لكن يبقى ذلك نسبيا بسبب قلة عدد نشاطات التأهيل التي قامت بها المؤسسات.

- التوصيات:

وعلى ضوء هذه النتائج وفي سبيل تطوير تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالجزائر يمكن تقديم التوصيات التالية:

- زيادة نسبة تمويل برامج التأهيل خاصة في الجانب المادي لتشجيع المؤسسات للاندماج في هذه البرامج؛

- العمل على غرس ثقافة التقاؤل كأمر استراتيجي بالنسبة لمستقبل الجزائر، وذلك من خلال إعداد برنامج تأهيل مسيري المؤسسات عبر مراكز للتأهيل؛

- إنشاء مراكز للبحوث والتطوير لتحسين تقنيات وأساليب الإنتاج وجودة المنتجات؛

- العمل على دعم المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الجزائرية لشغل وتفعيل إقامة مواقع إلكتروني على شبكة الانترنت قصد الوصول إلى المستهلك العالمي؛

- إنشاء مجلس وطني للتصدير يقوم بتشخيص المشاكل التي تعاني منها المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في مجال التصدير؛

- إنشاء مرصد وطني عربي لتبادل المعلومات حول نشاطات المؤسسات الصغيرة والمتوسطة.

أخيرا وفي انتظار ما سينتج من آثار إيجابية عن برنامج التأهيل الجاري تطبيقه خلال المخطط الخماسي الحالي، نأمل أن تنظر الوزارة المعنية في الصعوبات التي تواجه المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وفي الشروط الواجب توفرها في المؤسسات لكي تقبل ملفاتها، وأن تضع برامج مصغرة لكل فئة من المؤسسات التي لها نفس الخصائص بحيث

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
تصب هذه البرامج في برنامج واسع، يوضع ويخطط له من قبل خبراء اقتصاديين
جزائريين ملمين بالوضع الاقتصادية للدولة وحالة المؤسسات الجزائرية.

المراجع

- جمال بلخياط: متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الجزائرية في ظل التحولات الاقتصادية الراهنة، الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية، 17-18 أبريل 2006.
- ابتسام بوشويط: آليات تمويل برامج المؤسسات الاقتصادية الجزائرية"دراسة تحليلية لنتائج برامج تأهيل المؤسسات الجزائرية"، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة 2010.
- الأخضر عزي، أهواري خيثر: محاولة لدراسة خيار تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر خلال الفترة المرجعية (1962-2008)، ورقة بحثية مقدمة في الملتقى الوطني الأول حول دور المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في تحقيق التنمية بالجزائر خلال الفترة 2000-2010، بومرداس 18-19 ماي 2011.
- بريش السعيد: تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة"النتائج والدروس المستفادة"، ورقة بحثية مقدمة في الملتقى الدولي حول المقاولاتية والاحتواء المالي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة، جامعة باجي مختار- عنابة، 12-13 ديسمبر 2013.
- تشام فاروق/تشام كمال: دور و أهمية التأهيل في رفع القدرة التنافسية للمؤسسات دراسة مقارنة " الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الدول العربية" 17-18 أبريل 2006 الشلف.
- وثيقة داخلية للمندوبية الداخلية للوكالة الوطنية لتطوير المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ص ص 39-40.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر---- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي
- أ.عروب رتيبة/أ.ريحي كريمة: تأهيل المؤسسات الصغيرة و المتوسطة" الملتقى
الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة و المتوسطة في الدول العربية" 17-18
أفريل 2006 جامعة الشلف.

- تشام فاروق/تشام كمال: دور و أهمية التأهيل في رفع القدرة التنافسية
للمؤسسات دراسة مقارنة " الملتقى الدولي حول متطلبات تأهيل المؤسسات الصغيرة
و المتوسطة في الدول العربية" 17-18 أفريل 2006 الشلف.

- وثائق داخلية لمؤسسة CARAJUS.

- وثائق داخلية لمؤسسة SAFILAIT.

- وثيقة داخلية لوزارة الصناعة والمؤسسات الصغيرة والمتوسطة وترقية

الاستثمار، ص ص: 01-16

-Mustapha Benbada : La mise à niveau des PME/PMI ,
ministère de la PME et de l'artisanat,Algérie,Novembre 2006,p07.

(*) ONUDI :ORGANISATION DES NATIONS DE
DEVELOPPEMENT INDUSTRIELLE.

-Mise à niveau des entreprises: la chambre de commerce et
d'industrie www .caci.dz/publicat/textmiseaniveau.htm

-M.EIHachemi: PME Un facteur de création de richesses et
d'emplois,magazine l'actuel international , N°87,Janvier 2008,p27.

- Actes des assises National da la PME, Ministère de la PME et
l'Artisanat, Janvier 2004 ,p184.

- Etude de faisabilité du programme national de mise à niveau de
la PME, Ministère de la PME et l'Artisanat, Octobre 2003,p05.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

- Mme Maachi lmen :société de conseil en développement des Pme, IVPme,document interne,p18.

(**) MEDA : Mediterranean Economic Development Associates.

- Programme d'appuix aux PME/PMI de la mise à niveau, hotel de Mercure,A lgerie,Décembre2008,p05.

- Etat des lieux et perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielles, Ministère de PME de l'industrie et de la promotion de l'investissement,Algérie, Juins 2008, p02.

-Commission Européenne , Ministère de la PME et de l'Artisanat : Histoires D'entreprise,juin 2005, volume2.pp 25-29.

-Agence National de Développement des Petites et Moyennes Entreprises : Perspectives de la mise à niveau des entreprises industrielle, Document interne, Octobre 2010, Algérie, page08.

(***)CARAJUS :Conserverie Alimentaire Recherche Abdelrazak JUS.

(****)SAFILAIT :SAFARI LAIT .

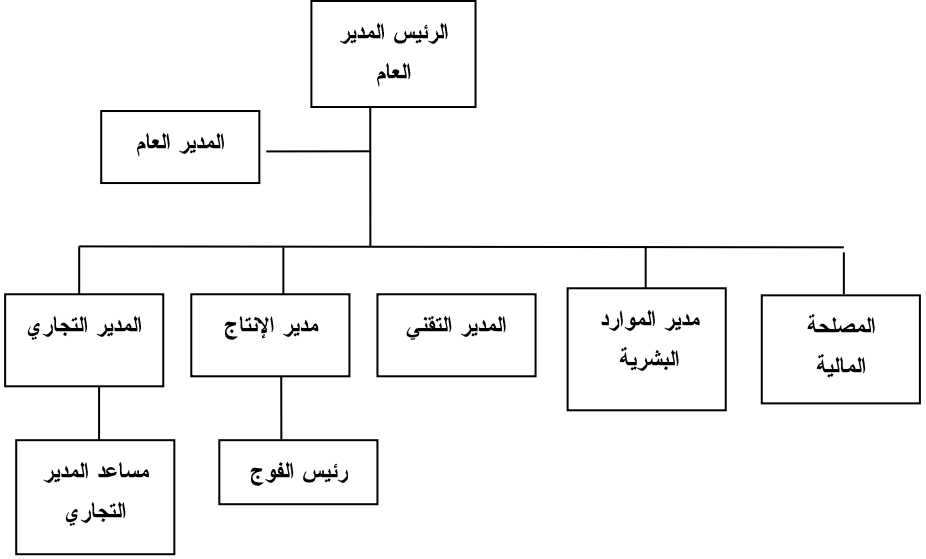
-Ministère de la PME et l'Artisanat, Actes des assises National da la PME, Janvier2004 ,p191.

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

الملاحق:

1- الهياكل التنظيمية:

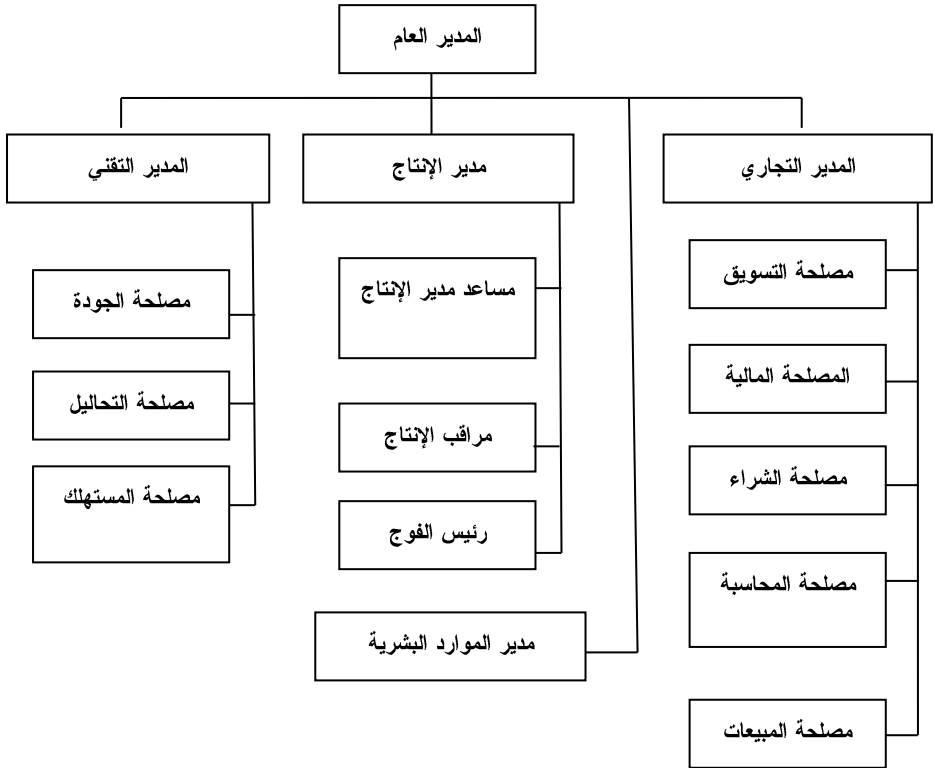
أ) الهيكل التنظيمي لمؤسسة CARAJUS:



المصدر: وثيقة داخلية للمؤسسة

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

ب) الهيكل التنظيمي لمؤسسة SAFILAIT:



المصدر: وثيقة داخلية للمؤسسة

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

2- الاستبيان

جامعة باجي مختار-عنابة-

كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير

موضوع الدراسة: إشكالية تأهيل المؤسسة لاقصادية الجزائرية ودوره في

تحقيق التنمية

الأستاذة: والي مريم

الأستاذ المشرف: بريش السعيد

باحثة دكتوراه

أستاذ التعليم العالي

إلى السيد مدير المؤسسة:

سيدي المدير تحية طيبة وبعد، نرجو من سيادتكم مشاركتنا في إنجاز هذا

البحث من خلال الإجابة على الاستبيان المرفق وذلك بصفتم العضو الفاعل في

برنامج التأهيل لأنها وضعت لخدمة مؤسساتكم وتحقيق هدفكم هو تحقيق لأهداف هذا البرنامج.

- ضع علامة (x) في الإجابة المناسبة

1- ما هو الشكل القانوني لمؤسستكم؟

SPA

SNC

EURL

SARL

أخرى.....

2- هل مؤسستكم مؤسسة عائلية؟ نعم لا

3- ما هو القطاع الصناعي الذي تنشطون فيه؟

الصناعة الخدمات البناء والأشغال العمومية والري النسيج

والجلود الصناعات الغذائية أخرى.....

4- كم يبلغ عدد العمال الدائمين عليكم؟

من 5-9 عمال من 10-49 عامل من 50-249 عاملا

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

5- كم يبلغ رقم إعمالكم؟

من 10-20 مليون دج من 20-200 مليون دج

من 200-2000 مليون دج

6- من يسير مؤسستكم؟ المالك أحد المساهمين مسير من خارج

محيط المؤسسة

7- ما هو المستوى التعليمي لمسير مؤسستكم؟

ابتدائي متوسط ثانوي شهادة مهنية

جامعة أخرى.....

8- كيف تعرفتم على برنامج التأهيل؟

المنشورية الجهوية للـ ANDPME أيام تحسيسية تلفاز وإذاعة

جرائد ومجلات أنترنت أخرى.....

9- كيف كان استقبالكم من طرف ANDPME جيد مقبول

سيئ

10- ماذا يعني لكم التأهيل؟

نشاط التكوين والتدريب تطوير المؤسسة باستمرار تحديث وعصرنة

المؤسسة

تحسين أداء المؤسسة زيادة تنافسية المؤسسة اقتناء عتاد

أخرى.....

11- كم استغرق الوقت لدراسة ملف الانخراط في البرنامج؟

من 3 إلى 6 أشهر من 6 إلى 12 شهرا أخرى.....

12- ما هي أسباب تأخر دراسة الملف؟ أسباب إدارية أسباب خاصة

أخرى.....

تقييم برنامج تأهيل المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الجزائر----- أ. د. السعيد بريش أ. مريم والي

13- كم استغرق الوقت بين عملية التشخيص وأول عملية تأهيل؟

من 3 إلى 6 أشهر من 6 إلى 12 شهرا أخرى

14- ما هي مجالات عمليات التأهيل التي قمتم بها إلى الآن؟

التسوي المالية الإدارة الإنتاج الجودة
 أخرى.....

15- كم نشاط تأهيل استفدتم منه إلى الآن؟

من 1 إلى 2 نشاط من 3 إلى 4 نشاط من 5 أنشطة فأكثر

16- ما هي الصعوبات التي واجهتكم في تنفيذ نشاطات التأهيل؟

التكلفة الخاصة تأخر تنفيذ البرنامج عدم وجود تواصل بينكم وبين الخبراء
 أخرى.....

17- ماذا تعني لكم بأن تصبح مؤسستكم في حالة تنافسية؟

ارتفاع في رقم الأعمال تقديم منتجات ذات جودة تقديم منتجات ذات
جودة وبسعر مناسب الولوج للأسواق الأجنبية أخرى.....

18- كيف تقيمون مؤسستكم بعد التأهيل؟

انخفاض في تكاليف الإنتاج ارتفاع رقم الأعمال التحسن في جودة المنتجات
 لم يحدث أي تغيير أخرى.....

19- هل أنتم راضون عن نتائج عملية التأهيل؟

لست راضي راضي قليلا راضي جد راضي

20- ما هي الاقتراحات التي تقدمونها للوكالة الوطنية لتطوير المؤسسات الصغيرة

والمتوسطة لتحسين برامج التأهيل القادمة؟

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة ضرورة حتمية لاجتناب أزمات مالية مستقبلية

أ. حسينة سميرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

تعد المشتقات المالية أبرز الابتكارات المالية التي صاحبت التطورات الحاصلة في النظام المالي العالمي، وهي منتجات تمتاز بالمرونة والتعقيد وتقدم تغطية جيدة ضد المخاطر، لكنها تحولت إلى أدوات للمجازفة ونقل المخاطر، خاصة أثناء الأزمة المالية العالمية 2008 حيث كانت وراء إفلاس العديد من المؤسسات المالية، الأمر الذي استدعى إعادة النظر في تنظيم أسواق المشتقات المالية خاصة تلك التي تتم خارج المقصورة (التفاوض بالتراضي) وذلك بإخضاع العقود الأكثر تجانساً للمقاصة المركزية والإبلاغ عنها لدى دلائل مركزية للمعلومات من أجل تحقيق انضباط السوق واجتناب أزمات مالية مستقبلية قد تقود العالم إلى وجهة مجهولة.

الكلمات المفتاحية: المشتقات المالية، الأزمة المالية، مبادلات خطر عدم السداد.

Abstract:

Financial derivatives products are presented as one of the most important financial innovations that have accompanied the evolution of the global financial system. products are characterized by flexibility and complexity, and provide a good hedge against risks. but they have become a source of speculation and contagion risk , especially during the global financial crisis of 2008. they were behind the collapse of many financial institutions. Which necessitated the reform of the regulation of derivatives markets, particularly those treated OTC (over-the-counter), this reform will affect derivatives sufficiently standardized that will necessarily offset by a central

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناوب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
counterparty (CCP), the recording of all transactions within the
central data registers (trade repositories-TR) and the
establishment of international unique identifier (legal entity
identifyer-LEI) to achieve market discipline, and to avoid future
financial crises that will lead the world to a destination
unknown.

Keywords: the financial crisis .financial derivatives, cds.

مقدمة: تعد المشتقات المالية بأنواعها المختلفة أحد أهم المبتكرات المالية التي
ميزت الساحة المالية العالمية، باعتبارها أبرز مظاهر العولمة المالية، حيث بدأ التعامل بها
منذ أوائل السبعينات لمواجهة التقلبات الحادة التي شهدتها الأسواق المالية، خاصة المتعلقة
بالتقلبات الغير المتوقعة في أسعار الفائدة والصرف وأسعار الأصول المالية التي شكلت
خطرا كبيرا على المؤسسات الاقتصادية، فكانت بذلك المشتقات المالية أدوات حديثة
للحماية وتدنية المخاطر، ولا يقتصر استخدام المشتقات بغرض التحوط فحسب بل يمتد
إلى المضاربة أو المجازفة من أجل تحقيق الأرباح والاستفادة من فروقات الأسعار.

فبالرغم من وجود أشكال المشتقات المالية في الأسواق منذ قرون، إلا أنها
تطورت بشكل كبيرا في القرن الماضي، كما تزايد استخدامها بتطوير أدواتها في
العقدين الأخيرين بما يتناسب مع ظاهرة عالمية الأسواق، الأمر الذي جعل المشتقات
المالية تحوز على أهمية بالغة نظرا لأهميتها وسرعة انتشارها باعتبارها أحدث المبتكرات
المالية وأكثرها تعقيدا، حيث ساهمت في تقديم تغطية ضد مخاطر التغيرات السعرية،
وإتاحة الفرصة لتخطيط أفضل للتدفقات النقدية، ومن ثم أولتها الجهات الرسمية والمهنية
العناية الفائقة من الناحية التشريعية والقانونية التي تنظم أحكام التعامل بها.

خاصة بعد الأزمة المالية العالمية الأخيرة، حيث كانت أسواق المشتقات المالية
أحد الأسباب الرئيسية لحدوثها كما اعتبرت أدوات لانتقال عدوى الأزمة بسرعة

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة كبيرة، مما استوجب في إطار الحوكمة العالمية التي تتجسد في مجموعة العشرين الدعوة إلى إصلاح نظام التعامل بالمشتقات المالية خاصة تلك التي ساهمت في تفاقم الأزمة المالية الأخيرة، وهي المشتقات المالية التي تتداول في الأسواق غير المنظمة¹، في اجتماع بيتاسبرغ (Pittsburg) 2009، وأبرز هذه الإصلاحات تتمثل في وضع معايير دولية لجعل هذه العقود الأكثر تجانساً خاضعة للمقاصة المركزية، بالإضافة إلى تعزيز قواعد الإفصاح والشفافية، وقد بدأ تجسيد هذه الإصلاحات من خلال تشريعات ونظم جديدة سواء في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال قانون حماية المستهلك (دود - فرانك)² أو الدول الأوروبية تنظيم البنية التحتية للأسواق الأوروبية (إيمير-³EMIR)، وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية التعرف على أهم الإصلاحات في أسواق المشتقات المالية ومدى أهميتها في تحقيق الاستقرار المالي العالمي لإجتناّب أزمات مالية مستقبلية، من خلال طرح الإشكالية التالية:

كيف يتم إصلاح المشتقات المالية لتجنب حدوث أزمات مستقبلية؟
وللإجابة على هذه الإشكالية نتبع المنهج الوصفي التحليلي من خلال المحاور

التالية:

أولاً: ماهية المشتقات المالية.

ثانياً: الأزمات المالية العالمية الحالية وعلاقتها بالمشتقات المالية.

ثالثاً: الإصلاحات المالية المعاصرة في سوق المشتقات المالية.

أولاً: ماهية المشتقات المالية

¹ - les marchés de dérivés de gré a gré (-over-the counter – otc-dérivatives)

² -Dodd-frank regulation. أو قانون إصلاح وول ستريت

³ - euro péan market infrastructure regulation.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسية سميرة
بداية سنتعرف على ماهية المشتقات المالية، أهميتها وأنواعها حيث سنركز على
الأنواع المتداولة في الأسواق غير المنظمة.

1-تعريف المشتقات المالية:

نشأت المشتقات المالية من علم الرياضيات وهي تشير إلى متغير يشق من متغير
آخر، والمشتقات المالية من أهم الأدوات المالية الجديدة التي قدمها منظرًا الهندسة
المالية¹، لأغراض التحوط والمضاربة والاستثمار، ولها عدة تعاريف نورد منها ما يلي:
- "تسمى عقود المشتقات بهذا الاسم لأن قيمتها مشتقة من قيمة الأصول محل
العقد (الأسهم، السندات، السلع والعقارات...)، وكذلك من متغيرات نقدية ومالية
وحقيقية (سعر الصرف، معدل الفائدة، مؤشر بورصة، مؤشر مناخ...) التي تسمى
الأصول الأساسية. تهدف إلى توفير الحماية لجميع المتعاملين الاقتصاديين، ضد المخاطر
التي تحيط بعملية تجارية أو مالية يتم تنفيذها في المستقبل للأسباب يصعب التحكم فيها"²
كما تعرف أيضا بأنها:

- "عبارة عن عقود مالية تتعلق بفقرات خارج الميزانية وتحدد قيمتها بقيم
واحد أو أكثر من الموجودات أو الأدوات أو المؤشرات الأساسية المرتبطة بها"³.
- كما أنها "عقود تتوقف قيمتها على أسعار الأصول المالية محل التعاقد، ولكنها
لا تتطلب استثماراً لأصل المال في الأصول، وكعقد بين طرفين على تبادل المدفوعات

¹ - تتضمن الهندسة المالية التطوير والتطبيق المبتكر للنظرية المالية والأدوات المالية لإيجاد حلول
للمشاكل المالية المعقدة ولاستغلال الفرص المالية. فالهندسة المالية ليست أداة، بل هي المهنة التي
تستعمل الأدوات (تعريف الجمعية الدولية للمهندسين الماليين)

² - Yves Jégoure , Les produits dérivés : outils d'assurance ou instruments dangereux
de spéculation, Comprendre les marchés financiers, Cahiers français n° 361,2011.

³ - بن رجم محمد خميسي، المنتجات المالية المشتقة، أدوات مستحدثة لتغطية المخاطر أم لصناعتها،
الملتقى العلمي الدولي "الأزمة المالية والاقتصادية الدولية والحوكمة العالمية"، جامعة سطيف، 2009.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسبية سميرة
على أساس الأسعار أو العوائد، فإن أي انتقال للملكية الأصل محل التعاقد والتدفقات
التقديدية يصبح أمراً غير ضروري.¹

- وجاء في تعريف آخر أهما: "أدوات مالية ترتبط بأداة مالية معينة أو مؤشر أو
سلعة، والتي يمكن من خلالها شراء أو بيع المخاطر المالية في الأسواق، أما قيمة الأداة
المشتقة فإنها تتوقف على سعر الأصول والمؤشرات محل التعاقد، وعلى خلاف أدوات
الدين فليس هناك ما يتم دفعه مقدماً لئتمّ استرداده، وليس هناك عائد مستحق على
الاستثمار، وتستخدم المشتقات المالية لعدد من الأغراض، وتشمل إدارة المخاطر،
والتحوط والمراجحة في الأسواق وأخيراً المضاربة"².

وبالتالي يمكن أن نستنتج من مختلف التعاريف السابقة أن المشتقات المالية عبارة
عن عقود على شكل أدوات مالية تشتق قيمتها من قيمة الأصول الأساسية، يتم
تسويتها في تاريخ مستقبلي بهدف التحوط وإدارة المخاطر وحتى المضاربة.

2- أسواق المشتقات³: وهي الأسواق التي يتم فيها تداول عقود المشتقات
وتكون أسواق المشتقات إما أسواقاً منظمة أو غير منظمة.

● **السوق المنظمة:** وتعرف أيضاً بسوق الأجل للبورصة، وتتسم بتوحيد
شروط التعامل في عقود المشتقات كتلك المتعلقة بالتسليم والتسوية والحد الأقصى لعدد

¹ - جباري شوقي وهليلي فريد، دور الهندسة المالية الإسلامية في علاج الأزمات المالية العالمية، بحث
مقدم للمؤتمر العلمي الدولي حول (الأزمة المالية والاقتصادية العالمية من منظور إسلامي)، عمان،
الأردن، 2010

² - نفس المرجع السابق.

³ - محمود سحنون، مخاطر المشتقات المالية ومساهمتها في خلق الأزمات، المؤتمر العلمي الحادي عشر
بعنوان "الأزمة الاقتصادية المعاصرة، أسبابها، علاجها وتداعياتها، كلية الشريعة، جامعة جرش،
الأردن، ديسمبر 2010.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسية سميرة عقود المضاربة الذي يمكن أن يحوزه العميل الواحد بالنسبة لكل أصل. إضافة إلى أن السوق المنظمة تكون مجهزة بغرفة مقاصة تسمح بتنظيم سيولة العقود وتضمن تغطية مخاطر الطرفين، وتتحقق هذه التغطية من خلال هامش مبدئي يمثل نسبة من قيمة العقد تتراوح بين 3 إلى 5% تودع لدى غرفة المقاصة. للإشارة فإنه لا يتم التعامل في هذه السوق إلا من طرف متعاملين معتمدين تحكمهم قواعد التداول المحددة من طرف هذه البورصة.

• **السوق غير المنظمة:** على عكس الأسواق المنظمة، السوق غير المنظمة تحكمها عمليات غير منظمة، هذه العمليات التي تتم مقصورة على الأسواق غير المنظمة، هي الأكثر تغييرا للنظام المالي الدولي، بالنظر لكونها لا تخضع لأي رقابة، ولأي هامش ضمان ولا تملك غرفة مقاصة، وتتداول أيضا في مقصورتها العقود المستقبلية والعقود الآجلة ومنتجات أخرى أكثر تعقيدا من حيث الخيارات والمبادلات، ... علما أن العمليات في هذه السوق ليست نمطية، بل يتخذ قرارها بشكل مشترك بالاتفاق بين الطرفين المعنيين، بمعنى أنها مهيكلة حسب إرادة الطرفين المعنيين. ويعتبر ذلك إيجابيا بالنسبة للمتدخل الذي حددت العملية على مقاسه، في حين يعتبر ذلك سلبية عامة تتميز بها هذه الأسواق.

3 - خصائص المشتقات المالية¹: تتميز المشتقات المالية بالخصائص التالية:

• **إنها ذات طبيعة خارج الميزانية:** فعلى حين يتم إثبات قيم الأدوات المالية التقليدية (مثل الأسهم والسندات) داخل الميزانية كأصول وخصوم بحيث يكون من السهل التعرف على أرصدها المثبتة وتتبع أية تغييرات فيها، فإن الوضع يختلف بالنسبة

¹ - هبه محمود الطنطاوي الباز، التطورات الحديثة في الصناعة المصرفية واستراتيجية عمل البنوك في مواجهتها، القصر للطباعة والدعاية والإعلان، مصر، 2006. ص26.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
للأدوات المالية المشتقة حيث لا لإثباتها داخل الميزانية مما يجعل المجال مفتوحا للتعرض
لمخاطر عدم الإفصاح عن تلك القيم بالإضافة إلى مخاطر ضعف الرقابة عليها.

● **التعقيد:** إن عقود المشتقات قد يتم تصميمها لمقابلة الحاجات الخاصة
للمستخدمين النهائيين، لذلك قد لا يكون استخدام بعض تلك الأدوات واضحا. كما
قد لا يكون واضحا أيضا كيفية تقويمها أو المحاسبة عنها-و كيفية تحقيق الأهداف
الاقتصادية المرغوبة - وهذا قد يترتب عليه مشاكل أساسية نتيجة لعدم فهم شروط
وأثار عقد مشتقات معين، مما قد يؤدي إلى تعرض المؤسسة المالية للارتباك المالي.

● **السيولة:** أحيانا تتصف بعض أسواق المشتقات بعدم السيولة، مما يترتب عليه
صعوبة تسوية بعض أنواع عقود المشتقات، بالإضافة إلى مشاكل أخرى تتعلق بعمليات
تقييمها أو تصفية وإزالة المراكز المفتوحة المرتبطة بها. وبعض عقود المشتقات تتسم
بدرجة سيولة عالية حيث يسهل تسويتها إما عن طريق البيع أو الشراء في تاريخ
الاستحقاق المحدد، أو عن طريق إبرام صفقة عكسية بواسطة بيوت التسوية.

● **عدم وضوح القواعد المحاسبية المرتبطة:** حيث لا يزال هناك نوع من
الغموض المحيط بالمعالجة المحاسبية للآثار المترتبة على الدخول في عمليات المشتقات.
ويرجع ذلك أساسا إلى التقدم السريع والنمو المتلاحق في مجال إنتاج الأدوات المالية.

4- **أهمية المشتقات المالية:** تختلف أهمية المشتقات المالية بحسب مستعملها
الذين ينقسمون إلى متحويين ومضاربين ومراجحين فلكل منهم هدف خاص به،
تحققه المشتقات المالية حسب الغرض المرجو منها، فهي ذات أهمية يمكن إنجازها فيما
يلي :

● **التغطية ضد مخاطر التغيرات السعرية:** يتمكن المستثمر من خلال هذه
العقود من التغطية ضد مخاطر تغير الأسعار، بنقل تلك المخاطر لطرف آخر دون اللجوء
إلى شراء مسبق للأصل محل التعاقد، مقابل تكلفة معينة.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

● **مصدر لتحقيق إيرادات:** يمكن استخدام المشتقات لتخفيض تكاليف التمويل، ولزيادة بعض الموجودات أو الأدوات. فلقد أصبحت الأدوات المشتقة مصدرا مباشرا ومنتظما لإيراد العديد من المؤسسات المالية المصرفية والمالية الأخرى، وذلك من جراء قيام هذه المؤسسات بنشاطات عدة في مجال صناعة الأسواق، أي الدخول في صفقات مع العملاء وغيرهم من المتعاملين في أسواق المشتقات مع الاحتفاظ دوما بمراكز متوازنة للمحافظ المالية للاستفادة من إيرادات الرسوم الناتجة عن عروض مواتية للأسعار¹.

● **استكشاف السعر المتوقع في السوق الحاضر:** من أبرز وظائف عقود المشتقات كذلك تزود المتعاملين بالمعلومات عما سيكون عليه سعر الأصل الذي أبرم عليه العقد في السوق الحاضر في تاريخ التسليم، لذا يقال أنها أداة جيدة لاكتشاف السعر أي استكشاف المستوى الذي يمكن أن يكون عليه السعر في السوق الحاضر في تاريخ التسليم.

● **تؤدي إلى تحقيق مستوى عال من الكفاءة في سوق المال:** فالكفاءة تعني القيام بعمل أفضل طريقة ممكنة من حيث التكلفة والوقت والربحية، حيث تمكن المشتقات المالية لتخفيض تكاليف التمويل وتحقيق ربحية من خلال المراجعة فيما بين الأسواق الحاضرة وأسواق المشتقات.

5- أنواع المشتقات المالية:

تتميز عقود المشتقات بالمرونة العالية والتنوع الكبير، فلا يمكن حصر جميع أنواعها، واختصارا يمكن تصنيفها إلى عقود رئيسية أو كلاسيكية أو ما يعرف بالجيل الأول، وعقود هجينة وغريبة أو مشتقات الجيل الثاني.

¹ - هبة محمود الطنطاوي الباز، مرجع سابق، ص 27.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
5-1 المشتقات الرئيسية: وهي ما تعرف بالجيل الأول حيث بدأ التعامل بها
بصورة منظمة في بدايات سنوات السبعينات حوالي 1972 ببورصة شيكاغو الأمريكية،
لتنشر وتزداد تطورا في الثمانينات . فيما يلي نستعرض أهم العقود الرئيسة للمشتقات
المالية وهي:

● أ- العقود المستقبلية: futures contracts هي اتفاق بين طرفين لشراء أصول
أو بيعها في وقت مستقبلي بسعر معين ويتم تداولها عادة في البورصة .لجعل التداول
ممكنًا، تحدد البورصة ميزات موحدة معينة لهذه العقود .وبما أن الطرفين المتعاملين بالعقد
ليس بالضرورة يعرفان بعضهما البعض، فإن البورصة توفر أيضا آليات تعطي الطرفين
الضمان بأنه سيتم الوفاء بالعقد.¹
وتتميز بالخصائص التالية:

- هي عقود نمطية يلتزم بمقتضاها البائع والمشتري بإجراء تبادل محل العقد في
تاريخ محدد في المستقبل وبسعر يتم الاتفاق عليه عند كتابة العقد، ما يتيح وجود سوق
ثانوي لها.

- إن طرفي التعامل غالبا ما لا يعرفان بعضهما البعض، بالتالي لا يدخل الطرفان
مباشرة مع بعضهما البعض في التعامل، وإنما عن طريق غرفة المقاصة التي تعمل
كمشترية أو كبائعة دون أن تنافس أيا من المشتريين أو البائعين، فهي تعمل إذن على
توازن الحسابات ودفع الأرباح وتجميع المدفوعات وتحقيق الاستقرار وتجاوز التبادلات
المباشرة بين المتعاملين وضمان إنجاز العقود بكفاءة.²

¹ – John c.hull, options, futures, and other derivatives, 8th édition, 2012. p07.

² – بباس منيرة، الضوابط الشرعية للتعامل بالمشتقات المالية، الملتقى العلمي الدولي حول "الأزمة
المالية والاقتصادية الدولية والحوكمة العالمية" جامعة سطيف، أكتوبر 2009.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسية سميرة
- يتطلب المتاجرة في المستقبلات إيداع هامش مبدئي لدى غرفة المقاصة
كضمان لاستيفاء الأطراف بالتزاماتهم، ويحدد الهامش حسب ظروف السوق
وسلو كيات المستثمر، ويمكن استرداده كاملا في حالة تنفيذ العقد.

✓ أنواع المستقبلات: يتم التعامل في العقود المستقبلية التالية¹:

العقود المستقبلية لمعدلات الفائدة: ومنها يكون موضوع التعامل هو معدل

الفائدة على ودائع أو مستندات أو قروض معينة.

العقود المستقبلية لأسعار الصرف: ويتم فيها تداول العملات المحلية مقابل

العملات الأجنبية.

العقود المستقبلية لمؤشرات الأسهم: ويتم فيها تداول مؤشرات لمجموعة من

الأسهم والسندات التي يتم تداولها في سوق الأوراق المالية.

● **ب- العقود الآجلة:** Foward contracts: العقود الآجلة هي مشتق بسيط

نسبيا مقارنة بعقود المستقبلات، حيث أنها عقود يلتزم فيها البائع أن يسلم للمشتري
السلعة محل التعاقد في تاريخ لاحق بسعر متفق عليه وقت التنفيذ يسمى سعر التنفيذ،
لكن في مثل هذه العقود قد يتفق على دفع قيمة العقد عند التعاقد أو يتم دفع جزء
والباقى يؤجل حتى تاريخ التسليم، كما يتفق الطرفان على الكمية وطريقة وكيفية
تسديد العقد مما يبين الطابع الشخصي لهذا النوع من العقود، حيث يحدد الطرفان
شروط العقد بما يلائمهما، الأمر الذي يدل على أنه²:

- لا توجد سوق ثانوية لهذا النوع من العقود؛ لأنها عقود شخصية.

¹ - بن رجم محمد خميسي، المنتجات المالية المشتقة: أدوات مستحدثة لتغطية المخاطر أم لصناعتها،
الملتقى العلمي الدولي حول "الأزمة المالية والاقتصادية الدولية والحوكمة العالمية" جامعة سطيف،
أكتوبر 2009.

² - نفس المرجع السابق.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنا ب أزمات مالية----- أ. حسية سميرة
- عند إبرام العقد لا يمكن إلغاؤه، مما ينطوي عليه مخاطر عدم القدرة على التسليم.

- يكون السعر ثابتا في العقد الآجل خلال مدة العقد، فإن العقود المستقبلية تخضع للتسويات، ويتم تعديل قيمتها وفقا لسعر التسوية.

● ج- عقود الخيارات: options هي عقود تعطي لحاملها الحق في شراء أو بيع أصل مالي أو حقيقي أو عملة... خلال فترة محددة أو تاريخ معين لاحق في المستقبل بسعر يتم الاتفاق عليه حين التعاقد ويسمى بسعر الممارسة، وذلك نظير دفع علاوة للباع، والذي يطلق عليه محرر الاختيار، عند تحرير العقد، ولا تكون هذه العلاوة قابلة للرد سواء تم تنفيذ العقد أو لم يتم تنفيذه.

وتنقسم عقود الخيارات حسب تاريخ التنفيذ إلى خيارات أمريكية بمعنى أن مشتري الخيار له الحق في التنفيذ في أي وقت خلال الفترة الممتدة منذ تاريخ إبرام العقد وحتى التاريخ المحدد لانتهائه. وإلى خيارات أوربية حيث التنفيذ غير مسموح به، ولا يتم إلا في تاريخ انتهائه.

وتنقسم عقود الخيارات حسب طبيعة العقد إلى ¹ :

✓ حق خيار البيع: put options هو عقد بين طرفين، يمنح فيه الطرف الأول ويسمى محرر العقد أو البائع للطرف الثاني (المشتري) الحق في الاختيار بين بيع أصل معين أو عدم بيعه وذلك في تاريخ مستقبلي محدد وبسعر يحدد مسبقا في العقد، ومقابل ذلك يحصل على مبلغ من المشتري مقابل منحه هذا الحق يسمى بالعلاوة، أو سعر الخيار وبطبيعة الحال فإن المشتري سوف يدفع العلاوة للحصول على حق الاختيار،

¹ - طارق عبد العال حماد، المشتقات المالية (المفاهيم، إدارة المخاطر، المحاسبة)، الدار الجامعية، مصر، 2001. ص 43 و44.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسبية سميرة
كما أنه سوف يبيع الأصل محل العقد إذا انخفض السعر المستقبلي عن سعر التنفيذ
المحدد في العقد.

✓ **حق خيار الشراء: Call options** وهو عقد بين طرفين، يمنح فيه الطرف
الأول ويسمى محرر العقد أو البائع للطرف الثاني (المشتري) الحق في الاختيار بين شراء
أصل معين أو عدم شرائه وذلك في تاريخ مستقبلي محدد وبسعر يحدد مسبقا في العقد،
ومقابل ذلك يحصل على مبلغ من المشتري مقابل منحه هذا الحق يسمى بالعلو، أو
سعر الخيار وبطبيعة الحال فإن المشتري سوف يدفع العلو للحصول على حق
الاختيار، كما أنه سوف يشتري الأصل محل العقد إذا ارتفع السعر المستقبلي عن سعر
التنفيذ المحدد في العقد.

● **د- عقود المبادلات: SWAPS** وهي اتفاق بين طرفين أو أكثر لتبادل
سلسلة من التدفقات النقدية خلال فترة مستقبلية¹، وعقود المبادلة هي عقد ملزم
للطرفين ولا يتم تسويتها دفعة واحدة بل هي سلسلة من العقود لاحقة التنفيذ، حيث
يتم تسوية عقد المبادلة على فترات دورية قد تكون شهرية، ثلاثية، أو نصف
سنوية... وتتميز أسواق المبادلات بأنها توفر مرونة كبيرة للمتعاملين فيها، بحيث أنها
تسمح لهم بإبرام وتصميم عقود تناسب أي طرفين دون الالتزام بشروط محددة كونها
تتم في الأسواق غير المنظمة أو تحت المنضدة otc (over- the counter)، أين تتم
العقود بسرية مطلقة بين الطرفين، كما أنها لا تخضع لرقابة السوق المنظمة (البورصة).

● **أنواع عقود المبادلات: هناك أنواع عديدة لعل أهمها:**

✓ **عقود مبادلة أسعار الفائدة:** هي عبارة عن تلك العملية التي يتم بموجبها
الاتفاق بين طرفين لمبادلة مدفوعات فائدة ثابتة خلال وقت معين مقابل مدفوعات

¹ - نفس المرجع، ص 213.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
فائدة متغيرة أو معومة على مبلغ محدد بعملة معينة دون أن يقترن ذلك بالضرورة بتبادل
هذا المبلغ) أي أن المبادلة تتم على الفوائد فقط وليس المبلغ الأساسي¹.

✓ عقود مبادلة العملات: تتضمن تبادل قرض بعملة معينة بقرض آخر بعملة
مختلفة بما في ذلك مبادلة كل من مدفوعات الفائدة وأصل القرض، أي أنها عبارة عن
مبادلة عقد شراء (أو بيع) حاضر للصرف الأجنبي بعقد آخر متزامن لبيع (أو شراء)
اجل للصرف الأجنبي بنفس القيمة، أي إبرام عقدين لهما نفس القيمة و، أي إبرام
عقدين لهما نفس القيمة متضادان².

5-2- الأنواع الأخرى للمشتقات المالية: إن تعدد الحاجة وتطورها جعلت من
أسواق المشتقات المالية تعرف نمواً سريعاً، فلم يكتفي مهندسوها بالعقود الرئيسية
السابقة الذكر وإنما تم استحداث أدوات جديدة من معقدة إلى أكثر تعقيداً، ابتداءً من
1990 ومن غير الممكن حصر جميع الأنواع وإنّما نستعرض أكثرها انتشاراً وتتمثل
في:

● أ- عقود المشتقات الهجينة: **hybrides** هي عبارة عن مزيج لعدد من عقود
المشتقات على نفس الأصل. كأن يقوم المستثمر بشراء خيار الشراء البيع على نفس
الأصل وبنفس سعر التنفيذ لتحويل الخطر إلى ربح، وغيرها من العقود الذي تمزج بين
الخيارات والمبادلات والخيار على العقود الآجلة...

● ب- عقود المشتقات الغريبة **exotiques**: قد نشأت هذه الأنواع كثمار
للتجديدات المالية الموجهة لرفع عدد العملاء المحتملين، وكذا للتحوط في السوق
وأحياناً من أجل الضرائب والمحاسبة والتشريعات، استجابة لطلب مسيري صناديق
التحوط والمؤسسات المالية بالحصول على منتجات جذابة وغريبة، وأحياناً يتم

¹ - هبة محمود الطنطاوي الباز، مرجع سبق ذكره، ص 33.

² - هبة محمود الطنطاوي الباز، نفس المرجع السابق، ص 33.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسية سميرة
تصميمها لتعكس وجهة نظر حول الحركات المستقبلية المحتملة في متغيرات السوق. و
هي كثيرة ولعل أشهرها الخيارات الغريبة¹.

● **ج- مشتقات القروض:** هي عمليات تتم في سوق عقود المفاوضات
بالتراضي أو الأسواق غير المنظمة، وهي عقود مشتقة تسمح بالحماية من خطر
القرض² للأصل محل التعاقد وقد يكون هذا الأصل، سندا قرضا بنكيا أو مبادلات.
وقد ظهرت في التسعينات لتوفير حماية أكبر للبنوك ضد خطر القرض، فهي تسمح
للبنوك من التخلص من خطر التمويل. وأشهر أنواع مشتقات القروض وهي كثيرة
جدا ومعقدة ولعل أبسطها وأكثرها تداولاً³:

✓ **مشتقات القروض على خطر عدم القدرة على السداد credit default**

:derivatives

هذا الصنف له خصوصية الحماية ضد أي حادث يتعلق بالقرض ومن أهم
مشتقات القروض على خطر عدم القدرة على السداد نجد الخيارات والمبادلات على
خطر عدم القدرة على السداد (credit default swaps/options) أو ما يعرف بـ
CDS و CDO، وتعرف على أنها "عقد مالي بين طرفين، يقوم أحدهما (مشتري

¹ - للتعرف أكثر على أنواعها يمكن الرجوع لـ John c.hull, options, futures, and other derivatives حيث تناول 14 نوعا من الخيارات الغريبة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
lookback options بمعنى الرجوع إلى الماضي، حيث تسمح هذه المنتجات بعودة أسعار تنفيذ وفي
تاريخ الاستحقاق حائزها يستطيع اختيار سعر التنفيذ الأفضل وعلى هذا فإنها تكون على أصل خطر
جدا ومتقلب.

² - المقصود به هنا مزيج خطر عجز أحد الطرفين وتكلفة هذا العجز المحتمل.

³ - وأهم المبادلات التي تسببت في حدوث الأزمة المالية العالمية وفيه العديد من الأنواع منها غير
المغطاة ; cds naked... الخ

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
الحماية من خطر عدم القدرة على السداد) إلى دفع عمولة دورية تحسب على أساس
قيمة الصفقة، والطرف الآخر (بائع الحماية ضد الخطر عدم القدرة على السداد) يكون
مستعداً للدفع المحتمل في حالة عدم القدرة على السداد (أو في حالة أي حادث آخر
مرتبط بالقرض تم تحديده مسبقاً) لطرف أو عدة أطراف¹.

بعد التعرف على ماهية المشتقات المالية وأهم أنواعها المتداولة في الأسواق
العالمية، نتناول في المحور الثاني علاقة هذه المنتجات المالية بالأزمات المالية وخاصة الأزمة
المالية العالمية 2008.

ثانياً: الأزمات المالية العالمية الحالية وعلاقتها بالمشتقات المالية: إن الأزمات

والتقلبات والنمو والركود هي ميزات النظام الاقتصادي الرأسمالي، التي يصعب التنبؤ بها
ولا يمكن التخلص منها، في كل مرة يحاول الاقتصاديون تفسير أسباب الأزمة الحاصلة
لمحاولة اجتنابها مستقبلاً، وقد شهد الاقتصاد العالمي العديد من الأزمات التي تختلف
أسبابها وتداعياتها في كل مرة، ولعل الأزمة المالية العالمية الشهيرة بأزمة الرهن العقاري
الأمريكي أو أزمة "subprime" أكبر الأزمات من حيث الحجم والامتداد والخسائر.
فهناك إجماع بأن الأزمة بدأت في سوق الرهن العقاري في الولايات المتحدة الأمريكية
أحد الأجزاء المهمة والكبيرة في القطاع التمويلي الأمريكي، ثم انتقلت إلى بقية النظام
كالعدوى من خلال شبكة معقدة من المشتقات المالية المترابطة والتي كان من الصعوبة
تسعير درجة المخاطر فيها مما أدى إلى الغموض وعدم التأكد في اتخاذ القرارات
وخسائر قدرت بالمليارات الدولارات. فقد تطور سوق الرهن العقاري إلى درجة
كبيرة، حيث ارتبط بأسواق لمشتقات مالية مورقة، وقد أدى نزول الأسعار إلى انفجار

¹ - محسن سميرة، المشتقات المالية ودورها في تغطية مخاطر السوق المالية، مذكرة ماجستير غير
منشورة، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص 92.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
الفقاعة¹ مما أدى إلى هبوط أسعار العقار وانهارت معه قدرة المقترضين من الأفراد
والشركات على سداد ديونهم.²

الأزمة المالية العالمية: تعتبر الأزمة المالية لسنة 2008 الأخطر في تاريخ الأزمات،
خاصة بعدما ثبت عجز النظام الاقتصادي العالمي عن احتوائها والتخفيف من آثارها
بشكل سريع وفعال، وتأتي خطورة هذه الأزمة من كون انطلاقها من الاقتصاد
الولايات المتحدة الذي يشكل قاطرة النمو في الاقتصاد العالمي، فاقتصادها هو الأكبر في
العالم بحجم يبلغ حوالي 14 تريليون دولار، وتشكل التجارة الخارجية لها أكثر من
10% من إجمالي التجارة العالمية، ومن ناحية أخرى تحتل السوق المالية الأمريكية موقع
القيادة للأسواق المالية العالمية، لذا فإن أية مخاطر تتعرض لها هذه السوق تنتشر آثارها
إلى باقي الأسواق المالية الأخرى بسرعة كبيرة.³ ويرجع حدوث هذه الأزمة إلى أسباب
عديدة يمكن تلخيصها فيما يلي:

1-1- وفرة السيولة: شهد النظام المالي السائد قبل الأزمة المالية وفرة في
السيولة⁴ لعدة سنوات، مما جعل البنوك تطور منتجات معقدة وتستثمر فيها دون
التفكير حتى في كونها قد تتحول إلى أصول يصعب تسيلها، كما لم تتصور أن
الالتزامات المسجلة خارج الميزانية يمكن أن تشكل مسحوبات لدى البنك، كون هذه

¹ - أو ما يعرف بأزمة السوق المالية، حيث سرعان ما تنفجر فتؤدي إلى تدهور مؤشرات الأسواق
المالية ويصاب أصحاب الأوراق المالية بالدعر، فيقومون ببيع أوراقهم المالية حتى بأدنى الأسعار.

² - وشاح رزاق، الأزمة المالية الحالية، المعهد العربي للتخطيط، الكويت، 2009، ص 29.

³ - الجوزي جميلة، أسباب الأزمة المالية وجذورها، مؤتمر "الأزمة المالية العالمية وكيفية علاجها من
منظور النظام الاقتصادي الغربي والإسلامي، جامعة الجنان، لبنان، 2009.

⁴ - التي كان أغلبها خارجية، كنتيجة للارتفاع الكبير في احتياطات الصرف لدى البنوك المركزية
في البلدان الناشئة(خاصة الصين) والبلدان المصدرة للمواد الخام(الفوائض النفطية).

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
الفترة تتوفر على سيولة كبيرة، فتوجد العديد من الالتزامات المشروطة غير المستخدمة،
هذه الوضعية بينت ضعف إدارة المخاطر التي كانت تعتمد على مجموعة بيانات لا
تأخذ بعين الاعتبار فترات الأزمة. بالنسبة للأسواق المالية فهي منذ زمن طويل تتوفر
على سيولة، الأمر الذي جعل البنوك لا تتوقع جفاف في هذه الأسواق كأحد
سيناريوهات للأزمة، فلم تأخذ بعين الاعتبار أن تفاعل مخاطر الائتمان، السوق
والسيولة نادرا ما يؤدي إلى فترة طويلة من أزمة السيولة، كل هذه العوامل مجتمعة
أظهرت أن الاحتياطات النقدية للبنوك لم تكن كافية لمواجهة الأزمة المالية المعاصرة،
الشيء الذي استدعى في نهاية الأمر البنوك المركزية لضخ أموال ضخمة كمحاولة لحل
المشكلة. في المرحلة الأولى للأزمة طرح مشكل نقص السيولة في الأسواق بحدة، إلى
درجة اختفاء بعض الأسواق وتعدى الأمر حتى للأسواق الجيدة أو الموثوق بها كسوق
ما بين البنوك¹.

كفاية رأس المال _ Adéquation des fonds propres: بينت الأزمة أنه لم يتم
تقدير المخاطر بطريقة سليمة من قبل المؤسسات المالية خلال السنوات السابقة حيث
حققت فيها أرباحا ضخمة وصلت أحيانا إلى مستويات قياسية. حيث بمجرد حدوث
الأزمة المالية تكبدت هذه المؤسسات خسائر مرتفعة بسبب ضعف رؤوس الأموال،
فتغيرت بذلك قدرتهم على الإقراض واضطر العديد منهم إلى إعادة بناء قاعدتهم
الرأسمالية، فقد أصبح من الضروري جدا وضع خط دفاع صلب من رأس المال
لامتنصاع الخسائر غير المتوقعة، وكانت من بين متطلبات بال² تكوين احتياط أو ما
يعرف بالوسادة "COUSSIN" من رأس المال للقيام بالنشاطات ذات المخاطر المرتفعة².

¹ -Nout Wellik, au-delà de la crise :la réponse stratégique du comité de Bâle, revue
de la stabilité financière ;n°13,banque de France, septembre 2009, pp (133-141).

² -Ibid.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

1-2- نموذج " octroi puis cession " أو (originate-to-distribute)

1-OTD)

1-3- لمواجهة ضغط المديونية المتزايد تبني العديد من البنوك الدولية نموذج OTD الذي تم استعماله لتحويل مختلف المخاطر للسوق، المتعلقة بقروض Subprime، حيث قامت البنوك بتوريق ديونها بالاعتماد على وسطاء ماليين متخصصين ومنفصلين عنهم قانونياً، ليقوموا بتوزيع أو بيع الديون المورقة للمستثمرين بدل الاحتفاظ بها بميزانيتهم. المشكل الأساسي المرتبط بنموذج OTD هو الخوف، فبدل تحليل مقدرة المقترض على تسديد القرض، راحت البنوك تمنح قروضاً عقارية بمبالغ مرتفعة واهتمت فقط بتسجيل العلاوات الواردة من جراء تحولها إلى سندات. فالعديد من البنوك اختارت عدم استثمار الوقت والإمكانات المتوفرة في إنجاز تحاليل عميقة للقرض وضمانته لأن هناك متدخل آخر سيقوم بشراء حقوق الرهن العقاري. وللأسف العديد من البنوك الذين أولو أهمية كبيرة لعملية OTD ولم يتمكنوا من تسيير عروضهم بطريقة سليمة. في نفس الوقت لم يتحلى المستثمرون باليقظة الكافية تجاه هذه المنتجات الهيكلية التي تتميز بتنقيط جيد، معتدين على الأشخاص المحولين للقرض (الأصلين) والذين يسندونه، في حين أن هذا الأمر لم يحفز هؤلاء على أداء مهامهم على أحسن صورة، ومن ناحية أخرى فقط منح المستثمرين ثقة مبالغاً فيها في إدارة المخاطر المالية وحكم وكالات التنقيط، وكذا قدرات النماذج المالية الحديثة وتنوعها. أدت التصنيفات الممنوحة للمنتجات الهيكلية إلى تعزيز عملية OTD لأن معظم المستثمرين منحها ثقة عمياء دون تقدير جودة الأصول الأساسية. فقد حازت بعض الشرائح على

¹ - يقوم هذا النموذج على فكرة منح القروض (originate) ثم إخراجها من الميزانية وتوزيعها على عدد كبير من المستثمرين في السوق (distribute) وبالتالي توزيع الأخطار بشكل متساوي على كافة المتعاملين.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
تصنيف¹ AAA من قبل وكالات التصنيف التي نشرت 200 نقطة أساسية مقارنة بمعدل
لا لخطر، بعض المستثمرين كانوا على وعي بعدم تجانس التصنيف AAA رغم هذا لم
يدركوا حجم المخاطر التي تتجاوز تلك التي أخذت بعين الاعتبار أثناء التصنيف، في
نفس الوقت التصنيفات لم تعتمد على مقاييس موثوق بها لقياس درجة مخاطر محافظ
الرهون العقارية حيث لم تدرج مخاطر التقلبات، السيولة، السوق والارتباط . على
الرغم من أن OTD له عدة مزايا ويمكن المساهمة في السيولة ويزيد من كفاءة النظام
المالي، فإن الأزمة بينت بوضوح بأنه ينبغي استخدام نموذج OTD. بمزيد من
الاحتياطات. على اعتبار أن وفرة السيولة تشكل مبدأ أساسياً لهذا النموذج فقد
كشفت الأزمة عن صعوبات بالغة ونتائج مدمرة جراء سوء الاستخدام وقلة السيولة
في أسواق رؤوس الأموال.²

1-4- ضعف النظام الرقابي وغياب الشفافية وعدم تماثل المعلومات: ظهر

القطاع البنكي شديد التفاؤل في ظروف اقتصادية ملائمة. فمن الصعوبة إعطاء تحليل
صحيح وحكم حذر في ظل منافسة شديدة لتحقيق أرباح خيالية، فالحاجة لتحقيق
أرباح مهمة في الأجل القصير ساهمت في حدوث الأزمة، هذه الاعتبارات قصيرة النظر
أدت إلى دفع مكافآت سخية للموظفين مع إهمال المخاطر المستقبلية التي ستلحق
بالبنك. هذه الحوافز أدت إلى المجازفة في تضخيم المخاطر وتهديد النظام المالي العالمي
تاركة المؤسسات المالية بموارد غير كافية لامتنصص الخسائر عند حدوث الخطر³.

¹ - التصنيف الائتماني عبارة عن رأي متخصص حول الملاءة المالية للطرف المقابل ومدى استعداده
في الوفاء بالديون وAAA يعني أعلى مستويات الجودة (احتمال 2% حالة عدم التسديد).

² - Nout Wellik, op cit.

³ -Nout Wellik, op cit.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
كما أن البنوك التجارية في معظم الدول تخضع لرقابة دقيقة من طرف البنوك
المركزية في حين تضعف هذه الرقابة أو تنعدم في مؤسسات مالية أخرى مثل بنوك
الاستثمار وصناديق التحوط، وسماسرة الرهون العقاري وغيرها.

2- المشتقات المالية وارتباطها بالأزمة المالية العالمية: لقد مهد للأزمة المالية بيئة

تنظيمية وتشريعية تناسبها، فسوق مشتقات الائتمان كان شبه معدوم في أواخر
تسعينات القرن العشرين، لكنه نما بدرجة عالية بعدما أقر الكونغرس الأمريكي تشريعا
عام 2000 (Commodity Futures Modernization Act). يمنع تنظيم وتقييد أسواق
المشتقات ولهذا السبب لا توصف مشتقات الائتمان في العقود والوثائق القانونية
بالتأمين (insurance)، مع أنها كذلك في الحقيقة، لأنها في هذه الحالة ستخضع لقوانين
التأمين، بل توصف بأنها مقايضة (swaps) لتتمتع بحماية هذا التشريع وسبق في 1999
صدور تشريع آخر (Gramm-Leach-Bliley Act) يسمح للبنوك التجارية بالدخول
في سوق الأوراق المالية والسمسرة، وهكذا أصبح الباب مفتوحا على مصراعيه لأهم
المؤسسات المالية وهي البنوك لتغامر بأخطر الأدوات المالية وهي المشتقات المالية.¹ وقد
تم الاعتراف على نطاق واسع بأن عقود مبادلة التعثر عن السداد CDS لعبت دورا
أساسيا في الأزمات.

2-1- حجم سوق المشتقات المالية: من أهم أسباب الأزمة المالية العالمية هو

نمو الاقتصاد الافتراضي أو الوهمي المتمثل في المشتقات المالية على حساب الاقتصاد
الحقيقي، فالإقتصاد الافتراضي وصل إلى ما يراوح 12 ضعفا و15 ضعفا الإقتصاد
الحقيقي، في أكتوبر 2008، بلغت القيمة التقديرية للتداول غير المنظم خارج البورصة

¹ - سامي السويلم، أسلحة الدمار الشامل. متاح في موقع الدكتور سامي السويلم بالرابط التالي:

تاريخ الاطلاع 2001/12/30.

<http://suwailem.net/NewsDetails/WEAPONS-OF-MASS-12>

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
بحوالي أكثر من 600 تريليون دولار في مواجهة اقتصاد حقيقي لا يتعدى 48 تريليون
دولار. و قد بلغ حجم التداول في مبادلة التعثر عن السداد CDS عند نهاية ديسمبر
2007 حوالي 57.894 مليار دولار أمريكي، ووصل في النصف الأول من 2008 إلى
57.325 مليار دولار أمريكي، بينما انخفض في النصف الثاني من 2008 ليصل في
ديسمبر 2008 إلى 41.868 مليار دولار أمريكي.¹

2-2- دور مبادلات التعثر عن السداد في إضعاف سوق الرهن العقاري:

لقد زادت المخاطر الناجمة عن التوريق في سوق CDS، حيث أن توريق قروض الرهن
العقاري تطورت لدمج سندات الرهن العقاري المدعومة البسيطة MBS داخل التزامات
الدين المضمونة CDO المعقدة للغاية. وشكلت التزامات الدين المضمونة هذه لتجميع
أعداد هائلة من سندات الرهن العقاري MBS في شرائح صممت نظريا لتنويع المخاطر
وتقديمها لأولئك الذين يرغبون في الاستثمار في الرهون العقارية عالية المخاطر، وقد
تفاقم الموقف لأنه في غياب التداول لم تكن هناك أسعار للسوق تستخدم كمقياس
مرجعي ولا أية طريقة لتحديد قيمة مختلف شرائح المخاطر، نتيجة لذلك توقفت
صناديق المضاربة عن التداول ولم تعد هناك أسواق للالتزامات المهيكلة المضمونة
بقروض CDO وما يتصل بها من أسواق مشتقات الائتمان. ولم يتمكن مصدرو
CDO من بيع ما لديهم من رصيد وتوقفوا عن إجراء إصدارات جديدة. في ظل غياب
المشتريين مُصدِّروا القروض العقارية الثانوية من بيع القروض التي أبرموها الذي جعلهم
في وضعية صعبة. بدورها البنوك قامت بسحب التمويل منهم، فعجز المصدرون عن

¹ - بنك التسويات الدولية، التقرير السنوي 2008. انظر الموقع WWW.BIS.ORG تاريخ الاطلاع

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناّب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
تحمل رصيد القروض المتراكم لديها، وتوقفوا عن منح قروض جديدة. وقدم بعضهم
طلبات للحماية من الإفلاس.¹

3- آثار المشتقات المالية على المؤسسات المالية: تعتبر المشتقات المالية أبرز
أدوات الهندسة المالية، التي وجدت للاستجابة لمتطلبات المستثمرين لتحقيق أهداف
التحوط وإدارة المخاطر، لتتكشف في ما بعد عن الوجه الآخر لها، لتسمى فيما بعد
بأسلحة الدمار الشامل أو القنابل الموقوتة أو أدوات العبث المالي، لما سببته من انهيارات
وإفلاسات لمؤسسات مالية عريقة لعل أشهرها أثناء الأزمة المالية العالمية ما يلي:

3-1- مؤسّساتي (فاني مي)² و(فريدي ماك)³ Fannie mae & Freddie
mac: المؤسّستان تمتلكان وتضمّنان ما يقارب 12 تريليون دولار من قروض الإسكان

¹ - جبار محفوظ، نوال بوعكاز، الحدود العملية لمنتجات الهندسة المالية خلال الأزمة المالية العالمية
2008، بحث مقدم في إطار، الملتقى
الدولي الثاني: حول الأزمة الاقتصادية الراهنة وتأثيرها على اقتصاديات شمال أفريقيا، جامعة تبسة
2013، ص 10.

² - أنشئت مؤسسة الرهن القومية الفيدرالية فاني ماي عام 1938 لتقديم القروض مباشرة للراغبين
في الحصول على قروض إسكان، وقد أثبتت هيئة المؤسسة نجاحها إلى حد ما في التقليل من آثار
مخاطر السيولة والسوق، ثم استحدثت في 1968 مؤسسة أخرى عرفت ب جيبي ماي للإشراف على
الرهن العقاري المضمونة من قبل الحكومة، وقامت في نفس الوقت بخصوصة ما تبقى من مؤسسة
فاني ماي في 1970، قامت جيبي ماي بتوريق القروض التي يجوزها ليسهل تداولها في السوق الثانوية
ليتم نقل مخاطر السوق إلى المستثمرين الذين يقدمون على شراء هذه الأصول.

³ - في 1970 تم استحداث الشركة الوطنية للرهن العقاري فريدي ماك لغرضين هما: توريق القروض
العقارية التقليدية وتوفير منافسة لهيئة فاني ماي، مع مرور الوقت تقاربت النماذج الاقتصادية
للمؤسّستين ووفرت معاً تمويلاً هائلاً للقروض العقارية، سواء عن طريق شراء القروض العقارية
المتوافقة والاحتفاظ بها أو تحويل مبالغ كبيرة إلى سندات مضمونة بقروض عقارية.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنب أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
في الولايات المتحدة، سيطرتا على سوق القروض العقارية الأمريكية، إلى غاية 2003
أين دخلت البنوك الاستثمارية المنافسة في هذه السوق، باستحداث أدوات وسائل
تمويل غير مسبوقه تمكنها من مد التمويل إلى فئات من الناس ذات ملاءة ائتمانية ضعيفة
وفي نفس الوقت الحصول على أرباح كبيرة، لمواجهة هذه المنافسة الشرسة قامت
المؤسستان بالوقوع في فخ المنتجات السامة التي وضعتها على حافة الإفلاس، ففي 07
سبتمبر 2008 وضعت الخزانة الأمريكية كل من "فاني ماي" و"فريدي ماك" تحت
وصايتها طيلة الفترة التي تحتاجها لإعادة هيكلة مآليتهما، مع كفالة ديوفهما حتى حدود
100 مليار دولار، وذلك لأن انهيارهما يعني تكبد الاقتصاد الأمريكي خسائر تعادل
تقريباً الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة.

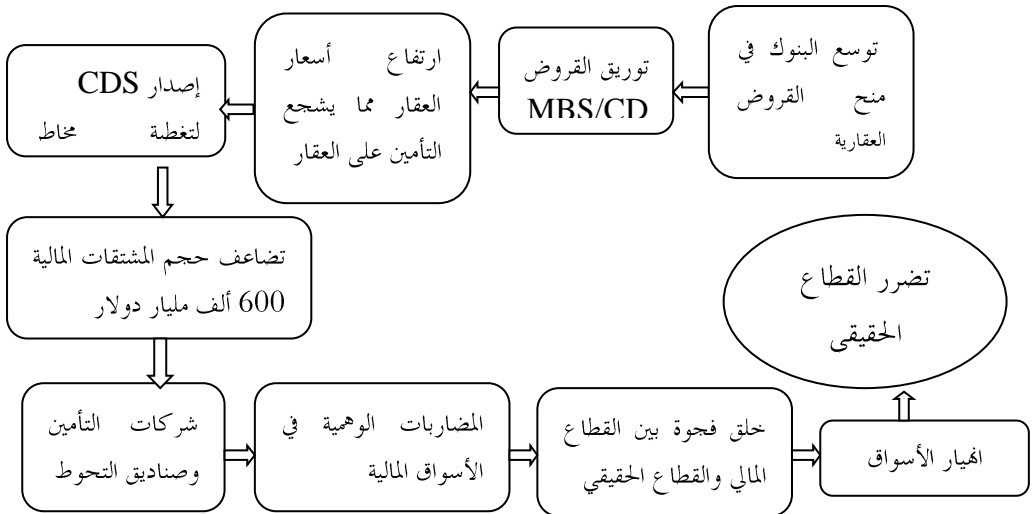
3-2- أزمة بنك بير ستيرن **Bear Streans**: يعتبر بنك بير ستيرن خامس
أكبر بنك استثماري في وول ستريت أنشأ عام 1923 برأسمال 500 مليار دولار، في
جويلية 2007 أعلن إفلاس صندوقين للتحوط متخصصين في مشتقات القروض
والاستحواذ عليه من قبل J.p morgan¹ في 23 مارس 2008. بمساعدة البنك الفدرالي
الأمريكي بقرض 30 مليار دولار، بمقابل سعر زهيد للغاية 10 دولارات للسهم بعد أن
كان قد عرض 2 دولار للسهم في 17 مارس²، لكن المساهمين رفضوا ذلك بعد أن
كان السهم يساوي 133 دولار، وقد كان إفلاس البنك بسبب الرهون العقارية التي
أنقلت محفظته الاستثمارية.

¹ - أكبر البنوك الأمريكية حالياً تأسس سنة 1799، فاقت قيمته السوقية 145 مليار دولار سنة
2007، وقد كان من المؤسسات القلائل التي استطاعت تجاوز الأزمة.

² - Andrew felton and carmen m.reinhart, the first globale Financial crisis of 21st
Century part II june-december 2008, centre for economic policy research. 2009.
p372.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

3-3- أزمة بنك ليمان براذرز **Lehman Brothers**: تأسس بنك ليمان براذرز في عام 1850 ونمى بعد ذلك كواحدة من شركات وول ستريت الاستثمارية العملاقة، وقد بدأ الائتلاف البطيء للبنك حينما تكشفت أزمة سوق الرهن العقاري في صيف عام 2007، حيث أخذت أسهم البنك في التراجع بشكل مطرد من ذروة بلغت 82 دولارا للسهم. هذه المخاوف استندت إلى حقيقة أنه كان لاعبا رئيسيا في سوق القروض العقارية من الدرجة الثانية Subprime ، وأنه كغيره من المؤسسات المالية واجه المخاطر التي تترتب على الخسائر الكبيرة الناجمة عن الانكشاف على هذا النوع من الإقراض مرتفع المخاطر التي يمكن أن تكون قاتلة، وعندما بدأت الأزمة تتعمق في عام 2007 وأوائل عام 2008 قاوم البنك التوقعات بإفلاسه أكثر من مرة، إلى أن تم الإعلان عن إفلاسه في 15 سبتمبر 2008 بديون تجاوزت عند انهياره 600 مليار دولار، في حين بلغت قيمة عقود مبادلة خسائر الائتمان على ليمان نحو 270 مليار دولار.



الشكل رقم 01: دور المشتقات في إحداث الأزمة المالية العالمية (المصدر:

جبار محفوظ ونوال بوعكاز، مرجع ذكر سابقا، ص17).

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

ثالثاً: الإصلاحات المالية المعاصرة في سوق المشتقات المالية: تعتبر الأزمة المالية العالمية لسنة 2008، أشد أزمة تعرض إليها النظام المالي العالمي في تاريخه، وبهدف اجتنب أزمات في المستقبل قد تدفع العالم إلى المجهول، يتفق الجميع على ضرورة تطبيق مجموعة من الإجراءات والإصلاحات وقد أكد تقرير مجموعة العشرين على ما يلي:

جميع منتجات المشتقات المالية غير المنظمة (OTC) يجب أن تكون موحدة المعايير متداولة في منصات منظمة (بورصة) أو المنصات الالكترونية حسب الحالة ويتم تصنيفها من خلال شريك مركزي (CCP¹) وأن كافة المشتقات المالية التي يتم التداول بها خارج الأسواق الرسمية (OTC) يجب الإبلاغ عنها إلى قواعد معلومات مركزية، وتخضع المشتقات المالية التي يتم تسويتها خارج هذه التدابير إلى متطلبات رأس مال حاسمة.

1- أهم الإصلاحات المالية في مجال إعادة تنظيم سوق المشتقات المالية:

في إطار إصلاح النظام المالي العالمي الذي تبنته مجموعة العشرين في مؤتمر بيتسبرغ (Pittsburg) 2009، تعكف العديد من اللجان والمنظمات الدولية على وضع الأطر والمعايير العامة المشتركة تحت إشراف مجلس الاستقرار المالي الذي يقوم بتتبع العملية من خلال رزنامة عمل تمتد إلى غاية 2019، لتكون كل الدول الأعضاء في مجموعة العشرين مستعدة من خلال وضع التشريعات والتنظيمات اللازمة لتطبيق الإرشادات والتدابير المقترحة، ولعل أهم التدابير الموضوعية في هذا المجال مقررات بازل 3 في المجال المصرفي، والمنظمة الدولية لهيئات الأوراق المالية والبورصات (OICV).

1-1- الإصلاحات وفق مقررات بازل 3 : أدركت لجنة بازل أن وجود قاعدة

صلبة لرأس المال تعتبر شرطاً ضرورياً لوجود قطاع بنكي قوي، لهذا يجب تعزيز

¹ – compensées par des contreparties centrales.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
مستوى رأس مال لمواجهة أزمات مالية مستقبلية، كما يجب تحسين نوعية وكمية رأس
المال لتكون أعلى من تلك المنصوص عليها في بازل1 وبازل2 بغرض تحقيق الاستقرار
المالي في الأجل الطويل .

• المتطلبات الجديدة لرأس المال: تقترح اللجنة ما يلي:

- زيادة 2% إلى 4.5% من متطلبات الحد الأدنى لرأس المال الأساسي¹
- الاحتفاظ بهامش احتياطي من الأسهم العادية للحفاظ على رأس المال (Capital conservation buffer) بنسبة 2.5% من الأصول والتعهدات المصرفية، لمواجهة فترات الضغط المستقبلية، ليصل المجموع إلى 7% في 2017. وبذلك ترتفع نسبة كفاية رأس المال² من 8% إلى 10.5% .
- احتياطي مواجهة التقلبات الدورية Un coussin de sécurité (contracyclique) وقد حددت النسبة بـ 2.5% لتكملة هامش الاحتياطي لمواجهة التقلبات الدورية، لتصبح بذلك نسبة الملاءة 13% في جانفي 2019.
- نسبة الاستدانة أو الرفع المالي leverage ratio: أدخلت بازل3 نسبة جديدة لرأس المال تهدف لوضع حد لتزايد الديون في النظام المصرفي حيث تسمح بقياس حجم التزامات البنك نسبة لحجم ميزانيته. النسبة محددة بـ 3% من الشريحة الأولى³، على أن يتم تحديد النسبة الدنيا ابتداءً من 2018.

¹ - رأس المال المكتتب والأرباح غير الموزعة مضافا إليها أدوات رأس المال غير المشروطة بعوائد وغير المقيدة بتواريخ استحقاق، أي الأدوات القادرة على استيعاب الخسائر فور حدوثها.

² - عدم احتساب رأس مال الشريحة الثالثة في بازل 3.

³ - مجموع عروض البنك(الميزانية وخارج الميزانية) لا يمكن أن تتجاوز 33 مرة رأس المال الشريحة 1 للبنوك.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنا ب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
➤ قد وافقت اللجنة على التكوين والمعايرة التاليين لنسبة الاستدانة، والتي
يمكن أن تخدم كأساس للاختبار خلال فترة التشغيل الموازية¹:

✚ بالنسبة للبنود خارج الميزانية، استخدام عوامل تحويل ائتمان موحدة
(CCFs) مع CCFs يساوي 10% للالتزامات بنود خارج الميزانية القابلة لإلغاء بدون
شرط) الخاضعة لمراجعة إضافية لضمان أن الـ CCFs البالغة 10% هي محافظة بشكل
ملائم بالاستناد إلى التجارب السابقة).

✚ بالنسبة لجميع المشتقات (بما فيها مشتقات الائتمان)، تطبق تسوية بازل2،
زائد قياس بسيط للتعرضات المستقبلية المحتملة المستندة إلى العوامل المعيارية لأسلوب
التعرض الحالي. و هذا يضمن أن جميع المشتقات جرى تحويلها بطريقة متناسقة
لمبلغ "مماثل السند" أو مكافئ.

✚ سوف تحسب نسبة الاستدانة كمعدل على فترة ربع سنوية.

بأخذها جميعاً، يمكن لهذه المقاربة أن تؤدي إلى معالجة أقوى لبنود خارج
الميزانية، يمكن لها أيضاً أن تقوي معالجة المشتقات نسبة إلى قياس يستند إلى المحاسبة
بشكل بحت.

✚ **خطر ائتمان الطرف المقابل**² (countreparty credit risk): تقوم اللجنة
بالتغييرات التالية على معالجة خطر ائتمان الطرف المقابل، بما فيه مقارنة مماثل مكافئ
السند (Bond equivalent approach) لاحتساب تعديل تقييم الائتمان (Crédit
Valuation Adjustment–CVA).

¹ - عبد المطلب عبد الحميد، الإصلاح المصرفي ومقررات بازل 3، الدار الجامعية، مصر، 2013،
ص319.

² - نفس المرجع، ص 318.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناوب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة
➤ تغيير مقارنة مماثل السند لتناول التحوط، والتقاط المخاطر، والاستحقاق
الفعلي، والتسجيل مرتين.

✚ إبقاء تعديل ترابط الأصول (Asset Value Correlation adjustment)
لإظهار الخطر الأكبر الداخلي للتعرض لهيئات مالية أخرى ولمساعدة تناول الترابط
البيني (Interconnectedness Issue) ولكن رفع العتبة من 25 مليار دولار إلى 100
مليار.

➤ يجب أن تخضع عمليات التسعير بحسب السوق والضمانات لأطراف مقابلة
مركزية لوزن مخاطر معتدل، على سبيل المثال في مدى 1-3%، بحيث تبقى المصارف
على بينة بأن العمليات للأطراف المقابلة المركزية تلك ليست عديمة الخطر. يمكن لبدائل
أكثر تقدما من مقارنة مماثل السند أن تعتبر كجزء من المراجعة الأساسية لمحفظة الأوراق
المالية بهدف المتاجرة.

✚ اقتراحات المنظمة الدولية لهيئات الأوراق المالية (OICV): أصدرت
المنظمة (OICV) ثلاث تقارير مهمة تحوى على توصيات ومعايير لتوفير للمشرعين
التوجيهات الضرورية من أجل احترام التزامات مجموعة العشرين¹ G20. ويمكن
اختصار هذه التدابير فيما يلي:

¹ - تقرير تحت عنوان "apport sur la négociation des dérivés OTC" منشور في فيفري 2011.
تقرير تحت عنوان " International standards for derivatives market intermediary regulation " منشور في جوان 2012.
تقرير يتعلق بـ "الشروط الواجب توفرها من أجل مقاصة إجبارية" منشور في أبريل 2012 تحت
عنوان " Rapport sur les conditions préalables à la compensation obligatoire » موقع بنك
التسويات الدولي www.bis.org ويتضمن 17 توصية من أجل وضع مقاصة إجبارية.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

➤ **إيجاد مقاصة مركزية لسوق المشتقات المفاوضة بالتراضي (OTC):** إلزام المتعاملين في أسواق المشتقات المالية على التعامل بوساطة غرفة تعويضات أو مقاصة مركزية، حيث تصبح هي الطرف المقابل لكل عملية فهي البائع بالنسبة للمشتري وهي المشتري بالنسبة للبائع، وبذلك ينخفض خطر الطرف المقابل الذي يعرض بخاطر إفلاس غرفة المقاصة، الذي يمكن أن يكون كبيرا إلا إذا تركز نشاط المقاصة على جميع عقود CDS، فيصبح من الضروري أن تمتلك هذه الهيئة رأس المال الكافي، لتسيير خطر الطرف المقابل بحذر وذلك بوضع شروط للتعويض أهمها أن تكون العقود مؤمنة بضمانات جيدة. ويهدف هذا الإجراء إلى¹: -تعزيز شفافية الأسواق غير المنظمة (OTC) بتسجيل المعلومات من طرف هذه الهيئة.-اكتساب نظرة عامة عن هذه الأسواق في وقت مبكر لتجنب التجاوزات، مما يزيد من الثقة في المنتجات المالية المشتقة والكيانات التي تستخدمها.-تجنب الفشل الذي يؤدي إلى الإفلاس من جراء المخاطر النظامية من خلال نظام التعويض المعمم.

➤ **توحيد عقود المشتقات المالية (OTC):**² يساهم توحيد العقود في شفافية وسيولة الأسواق فتوحيد نماذج العقود ومجريات العمليات ضروري لتخضع عقود المشتقات لمقاصة مركزية، وتتداول في البورصة وعبر المقصورات الالكترونية، وكل المعاملات التي لا تخضع للمقاصة المركزية سوف تخضع لمتطلبات رأس مال أكبر.

¹ -<http://lecercle.lesechos.fr/economie-societe/politique-eco-conjoncture/politique-economique/221169091/peut-on-attendre-régulation-des-produits-dérivés>
تاريخ الاطلاع 2014/01/05

² -Mark Carney, La mise en œuvre complète du programme de réforme lancé par le G20 en vue de renforcer les marchés des produits dérivés de gré à gré, revue de stabilité financière, banque de France, paris, n°17, avril 2013, p11.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنب أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

➤ **تسجيل المعاملات خارج المقصورة (OTC) في الدلائل المركزية (قاعدة معلومات مركزية):** الإبلاغ عن المعاملات التي تتم خارج المقصورة إلى الدلائل المركزية من شأنه أن يزيد في شفافية الأسواق التي تفتقد الهيئات الرسمية وكذا متعاملين السوق، كما تضع السلطات في وضع أحسن لمراقبة المخاطر النظامية والتدخل عند ترسبها، بينما المتعاملون لهم أفضلية الإحاطة بالمخاطر وتحديد السعر.

➤ **أهم التشريعات الحديثة لتنظيم سوق المشتقات المالية:** استجابة للالتزامات التي وضعتها مجموعة العشرين في 2009، أصدرت أكبر الدول تشريعات جديدة بهدف إصلاح النظام المالي السائد وذلك بتطبيق جل المعايير الصادرة عن الهيئات المالية العالمية وعلى رأسها مقررات لجنة بازل للإشراف والرقابة المصرفية ومجلس الاستقرار المالي، وأهم التشريعات القانون الأمريكي لإصلاح وول ستريت وحماية المستهلك -Dodd-frank ويقابله من الجانب الأوربي نظام البنية التحتية للأسواق الأوربية Emir.

➤ **إصلاح وول ستريت وحماية المستهلك دود-فرانك:** سمي هذا القانون نسبة لواضعيه chris-dodd وbarney-frank تمت الموافقة على القانون من قبل الكونغرس الأمريكي في 12 جويلية 2010 ودخل حيز التنفيذ جانفي 2013، ويشمل على أكبر إصلاح للتنظيم المالي للولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات 1930. ويهدف إلى تمكين المنظمين من السيطرة على مساحات كبيرة من التمويل، كانت في ما سبق لا تخضع لأي تنظيم. ويشتمل القانون على مجموعة من التدابير أهمها: -تعزيز صلاحيات البنك المركزي (الاحتياطي الفدرالي). -إنشاء وكالة تابعة لبنك الاحتياطي الفدرالي لحماية المستهلكين للمنتجات المالية- تنفيذ تدابير لإنقاذ المؤسسات المالية الكبيرة "too big to fail"، دون أن يكون ذلك على حساب دافعي الضرائب.-تسجيل

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناح أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
صناديق التحوط في لجنة الأوراق المالية والبورصات (SEC)¹. -إنشاء مجلس مراقبة
الاستقرار المالي بهدف:-تحديد المخاطر النظامي التي تؤثر على الاستقرار المالي للولايات
المتحدة الأمريكية والمؤسسات المالية المهمة على مستوى النظام.-تقديم توصيات لمعالجة
المخاطر النظامية بالإشراف على تطوير نظام المراقبة وتعزيز الرقابة على المؤسسات
المالية الكبرى.-تعزيز انضباط السوق.

➤ ينص قانون دود-فرانك على إصلاح شامل في أسواق المشتقات المالية
OTC لمنع الأزمات في المستقبل، من خلال فرض شفافية السوق والمعاملات والحد من
آثار الرفع المالي والمخاطر النظامية، ويتوفر على التعديلات التالية²:-يفرض آلية
التعويض (المقاصة) للمعاملات المالية الأمريكية.-تنظيم موزعين المشتقات المالية
وغيرهم من المتعاملين في السوق.-إلزام البنوك بتجزئة الوظائف ذات المخاطر العالية.

➤ **قانون البنية التحتية للأسواق الأوروبية EMIR:** القانون الأوروبي الجديد
لإصلاح الأسواق المالية الأوروبية نشر في 27 جويلية 2012 من طرف السلطات
الأوروبية، ويدخل حيز التنفيذ نظريا في 17 أوت 2012 في انتظار صدور النصوص من
الدرجة الثانية التي توضح طريقة التطبيق، وبصفة عامة يستجيب هذا القانون
للالتمامات التي وضعتها مجموعة العشرين في مؤتمر بيتاسبرغ (Pittsburg) 2009، لتعزيز
شفافية أسواق المشتقات المالية وتخفيف خطر الطرف المقابل الذي تحدته المفاوضات

¹ -http://www.epargnesansfrontiere.org/Articles_c-9-s-89-i-313

تاريخ الاطلاع 2014 /01/05 .

² -Julien bourgeois, David ansell ,Olivier démasc ,la réforme financière ;l'approche
américaine, revue banque ,décembre 2010 ,paris, p61.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناوب أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة
بالتراضي (OTC)، ووضع إطار قانوني متناسق للبنية التحتية للسوق، كضمان لمتانة
النظام، ويشمل العديد من المحاور نذكر منها¹:

➤ **إلزامية تعويض مشتقات OTC الموحدة عبر المقاصة المركزية:** بحيث
يصبح كل مشارك في العملية له علاقة فردية مع غرفة المقاصة بدون معرفة الطرف
المقابل للعملية، ويتم تحديد طرق تسيير الهوامش وإدارة الضمانات ليكون تاريخ بداية
2014 الانطلاق الرسمي لتطبيق لمقاصة المشتقات المالية في أوربية.

➤ **واجب تسجيل وإبلاغ معاملات المشتقات المالية OTC بالدلائل
المركزية: référentiels centraux** وتهدف هذه العملية إلى تكوين قاعدة معلومات
مركزية تمكن الهيئات المسؤولة على حماية النظام المالي للاتحاد الأوروبي (ESMA) من
التعرف على مختلف الأطراف الفاعلة في السوق في جميع الأوقات. تنقسم المعلومات
إلى التعريف بأطراف العملية من جهة وخصائص ومعطيات العملية من جهة أخرى
(نوع المشتقة المالية، تاريخ العقد،...).

الخاتمة:

➤ لا تزال المشتقات المالية محل جدل واسع في أوساط الاقتصاديين ورجال
المال بين أهميتها البالغة في الاقتصاد الحديث من جهة وتهديدها بفصم الاقتصاد الحقيقي
عن الاقتصاد المالي من جهة أخرى، وقد تم التأكيد أكثر على مخاطر المشتقات المالية
خلال الأزمة المالية العالمية التي انطلقت في 2007، ولا تزال تداعياتها تعصف
باقتصاديات العالم، حيث كانت هذه المنتجات التي تعبر ثمرة الابتكارات المالية التي
صاحبت ظاهرة عولمة الأسواق المالية، سببا مباشراً في اندلاع الأزمة بالولايات المتحدة

¹ -règlement européen des infrastructures de marché, synthèse Emir octobre
2012,consulting global capital markets, paris. Pour plus d'information voir
<http://www.capteo.com/>

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنب أزمات مالية----- أ. حسية سميرة الأمريكية وانتشارها بسرعة في باقي الأسواق العالمية، لتتحول في ما بعد من أزمة مالية إلى أزمة اقتصادية عالمية، كما بينت الأزمة أن المشتقات المالية كانت سببا في انهيار أكبر المؤسسات المالية العالمية، الأمر الذي جعل عملية إصلاح وإعادة تنظيم المشتقات المالية تطرح بقوة على طاولة اجتماعات مجموعة العشرين وذلك بهدف تحقيق النتائج التالية:

- - محاولة تحقيق الأمن والاستقرار في الأسواق المالية بإخضاع المشتقات المالية النمطية إلى التعويض عن طريق طرف مقابل مركزي CCP.
- - إخضاع المشتقات المالية في الأسواق غير المنظمة (OTC) للمقاصة أو التعويض المركزي يسمح بتخفيض المخاطر وتحسين الشفافية. كما يساهم بشكل فعال في زيادة سيولة السوق ويخفف من المخاطر النظامية.
- الالتزام بمقررات بازل 3 المتعلقة بمتطلبات رأس المال وكذا معايير السيولة الدولية، ونسبة المديونية من شأنه أن يحد من مخاطر الطرف المقابل، ويزيد من انضباط السوق.
- يعتبر القانون الأمريكي لإصلاح وول سريت وحماية المستهلك والذي يقابله قانون البنية التحتية للأسواق الأوروبية، ثورة في تنظيم الأسواق المالية وأكبر تغيير في صناعة المشتقات المالية منذ تاريخ اختراع المستقبليات المالية.
- رغم صرامة التشريعات الدولية الحديثة ومحاولتها لتطبيق المعايير الدولية خاصة تلك التي تصدرها لجنة بازل للرقابة والإشراف المصرفي، إلا أنها تحتاج إلى دعم عالمي وتطبيق صارم خاصة في ما يتعلق بطريقة التطبيق التي لا بد أن تخضع لمبادئ وقيم أخلاقية، لاجتنب أزمة مستقبلية.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناأ أزمات مالية----- أ. حسيبة سميرة

المراجع:

1- طارق عبد العال حماد، المشتقات المالية (المفاهيم، إدارة المخاطر، المحاسبة)،

الدار الجامعية، مصر، 2001.

2- عبد المطلب عبد الحميد، الإصلاح المصرفي ومقررات بازل3، الدار

الجامعية، مصر، 2013

3- هبه محمود الطنطاوي الباز، التطورات الحديثة في الصناعة المصرفية

واستراتيجية عمل البنوك في مواجهتها، القصر للطباعة والدعاية والإعلان، مصر،

2006.

4- وشاح رزاق، الأزمة المالية الحالية، المعهد العربي للتخطيط، الكويت،

2009، ص29.

المقالات والملتقيات العلمية:

1- الجوزي جميلة، أسباب الأزمة المالية وجذورها، مؤتمر "الأزمة المالية العالمية

وكيفية علاجها من منظور النظام الاقتصادي الغربي والإسلامي، جامعة الجنان، لبنان،

2009.

2- بن رجم محمد خميسي، المنتجات المالية المشتقة: أدوات مستحدثة لتغطية

المخاطر أم لصناعتها، الملتقى العلمي الدولي حول "الأزمة المالية والاقتصادية الدولية

والحوكمة العالمية" جامعة سطيف، أكتوبر. 2009.

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتنا ب أزمات مالية----- أ. حسية سميرة
3- بياس منيرة، الضوابط الشرعية للتعامل بالمشتقات المالية، الملتقى العلمي
الدولي حول " الأزمة المالية والاقتصادية الدولية والحوكمة العالمية" جامعة سطيف،
أكتوبر. 2009

4- جبار محفوظ، نوال بوعكاز، الحدود العملية لمنتجات الهندسة المالية خلال
الأزمة المالية العالمية 2008، بحث مقدم في إطار، الملتقى الدولي الثاني: حول الأزمة
الاقتصادية الراهنة وتأثيرها على اقتصاديات شمال أفريقيا، جامعة تبسة 2013.

5- جباري شوقي وخميلي فريد، دور الهندسة المالية الإسلامية في علاج
الأزمات المالية العالمية، بحث مقدم للمؤتمر العلمي الدولي حول (الأزمة المالية
والاقتصادية العالمية من منظور إسلامي)، عمان، الأردن، 2010.

6- سامي السويلم، أسلحة الدمار الشامل. متاح في موقع الدكتور سامي
السويلم بالرباط التالي: تاريخ الاطلاع 2001/12/30.
<http://suwailem.net/NewsDetails/WEAPONS-OF-MASS-12>

7- محمود سحنون، مخاطر المشتقات المالية ومساهماتها في خلق الأزمات، المؤتمر
العلمي الحادي عشر بعنوان " الأزمة الاقتصادية المعاصرة، أسبابها، علاجها وتداعياتها "
كلية الشريعة، جامعة جرش، الأردن، ديسمبر 2010.

8- محسن سميرة، المشتقات المالية ودورها في تغطية مخاطر السوق المالية، مذكرة
ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006،

إصلاح أسواق المشتقات المالية غير المنظمة لإجتناأ أزمات مالية-----أ. حسيبة سميرة

1- Julien bourgeois, David ansell, Olivier démasc, la réforme financière ; l'approche américaine, revue banque, décembre 2010, paris.

2-John c.hull, options, futures, and other derivatives, 8th édition, 2012. p07.

3-Mark Carney, La mise en œuvre complète du programme de réforme lancé par le G20 en vue de renforcer les marchés des produit dérivés de gré à gré, revue de stabilité financière, banque de France, paris, n°17, avril 2013.

4- Nout Wellik, au-delà de la crise :la réponse stratégique du comité de Bâle, revue de la stabilité financière; n°13, banque de France, septembre 2009.

5-Yves Jégoure, Les produits dérivés: outils d'assurance ou instruments dangereux de spéculation, Comprendre les marchés financiers, Cahiers français.

مواقع الانترنت:

- 1- www.bis.org
- 2- http://www.epargnesansfrontiere.org/Articles_c-9-s-89-i-313
- 3- [http://lecercle.lesechos.fr/economie-societe/politique-eco-conjoncture/politique-economique/221169091/peut-on-attendre-regulation-des-produits-dérivés.](http://lecercle.lesechos.fr/economie-societe/politique-eco-conjoncture/politique-economique/221169091/peut-on-attendre-regulation-des-produits-dérivés)

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية

أ. شعيب يونس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

تعتبر الصكوك من أهم أدوات تعبئة الموارد في الوقت الحاضر، فهي تلبى مختلف الحاجات التمويلية للمشروعات الضخمة التي تقيمها الدولة من أجل تحقيق النفع العام، مثل: بناء المستشفيات، الطرق، الجسور وغيرها من المرافق العامة التي تحتاج رؤوس أموال ضخمة لتنفيذها، وبالتالي انصب الاهتمام في هذا البحث على توضيح مختلف صيغ تمويل القطاعات الاقتصادية بالاعتماد على الصكوك الإسلامية الحكومية، وتعد التجربة السودانية في هذا المجال رائدة ومتميزة، حيث تنوعت في تمويلها بين صيغتي المشاركة (صكوك شهامة) والمضاربة (صرح) وهما من صيغ التمويل عالية المخاطرة، كذلك تضمنت صيغتي الإجارة (شهاب) والوكالة بالاستثمار (شامة).

الكلمات المفتاحية: الصكوك الإسلامية، القطاعات الاقتصادية، المشاريع

الحكومية، صيغ التمويل الإسلامية.

Abstract:

Islamic Sukuk is one of the most important tools of mobilization of resources at the present time, they satisfy various financing needs for large projects set up by the Country in order to achieve public benefit, such as: building hospitals, roads, bridges and other public facilities that need huge capital to be implemented. so focus of attention in this research to clarify the various formulas to finance the economic sectors relying on government Islamic Sukuk. The Sudanese experience in this field is leader and distinct, where varied in financing between the two versions of mouchraka (CHAHAMA

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
Sukuk) and moudarabah (SARH) are two of the modes of financing high-risk, as well as included two versions: Ijara (Shahab) and procuration investment (Shama).

Keywords: Islamic Sukuk, economic sectors, government projects, Islamic modes of financing.

مقدمة:

يشهد العالم تسابقا محمومًا نحو ابتكار منتجات مالية تلائم الواقع وتفي بالاحتياجات التمويلية المتزايدة، وقد كان للهندسة المالية الإسلامية الفضل في ابتكار وتصميم وتطوير أداة مالية مستحدثة، تجمع بين الكفاءة الاقتصادية والمصدقية الشرعية، وقادرة على تقديم حلول خلاقة ومبدعة لمشكلة التمويل، وتمثل هذه الأداة في الصكوك الإسلامية، فهذه الأخيرة ظهر الاهتمام بها جليًا من خلال إطلاق مؤشرات للصكوك الإسلامية، وإصدار جملة من الأنظمة والتشريعات المنظمة للتصكيك وما يتعلق به في بعض الدول الإسلامية.

فقد شهدت الصكوك الإسلامية نموًا استثنائيًا في السنوات الأخيرة حتى أصبحت الشريحة الأسرع نموًا في سوق التمويل الإسلامي، حيث بلغ حجم الإصدارات العالمية خلال العام 2012 نحو 138 مليار دولار، ويتوقع أن يصل إلى 290 مليار دولار بحلول العام 2016¹. والصكوك الإسلامية المصدرة لم تقتصر على مؤسسات الأعمال فقط، بل امتدت لتشمل الحكومات التي أصبحت تستخدمها لأغراض إدارة موازنتها العامة، بهدف توفير التمويل اللازم لمشاريعها التنموية في مختلف القطاعات الاقتصادية.

وبناء على ما سبق يمكن طرح وصياغة الإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة على

النحو التالي:

ما هو دور الصكوك الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية؟

¹ - Sohail Jaffer, GROWING DEMAND FOR CORPORATE SUKUK, IFN EUROPE Forum 2013, 28 May 2013, p 3.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب

وفي ضوء هذه الإشكالية تم تقسيم البحث إلى المحاور التالية:

1. الإطار المفاهيمي للصكوك الإسلامية.
 2. تمويل الصكوك الحكومية للقطاعات الاقتصادية الكبرى.
 3. دراسة تطبيقية على الصكوك الحكومية السودانية للفترة (2005-2010)
- المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للصكوك الإسلامية
أولاً- تعريف الصكوك الإسلامية:

1. مفهوم الصكوك لغة:

الصكوك جمع صك، وقد جاءت في قواميس ومعاجم اللغة بمعان مختلفة:

- فقد يطلق الصكّ ويراد به الضرب الشديد بالشيء العريض، وقيل هو الضرب عامة بأي شيء كان¹، ومنه قوله تعالى: "فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم"².
- كما يدل على تلاقي شيئين بقوة وشدة، حتى كأن أحدهما يضرب الآخر، يقال صك الباب: أغلقه بعنف وشدة³.
- كما يطلق الصك ويقصد به الكتاب، وقيل الصك ما يكتب فيه عن مال مؤجل أو نحوه⁴.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، المجلد 4، ج 28، د ت، ص 2474.

² - سورة الذاريات، آية 29.

³ - أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ج 3، كتاب الصاد، د ت، ص

276.

⁴ - أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، 1981، ص 256.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب

2. مفهوم الصكوك الإسلامية اصطلاحاً:

تعددت عبارات الباحثين والهيئات والمجالس المتخصصة في التمويل الإسلامي

من حيث تحديد مفهوم الصكوك الإسلامية، ويمكن أن نذكر من بينها:

- **تعريف مجمع الفقه الإسلامي:** سندات المقارضة عبارة عن "أداة استثمارية

تقوم على تجزئة رأس المال إلى حصص متساوية القيمة، ومسجلة بأسماء أصحابها باعتبارهم يملكون حصصاً شائعة في رأس المال وما يتحول إليه بنسبة ملكية كل منهم"¹.

- **تعريف مجلس الخدمات المالية الإسلامية:** "الصك حق ملكية لنسبة مئوية

شائعة في موجودات عينية أو مجموعة مختلطة من الموجودات، أو في موجودات مشروع محدد أو نشاط استثماري"².

- **تعريف هيئة المحاسبة والمراجعة:** الصكوك عبارة عن "وثائق متساوية القيمة

تمثل حصصاً شائعة في ملكية أعيان أو منافع أو خدمات أو موجودات في مشروع معين أو نشاط استثماري خاص، وذلك بعد تحصيل قيمة الصكوك وقفل باب الاكتتاب وبدء استخدامها فيما أصدرت من أجله"³.

¹ - قرار رقم 30 (4/3)، بشأن سندات المقارضة وسندات الاستثمار، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، منظمة المؤتمر الإسلامي، العدد الرابع، ج 3، جدة، المملكة العربية السعودية، 1408هـ/1988م،

ص 1809، ومتاح على الرابط: <http://www.fiqhacademy.org.sa/qrrarat/4-5.htm>

² - معيار رقم 7، المنشور بعنوان: متطلبات كفاية رأس المال للصكوك، والتصكيك، والاستثمارات العقارية، مجلس الخدمات المالية الإسلامية، كولالمبور، ماليزيا، جانفي 2009، ص 3، ومتاح على

الرابط: <http://www.ifsb.org/published.php>

³ - المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17،

صكوك الاستثمار، النماة، البحرين، 2010، ص 238.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
من خلال التعاريف السابقة نجد أن الصك عبارة عن وثيقة مالية متساوية
القيمة، تصدر وفق عقد شرعي، تمثل حصة شائعة في ملكية موجودات قائمة فعلا، أو
سيتم إنشاؤها من حصيلة الاكتاب.

ثانيا- الخصائص المميزة للصكوك الإسلامية:

- تتميز الصكوك الإسلامية بخصائص تشترك فيها مع الأدوات المالية الأخرى،
وخصائص تتميز بها عن غيرها من الأوراق، ومن أهم هذه الخصائص ما يلي:
- **من حيث الطبيعة والشكل القانوني:** يمثل الصك حصة شائعة في ملكية
حقيقية (موجودات مخصصة للاستثمار أعيانا أو منافع أو خدمات)¹، يصدر بفئات
متساوية القيمة لإثبات حق مالكة فيما يمثله الصك من حقوق والتزامات مالية.
 - **من حيث الأرباح والعوائد:** تشترك الصكوك في استحقاق الربح بنسبة
محددة وتحمل الخسارة بقدر الحصة التي يمثّلها الصك، ويمنع حصول صاحبه على نسبة
محددة مسبقا من قيمته الاسمية أو على مبلغ مقطوع².
 - **من حيث المخاطرة والضمان:** يلزم حامل الصك صاحبه بتحمل مخاطر
الاستثمار كاملة، ولا ضمان لرأس مال حاملي الصكوك، ويمكن شرعا ضمان طرف
ثالث شريطة أن يكون منفصلا في شخصيته ومستقلا في ذمته المالية عن طرفي العقد³.

¹ - عادل عبد، الصكوك الإسلامية، جمعية النهوض بالأزهر وتطويره، مشهورة برقم 2012/8603،
جامعة الأزهر، 2013، ص 8.

² - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

³ - وليد يوسف الشايجي، عبد الله يوسف الحجي، صكوك الاستثمار الشرعية، بحث مقدم إلى المؤتمر
السنوي العلمي الرابع عشر: المؤسسات المالية الإسلامية - معالم الواقع وآفاق المستقبل، المنعقد أيام:
15-17 ماي 2005، كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ص938.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
- من حيث الالتزام بالضوابط الشرعية: يصدر الصك على أساس عقد شرعي، ويأخذ أحكامه، كما يلتزم بالضوابط الشرعية عند التداول¹، إضافة إلى تخصيص حصيلة الاكتتاب للاستثمار في مشروع أو نشاط يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية.

- تحمل أعباء الملكية: يتحمل حامل الصك كافة الأعباء المترتبة على ملكية الموجودات، سواء كانت مصاريف استثمارية أو هبوطاً في القيمة، أو مصروفات الصيانة، أو اشتراكات التأمين².

- من حيث التمثيل القانوني للمالكين: تنشأ هيئة ذات شخصية مستقلة مملوكة لحاملي الصكوك، لتمثيلهم مع الجهات الأخرى باعتبارهم أرباب المال³.

ثالثاً- أنواع الصكوك الإسلامية:

نظراً لأن آلية إصدار الصكوك الإسلامية تتم وفق صيغ التمويل الإسلامية ، فإنه يمكن تصنيف تلك الصكوك إلى الآتي:

1. الصكوك المعتمدة على المشاركة في الربح والخسارة:

أ. صكوك المضاربة:

و تعرف بأنها: "أداة استثمارية تقوم على تجزئة رأسمال المضاربة، وذلك بإصدار صكوك ملكية برأسمال المضاربة على أساس وحدات متساوية، ومسجلة بأسماء

¹ - المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17، مرجع سابق، ص 240.

² - عادل عيد، الصكوك الإسلامية، مرجع سابق، ص 08.

³ - وليد يوسف الشايحي، عبد الله يوسف الحجي، صكوك الاستثمار الشرعية، مرجع سابق، ص

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب أصحابها، باعتبارهم يملكون حصصاً شائعة في رأسمال المضاربة، وما يتحول إليه بنسبة كل منهم"¹.

ب. صكوك المشاركة:

عرفتها هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية بأنها: "وثائق متساوية القيمة يتم إصدارها لاستخدام حصيلتها في إنشاء مشروع، أو تطوير مشروع قائم، أو تمويل نشاط على أساس عقد من عقود المشاركة، ويصبح المشروع أو موجودات النشاط ملكاً لحملة الصكوك في حدود حصصهم، وتدار صكوك المشاركة على أساس عقد الشركة أو على أساس المضاربة أو على أساس الوكالة"².

ج. صكوك المزارعة:

وهي عبارة عن: "وثائق متساوية القيمة تصدر لاستخدام حصيلة الاكتتاب فيها في تمويل مشروع للمزارعة، ويصبح لحملة الصكوك حصة في المحصول"³، ويعد المكتتبون في هذه الصكوك هم الزراعين بأموالهم كالشركات المتخصصة في زراعة الأرض.

د. صكوك المساقاة:

وهي عبارة عن: "وثائق متساوية القيمة تصدر لاستخدام حصيلة الاكتتاب فيها في سقي أشجار مثمرة، ورعايتها على أساس عقد المساقاة، ويصبح لحملة الصكوك

¹ - قرار رقم 30 (4/3)، بشأن سندات المقارضة وسندات الاستثمار، مرجع سابق، ص 1809.

² - المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17، مرجع سابق، ص 239.

³ - صافية أحمد أبوبكر، الصكوك الإسلامية، بحث مقدم إلى: مؤتمر المصارف الإسلامية بين الواقع والمأمول، المنعقد أيام: 31 ماي-03 جويلية 2009، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي، ص 12.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
حصّة من الثمرة"¹، ويقوم المكتتبون في هذه الصكوك بدور المساعي، حيث تمول
حصيلة الصكوك مختلف الأنشطة المتعلقة بالسقي، كالري والتسميد والتقليم ومعالجة
الآفات الزراعية... الخ.

2. الصكوك المعتمدة على المعاوضة:

أ. صكوك المراجعة:

وتمثل "وثائق متساوية القيمة يتم إصدارها لتمويل شراء سلعة المراجعة، وتصبح
سلعة المراجعة مملوكة لحملة الصكوك"²، ونجد أن المصدر لتلك الصكوك هو البائع
للسلعة، والمكتتبون فيها هم المشترون، أما حصيلة الاكتتاب فهي تكلفة الشراء.

ب. صكوك السلم:

يمكن تعريفها بأفها: "وثائق متساوية القيمة يتم إصدارها لتحصيل رأس مال
السلم، وتصبح سلعة السلم مملوكة لحملة الصكوك"³، وبالتالي يصبح المصدر لتلك
الصكوك هو البائع، والمكتتبون هم المشترون، وحصيلة الاكتتاب هي ثمن شراء سلعة
السلم.

ج. صكوك الاستصناع:

وهي عبارة عن "وثائق متساوية القيمة يتم إصدارها لاستخدام حصيلتها في
تصنيع سلعة، ويصبح المصنوع ملكا لحملة الصكوك"⁴، فالمصدر لتلك الصكوك هو

¹ - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

² - المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17،

مرجع سابق، ص 239.

³ - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
الصانع، والمكتتبون هم المشترون للعين المراد صنعها، وحصيلة الاكتتاب تكلفة
المصنوع.

3. الصكوك المعتمدة على الإجارة:

تعرف صكوك الإجارة على أنها: "عبارة عن وثائق متساوية القيمة تمثل حصة
شائعة في ملكية أعيان أو منافع أو خدمات في مشروع استثماري يدر دخلا، والغرض
منها تحويل الأعيان والمنافع والخدمات التي يتعلق بها عقد الإجارة إلى أوراق مالية
صكوك قابلة للتداول في الأسواق الثانوية"¹، وصنفت هيئة المحاسبة والمراجعة
للمؤسسات المالية الإسلامية صكوك الإجارة إلى:²

أ. صكوك ملكية الموجودات المؤجرة:

وهي وثائق متساوية القيمة يصدرها مالك عين مؤجرة أو عين موعود
باستئجارها، بغرض بيعها واستيفاء ثمنها من حصيلة الاكتتاب فيها، وتصبح العين
مملوكة لحملة الصكوك.

ب. صكوك ملكية المنافع:

وهي وثائق متساوية القيمة يصدرها مالك عين موجودة، أو موصوفة بالذمة،
بغرض إجارة منافعها، واستيفاء أجرها من حصيلة الاكتتاب فيها، وتصبح منفعة العين
مملوكة لحملة الصكوك.

ج. صكوك ملكية الخدمات:

¹ –Monzer Kahf, The Use of Assets Ijara Bonds For Bridging The Budget Gap, Islamic Economic Studies, IRTI, Islamic Development Bank, Jeddah, Vol : 4, No: 2, May 1997, P 82.

² – المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17، مرجع سابق، ص 238.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
وهي وثائق متساوية القيمة يتم إصدارها بغرض تقديم الخدمة من طرف معين،
واستيفاء الأجرة من حصيلة الاكتتاب، وتصبح تلك الخدمات مملوكة لحملة الصكوك.

رابعاً: آلية إصدار وتداول الصكوك:

تتطلب عملية إصدار وتداول الصكوك إجراءات فنية وضوابط شرعية تبدأ
منذ الإعلان عن الاكتتاب فيها، ثم ترافق عمليات التداول، وتستمر حتى إطفاء
الصكوك وانتهاء أجلها.

1. إصدار الصكوك:

تشتمل عملية الإصدار على مجموعة من الخطوات يمكن إجمالها فيما يلي:¹

1. إعداد التصور والهيكل التنظيمي الذي يمثل آلية الاستثمار بواسطة الصكوك
ودراسة المسائل القانونية والإجرائية والتنظيمية ودراسة الجدوى، وتضمن ذلك في
نشرة الإصدار.

2. تمثيل حملة الصكوك (المستثمرين) من خلال تأسيس شركة ذات غرض
خاص SPV، يكون لها شخصية اعتبارية، وذمة مالية مستقلة، ومملوكة بالكامل
للمستثمرين.

3. طرح الصكوك للاكتتاب بهدف جمع الأموال التي ستمول بها الموجودات
المثلة بالصكوك.

4. تسويق الصكوك: وذلك إما بطرحها مباشرة إلى الجمهور، وإما بيعها إلى
مؤسسة وساطة مالية، وهي تقوم بتسويقها وبيعها إلى حاملي الصكوك.

¹ - أسامة عبد الحلیم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، رسالة ماجستير غير
منشورة، معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا، بيروت، 2009، ص

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
5. التعهد بتغطية الاككتاب: حيث يلتزم متعهد تغطية الإصدار بشراء ما لم
يكتتب فيه ويبيعه تدريجيا.

2. تداول الصكوك:

سنحاول التعرف على آلية تداول الصكوك الإسلامية حسب حالتها:¹
أ. إذا كانت أعيانا: فلا خلاف حول بيعها وتداولها، لكون البيع هنا جزءا
مشاعا من شيء موجود فعلا، أما إذا كانت موجودات المشروع خليط من النقود
والديون والأعيان والمنافع، فإنه يجوز تداول الصكوك وفقا لسعر التراضي على أن
يكون الغالب في هذه الحالة أعيانا ومنافع.

ب. إذا كانت نقودا: يجب مراعاة ما يلي عند بيعها:

- يباع فيه الصك دون زيادة ولا نقصان.

- يكون التقابض في المجلس لكونهما نقدين.

ج. إذا كان ديناً: يبيع صكوك الدين كصكوك السلم والاستصناع هو من قبيل

البيع قبل القبض المنهي عنه شرعا.

3. إطفاء الصكوك:

يقصد بإطفاء الصك استرداد المال الداخل في المشروع، ويتم بإحدى الطرق

التالية:²

¹ - أشرف دواية، الصكوك الإسلامية بين النظرية والتطبيق، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

والترجمة، ط1، القاهرة، 2009، ص 91-96

² - أسامة عبد الحليم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، مرجع سابق، ص

48. نقلا عن: عبد الستار أبو غدة، بحوث في المعاملات والأساليب المصرفية الإسلامية، مجموعة دله

البركة، ج2، ص 110.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
أ. تصفية المشروع وتنقيضه حقيقة (بيعه وتحويله إلى سيولة نقدية)، حيث
يأخذ صاحب كل صك حقه ونصيبه من الأموال المتوافرة سواء كانت الحصيلة ربحا أو
خسارة.

ب. التنقيض الحكومي، أي تقويم المشروع من قبل الخبراء، ثم توزيع الناتج
المقدر على حملة الصكوك كل حسب حصته.

ج. تملك الموجودات بالهبة أو بتمن رمزي، أو بالقيمة المتبقية في صورة صكوك
الإجارة المنتهية بالتمليك.

وهذا الإطفاء إما يكون كليا مرة واحدة في نهاية الإصدار، أو جزئيا
بالتدرج خلال سنوات الإصدار.

المبحث الثاني: تمويل الصكوك الحكومية للقطاعات الاقتصادية الكبرى

تعدد أنواع وأجال صكوك التمويل الحكومية فيمكن إصدار صكوك على
حسب القطاع الذي يوجد فيه المشروع حيث يمكن استخدامها لتمويل المشاريع في
القطاعات الزراعية، الصناعية، التجارية... الخ، وسنركز هنا على القطاعات الكبرى
سالفة الذكر.

أولا- تمويل القطاع الزراعي:

قد لا يعد القطاع الزراعي أكبر القطاعات التي تدر عائدات على الدولة
والفرد، إلا أنه يعتبر ركنا أساسيا لتحقيق التنمية الاقتصادية المتوازنة. ويمكن للدولة
استخدام الصكوك الإسلامية كآلية تمويل جديدة للعديد من المشاريع الزراعية، ومن
بين الصكوك التي يمكن أن تصدر في هذا المجال نجد:

1. التمويل بصكوك السلم:

يصلح عقد السلم لتمويل عمليات زراعية مختلفة، حيث يمكن للدولة تمويل
المزارعين الذين يتوقع أن توجد لديهم منتجات معينة من محاصيلهم أو محاصيل غيرهم،

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب فتكون قد قدمت لهم بهذا التمويل نفعا بالغا وتدفع عنهم مشقة العجز المالي عن تحقيق إنتاجهم¹، كما تتميز صكوك السلم بقدرتها على استقطاب فئات عديدة من المزارعين للمشاركة في التنمية الزراعية، خاصة الذين لا يملكون المال للقيام بمشروعاتهم الزراعية².

2. التمويل بالصكوك الزراعية:

يمكن للصكوك الزراعية من صكوك مزارعة ومساقاة أن تساهم بشكل كبير في عملية التنمية الزراعية، وذلك من خلال توفير المبالغ اللازمة لاستثمار الأراضي الصالحة للزراعة وإعادة تأهيلها من شق قنوات وبناء سدود وتوفير جميع الوسائل المادية والبشرية للإنتاج الزراعي.

فيمكن للدولة "استثمار الأراضي التي تملكها عن طريق صكوك المزارعة، حيث تصدر مؤسسة مالية صكوك المزارعة تمثل الأرض ورأس مال المزارعة وتطرحها للاكتتاب، فتعهد الدولة إلى هذه المؤسسة استثمار هذه الأرض مقابل تملك جزء من هذه الصكوك التي يكون لها عند انتهاء المزارعة غنمها وغرمها"³، كما تستطيع الحكومة إذا كانت تمتلك بساتين وأشجار وتحتاج إلى تمويل رعاية الشجر وسقيه ومعالجة الآفات التي تضر به، فإنها بدلا من أن تقترض أو تصدر سندات دين بفائدة،

¹ - ربيعة بن زيد، الصكوك الإسلامية وإدارة مخاطرها -دراسة تقييمية لحالة الصكوك الحكومية السودانية المدرجة بسوق الخرطوم للأوراق المالية للفترة (2005-2010)-، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2011-2012، ص 70.

² - أسامة عبد الحليم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، مرجع سابق، ص 138.

³ - المرجع السابق نفسه، ص 179.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
تطلب من مؤسسة مالية وسيطة أن تقوم بعمل الترتيبات اللازمة لإصدار صكوك
مساقاة تستخدم حصيلتها في دفع تكاليف رعاية هذه الأشجار وما ذكر معها.

3. التمويل المتكامل للزراعة بواسطة الصكوك:

كما يمكن أن تشكل الصكوك بأنواعها تكاملاً للحلول التمويلية الزراعية: "فمن
طريق صكوك المزارعة والمساقاة يتم توفير الأراضي اللازمة للزراعة، وعن طريق إصدار
صكوك السلم يتم توفير الأموال اللازمة للزراعة، وعن طريق إصدار صكوك
الاستصناع والإجارة المنتهية بالتملك يمكن توفير الأموال اللازمة لشراء الآلات
والمعدات الزراعية، وعن طريق إصدار صكوك الإجارة يمكن توفير الأموال اللازمة
لإنشاء البنية التحتية الزراعية من إقامة سدود وحفر للآبار إنشاء قنوات صرف مياه
السقي"¹.

ثانياً- تمويل القطاع الصناعي:

يعد قطاع الصناعة ركيزة هامة من ركائز استراتيجية التنمية، سواء كأحد أهم
قطاعات تنويع مصادر الدخل القومي والحد من الاعتماد على النفط من ناحية، أو
لقدرته الإسهام في سد جانب كبير من احتياجات المجتمع وتحقيق قيمة مضافة أكبر
للموارد الوطنية من ناحية أخرى. ويمكن للشركات الصناعية أن تستفيد من أصولها
وملاءتها المالية في إصدار صكوك إسلامية لتمويل مختلف مشاريعها كآلية لتنويع مصادر
التمويل، حيث يمكن أن تستخدم العديد من أنواع الصكوك منها:

1. التمويل بصكوك الاستصناع:

تكتسب صكوك الاستصناع أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية، إذ أنها تلي حاجة
كل من الطرفين: الصانع والمستصنع، وتعدى ذلك إلى كل الأفراد والقطاعات في

¹ - ربيعة بن زيد، الصكوك الإسلامية وإدارة مخاطرها، مرجع سابق، ص 84.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب المجتمع، فالصانع يحتاج إلى التمويل اللازم لتمكينه من ممارسة نشاطه الإنتاجي وتأمين سوق فعالة لتصريف منتجاته، بينما يحتاج المستصنع إلى تأمين احتياجاته من السلع الصناعية أو استثمار أموال بحصوله على ربح ناتج من الفرق بين سعر الشراء والبيع¹. ويمكن للحكومة أن تعتمد على هذه الصكوك في تمويل مشاريع صناعية، مثل: تصنيع منتجات محددة، أو بناء مشاريع عمرانية، أو مد الجسور والطرق، أو إنشاء محطة للطاقة الكهربائية وتحلية المياه وغيرها، بحيث تحدد احتياجاتها بدقة، ثم تقوم هيئة إدارة الصكوك باستصناع ما تحتاجه الحكومة، وهذا لصالح حملة الصكوك، ومن ثم يتم إعادة بيعها للدولة التي تقوم بتسليم الثمن على أقساط².

2. التمويل بصكوك المضاربة الصناعية:

وهي تشمل الحالات التي يكون فيها عمل الشركة المساهمة صناعيا حيث تشتري مثلا برأس مال المضاربة أقمشة وتفصلها على شكل أثواب أو قمصان، أو تقوم بشراء حبيبات بلاستيكية وتحولها إلى أنابيب وأباريق وجالونات، وهذا العمل نوع من التجارة المصنعة³. وعليه يمكن للدولة أن تطرح صكوك المضاربة الصناعية للاكتتاب

¹ - شوقي أحمد دنيا، الجعالة والاستصناع (تحليل فقهي واقتصادي)، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ط 3، 2003، ص 43.

² - موسى بلا محمود، صكوك الاستصناع من البدائل الشرعية لسندات القروض الربوية، بحث مقدم إلى: المؤتمر الدولي للمصارف والمالية الإسلامية: التقاضي عبر الحدود، المنعقد يومي: 15 - 16 جوان 2010، الجامعة العالمية الإسلامية، ماليزيا، ص7.

³ - قتيبة عبد الرحمان العاني، صكوك المضاربة الشرعية التخريج الفقهي والتصوير الفني، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي الخامس عشر حول الأسواق المالية والبورصات، المنعقد يومي: 6-8 مارس 2007، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ص 36.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
على أساس أنهما تشتري المواد الخام وتجهز الإنتاج للتصدير مثلاً، ويتم إعلان طريقة
تحقيق الأرباح ونسبة التوزيع وسائر الشروط المقبولة شرعاً.

3. التمويل بصكوك المشاركة الحكومية:

تعتبر صيغة المشاركة من أفضل الأساليب لتحقيق التنمية الاقتصادية، فالعائد
الحقق لا ينتج فعلاً إلا من استثمار إنتاجي وتنمية حقيقية مما يساهم في الحد من
التضخم. وبالتالي فهذا النوع من التمويل يعطي مفهوماً جديداً للتمويل الصناعي
والإنتاجي عموماً وفقاً للمبادئ الإسلامية.

ويمكن للدول أن تستخدم "صكوك المشاركة سداً للعجز في ميزانيتها واستثمار
حصيلتها في المشاريع المدرة للدخل أو الإيراد مثل محطات الطاقة الكهربائية والموانئ
وغيرها، حيث لا ترتب هذه الصكوك على الدولة التزامات ثابتة اتجاه الممولين لأنها
تقوم على مبدأ المساهمة في الربح والخسارة"¹، كما تعتبر صكوك المشاركة الحكومية
من بين الصيغ المفضلة لتمويل السلع الرأسمالية للحرفيين وصغار المنتجين والصناع الجدد
الذين تنقصهم الخبرات الكافية والملاءة المالية التي تسمح بتمويلهم.

ثالثاً- تمويل قطاع التجارة والخدمات:

تعد التجارة نشاطاً اقتصادياً يقوم على أساس ربط الصلة بين مناطق الإنتاج
ومناطق الاستهلاك (البائع والمشتري)، أما الخدمات فهي أنشطة تتعلق ببيع مواد
استهلاكية وإنتاجية غير ملموسة غالباً ما تستهلك في نفس الوقت الذي تنتج فيه.
ويمكن تمويل العمليات التجارية والخدمية بصكوك التمويل الشرعية التي يمكن أن
نذكر من بينها:

¹ - أسامة عبد الحليم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، مرجع سابق، ص

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب

1. التمويل بصكوك المراجعة:

يمكن للحكومة تنشيط الحركة التجارية عن طريق تمويل شراء بضائع مراجعة بثمن مؤجل لمدة محددة قصيرة أو متوسطة، مثل شراء الزيت أو القمح أو السكر أو غيرها من السلع الغذائية أو المعدات والآلات والأجهزة، وتلجأ في ذلك إلى مؤسسة مالية إسلامية وسيطة وتطلب منها إصدار أدوات مالية إسلامية كصكوك التمويل، نيابة عن حملة الصكوك لاستخدام حصيلة إصدارها في شراء هذه السلع أو المعدات بثمن حال يدفع على أقساط، ويستحق حملة الصكوك الربح المتمثل في الفرق بين ثمن شراء بضاعة المراجعة من المورد و ثمن بيعها للحكومة.

2. التمويل بصكوك المضاربة:

وهي تشمل جميع الحالات التي ترغب فيها الشركة المساهمة بالتجارة في السلع جاهزة الصنع، حيث تشمل هذه التجارة سائر عمليات الشراء بقصد البيع حسبما هو معروف في الفقه الإسلامي، وقد يكون مصدر هذه الصكوك الحكومة فتكون المضارب، وصاحب الصك هو رب المال، ويأخذ كل واحد منهما نسبته من الربح المتفق عليه¹.

كما يمكن عن طريق هذه الصكوك تمويل مشاريع الخدمات العامة التي تقدمها الدولة مثل: الخدمات التعليمية والصحية، خدمة الإسكان، كأن تقوم الدولة ببناء مدينة سكنية فتستطيع عن طريق إصدار صكوك المضاربة الحصول على التمويل اللازم لتطوير الأراضي المخصصة لبناء مدن سكنية ومن ثم بيعها لتسدّد قيمة الصكوك المصدرة مع توزيع الأرباح والعوائد المناسبة.

3. التمويل بصكوك الإجارة:

¹ - قتيبة عبد الرحمان العاني، صكوك المضاربة الشرعية التخريج الفقهي والتصوير الفني، مرجع سابق، ص 36.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
تعتبر صكوك الإجارة وسيلة فعالة في تعبئة الموارد اللازمة لتمويل مختلف
مشاريع الحكومة التي تقدم خدمات عامة للمواطنين، مثل: إنجاز المحاكم، مراكز الأمن،
مراكز البحث العلمي، بالإضافة إلى مشاريع البنية التحتية، مثل: بناء الجسور والمطارات
والطرق والسدود، وفي هذه الحالة تكون الحكومة هي المستأجر من أصحاب الصكوك
الذين يكونون هم المالكين لهذه الأعيان المؤجرة للدولة، ثم تقوم الحكومة -بصفتها
مستأجراً- بإباحة الطريق لسير السيارات، والجسر للعايرين عليه، وباستعمال السد
لحجز المياه وتخزينها وتوزيعها على السكان¹، لتشكل بذلك بديلاً إسلامياً عن
السندات التقليدية وسندات الخزينة.

كما يمكن الاستفادة من صكوك إجارة الخدمات في تمويل مشروعات في
مجالات مهمة، مثل: التعليم والصحة، والهاتف والنقل، كما يمكن اللجوء إليها في تمويل
برامج الإسكان والتنمية العقارية من خلال إصدار صكوك إجارة المنافع المنتهية
بالتملك للمستأجر².

المبحث الثالث: دراسة تطبيقية على الصكوك الحكومية السودانية للفترة

(2010-2005)

تشير التوقعات بزيادة حجم سوق الصكوك الإسلامية نحو ثلاثة تريليون دولار
بحلول عام 2015³. كما تؤكد التجارب العملية لإصدارات الصكوك في عدد من

¹ - منذر قحف، الإجارة المنتهية بالتملك وصكوك الأعيان المؤجرة، بحث قدم في دورة مجمع الفقه
الإسلامي الدولي الثانية عشر المنعقدة في مدينة الرياض، أيام: 21 إلى 27 سبتمبر 2000، ص 62.
² - أسامة عبد الحلیم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، مرجع سابق، ص
131.

³ - تقرير منشور على الموقع الإلكتروني لمجلة الصيرفة الإسلامية، تاريخ الاطلاع: 19 جويلية

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
البلدان الإسلامية والخليجية والإفريقية قدرتها على حشد الموارد المالية لتمويل المشاريع
التنموية الكبرى، وفي ذلك تحقيق قيمة مضافة للاقتصاد وهذه الصكوك.

وتعد تجربة إصدار الصكوك الإسلامية الحكومية في السودان تجربة رائدة
ومتميزة، حيث كانت تهدف في مجملها إلى تعبئة الموارد لتمويل عجز الموازنة وتمويل
الأصول والمشروعات التنموية في مختلف القطاعات الاقتصادية، وسنوضح فيما يلي
مدى مساهمة هذه الصكوك في تنمية الاقتصاد.

1. المؤشرات الكلية للاقتصاد السوداني:

جدول رقم (1)

المؤشرات الكلية للاقتصاد السوداني

خلال الفترة 2010-2005

مليون جنيه

2010	2009	2008	2007	2006	2005		البيان
28	27.63	26.03	24.21	22.2	19.5	قيمة	الناتج المحلي الإجمالي
6	6.1	7.8	10.2	10	8.3	معدل نمو%	
14.9	11.2	14.4	8.1	7.2	8.4	معدل التضخم	
2.37	2.32	2.19	2.01	2.17	2.5	سعر الصرف (جنيه/دولار)	
4750	3704	3262.6	3059.2	2179	2421.2	متوسط دخل الفرد من الناتج المحلي بالجنيه	

1) المصدر: بنك السودان المركزي، وزارة المالية والاقتصاد الوطني، التقارير

السوية، 2010-2005.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
من خلال الجدول يمكن ملاحظة ما يلي:

2) تراوح معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي ما بين 8.3% و10.2%، حيث بدأ متصاعدا من العام 2005 وحتى العام 2007، ثم اتجه إلى التناقص تدريجيا حتى العام 2010، ويعود السبب إلى انخفاض أسعار البترول وتداعيات الأزمة المالية العالمية، إلا أن السودان تعتبر من بين الدول التي حققت معدلات نمو مرتفعة في تلك الفترة¹

3) معدلات التضخم تسير في اتجاه تصاعدي، حيث كان التضخم يمثل رقما واحدا خلال الأعوام 2005-2007، إلا أنه أصبح يشكل رقمين خلال الأعوام 2008-2010، وبالتالي تأثر الشرائح الضعيفة بهذا الارتفاع.

4) سعر صرف الجنيه السوداني، ظل يسجل استقرارا حتى العام 2007، إلا أنه انخفض تدريجيا حتى وصل إلى أدنى مستوى له مقارنة بالدولار الأمريكي سنة 2010.

5) في ظل تداعيات انخفاض معدلات نمو الناتج المحلي الإجمالي وارتفاع معدلات التضخم وانخفاض سعر الجنيه السوداني، فإن متوسط دخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي سوف يرتفع تدريجيا، وهذا ما يؤكد الجدول أعلاه.

2. مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي:

جدول رقم (2)

مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي

خلال الفترة 2010-2005

مليون جنيه

القطاع	2005	2006	2007	2008	2009	2010
الزراعة	7.6	8.2	8.03	8.44	8.61	9

¹ -African Economic Outlook, OECD, African Development Bank, 2009, p 153.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب

1.8	1.99	4.29	4.47	3.4	2.9	الصناعة
3.7	3.04	3.11	2.87	2.7	2.5	البترو أخرى
4.5	3.78	2.98	2.47	2.8	2.6	الخدمات حكومية
5	10.21	4.72	4.37	5.1	3.9	أخرى

المصدر: بنك السودان المركزي، التقارير السنوية خلال الفترة 2005-2010.

الجدول رقم (3)

نسبة مساهمة القطاعات الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي

خلال الفترة 2005-2010

نسبة مئوية

2010	2009	2008	2007	2006	2005	القطاع
37.5	31.3	35.9	36.2	36.8	39.6	الزراعة
7.5	7.2	18.2	20.1	15.1	15.1	الصناعة
15.4	11.1	13.2	12.9	12.4	13.1	البترو أخرى
18.8	13.7	12.7	11.1	12.8	12.1	الخدمات الحكومية
20.7	36.9	20	19.7	22.9	20.1	أخرى

المصدر: من إعداد الباحث اعتماداً على بيانات الجدول رقم (2)

من الجدولين رقم (1) و(2) يتضح ما يلي:

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
1) سجل القطاع الزراعي مساهمة معتبرة في الناتج المحلي الإجمالي، وإن كانت
تسير في اتجاه تناقصي خلال الفترة 2005-2010. وقد بلغ متوسط مساهمة القطاع
36.2%.

2) مساهمة قطاع البترول بدأت مرتفعة سنة 2005 (15.1%)، إلا أنها ظلت
تسجل انخفاضا مستمرا خلال الفترة 2008-2010. وقد بلغ متوسط مساهمة القطاع
13.9%.

3) مساهمة القطاع الصناعي خلاف البترول تعتبر ذات أثر كبير، حيث لم
تنخفض عن 10% خلال الفترة المدروسة. وقد بلغ متوسط مساهمة هذا القطاع 13%،
وهي تقارب مساهمة قطاع البترول.

4) مساهمة قطاع الخدمات الحكومية تسجل ارتفاعا مستمرا، وقد بلغ متوسط
مساهمته 13.5%.

5) مساهمة قطاع الخدمات الأخرى ظل يسجل ارتفاعا نسبيا مقارنة ببقية
القطاعات، حيث بلغ متوسط مساهمته 23.4%.

وتشير الاتجاهات بصفة عامة إلى ارتفاع مساهمة القطاع الزراعي والخدمات
الحكومية، وانحسار مساهمة القطاع البترولي نسبيا، مع ارتفاع مساهمة القطاع الصناعي
خارج المحروقات.

3. مساهمة الصكوك الحكومية في تمويل القطاعات الاقتصادية:

أ. تعريف عام بالصكوك الحكومية السودانية:

1) شهادات المشاركة الحكومية (شهادة):¹

¹ - يوسف الفكي عبد الكريم حسين، السياسة النقدية في الإطار الإسلامي (التجربة السودانية
خلال الفترة 1997-2008)، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الرابع بعنوان: الأزمة الاقتصادية العالمية من
منظور إسلامي، كلية العلوم الإدارية، جامعة الكويت، 15-16 ديسمبر 2010، ص 14-15.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
وهي عبارة عن صكوك أو شهادات تصدرها وزارة المالية بصيغة المشاركة
بواسطة شركة السودان للخدمات المالية، ويتكون الصندوق المنشأ لإصدار الشهادات
من الأصول المملوكة جزئياً أو كلياً للدولة في بعض الهيئات والمؤسسات والشركات
المنتقاة مثل الشركة السودانية للاتصالات (سوداتل)، وشركة النيل للزيوت، وفندق
هيلتون وشركة أرباب للتعيين، والشركة السودانية للمناطق والأسواق الحرة وغيرها.
وتتسم هذه الشركات والمؤسسات برحبتها العالية الناتجة عن الإدارة المتميزة. وتتيح
الشهادة لحاملها المشاركة في الأرباح التي تتحقق من أعمال مجموعة الشركات التي
تكون الصندوق. وقد فوضت وزارة المالية بنك السودان لخصم قيمة الشهادات
والأرباح من حساب الحكومة الرئيسي وإضافته لحساب خاص تسدد منه قيمة
الالتزامات المالية تجاه حاملي الشهادات عند حلول تاريخ تصفية المشاركة.

2, صكوك الاستثمار الحكومية (صرح):¹

عبارة عن وثيقة ذات قيمة اسمية محددة بالجنيه السوداني تتيح لحاملها المشاركة
في أرباح تمويل المشروعات الحكومية، أطلقت عام 2003، وتقوم على صيغة المضاربة
المقيدة في حشد الموارد وعن طريق عقود الإجارة والمرابحة والاستصناع والسلم في مجال
توظيف الموارد، يتحدد الربح على الاستثمار بمجموع عوائد عقوده الاستثمارية ويتم
توزيع الأرباح بين المضارب ورب المال بنسبة 95% لرب المال و5% للمضارب. عمر
الصك يتراوح ما بين عامين إلى ستة أعوام وتدفع الأرباح على أساس ربع/نصف

¹ - فتح الرحمان علي محمد صالح، التجربة السودانية في مجال الصكوك الإسلامية، بحث مقدّم
لورشة العمل التي أقامتها شركة BDO، بعنوان: ” الصكوك الإسلامية؛ تحديات، تنمية، ممارسات
دولية “، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، خلال الفترة: 6 - 7 شعبان 1431 هـ الموافق 18 -
24 / 7 / 2010م، ص 24.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب سنوي. ومن بين أهداف إصدار هذه الصكوك توفير موارد حقيقية مستقرة لتمويل المشروعات التنموية للدولة.

3) شهادات إجارة البنك المركزي (شهاب):¹

تم إصدار هذه الشهادة في 30 أوت 2005، كبديل عن شهادات مشاركة البنك المركزي (شمم)، وهي عبارة عن عملية بيع أصول البنك المركزي الثابتة في العاصمة والولايات في شكل صكوك للجهاز المصرفي ثم إعادة تأجيره (بواسطة البنك المركزي) مقابل أجرة محددة 1% في الشهر. تمثل شهادات شهاب نوعا من الصناديق المفتوحة (غير محددة العمر ورأس المال).

يعمل بنك السودان المركزي عن طريق شركة السودان للخدمات المالية كسوق ثانوي لهذه الشهادات (الشراء والاسترداد). وتمثل هذه الشهادات نقلة نوعية في هيكلية الصكوك في السودان.

4) شهادات صندوق الاستثمار الجماعي بالعملة الأجنبية (شموخ):²

هذه الشهادة عبارة عن وثيقة ذات قيمة اسمية محددة، تم إصدارها في أبريل 2009، بهدف أساسي هو تمكين بنك السودان المركزي من إدارة موارد البلاد من النقد الأجنبي، وإيجاد فرص استثمارية تحقق ربحاً لحملة هذه الشهادات، وذلك بإصدارها وعرضها للمستثمرين.

5) شهادات إجارة مصفاة الخرطوم للبترول (شامة):¹

¹ - المرجع السابق نفسه، ص 26.

² - سليمان ناصر، ربيعة بن زيد، إدارة مخاطر الصكوك الإسلامية الحكومية-دراسة تطبيقية على الصكوك الحكومية السودانية، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الخامس حول الصيرفة الإسلامية والتمويل الإسلامي، تحت عنوان: إدارة المخاطر، التنظيم والإشراف، المنعقد أيام: 6 إلى 8 أكتوبر 2012، بمعهد الدراسات المصرفية، عمان، الأردن، ص 22.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
 عبارة عن صندوق استثماري متوسط الأجل تم إنشاؤه بغرض حشد موارد
 المستثمرين عن طريق عقد الوكالة الشرعية، لتوظيفها في شراء أصول مصفاة الخرطوم
 وتأجيرها لوزارة المالية إجارة تشغيلية لتحقيق عوائد مجزية سنوية تتراوح بين 12 إلى
 14%، تم إصدارها في 27 أكتوبر 2010، وإدراجها بسوق الخرطوم للأوراق المالية في
 ديسمبر 2010، إلا أنه لا توجد معلومات كافية عنها كمنشرة الإصدار مثلا.

ب. المردود الاقتصادي للصكوك:

يقسم الجهاز المركزي للإحصاء للحسابات القومية السوداني الأنشطة
 الاقتصادية على القطاعات الكبرى كما يلي²:

- القطاع الزراعي: ويشمل القطاع النباتي والحيواني والغابات.
 - القطاع الصناعي: ويشمل التعدين والتصنيع والطاقة والتشييد.
 - القطاع الخدمي: ويشمل النقل والمواصلات والاتصالات، التجارة، البنوك
 وشركات التأمين، مختلف الخدمات الحكومية والخدمات الأخرى.
- وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الصكوك الحكومية السودانية قد مست
 القطاعات الثلاث في عمليتها التمويلية، والجدول التالي يوضح ذلك:

الجدول رقم (4)

توزيع صكوك الاستثمار الحكومية قطاعيا

خلال الفترة (2003-2007)

النسبة	المبلغ (مليون جنيه)	البيان
29.5%	659	الخدمات (صحة، مياه، تعليم... الخ)

¹ المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

² - لمزيد من التفاصيل يمكنك الاطلاع على الموقع الرسمي للجهاز المركزي للإحصاء السوداني على

الرابط: <http://www.cbs.gov.sd/ar>

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب

البنيات الأساسية	756	33.8%
تمويل قطاعات إنتاجية	137	6.2%
مدخلات إنتاج (البنك الزراعي)	199	8.9%
إنفاق تشغيلي	492	22%
المجموع	2.237	100%

المصدر: عثمان حمد محمد خير، تجربة السودان في مجال إصدار الصكوك الحكومية، بحث مقدّم لورشة العمل التي أقامتها شركة BDO، بعنوان: ” الصكوك الإسلامية؛ تحديات، تنمية، ممارسات دولية “، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، خلال الفترة: 6 - 7 شعبان 1431 هـ الموافق 18 - 19 / 7 / 2010م، ص 15.
من خلال الجدول يتضح ما يلي:¹

- نسبة 33,8% من جملة الموارد تم توجيهها للبنيات الأساسية (الري، الطرق، مطار الخرطوم الجديد، السكة الحديدية، النقل النهري و كباري صغيرة في الولايات).
- بينما كان نصيب الخدمات الأساسية (تعليم، صحة ومياه) 29,5%.
- بلغ نصيب القطاعات الإنتاجية 6,2%.
- بلغت نسبة أوجه الإنفاق التشغيلية 22%.
- تم تخصيص نسبة 8,9% من موارد صكوك الاستثمار الحكومية لتوفي احتياجات مختلفة للبنك الزراعي.

¹ - عثمان حمد محمد خير، تجربة السودان في مجال إصدار الصكوك الحكومية، بحث مقدّم لورشة العمل التي أقامتها شركة BDO، بعنوان: ” الصكوك الإسلامية؛ تحديات، تنمية، ممارسات دولية “، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، خلال الفترة: 6 - 7 شعبان 1431 هـ الموافق 18 - 19 / 7 / 2010م، ص 15.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
وعلى العموم فإن تمويل الصكوك الحكومية السودانية للقطاعات الاقتصادية
كان في المجالات التالية:¹

- دعم المشروعات الاستراتيجية وذلك عن طريق:
تمويل جزء من احتياجات سد مروحي، ومطار الخرطوم الجديد، ومشروعات
إسكان الطلاب في الولايات المختلفة، وتمويل شبكة المياه ومحطة تحلية المياه ببور
تسودان.

- في مجال الصحة:

تم دعم المراكز الطبية القومية بالعاصمة والولايات والمعمل القومي الصحي
وتوفير معدات تشخيصية متطورة ومعدات متخصصة في المجالات المختلفة بالمستشفيات
الاتحادية في إطار مشروع توطين العلاج بالداخل.

- في مجال التعليم العام والعالي:

تم توفير معامل تقنية متطورة للكليات التقنية، إضافة إلى توفير أجهزة كمبيوتر
بملاحقها لمدارس الولايات.

- في مجال المياه:

تم حفر وتركيب الآبار إضافة لبناء السدود وحفر الحفائر، والتي ساعدت في
حل مشكلة العطش في عدد من الولايات.

- في مجال الزراعة والري:

تم دعم البنيات الأساسية للري وتوفير مدخلات الإنتاج (تركتورات، حاصدات
وزراعات).

- في مجال الثروة الحيوانية:

¹ - تقرير قطاع المالية العامة -الوضع الراهن التحديات الرؤى المستقبلية-، وزارة المالية والاقتصاد
الوطني، الخرطوم، جمهورية السودان، 2012، ص 14-15.

- دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
- تم توفير الأمصال والأدوية للإمدادات البيطرية إضافة إلى إنشاء المحاجر البيطرية.
- في مجال البنيات الأساسية:
- تم دعم السكة الحديدية والنقل النهري إضافة إلى المساهمة في تشييد الطرق القومية والردميات والمزلقيات بالولايات.
- في مجال الصناعة:
- تم تأهيل قطاع النسيج.
- في مجال المعلوماتية:
- تم دعم البنية التحتية للتلفزيون والإذاعة ووكالة السودان للأبناء بالمراسلات الإذاعية وتوفير الأجهزة التقنية المتطورة التي وضعت السودان في مصاف الدول المتقدمة.
- في مجال الآليات والمعدات:
- تم توفير وحدات حفر متكاملة لبعض الولايات مما سهل من عملية بناء السدود والطرق وحفر الآبار.
 - توفير معدات وآليات مختلفة للولايات.
 - دعم القطاع الخاص من خلال مشاركته في تنفيذ المشروعات المختلفة وتوفير الاحتياجات.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
الخاتمة:

لقد تبين من خلال هذه الدراسة الأهمية الكبرى لمنتج الصكوك الإسلامية بالنسبة للحكومات كأداة فعالة لتعبئة الموارد وتمويل مختلف المشاريع الاقتصادية، وقد خلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات.

النتائج:

- إن تنوع وتعدد صيغ إصدار الصكوك الإسلامية الحكومية من شأنه أن يوفر حلولاً تلي حاجة القطاعات الاقتصادية المختلفة من تجارية وزراعية وصناعية وغيرها، كما توفر بدائل متنوعة لفئات المستثمرين حسب إمكاناتهم ورغباتهم وأوضاعهم المختلفة.

- استطاع بنك السودان المركزي وبجهود مشترك مع الهيئة العليا للرقابة الشرعية للمصارف والمؤسسات المالية، من ابتكار آلية تتوافق مع الأسس الشرعية لتمويل مشاريع الدولة.

- برهنت تجربة السودان العملية لإصدارات الصكوك الحكومية (السيادية) أنها وسيلة مفيدة لتمويل مشروعات البنية التحتية والمشروعات التنموية الكبرى.

- نجحت السياسة التمويلية للقطاعات الاقتصادية التي انتهجتها حكومة السودان خلال الفترة (2005-2010) في التحكم في معدلات التضخم والرفع من معدلات نمو الناتج المحلي واستقرار نسبي في سعر صرف العملة المحلية، إضافة إلى ارتفاع معدل الدخل الفردي، وذلك رغم انخفاض أسعار البترول نتيجة الأزمة العالمية، والذي يعتبر المورد الأساسي لهذه الدولة.

- أدى تطبيق الصكوك الحكومية السودانية إلى التحسن المطرد في مجال توفير البنيات الأساسية وانعكاساتها الإيجابية خاصة بعد اكتمال المشروعات مثل سد مروحي، وازدياد توفيق الطاقة وتصميم الطرق الرئيسية والفنادق.

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
- يمكن استخدام الصكوك الحكومية في تمويل عجز الموازنة العامة للدولة.

التوصيات:

- ينبغي العمل على تطوير آليات إصدار الصكوك الإسلامية الحكومية لجذب أكبر عدد من المستثمرين سواء المحليين أو الأجانب.
- ضرورة إعداد الكوادر البشرية المتخصصة التي تشرف على عمليات إصدار وتداول هذا النوع من الصكوك.
- ضرورة نشر ثقافة التمويل الإسلامي عموماً والصكوك الإسلامية خاصة، من أجل استقطاب الأموال الإسلامية التي يتم استثمارها في الخارج.
- ضرورة استمرار الحكومات في تشجيع الاعتماد على الصكوك الإسلامية في مجال استقطاب وتوظيف الموارد، وتسريع إصدار تشريعات لها.
- السعي لتصنيف الصكوك الحكومية السودانية من قبل مؤسسات تصنيف دولية معترف بها، حيث تعد هذه التصنيفات مؤشراً مهمّاً للمستثمرين في الإصدارات السيادية.
- ينبغي على الدول العربية والإسلامية أن تطلع على التجربة السودانية عن قرب لكي تقف على الأمر بنفسها، لتقييمها أولاً، ثم تقتدي بها ثانياً، وذلك تنسيقاً للجهود الفقهي والعلمي المشترك بين هذه الدول، أملاً في تطوير التجربة بمعالجة سلبياتها والبناء على إيجابياتها.

المراجع

1. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، المجلد 4، ج 28، د ت.
2. أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ج 3، كتاب الصاد، د ت.

- دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
3. أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، 1981.
 4. أشرف دوابة، الصكوك الإسلامية بين النظرية والتطبيق، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، القاهرة، 2009.
 5. شوقي أحمد دنيا، الجعالة والاستصناع (تحليل فقهي واقتصادي)، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ط 3، 2003.
 6. عادل عيد، الصكوك الإسلامية، جمعية النهوض بالأزهر وتطويره، مشهرة برقم 2012/8603، جامعة الأزهر، 2013.
 7. وليد يوسف الشايحي، عبد الله يوسف الحجي، صكوك الاستثمار الشرعية، بحث مقدم إلى المؤتمر السنوي العلمي الرابع عشر: المؤسسات المالية الإسلامية -معالم الواقع وآفاق المستقبل، المنعقد أيام: 15-17 ماي 2005، كلية الشريعة والقانون، جامعة الإمارات العربية المتحدة.
 8. صفية أحمد أبوبكر، الصكوك الإسلامية، بحث مقدم إلى: مؤتمر المصارف الإسلامية بين الواقع والمأمول، المنعقد أيام: 31 ماي-03 جويلية 2009، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، دبي.
 9. أسامة عبد الحليم الجوزية، صكوك الاستثمار ودورها التنموي في الاقتصاد، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا، بيروت، 2009.
 10. ربيعة بن زيد، الصكوك الإسلامية وإدارة مخاطرها -دراسة تقييمية لحالة الصكوك الحكومية السودانية المدرجة بسوق الخرطوم للأوراق المالية للفترة (2005-2010)، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2011-2012.

- دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب
11. موسى بلا محمود، صكوك الاستصناع من البدائل الشرعية لسندات القروض الربوية، بحث مقدم إلى: المؤتمر الدولي للمصارف والمالية الإسلامية: التقاضي عبر الحدود، المنعقد يومي: 15 - 16 جوان 2010، الجامعة العالمية الإسلامية، ماليزيا.
12. قتيبة عبد الرحمان العاني، صكوك المضاربة الشرعية التخريج الفقهي والتصوير الفني، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السنوي الخامس عشر حول الأسواق المالية والبورصات، المنعقد يومي: 6-8 مارس 2007، جامعة الإمارات العربية المتحدة.
13. منذر قحف، الإحارة المنتهية بالتمليك وصكوك الأعيان المؤجرة، بحث قدم في دورة مجمع الفقه الإسلامي الدولي الثانية عشر المنعقدة في مدينة الرياض، أيام: 21 إلى 27 سبتمبر 2000.
14. يوسف الفكي عبد الكريم حسين، السياسة النقدية في الإطار الإسلامي (التجربة السودانية خلال الفترة 1997-2008)، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الرابع بعنوان: الأزمة الاقتصادية العالمية من منظور إسلامي، كلية العلوم الإدارية، جامعة الكويت، 15-16 ديسمبر 2010.
15. فتح الرحمان علي محمد صالح، التجربة السودانية في مجال الصكوك الإسلامية، بحث مقدّم لورشة العمل التي أقامتها شركة BDO، بعنوان: ” الصكوك الإسلامية؛ تحديات، تنمية، ممارسات دولية “، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، خلال الفترة: 6 - 7 شعبان 1431 هـ الموافق 18 - 19 / 7 / 2010م.
16. سليمان ناصر، ربيعة بن زيد، إدارة مخاطر الصكوك الإسلامية الحكومية- دراسة تطبيقية على الصكوك الحكومية السودانية، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الخامس حول الصيرفة الإسلامية والتمويل الإسلامي، تحت عنوان: إدارة المخاطر، التنظيم

دور الصكوك الإسلامية الحكومية في دعم القطاعات الاقتصادية----- أ. يونس شعيب والإشراف، المنعقد أيام: 6 إلى 8 أكتوبر 2012، بمعهد الدراسات المصرفية، عمان، الأردن.

17. عثمان حمد محمد خير، تجربة السودان في مجال إصدار الصكوك الحكومية، بحث مقدّم لورشة العمل التي أقامتها شركة BDO، بعنوان: ” الصكوك الإسلامية؛ تحديات، تنمية، ممارسات دولية “، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، خلال الفترة: 6 - 7 شعبان 1431هـ الموافق 18-19/7/2010م.

18. تقرير قطاع المالية العامة -الوضع الراهن التحديات الرؤى المستقبلية-، وزارة المالية والاقتصاد الوطني، الخرطوم، جمهورية السودان، 2012.

19. قرار رقم 30 (4/3)، بشأن سندات المقارضة وسندات الاستثمار، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، منظمة المؤتمر الإسلامي، العدد الرابع، ج 3، جدة، المملكة العربية السعودية، 1408هـ/1988م، ص 1809، ومتاح على الرابط:
<http://www.fiqhacademy.org.sa/qrarat/4-5.htm>

20. معيار رقم 7، المنشور بعنوان: متطلبات كفاية رأس المال للصكوك، والتصكيك، والاستثمارات العقارية، مجلس الخدمات المالية الإسلامية، كولالمبور، ماليزيا، جانفي 2009، ومتاح على الرابط: <http://www.ifs.org/published.php>

21. المعايير الشرعية، هيئة المحاسبة والمراجعة للمؤسسات المالية الإسلامية، المعيار الشرعي رقم 17، صكوك الاستثمار، النامة، البحرين، 2010.

22. Sohail Jaffer, GROWING DEMAND FOR CORPORATE SUKUK, IFN EUROPE Forum 2013, 28 May 2013.

23. Monzer Kahf, The Use of Assets Ijara Bonds For Bridging The Budget Gap, Islamic Economic Studies, IRTI, Islamic Development Bank, Jeddah, Vol : 4, No: 2, May 1997.

24. African Economic Outlook, OECD, African Development Bank, 2009.

قداست النص القرآني في ضوء التناص الكواري "قراءة في الشعر الكدائي"

أ.د. آمال لوائي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص

قدم هذا البحث قراءة نقدية للشعر العربي الكدائي الذي تحطّى الحاجز الديني المقدس، وأوغل في توظيف النصوص المقدسة بالاتكاء على موضوعاتها وإشاراتها وقصصها ورموزها، وإعادة صياغتها في سياق التعبير عن الرؤية الشعرية المعاصرة، وإخراجها من حيزها الديني وقديستها لتصبح رؤى خاصة للعالم والإنسان والكون والحياة. وتراوحت مستويات المحاور التناصية للنصوص الدينية المقدسة ما بين محاور شكلية، ومحاور مضمونية أي إما تأكيداً لمضمون النص المقدس أو معارضة له. واتضح أن اشتغال التداخل النصي مع القرآن الكريم تحديداً لم يتم توظيفه بالصورة نفسها الواردة بها في الأصل القرآني، إذ لم يُؤتَ به لتوكيد دلالاته في النص وتعصيد مفعولها الإجرائي في المتلقي، لكن هذا الشعر تجاوز امتصاص سياقات آياته وصياغاته لأنها لا تتفق مع أفكاره وغاياته إلا في إطار ما يسمى بالقلب والتحوير الملائم لمفاهيم الكدائية والمخالف للمنطوق القرآني. من خلال التحوير الشعري للآية القرآنية، والمعارضة الشعرية الساخرة للدلالات القرآنية، وكذلك أسطورة القصة القرآنية.

The Quranic Text and the Non-sacred in Intertextuality:

A reader of Modern poetry

Abstract

This research presents a critical analysis of the modern Arabic poetry that passed the sacred and religious bounds and used them exhaustively. The levels of such intertextuality

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي

varied from form to content; focusing on the content of the religious text or objecting it. The latter is achieved through drawing on these sacred texts' themes, allusions, stories and symbols and expressing them in a modern poetic vision by getting them out of their sacred religious context to become special visions of the world, the human being, the universe and life.

The intertextuality with the Quran, specifically, did not use the original image to highlight its meaning and focus on its procedural effect on the reader. This poetry did not concentrate on the Quran's intended meanings, as it did not consent with its ideas and objectives. It is only interested in modulation; a concept appropriate to modernity and opposite to Quranic sayings. This is done through poetic modulation of the Quranic verse, ironic poetic opposition to the Quranic meanings and the mystifying the Quranic story.

نزعت الحداثة صفة القداسة عن العالم، وأبعدت دور الألوهية عن وجه الأرض، وأصبحت حركية الحداثة تكمن في أنه لا شيء مقدس، فغُيب مفهوم القداسة الذي يدور أساساً في إطار المنظومة التوحيدية حول الله عز وجل وهو غير قابل للتقييم النقدي لأنه موضع تقديس ممزوج بالخشبية لا يمكن انتهاكه والخروج عنه، ويقوم الإنسان حياله بعبادات وشعائر دينية¹. وارتبطت القداسة بالكمال الإلهي والتتره عن الموجودات، أي الانفصال عن عالم الطبيعة والمادة. وجاء في التزييل الحكيم قوله تعالى: "وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"²، ثم قوله: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ

¹ - ينظر: عبد الوهاب المسيري، الموسوعة اليهودية والصهيونية (نموذج تفسيري جديد)، ط1،

القاهرة، دار الشروق، 1999، 3 / 191 — 192.

² - سورة البقرة / 30.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
الْقُدُوس"¹، للتأكيد أن تقديس الله هو الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى
للخلق²، وأن تسميته بالقدوس هي لإشاعة القداسة والطهارة المطلقتين وإلقاء هذا
الإشعاع الطهور في ضمير المؤمن³. وبذلك فتقديس الله عز وجل معناه تعظيمه
وتمجيده وتسيبحة وتطهير ذكره عما لا يليق به مما قد ينسب إليه⁴. وارتبط المقدس
في العقيدة المسيحية بمعاني الطهارة والنعمة والبركة والعلو للرب المسيح، ولكن جاز
إسقاط تلك المعاني على البشر كما ورد في الكتاب المقدس: "أنا الرب قدوسكم"⁵،
وكذلك: "وقبلما خرجت من الرحم قدستك، جعلتك نبيا للشعوب"⁶.

1- الحداثة الشعرية ونفي قداسة النص الديني:

أسهمت مفاهيم الحداثة في تحويل الشعر إلى دين شعري حديث لأنه أصبح
متصلاً بخصائص (النبوة، الرؤيا، الحلم، السحر، الإشراق، الكشف، الباطن، اللاهوائي،
والماورائي، المطلق...) ⁷. وتلاءم مع خفوت الجذوة الدينية، فأراد أن يحقق الصعود
الغيبى المثالي، ويغوص في العمق وداخل الأشياء⁸، وتحوّل إلى سيفر تكوين يعيد خلق
العالم من جديد، ويدعو إلى الخروج من عتمة الماضي إلى الفيض الذي لا هدف له⁹.

¹ - سورة الحشر/ 23.

² - سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 9، بيروت، دار الشروق، 1400 هـ / 1980 م، مج 1، 1/

56.

³ - المصدر نفسه، مج 6، ج 28، ص 3533.

⁴ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1966، مج 1، 1/ 277.

⁵ - الكتاب المقدس، أشعياء، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الإصحاح 41، ص 1044

⁶ - المصدر نفسه، أرميا، الإصحاح 1، ص 1073.

⁷ - كامل فرحان صالح، الشعر والدين، بيروت، دار الحداثة، 2005، ص 275.

⁸ - ينظر: مناف منصور، عقلية الحداثة العربية، بيروت، مكتبة صادر، 1986، ص 156-157.

⁹ - كامل فرحان صالح، المرجع السابق، ص 276.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
وكما عبر عنه خليل حاوي سِفر تكوين اللغة جديدة في قلب اللغة العربية¹، وأن رؤيته
رؤيته هي "نوع من الاتحاد بالغيب يخلق صورة جديدة للعالم أو يخلق العالم من
جديد². بل إن بعضهم رأى أن إخراج الشعر من دائرة الوزن والقافية ما هو إلا رغبة
دقيقة لدفع الشعر نحو حالة موازية للنص الديني الخالي من قيود الوزن والقافية³.

تخطى شعراء الحداثة الحاجز الديني المقدس، وأوغلوا في توظيف النصوص
المقدسة في شعرهم، وتراوحت مستويات المحاوراة التناصية للنصوص الدينية المقدسة ما
بين محاوراة شكلية ومحاوراة مضمونية تؤكد مضمون النص المقدس أو تعارضه. وكانت
المحاوراة أو تحطيم قدسية النص المقدس — في رأيهم — إثراء للتجربة الشعرية العربية
بشكل غير مسبوق. وكانت محاذاة النص المقدس تتم بطرح نص آخر بدلا منه هو نص
الرؤيا الذي ينشد رؤيا حضارية إنسانية أخرى⁴، فاتكأوا على تلك النصوص المقدسة
بموضوعاتها وإشاراتها وقصصها ورموزها، معيدين صياغتها في سياق تعبيرهم عن
رؤيتهم الشعرية، فأخرجوها من حيزها الديني وقدسيتها لتصبح رؤياهم الخاصة للعالم
والإنسان والكون والحياة.

ويرى كمال أبو ديب أن معنى رفض القداسة ترسخ في مفهوم الحداثة باعتبارها
ظاهرة اللاقداسة، فـ«من الدالّ جدا على أن النص المقدس في جميع الثقافات التي
نعرفها هو نص قديم، فليس هناك من نص مقدس حديث، والحداثة بهذا المعنى هي

¹ - المرجع نفسه، ص 280.

² - خليل حاوي، الآداب، ع7، بيروت، 1963، ص 73.

³ - الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، ط 3، بيروت، دار العودة، 1983، 3 / 166

⁴ - كامل فرحان صالح، المرجع السابق، ص 381-386.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
ظاهرة الالاقداسة»¹، وأنه "لا سبيل لأن يكون الأدب حديثا إلا إذا رفض كل نص
مقدس وأصبح نقيضا لكل ما هو مقدس حتى العبادة"². وهذا المعنى الراض للمقدس
هو الذي أكده أنسي الحاج بمعنى مضاد: "التخريب حيوي ومقدس"⁽³⁾، حيث أرجع
القداسة للتخريب الذي يدمر المقدس.

وأصبح النص الديني عنصرا مهيمنا وفاعلا في حدوث التمنفصل بينه وبين النص
الشعري، وأصبحت له وضعية دلالية في مشروع الحدائة الشعرية، إذ يُقرأ كالنص
الشعري الذي يعتمد الترميز والجاز والأسطرة، ويتحمل أكثر من تفسير وتأويل، لأن
قراءة النص الشعري الحرفية له واعتباره كقانون إيمان، يجب أن يُقرأ ككتب المتكلمين
والفقهاء هي قراءة ناقصة في رأي بعض الدارسين تُشوه الفضاء الشعري الذي أراد
الشاعر تصويره، لأن الحدائة القائمة على الهدم والتقويض هي "رفع القداسة عن كل
قيمة، بل دعوة إلى تدنيس المقدس"⁴، لأن مهمة الشعر الحدائي أصبحت هي إعادة
خلق العالم وإبداعه من جديد على «أن الأديان لم تعد تملك أن تقدم الزخم الجديد،
قام الشعر بهذه المهمة، وبدأت كأن دائرة التماهي بين النبي والشاعر اكتملت، كذلك
بين النص الديني والنص الشعري الذي حاول أن يؤكد قدسيته هو الآخر كدين جديد
هادم لكل بناء قديم ورؤية قديمة للعالم موظفا مفردات هذه الرؤية التقليدية للعالم بدءا

¹ - كمال أبو ديب، الحدائة السلطة النص، مجلة فصول، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 4،

ع 1984/3، ص 59 — 60

² - المرجع نفسه، ص 60.

³ - أنسي الحاج، مقدمة لن، ط 2، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982، ص 15

⁴ - جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحدائة في الأدب: الأصول المرجعية، دمشق، دار الفكر،

1426 هـ / 2005 م، ص 189.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
من مفهوم الله، إلى التراث، واللغة والمجتمع وفق نسغ جديد¹.
وتعرض كل ما هو مرتبط بالنص المقدس من أديان وأنبياء وغيبيات ومقدسات
وما إليه من المفاهيم العقدية والأخلاقية للشك والاهتزاز والتهكم. فأدونيس يرى أن
"الله والأنبياء والفضيلة والآخرة ألفاظا رتبها الأجيال الغابرة، قائمة بقوة الاستمرار لا
بقوة الحقيقة، والتمسك بهذه التقاليد موت والتمسكون بها أموات وعلى كل من يريد
التحرر منها أن يتحول إلى حفار قبور كي يدفن أولا هذه التقاليد كمقدمة ضرورية
لتحرره"². ويقرر أنسي الحاج أن الشعر وحده "عرف الحقيقة البشعة، عرف كل
الحقيقة أكثر من الأنبياء والآلهة"³. فبعد أن احتل الشعر مكان الدين والمعتقد في نظر
الشعراء الحدائين، أصبح هو معيار معرفة الحقيقة — وإن بدت بشعة — في المفهوم
الوجودي متأثرين بالفيلسوف الوجودي "مارتن هيدجر" الذي جمع بين النبوة والشعر
قائلا: "يصطفي الله الشاعر ليوصل كلمته المقدسة إلى البشر. يغدو الشعر رؤيا علوية.
يُعبّر عنها الشاعر النبي"⁴.

وإذا كانت العرب قديما قد أضفت على الشاعر صفات تقديسية، فإن هذا
الفهم قد ضعف وهجه بعد ظهور الإسلام، لكن عودته في الأدب الحديث بدأت
تلاحظ في نصوص جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي وأدونيس
وغيرهم، التي أعطت الشاعر دورا نبويا. وكما يقول أدونيس: «إن الطموح الجوهري

¹ - كامل فرحان صالح، المرجع السابق، ص 310.

² - الثابت والمتحول، صدمة الحدائنة، 1/136-137.

³ - مجلة الناقد، بيروت، ع 18 / 1989، ص 8.

⁴ - محمد عادل الهاشمي، الإنسان في الأدب الإسلامي، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، 1406

هـ، ص 125.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
للشركي العظيم هو أن يكون نبيا»¹. وتوضح خالدة سعيد أن سبب تحول الشاعر إلى
نبي هو العبث والفوضى التي وقف أمامها ليكون نبي عصره، و"هاهو النبي الجديد
منفي، مضطهد، مشرد، محروم، يقابل بالنفور وعدم الفهم، غير أنه مع ذلك يشق
طريقه وسط اللعنة والرعب، ويعيش في ملكوت العبث حيث لا معنى للكلام"². وكما
يرى جبرا إبراهيم جبرا "أن الفنان يدنو من درجة النبوة ولكنه كثيرا ما يدنو أيضا
على طريقة البدائيين الغابرة — من درجة كبش الضحية — ألم يكن البدائيون يقتلون
أنبيائهم لكي تخصب الأرض بهم"³.

فمثلما أفرغ لفظ الألوهية من بعدها المقدس، أفرغ لفظ النبي والنبوة من الدلالة
الحقيقية المتميزة بالوحي الإلهي والكتب والرسالات السماوية، ليعبر عن موقف نبوي
نيتشوي ونبوة إنسانية يحملها الشاعر الحدائي. فهو نبيٌ يجمع بين السحر والشك، يريد
أن يفتح المجاهيل ويعرج إلى السماء ليدعي الألوهية حيناً والنبوة حيناً.
إن التوجه نحو الذات باعتبارها مصدرا من مصادر المعرفة لا ينفصل عن حركة
الفكر الغربي الحديث، كما تجلّى عند أبرز أعلامه أمثال نيتشه وهيجل وماركس
وفرويد الذين اتجهوا بمواقفهم نحو اتجاه واحد "من الغيب إلى الإنسان، فنيته جعل
الإنسان محور العالم، إذ نقل الغيب إليه، وماركس نقل الميتافيزيقا إلى المجتمع. أما فرويد
فقد رأى غيباً جديداً، وقدرًا جديداً في باطن الوعي الإنساني"⁴.

¹ - الثابت والمتحول، صدمة الحداثة، 3/164-165.

² - خالدة سعيد، مجلة "شعر"، بيروت، ع 19 / 1961، ص 90.

³ - جبرا إبراهيم جبرا، الحرية والطوفان، بيروت، دار مجلة شعر، 1960م، ص 138.

⁴ - خالدة سعيد، الملامح الفكرية للحداثة، مجلة فصول، مج 4، ع 3 / 1984، ص 31.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
 فالنظرة الجديدة إلى الإنسان تؤمن بأنه "قادرٌ على تغيير نفسه والعالم معاً، قادرٌ
 على صنع التاريخ"¹، بل ترى أنه محور الكون، فتجعله مصدر المعايير بدلاً من الله.
 فالإنسان في تصور أدونيس "هو، لا الله، مقياس الأشياء، وما الطبيعة إلا مجال لفعله
 ومراة لتجاربه"². تُسندُ هذه النظرة الإلحادية إلى "الإنسانُ قدرات تجعله يتفوق على
 الذات الإلهية (نزه الله عن ذلك) فيغدو مقياساً للأشياء، ثم تتمزق الفواصل بينه وبين
 الله عز وجل في إطار تفسير إلحادي لنظرية وحدة الوجود"³. ومن هنا جاءت فكرة
 موت الإله، والتي تعني أن القوة الخالقة للعالم المتجاوزة له قد اختفت، وفقد الإله اسمه
 وهو ما يعني الاختفاء الكامل للمرجعية الغيبية. وحين يتم ذلك تتحول وحدة الوجود
 الروحية إلى وحدة وجود مادية، وهي لحظة فقدان الإله وتجاوز اسمه، أي موته. وعبارة
 "موت الإله" عند نيتشه تعني غياب فكرة الكل التي تشكل أساس الأنطولوجيا الغربية⁴.
 وتتعارض فكرة "موت الإله" مع مبدأ التوحيد الذي يُعد مصدر تماسك العالم ووحدته
 وحركته وغايته. فالله خالق الإنسان والكون والحياة، وهو الذي يحركهم ويمنحهم
 المعنى ويزوّدهم بالغاية، ولكنه مع هذا مفارق لهم لا يحلّ فيهم أو في أي من مخلوقاتهم،
 ولا يتوحدّ معهم. وكما أن مبدأ التوحيد يوّلد ثنائية أساسية تبدأ بثنائية الخالق

¹ - الثابت والمتحول: صدمة الحداثة، 3 / 283.

² - مقدمة للشعر العربي ط 3، بيروت، دار العودة، 1983، ص 45.

³ - محمد حسين قاسم، الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، القاهرة، الدار العربية للنشر
 والتوزيع، 2000، ص 78.

⁴ - ينظر: نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فلكنس فارس، بيروت، دار القلم، د تا. وقال عنه
 صلاح عبد الصبور وهو سعيد بصدفة عشوره على ترجمة هذا الكتاب: "أي دوار يخلخل الروح بعد
 قراءة هذا الكتاب" ينظر: حياتي في الشعر، بيروت، دار اقرأ، 1981، ص 54.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
 والمخلوق التي يتردد صداها في ثنائية الإنسان والطبيعة ثم في كل الثنائيات الأخرى في
 الكون، هذا يعني أن العقائد التوحيدية لا تسقط في الواحدية، أي وحدة الوجود¹.
 وبذلك انطلق الشعراء الحداثيون من فكرة موت الله التي أعلن عنها الفيلسوف
 الألماني نيتشه والتي بدت "شديدة الإغراء والجذب لطائفة من الحداثيين العرب
 المشهورين وكأهم وقعوا فيها على الضالة المنشودة أو القول المتزه الذي لا يشوبه
 الباطل"². وقد أخذ التعبير عن هذه الفكرة يتخذ أشكالاً متعددة ارتبطت باستبعاد الله
 والوحي والغيب والتشريع السماوي، وأدت إلى انتهاء مرجعية الله لتحل محلها مرجعية
 الإنسان الذي أصبح في ضوء المنظور الحداثي "مركزاً وغاية، ومحوراً للمعنى ومصدراً
 للقيم، وبأنه المؤهل للقبض على مصيره والمحول لتفسير العالم"³.

2-النص القرآني والمدخل التناصي:

عُد القرآن الكريم رافداً مهماً من خلال اقتباس دلالاته وصياغاته، بعد أن
 وجدوا فيه لغة جديدة تستطيع أن تنقل أكبر قدر ممكن من معاني الوحي ورموزه
 وقصصه ولغته الدينية بلغة تحاكيه، وإن لم تبلغ شأوه وسحر إعجازه وسر بيانه⁴، من
 خلال التماثل اللفظي للنص القرآني، واستيحاء لظلال آي القرآن الكريم لأنه يظل
 النص المقدس المتعالي المطلق الذي يسعى من خلاله الشاعر إلى احتواء الاتساع
 اللامتناهي فيه والحصول على تجسيد أعظم لتأملاته وحدوسه وتطلعاته ورؤاه، وتمثل
 دواله اللغوية ودلالاتها وإعادة توزيعها في النص الشعري ليحدث الانسجام والتلاقي

¹ - ينظر: عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، 4 / 258 - 259.

² - جمال شحيد ووليد قصاب، المرجع السابق، ص 141.

³ - خالدة سعيد، الحداثة: قضايا وشهادات، دمشق، دار كنعان، 1990، ج 2، ص 67.

⁴ - عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، بيروت، مؤسسة نوفل، 1980،

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. أمال لواتي
لنص غائب في نص حاضر يتشرب معانيه وتضفي عليه هالة من قداسته. وتنوعت
أشكال الاقتباس التي يمكن أن يفيد منها الشاعر من نصوص القرآن تحدثت عنها كتب
التفسير والإعجاز والبلاغة العربية، وقد اشترطت الالتزام بالسياق القرآني وتلمس
دلالاته ومعانيه بحيث لا يصح قبول أو استساغة أي تأويل أو تفسير يعارض القرآن¹.

إن عملية التداخل النصي تُقرأ من خلال قوانينه المعروفة: الاجترار والامتصاص
والحوار، وتبين أن عملية الامتصاص هي قبول سابق للنص الغائب وإعادة كتابته
وتقليده بطريقة لا تمس جوهره يعتمد فيه على الاستمداد الإشاري والدلالي من أي
القرآن قصد الإيحاء وإنتاج الدلالة، و«ينتج عن هذا أن الشاعر الذي يرتضي قانون
الامتصاص، ينطلق من قناعة راسخة، وهي أن هذا النص غير قابل للنقد، أي الحوار.
والامتصاص بهذا المعنى هو مهادة النص والدفاع عنه، وتحقيق سيرورته التاريخية، ومن
ثم لا يكون النص الجديد إلا استمرارا للنص الغائب وفق قوانين مغايرة لا تتعارض
معه»².

وإن لم يخل التناص من وجود الحوار وبخاصة مع النص الديني (القرآني والإنجيلي
والتوراتي والصوفي) الذي أصبح بمثابة "نقد للنص الغائب وتخريب لكل مفاهيمه
المختلفة، وهو لا يقبل المهادة، ولا يرتاح للاحترام"³. وكذلك هو "تفجير للنص
الغائب وإفراغه من بنياته المثالية"⁴، على الرغم من أن الابتعاد في نظر البعض عن مبدأ
الحوار، يخفي إمكانية تغيير قوانين الكتابة الشعرية ويبعدها عن الفعل الشعري الخلاق.

¹ - محمد بلتاجي، دراسات في التفسير، القاهرة، مكتبة النصر، 1993، ص 11.

² - محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية، ط 2، الدار البيضاء، المركز
الثقافي العربي، 1985، ص 277.

³ - المرجع نفسه، ص 278.

⁴ - المرجع نفسه، ص ن.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. أمال لواتي
واختيار قانون المهادنة يعمل على تجذير القيم الوهمية بدل اقتلاعها، كما يُسهّم في
استمرارها بدل توقيفها¹. فكان اللجوء إلى امتصاص أو اجترار النصوص الدينية
المقدسة — في رأي بعضهم — يعود إلى أسباب عقدية أو اجتماعية (الانتماء الإسلامي
أو المسيحي)، إلا أن أكثرهم لجأ إلى محاورتها رغبة في التحرر والمغايرة والخروج عن
التراث الديني².

اتضح أن اشتغال التداخل النصي مع القرآن الكريم تحديدا لم يتم توظيفه
بالصورة نفسها الواردة بها في الأصل القرآني، إذ لم يُؤتَ به لتوكيد دلالاته في النص
وتعزيد مفعولها الإجمالي في المتلقي، وقد يُفهم تحويلها أو تحويرها عن مقصديتها
الأولى هو عدم تقديس النص القرآني وعدم الانقياد لإعجازه البياني المتسامي. وأصبح
الحضور القرآني في الشعر — بعد تحويره ونفي دلالاته — حضورا مخالفا لعلامات
الامتثال والاعتبار أثناء التفاعل مع القرآن الكريم، رافضا هذا الشعر الحدائثي امتصاص
سياقات آياته وصياغاته لأنها لا تتفق مع أفكاره وغاياته إلا في إطار ما يسمى بالقلب
والتحوير الملائم لمفاهيم الحدائث والمخالف للمنطوق القرآني سواء من حيث توظيف
المفردة أو العبارة القرآنية أو اعتماد الصور والمشاهد القرآنية أو استيحاء الجو العام
للسورة أو لجزء منها، ويتحكم بذلك فيها قانون الحوار الذي أصبح «هو المهيمن
كمساءلة للكتابة النصية ذاتها بلا مهادنة أو استسلام ليقين شكل ولا افتتان بمصدر
معرفي له الحقيقة والاكتمال»³. وإن التفت شعراء آخرون إلى النص القرآني التفتاة مميزة
عن طريق امتصاصه وإعادة كتابته، فإنهم يخافون محاورته وتحويره لأنه يظل عندهم نصا

¹ - المرجع نفسه، ص 278-279.

² - ينظر: محمد خير البقاعي، آفاق التناصية: المفهوم والمنظور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
1998، ص 57 وما بعدها.

³ - محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب: مقارنة بنيوية تكوينية، ص 267-269.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحوارى ----- أ.د. آمال لواتى مقدسا وهو منتهى البلاغة ومستقبل الكتابة¹. فقد دعا الحداثيون إلى نقد القرآن وإنكار إعجازه وإعادة قراءته قراءة حديثة باعتباره نصا أدبيا ، بل نصا بشريا ومنتجا ثقافيا لا قداسة له².

تعامل شعراء الحداثة مع النص القرآني بمفهوم تراثي يتغون منه ما يتلاءم وفكر الحداثة، وأضافوا عليه بعدا نقديا هو تغيير مقام الكلام ويسمى بالمفهوم الحدائى "سيمياء اللغة" أو "سيمياء الفعل"³. واختاروا من النص القرآنى قصصا وشخصيات وأحداثا ورموزا متعلقة بالديانات والدعوات الأخرى السابقة للإسلام والتي صاحبته خوارق عرفت في عصور المعجزات، والتي توافقت مع البعد الأسطوري الذين راحوا يسعون وراءه⁴.

3- حوارية الآية القرآنية والتحوير الشعري:

يتأتى الكشف عن تعددية المعنى في الخطاب الشعري، من تعدد المعاني الحاضرة فيه من خلال نصوص غائبة تشارك في إنتاجيته الدلالية ويصبح له حضوره الفاعل والقوي في النص الحاضر بوعي أو من دون وعي، إذ أن النص الغائب يمتلك رؤيته التي تصل إلى درجة شديدة الاتساع. أو تنحصر في إطار محدود وبالضرورة فإن النص

¹ - محمد بنيس، الشعر العربى الحديث، بنياته وإبدالاتها، ط 1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 1985، 3 / 194.

² - يعد طه حسين وزكى مبارك ونصر أبو حامد من الذين أكدوا على ذلك في مؤلفاتهم. ينظر: نقد نصوصهم. محمد حامد الناصر العصرانيون مكتبة الكوثر، ط 2، الرياض، 1422 هـ، 2001، ص 387، 388. ينظر كذلك: منى محمد بهي الدين الشافعي ، التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم، ط 1، القاهرة، دار السير، مصر، 1429هـ، ص 103.

³ - عبد الحميد جيدة، المرجع السابق، ص 75.

⁴ - ينظر: أحمد بسام ساعي، حركة الشعر الحديث في سورية، دمشق، دار المأمون للتراث، 1398 هـ / 1978 م، ص 350.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
الحاضر سوف يمتص الاتساع على إطلاقه أو المحدودية في خصوصيتها". وكان حضور
النص القرآني على هذا النحو المكثف في رأي البعض >> يتيح للشعرية أن تتشكل
علما أرضيا موازيا للعالم السماوي<<¹.

وما كان من الممكن تحقيق هذا التشكيل إلا بالانفتاح الواسع والعميق على
الخطاب القرآني لا بتضييق سياقاته في رؤية محدودة. والذي يتنامى باستحضار الحدائث
في ملاذ الغموض والمطلق والتعالي والسؤال والقلق الوجودي ونفي الحقيقة². لأن
التداخل النصي أعلن عن تعدد الوعي في الخطاب الشعري من خلال استحضار الغائب
الذي يحمل وعيه القديم الثابت ليمارس فاعليته الحدائية النصية والدلالية. ويعبر عن قلقه
الإبداعي، فهو إذن يحاول الإفلات منه والخروج عن سيطرته لتأكيد شرعية اكتماله
واستقلاليته ورؤيته ووعيه، والتي تتبعها رغبة في الانفراد بالرؤية أو الإعلان عن موقف
الرفض.

فلمتابع لشعر الحدائث " يدرك اتكاءه على وظيفة أساسية في عملية التناص وهي
محاولة امتلاك قدرات مجاوزة تتيح له ممارسة فاعليته في العالم تدميرا وتكوينا. كما تتيح
له شرعية المخالفة أو الموافقة لأي قوى فوقية أو سفلية"³. وهذه الشرعية وجدت
سندا في النص القرآني الذي لا يخلو نص شعري حدائي من استدعائه وامتصاصه
ومحاورته... وإن أدى الامتصاص إلى الذوبان فيه نتيجة لكثافة الاستدعاء والامتزاج به.
فإن الحوار أدى إلى امتزاج تناسي لغوي، يخلصه نهائيا من السياق القرآني. والذي
يفرض توفر جرأة على تشكيل هذا المقدس الديني بعيدا عن قدسيته وخارج حدوده

¹ - محمد عبد المطلب، مناورات الشعرية، ط 2، القاهرة، دار الشروق، 1417 هـ / 1996 م،

ص 54.

² - المرجع نفسه، ص 53.

³ - المرجع نفسه، ص 53.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
الأصلية المحددة في الزمان والمكان والغاية والشكل العام والأبعاد الدلالية الخاصة
والمميزة له¹. وهو في رأي بعضهم أرقى مستويات التوظيف من حيث أن نوعية
العلاقة وتميزها عن النظرة التقليدية إلى النص القرآني وطريقة تفهمه والتفاعل معه، والتي
تجعل نصوص القرآن حية نابضة لا مجرد أصوات وكلمات مقيدة الدلالة². فيقول النص
الحاضر ما لم يقله النص المعارض الغائب ويتم ذلك من خلال استعادة النصوص
السابقة في سياق جديد فتتراح دلالاتها ويتم تحويلها في قلب اللغة وبذلك تنتج الدلالة
الجديدة للنص الحاضر الذي قد يكون نائرا على دلالة النصوص المشتغل عليها أو
ساخرا منها أو مشوها لها وهذه الدلالة الجديدة التي تنتج عن تداخل النصوص لم يبع
بها النص الغائب وقد أصبحت بذلك " كتابة النص هي قراءة نوعية بوعي خاص
يتحكم في نسق النص"³. وتحدد الحوارية حسب تصنيفات جوليا كريستيفا من
خلال النفي الكلي حيث يقوم المبدع بنفي النصوص نفيا كليا دلاليا. ويكون فيه معنى
النص قراءة نوعية خاصة تقوم على المحاوره. لهذه النصوص بقلب دلالتها بطريقة تنفي
النص الأصلي، أو نفي جزئي لجزء ما في النص، أو نفي وقلب متوازي يبقى على المعنى
المنطقي بين النصين⁴. ولا يتحقق المبدأ الحواري إلا بالاعتماد على ركنين هما القارئ

¹ - أحمد زكي كنون، المقدس الديني في الشعر العربي المعاصر، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006،
ص 111.

² - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضايا وظواهره الفنية، د ت، دار الثقافة بيروت،
ص 32.

³ - محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، ص 252.

⁴ - علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط 1، الدار البيضاء، دار توبقال، ص 78 — 79.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
والخطاب، ذلك أن كل نص يحمل بذور تفكيكه، وعلى القارئ الذي أصبح طرفاً
منتجاً يقوم بوظيفة تفكيك النصوص والكشف عن بنائها¹.

ولعل أدونيس من أبرز شعراء الحداثة الذين تعاملوا مع النص القرآني تعاملًا قويًا
مارس عليه قانون الحوار والتحويل، فحواله من نص ثابت إلى نص متحول، مارس عليه
مفاهيم النفي والجدل والتقويض². تتضح لنا صلة أدونيس المباشرة بالنص القرآني بدءًا
من عنوان قصيدته "هذا هو اسمي" حيث يشير إلى أسماء الله الحسنى، وتتحول الأسماء
إلى اسم، وهو تحول يتدخل فيه قانون الحوار الذي أساسه القلب والنفي والتعارض
والحو الذي قصده الشاعر "ماحيا كل حكمة" مرتبطة بالله سبحانه وتعالى. وتضاف
إلى ذلك القدرة التي تعد من أسماء الله الحسنى: "قادر أن أعير". وتتغير الآية عن دلالتها
الدينية ليرز البيت الشعري بكتابته بخط أسود سميك ليتحول دلاليًا هو الآخر إلى آية³.
ويصبح دمه آية دلالة على انتصار بداية إسقاط فاعلية الخالق في المخلوق، ويصبح ما
يكتبه حكمة من نار بعد أن قلب الدلالة الدينية للنار التي خلقت منها الشيطان كما جاء
في قوله تعالى: "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا
فِيئَتِكَ رَجِيمًا، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ"⁴. ويصبح ما يكتبه من خلال هدم
أبجدية الخطاب القرآني وبناء خطاب مناقض ومعجز. وكانت غايته الأساسية تحويل
هذا النص الثابت إلى نص متحول بعد قلب وتحويل دلالاته:

ماحياً كل حكمة هذه ناري

¹ - رولان بارت، درس السيمولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العاللي، ط 1، الدار البيضاء، دار
توبقال، 1998، ص 81 — 82.

² - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث، 3 / 194.

³ - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث، 3 / 191 — 192.

⁴ - سورة ص / 76 — 77.

لم تبق آية دمي آية
هذا بدئي¹.

ويتعمق انتهاكه للنص القرآني المقدس من خلال فكرة موت الإله²، ففي قصيدة "مات الإله القديم"، يشير إلى قدمه بعد أن نكره (إله)، وحصر زمن ألوهيته في الماضي (كان)، وحدد مكانه الغيبي (هناك)، ووصف هبوطه من (جمجمة السماء)، مستبدلاً (الإله المنكر) بالإنسان (الإله المعروف) الذي يتمتع بوجود حقيقي في عالم الوجود لا عالم الغيب، فهو يريد رغم اليأس والمتاه والذعر والهلاك للدلالة على حالته الوجودية، تحويل الألوهية إليه ليكون هو الرب الجديد بإيجاد وجود خارق هو الوجود الميتافيزيقي الذي يقوض به الوجود الإلهي والغيبي:

مات إله كان من هناك

يهبط من جمجمة السماء

لربما في الذعر والهلاك

في اليأس، في المتاه

يصعد من أعماقي الإله

لربما: فالأرض لي سرير وزوجة

والعالم انحناء³

أراد كثير من شعراء الحدائة إدراك مكانتهم الوجودية عن طريق تجاوز مدارج الصوفية التي عرفت بالسمو والتطهر للوصول إلى المشاهدة والعرفانية. بل أرادوا

¹ - الأعمال الشعرية: 2 / 223.

² - ينظر: عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحدائة، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1999، ص38.

³ - المصدر نفسه، 1/173.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
الوصول إلى مرتبة النبوة والتأله، فالشاعر أحمد الشهاوي أراد أن يفارق طبيعته الأرضية
الإنسانية ويتهياً للنبوة واستقبال خطاب السماء باستدعاء مفردات موعلة في قرآنيته
(دثر، زميل، وحي ...):

دثر خطاي

وزمّل موتي الأول

وحي علي

ربما يتزل¹

بل يصل إلى منزلة موسى الكليم عليه السلام، ليتواصل تواملاً مباشراً مع
السماء:

يطلع من دمي ورد

يكلم الله

يأوي إلى جبل من محبة²

ويصل إلى مدارج ترقى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وحكمة موسى عليه
السلام ليتمكن من ممارسة فاعليته التغييرية في واقعة من منطلق سلطة حدثية.

اضرب البحر وامش في مسالكه

فالنور قدام

والنار تحرق قلب أيامك

وبراق وقتك مسرح³

¹ - أحمد الشهاوي، ديوان الأحاديث، السفر الثاني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993،

ص 84.

² - المصدر نفسه، ص 163.

³ - المصدر نفسه، ص 91.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
" فامتلاك البراق من خصوصيات الرسالة المحمدية التي حاولت الذات أن تحوزها
شعريا. ويصل التدرج إلى قمة مجاوزته عندما تدخل الذات دائرة المزج بين الناسوت
واللاهوت¹. بل محاولة الحلول في منطقة الإلهية من منطلق عرفاني أدى إلى تحريف
النص القرآني " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"² إلى:

قل أنا واحد.

وموتي مبتدأ للدخول³

يعلن الوحدة

يملك العرش له كل شيء⁴.

فحل الشعري محل الديني والإنساني محل الإلهي والأرضي محل السماوي. وأصبح
الإنسان يود معانقة الفعل الحر والتمرد على إله متسلط لأنه أغرق العصاة (وتعالى الله
عن ذلك). فبدأ بإلغاء وجوده بعد التمرد على فعله والاستهانة بأمره على حد تعبير
أدونيس "إذا كان الإلحاد نهاية الوحي، فإنه بداية موت الله أي بداية العدمية افعَل لا
تفعل حلت محلها أفعَل، أريد، فلا أمر ولا نهي مسبقان"⁵.

ومن هذا المنطلق العقدي تحولت صورة الشيطان من الصورة القرآنية إلى
الصورة الشعرية الحدائيه. فالنص القرآني في أكثر من آية ومشهد وأسلوب يبرز
شخصية الشيطان أو إبليس خارجا عن أمر ربه، خالعا ثوب الطاعة رجيما ملعونا
عدوا للإنسان. كما نقرأ قوله تعالى: "قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ

¹ - محمد عبد المطلب، مرجع سابق، ص 298.

² - سورة الإخلاص/ 1.

³ - المصدر نفسه، ص 116.

⁴ - المصدر نفسه، ص 167.

⁵ - الثابت والمتحول، 1 / 90.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
 مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ، قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ"¹
 وقد وردت ملامح وسمات الشيطان عبر القرآن الكريم في مواضع قرآنية كثيرة منها
 خلق آدم وحكمة الخلق والأمر بالسجود وسببه ومغزاه وطاعة الملائكة وعصيان إبليس
 وسبب عصيانه وعقابه. ولذا عندما "نقرأ كلمة مثل الشيطان فإن علاقات الغياب التي
 تفجرها هذه الكلمة تطرح في أذهاننا تصورا راسخا في الوعي الجمعي يتمثل في أنه
 مذنب، مكروه، مطرود، من رحمة الله. وقد تأتي علاقات الحضور في النص لتقوم بدور
 مشوش على هذه الدلالة. وفي مثل هذه الحالة تكون علاقات الغياب محددة وعلاقات
 الحضور مشوشة على غير ما هو مألوف"² يخالف الشاعر أمل دنقل هذه الصورة
 القرآنية للشيطان في مطلع قصيدته "كلمات سبارتكوس الأخيرة":

المجد للشيطان معبود الرياح

من قال لا في وجه من قالوا نعم

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال لا فلم يمت

وظل روحا أبدية الألم.³

إن الشاعر رسم ملامح أخرى مناقضة ومعاكسة لملامح الشيطان الحقيقية هل
 يمكن أن نعتبر الشيطان القبيح السيئ، رمزا للثائر الحر والبطل، وقد ثبتت الصورة
 المؤكدة للشيطان ونضع مكانها صورة البطل المناضل المطالب بالحرية والعدل. كثرت
 تأويلات هذا النص الشعري على أنه تمرد الشاعر على الأوضاع المعاصرة له، جعله يجد
 في الشيطان وجها إيجابيا هو أنه استطاع أن يقول لا في وجه كل من قالوا نعم. فإذا

¹ - سورة الحجر / 33 - 35.

² - أحمد مجاهد، أشكال التناص الشعري، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 389.

³ - الأعمال الشعرية، القاهرة، مكتبة مدبولي، د. تا، ص 147.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
كان الشيطان رمز للرفض والتمرد لكن في مواجهة من؟ في مواجهة الله الحق العدل.
وفي مواجهة القيم العليا¹.

لقد ناقض القرآن حين صور الشيطان بصورة تدل على الإعجاب والتقدير،
واختار صورته التي وردت في القرآن الكريم عبر موقف محدد هو رفضه طاعة أمر الله
بالسجود لآدم بينما سجد جميع الملائكة، "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"². وإن أكد الشاعر هذا التفسير في آخر
المقطع الشعري "من قال لا في وجه من قالوا نعم"، وفي موضع شعري آخر "الله لم
يعفر خطيئة الشيطان حين قال لا"³.

كما أن الشيطان عند أدونيس أصبح ممجدا ثائرا، وإن أكد على أنه رجيم
خارج عن إرادة الله:

للإله الذي يتمزق

في خطواتي

أنا مهيار هذا الرجيم

.....

يجب شقاءه

ويبارك حتى الجحيم⁴.

وتجاوز أدونيس الله والشيطان وألغى من خلاهما الجنة والنار، والخطيئة

¹ - ينظر: جابر قميحة، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، ط1، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر

1407هـ/1987م، ص 229.

² - سورة البقرة / 34.

³ - المصدر السابق، ص 149.

⁴ - الأعمال الشعرية ، 1 / 237.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
والسقوط، والتحمت عنده لحظة انتهاك القداسة بموكب الصاعقة المضيئة حيناً
والخضراء حيناً آخر، بل راح يختار طريقاً أبعد من الله والشيطان، هو طريق الإنسان/
الإله الجديد، فكلاهما في رأيه جدار، يُعبّر بذلك عن رفضه المطلق لهما:

أعبر فوق الله والشيطان
دربي أنا أبعد من دروب
الإله والشيطان
أعبر في كتابي
في موكب الصاعقة المضيئة
في موكب الصاعقة الخضراء
أهتف، لا جنة، لا سقوط بعدي
وأحو لغة الخطيئة ...
لا الله أختار ولا الشيطان
كلاهما جدار
كلاهما يغلق لي عيني
هل أبذل الجدار بالجدار¹

4-الدلالات القرآنية والمعارضة الشعرية الساخرة:

المعارضة تدل لغويًا على المحاكاة والمحاذاة لأي صنع أو فعل، وقد سوغ النقاد
العرب على المحاكاة الشعرية اسم المعارضة والتي تقابلها المناقضة وهي تعني المخالفة،
وتكاد تتطابق مع المفاهيم النقدية الغربية للمعارضة والتي تعني أن عملاً أدبياً أو فنياً
يحاكي فيه مؤلفه كيفية كتابة أو أسلوب ليقنّدي بهما أو ليسخر منهما، وحدد هذا

¹ - المصدر نفسه ، 1/177 — 178.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
الجزء الأخير بالمعارضة الساحرة أو التقليد الهزلي أو الوظيفة¹، وهناك أيضا من اعتبرها
المحاكاة الساحرة في مقابل المحاكاة المقتدية في ضوء أشكال التناص الحواري².

واتضح هذا على مستوى نصوص الشعراء الحدائين. فقد برز النص القرآني في
عناوين نصوصهم أو دواوينهم الشعرية ليحمل بذلك دلالة خاصة باعتبار العنوان العتبة
الأولى لفهم النص. بل هو نقطة انطلاق كل تأويل له في رأي بعض الدارسين والمحدد
لهويته عند البعض الآخر³. فاختيارهم لم يكن اعتباطيا بقدر ما كان مجسدا لرغبتهم في
جعله معبرا عن تصوراتهم ومواقفهم فعكست تلك العناوين انتماءاتهم الفكرية
والسياسية. وكشفت عن جرأتهم في تجاوز حدود التقديس بعد شحنها " بدلالة قوية
قابلة للانفجار على أرض النص باعتبار العنوان اللغم الذي سيفجر بقية الألغام الممتدة
عبر النص كله"⁴. مثل عناوين تحمل اسم الله أو الرب أو الإله: أمام باب الله، أغنية إلى
الله، إله يحب شقاءه، الإله الميت ... أو ما تحمل من أسماء للأنبياء والرسل عليهم
الصلاة والسلام، أو ما يتعلق ببعض مفردات القرآن الكريم من أسماء وسور: نوح
الجديد، آدم، مقتطفات من خطاب نوح بعد الطوفان، من حوليات يوسف في
السجن، أيوب المعاصر، سفر أيوب، قالوا لأيوب، من عذابات محمد، ملائكة
وشياطين، قرآن الياسين والموت، ما تيسر من سورة الموت ...⁵.

¹ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان
الدار البيضاء المغرب، ص 121-122.

² - ينظر: نتالي بيبقي غروس، مدخل إلى التناص، ترجمة عبد الحميد بورايو، دار نينوى سوريا
دمشق، 2012، ص 75-76.

³ - محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1987، ص 72.

⁴ - أحمد زكي كنون، المقدس الديني في شعر العربي المعاصر، ص 82.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص 84-85.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
وتبين أنه ليس ثمة براءة أو نية صادقة وراء إرسال العنوان دون خلفية تنطق
بأسرار ومعان تعمل على مراوغة المتلقي واستفزازه بوضعه أمام صورتين تطالبانه
بالتفسير والتأويل كإيجاد علاقة نوح النبي ونوح الحديد وبين أيوب النبي وأيوب
المعاصر¹.

حملت بعض القصائد عناوين تشير بوضوح إلى النص القرآني أو تصديرها ببعض
أجزاء من الآيات بحرفيتها أو في مقاطعها بمفردات وتراكيب قرآنية أو استبدال يتم عن
طريق النص الشعري من خارج النص المرجعي المقدس ببعض الكلمات الموازية أو
المعارضة . فقد يتأسس على النص السابق القرآني ويفترق عنه في دلالة الشعرية
اللاحقة. ويؤكد خصوصيته واستقلالته الحدائية، الأمر الذي يؤدي إلى حذف بعض
الكلمات والجمل من النص السابق. وإضافة كلمات وجمل جديدة تؤدي إلى دلالات
جديدة. من منطلق أن عملية التناص لا بد أن تؤدي إلى إنتاج نص جديد. وذلك
بتحويل النص الديني عبر الاستبدال من خلال قانون القلب الذي يغير دلالة النص
المرجعي بل ينفيه نفيًا كليًا فيناقضه ويتمخض عن ذلك نص جديد². إذ يعنون الشاعر
الفلسطيني عز الدين المناصرة أحد نصوصه بهذه الصيغة " جفرا لا تُؤاخذنا إن نسينا أو
أخطأنا³..وهي صيغة متناصة من النص القرآني "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا"⁴.

¹ - المرجع نفسه، ص 83-84.

² - محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، دمشق، إتحاد الكتاب العرب، 2002، ص
145.

³ - عز الدين المناصرة، جفرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 5.

⁴ - سورة البقرة 284/285.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
وقد استبدل فيه لفظ ربنا بلفظ "جفرا" وهي قرية فلسطينية ينتمي إليها الشاعر،
وأسند فعل المؤاخذة لفاعل جديد هو جفرا التي ألهمها وأعطاهها شرعية مؤاخذة الإنسان
حيث يصبح المكان هو الله الذي يعاقب ويجازي.

يتشبه النص الشعري بالقرآني، بل يتكئ عليه مشتركا لغويا دلاليا في حين يتراح
بدلالته نحو رؤيته ومواقفه. وتعمق المفارقة بإلغاء البعد الديني وتأكيد البعد السياسي و
التاريخي أو الوجداني والعاطفي. وذلك في إطار عملية الانزياح التي حملت بتداخلاتها
الاصطلاحية (الانحراف، الانتهاك، الخرق، العدول)¹ ... بعدا أخلاقيا يتجاوز سلطة
اللغة المرجعية والدلالية ليعتد بانزياحها. إذ يتراح الشاعر أحمد الشهاوي عن السياقات
القرآنية ويحرفها بتأويله السليبي واختراعه سياقات شبيهة بالسياق القرآني. ويتعمد
وضعها بين قوسين ليوهم بقداستها، بدءا من بعض عناوين دواوينه التي أفصحت عن
هذا التناص. "ركعتان للعشق"، "كتاب العشق"، "قل هي". وقد حول معناها رغم
ظاهرها اللغوي من المعنى الديني المقدس إلى المعنى الدنيوي فممن تعظيم وتمجيد الذات
الإلهية إلى تأليه الذات الشاعرة وذات المرأة المعشوقة. كما في ديوان "قل هي"، حيث
تحولت سورة التوحيد "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"² من فضاء القداسة العلوية إلى تأليه المرأة
المعشوقة التي يشهد لها بالربوبية والفردانية ويسقط عليها كل صفات الألوهية. ثم يفتتح
الديوان بإعلان مكان وزمان نزول نصه ديوان "قل هي" في دمشق والقاهرة بتواريخ

¹ - ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ط 2، تونس، الدار العربية للكتاب، 1982،

ص 100-101.

² - سورة الإخلاص/1.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
محددة تعني الشاعر¹، بتقليد ساحر لأسباب التزول المكّي والمدني. ثم بدعاء: اللهم أمتني
بين هُدين² ثم يجعل تلك المرأة فاتحة الكتاب:

أنت الكتاب الذي به

أنا أبدأ وفاتحة لأحوالي³

ثم راح يضيفي القداسة على الديوان من خلال عناوين جاءت أغلبها من فواتح
وبدايات لسور قرآنية: ألف لام ميم، ألف لا ميم صاد، ألف لام راء، نون، طاء سين
ميم، حا ميم⁴.

كما خرجت كثير من المفردات القرآنية في هذا الديوان عن دلالاتها كالقرآن
والهدى والمعجزة والصلاة والعبادة والسجود والركوع وغيرها ... واستعملها في
السياق التناصي بغير معانيها القرآنية، مثل هذه المقاطع الشعرية:

إلاك لا أرى أحد.

غبت

لما دنا خيط نارك مني

وكل شيء في قد سجدا ...⁵.

لأني أرتل قرآن سرك

وأمشي على هدي فوضاك ...

معجزة الجيم التي هي كونك¹.

¹ - ينظر: ديوان "قل هي"، ط 1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2000، ص 7.

² - المصدر نفسه، ص 9.

³ - المصدر نفسه، ص 53.

⁴ - المصدر نفسه، ص 23، 33، 59، 73، 103، 117.

⁵ - المصدر نفسه، ص 27.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي

أنا عابد ما عبدت

وشارد في مدارك

ديني خطوة نحو صوتك

ومعتقدي حرفك الفاتح لي

سنتي سُررتك

ومذهبنا بابنا للنبوة

وصلاتي فتوح من دمك².

كما استخدم أدونيس هذا النمط من المعارضة الضمنية التهكمية الساخرة في تضمين نصوصه الشعرية بدايات من نصوص القرآن الكريم جعلها خواتم لقصائده مثل خاتمة قصيدته "الفضاء ينسج التأويل":

ألف لا ميم

ذلك الكتاب

لا ريب، لا ريب³.

أو تتوسط أسطره ومقاطعة الشعرية هذه البدايات القرآنية (حم، ألم، طسم...) التي لها دلالتها الإعجازية. ومما رُوي عن ابن عباس أنه سئل عن ألم، وحم، وطسم، وغير ذلك مما في القرآن من هذه الحروف. فقال: ما أنزل الله كتابا إلا وفيه سر، وهذه أسرار القرآن⁴:

ولست أنا من ينطق بها

¹ - المصدر نفسه، ص 121،

² - المصدر نفسه، ص 128.

³ - الأعمال الشعرية، 3 / 179.

⁴ - قدامة بن جعفر، نقد النثر، بيروت، المكتبة العلمية، 1980، ص 62.

بل

حم ألم

ولست أنا من يكتب¹.

كما بالغ في تقليد النص القرآني من قبيل هذه المعارضة الساخرة بأسلوب مدعي النبوة:

نون والقلم وما يسطرون

تطاول الليل علينا دمّون

دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون².

مزج الشعراء النص القرآني بنسيج الخطاب الشعري وهو امتزاج يكاد يتخلص نهائيا من السياق القرآني، أرادوا بذلك أن يشكلوا عالما أرضيا موازيا للعالم السماوي من خلال سياقاته المتصلة بالمعنى الروحي والتعبدي. إذ تم عزل مفهوم الجنة التي لا يمكن أن تدانيها أي جنة أرضية عن السياق القرآني المرتبط بمعاني الرحمة والتوبة والجزاء والتكريم والجمال والطهر وعالم الخلود لترتبط بالبعد الأرضي المادي والديني، كالخضرة والظل واللذة والمتعة. حيث تحضر هذه الصورة المادية عند الشاعر عبد المنعم رمضان من خلال استعمال النص القرآني بحرفيته منتقيا دوالا لغوية قرآنية من سور الإنسان³ والواقعة⁴ والرحمن⁵: (رفارف خضر، فاكهة، رمان، الحور المقصورات، السدر المخضود، الطلح المنضود، ظل ممدود، الوالدان، أكواب، وأباريق...)، يقول:

¹ - المصدر نفسه، 3 / 407.

² - المصدر نفسه، 3 / 486.

³ - سورة الإنسان / 13، 14، 15.

⁴ - سورة الواقعة / 17، 18.

⁵ - سورة الرحمن / 68، 72، 76.

قلنا: يا ناريمان ... اتكفي فوق رفارف خضر ...

فاتكأتِ واقتطفي من فاكهة الجنة رمانا وهبيبي
أقطف من فاكهة الجنة رمانا فاقتطفت، واتخذي من
كلمات الله غطاء مثل البحر إذا ما نفذ البحر فليست
تنفذ فاتخذتِ، وانتظري الحور المقصورات يظفن
حواليك، ويششن، ولا ينطقن بلغو أو تأثيم
يأتيهن النبق من الصدر المخضود، ويأتيهن الشوق
من الطلع المنضود، وتأنس أرجلهن إلى ظل ممدود
ثم يطوف عليهن الولدان، وفوق رؤوسهمو (كذا) وفاكهة
لا تنقطع ولا تمتنع وفوق أياديهم أكواب وأباريق¹

ويبدو في مواضع أخرى أن أدونيس يجاور النص المقدس كأنه في اتجاه التوافق معه وعدم معارضته، لكنها في الواقع معارضة ضمنية تحمل طابعا تمكيميا ساخرا مثل تضمينه هاتين الآيتين الكریمتين: قوله تعالى: "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ"²، وقوله أيضا: "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا"³. ساخرا بذلك من الجنة التي صورها القرآن الكريم (الأرائك، الولدان المخلدون، أكواب الفضة)، وهي مكانة المؤمنين المقربين، مستعينا بدعاء ساخر ضمني:

ربي هبني موضعا مباركا لعبدك الدليل

هبيئ مقعدا منعما أكوابه من فضة

وذهب، ولدانه مخلدون

¹ - ديوان الغبار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ص 27 — 28.

² - سورة الواقعة/ 17-18.

³ - سورة الإنسان/ 15.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
هبنى الخلود في جوارك الحبيب، يا إلهي¹.

إن الإسلام يخالف النصرانية، فهو لا يعتقد بنظرية الإثم والفداء والخطيئة التي جاء المسيح ليفتدي البشرية بها. كما أنه ينفي فكرة تقمص الإله في الإنسان، وفكرة الصلب، وفكرة قيامته من الموت. إن القرآن الكريم أكد الولادة المعجزة للمسيح وأنه كلمة من عند الله، كما أكد معجزاته، فيقول تعالى: **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ**²، ويقول أيضا: **"وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ"**³.

لكن شعراء الحداثة — ومنهم الشعراء المسلمين — خالفوا النصوص القرآنية ووظفوا المعاني المسيحية المتصادمة مع المعتقد الإسلامي والمفاهيم الدينية الصحيحة التي ساهموا — هي أيضا — في تحريفها وتزييفها ودمجها في كيان القصيدة العربية⁴. ومن أبرز أسباب التركيز على النص الإنجيلي — في رأي البعض — هو المناخ الفكري الإليوتي الذي نشأت فيه القصيدة الحداثية وهو يحوي البعد العقدي الكاثوليكي، والتقاء النص التوراتي والمسيحي في معظمه بالنص الأسطوري الإغريقي⁵. فأسطورة سيزيف وبرومتيوس — مثلا — تتفق مع الرموز المسيحية اتفاقا كبيرا، فهي «تشبه في أكثر من

¹ - الأعمال الشعرية، 2 / 78.

² - سورة آل عمران / 45 - 46.

³ - سورة النساء / 157.

⁴ - ينظر: أحمد بسام ساعي، المرجع السابق، ص 348 كذلك: محمود محمد شاكر، مفاهيم غير إسلامية في الشعر الحديث، مجلة "الأدب الإسلامي" السعودية، 1م، ع 3 / 1994، ص 73 وما بعدها.

⁵ - أحمد بسام ساعي، المرجع السابق، ص 348-349.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
نقطة قصة صلب المسيح عليه السلام وبعثه حسبما يعتقد المسيحيون وما ورد في
الأناجيل الأربعة لديهم¹.

حيث أكثر شعراء الحداثة من استلهام شخصية المسيح عليه السلام وحداثة
الصلب استلهاما ملائما للفهم النصراني ومنافيا للمفهوم القرآني وتأكيده للتعبير عن
الآلام والتضحيات والإيحاء عن معاني التقديس والعبادة وهي خارجة عن عقيدة بعض
الشعراء المسلمين امثال صالح عبد الصبور وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي
ونزار قباني ومحمود درويش، "فاحتدوها دون تفكير عميق فيما تعنيه من الزاوية
الدينية"². مثل هذه النماذج:

وطني لم يعطيني حيي لك غير أخشاب صليب³

أنا هنا وحدي على الصليب⁴

مثل المسيح عن الصليب⁵

أنا مصلوب والحب صليبي⁶

ويستعير الشاعر بدر شاكر السياب هذه الحادثة الوهمية الأسطورية ويسقطها
على شخصية النبي عليه وسلم:
محمد النبي في حراء قيدوه

¹ - علي عبد الواحد وافي، الأدب اليوناني القديم، القاهرة، 1960، ص 195.

² - إحسان عباس، بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، بيروت، دار الثقافة 1972، ص 306.

³ - ديوان محمود درويش، بيروت، دار العودة، 1977، 1/ 108.

⁴ - ديوان عبد الوهاب البياتي، بيروت، دار العودة، 1972، 1 / 301.

⁵ - المصدر نفسه، ص 334.

⁶ - ديوان صلاح عبد الصبور، بيروت، دار العودة، 1972، 1 / 124.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي

فسمر النهار حيث سمروه

غدا سيصلب المسيح في العراق

ستأكل الكلاب من دم البراق¹.

5-أسطورة القصة القرآنية:

تنفرد القصة القرآنية بأنها بُنيت بناءً محكما من لبنات الحقيقة المطلقة²، وقد قال تعالى مخاطبا النبي الكريم: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ"³. وقال جل وعلا أيضا: "إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"⁴. الحكيم⁴. لكن اتجهت كثير من الآراء النقدية إلى أسطورة القصة القرآنية، بل أكدوا أن القصة الأسطورية موجودة في القرآن الكريم، كما يعتبر آخرون سائر القصص الدينية الصحيحة من قبل القصص الأسطورية⁵.

إن التناص الحواري لا يهدف إلى تأكيد مبدأ تراكم المعرفة فيسعى المبدع إلى حشد هذه النصوص المشاهدة أو المخالفة. وإنما يعيد بناءها وتنظيمها وإبراز بعض العناصر منها وإخفاء أخرى تبعا لمقصدية المنتج⁶. فيستوحي قصة قرآنية أو شخصية أو

¹ - ديوان بدر شاكر السياب ، بيروت ، مكتبة الحياة، 1969، ص137.

² - ينظر: عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منظوفه ومفهومه، ط 2، بيروت، دار المعرفة، 1395 هـ / 1975 م، ص 39 — 40.

³ - سورة يوسف/3.

⁴ - سورة آل عمران / 62.

⁵ - من بين هؤلاء الدارسين ينظر: محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، ط 4، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1972، ص 42. صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، ط 9، بيروت، دار الطليعة، 2003، ص 55 وما بعدها.

⁶ - محمد مفتاح، دينامية النص، ص 124.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
أو أحد مواقفها ويجردها من القداسة التي اكتسبتها باعتبارها وحيا متزلا. ويتعامل معها
تعامله مع الشخصيات والحوادث التاريخية التراثية والأسطورية، فيحملها ما يريد من
معان ومضامين متعارضة مع المضمون الأصلي للسياق القرآني، حيث يخرج
الشخصيات القرآنية عن حضورها الحقيقي. بمنحها صفات تجريدية غير مألوفة، ويُلغى
بعدها الديني والإنساني والتاريخي والكوني عن طريق التحويل الأسطوري، ويخرج
الحوادث القرآنية عن السببية الإلهية، وإدخالها إلى السببية الأسطورية. وهذا الاستبدال
الأسطوري بما هو مفارق للدين والتاريخ والواقع، هو مظهر من مظاهر التحديث عند
الشعراء الذين اعتنقوا الأسطورة طقوسا شعرية وعبادية، واعتبروها حلولا حضارية
للتعبير عن قحط الحياة العربية الإسلامية، بالعودة إلى البراءة والطفولة والطبيعة، بل
راحوا يصنعون أسطورتهم الخاصة، وذلك بمنح اللغة الشعرية النبرة الأسطورية الفاعلة
والمفجرة¹. ومن إحدى تجليات فاعلية التناص الحواري استدعاء الشعراء الحدائين
لشخصية قرآنية ما، وإجراء عملية تناصية معها في أقوالها وأفعالها أو مواقفها وأفكارها،
وإقامة معها علاقة مناقضة وتضاد على الرغم من استحضارها²، وذلك بإبعادها عن
محتوى المعجزة بفعل الأسطورة، بعد اختياريهم كثيرا من قصص الأنبياء التي تكررت
بشكل لافت في شعرهم (آدم، نوح، يوسف، موسى، أيوب، سليمان، أهل
الكهف...).

¹ - وليام ك ويمزات، وكانظ بروكس، النقد الأدبي: تاريخ موجز، ترجمة حسام الخطيب ومحيي
الدين صبحي، دمشق، 1976، ص 22.

² - محمد على كندي، الرمز والقناع، ط 1، بيروت، دار الكتب الجديدة المتحدة، 2003، ص 366.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
نجد في قصيدة "مقابلة خاصة مع ابن نوح"¹ للشاعر أمل دنقل، أن ابن نوح
الذي عصى ربه ورفض ركوب السفينة فغرق، قد تقمصه الشاعر واتخذه قناعا يحكي
من خلاله أحداث القصة وشخصياتها برؤية جديدة. وإذا رجعنا إلى قصة الطوفان في
القرآن الكريم مفصلة في سورة "هود"²، والتي كانت تجسيدا حقيقيا لفشل الاعتصام
بأية قوة في مواجهة الإرادة الإلهية.

نجد الشاعر لم يعارض ابن نوح، بل اتفق معه في موقف الرفض، فلم يركب
السفينة بل حاول مقاومة الطوفان. ناقض القرآن في سبب الطوفان وهدفه، إنه في
القرآن عقاب من الله لقوم نوح حين كذبوه وكان هدفه تطهير الأرض من الكافرين
وشروهم. أما عند الشاعر فهو كارثة تحيق بالوطن وتغرق مظاهر الحضارة.

وإذا انتقلنا إلى العنصر الآخر من عناصر القصة وهو السفينة التي كانت وسيلة
لنجاة المؤمنين وانتقالهم إلى حياة الإيمان والأمان لكن السفينة عند الشاعر كانت وسيلة
لفرار الحكام والخونة والفاستدين من الوطن بعد أن أغرقوه بالطوفان وبترتب على هذا
التغيير لصفة السفينة، تغيير لصفة ركبائها، والغارقون المكذبون بدعوة نوح عليه السلام
تحولوا عند الشاعر إلى شرفاء ووطنيين ترتب عليه في كل العناصر السابقة - تناقض
ضمني في صفة نوح عليه السلام. إن النبي صاحب الدعوة تحول لدى الشاعر إلى رمز
للحكام الفاسد، الذي حمل تلك الشذمة من الجبناء والخونة والمستهترين في سفينته:

جاء طوفان نوح

¹ - درست مفصلة في: جابر قميحة، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل؛ وإخلاص فخري عمارة،
استلهم القرآن في شعر أمل دنقل، القاهرة، دار الأمين، 1977.

² - سورة هود: /40 - 46، ومواضع أخرى في سورة الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، الشعراء،
الصفات، نوح. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، دار
الحديث، 1988.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي

ها هم "الحكماء" يفرون نحو السفينة
المغنون — سائس خيل الأمير — المرابون —

قاضي القضاة

ومملوكه

حامل السيف

راقصة المعبد ...

جباة الضرائب — مستوردو شحنات السلاح ...

جاء طوفان نوح

ها هم الجبناء يفرون نحو السفينة¹.

فاين نوح كافر عاص من زمرة الكافرين الضالين. أما في نظر الشاعر فهو من
الشباب المخلصين الذين يحاولون إنقاذ الوطن من محنة الطوفان، فرفض الهروب تضحية
بالنفس من أجله، حيث أخرج الشاعر ابن نوح من مقام العصيان إلى مقام الدفاع عن
الوطن:

يلجمون جواد المياه الجموح

ينقلون المياه على الكتفين

ويستبقون الزمن

يبتنون سدود الحجارة

علمهم ينقدون مهاد الصبا والحضارة

علمهم ينقدون ... الوطن².

¹ - الأعمال الشعرية، ص 466.

² - المصدر نفسه، ص 467.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
أما الجبل الذي آوى إليه ابن نوح في القصة القرآنية كان مجرد مكان لا حيلة
له ولا قوة لذلك لم يعصم الكافر المتمرد من أمر الله - ولقد تحول إلى رمز لقوة
الشعب، لا لرمز قوة الحق التي أغرقته مع كل شيء لأن قضاء الله بالطوفان كان يهدف
إلى تطهير الكون:

نتحدى الدمار

ونأوي إلى جبل لا يموت

يسمونه الشعب

نأبي الفرار

ونأبي التروح¹.

وفي قصيدة أدونيس "نوح الجديد" صور ذاته كأنه قوة قادرة على التغيير، فبدل
بذلك مفاهيم الطوفان، فلم يعد الموت من جرائه كفرا وجحودا، بل مغامرة في العالم
الآخر لاكتشاف الغيب. ومنح قصة الطوفان بعدا عبثيا وجوديا. فأدونيس — نوح
الجديد — قدم خطابا شعريا مغايرا للخطاب الديني المقدس، حيث أعاد صياغة المشهد
القرآني في قالب وجودي يعيد الاعتبار للعصاة والمتمردين الذين عاقبهم الله بالموت
غرقا. فأعلن رفضه وعدم إصغائه لأمر هذا الإله:

لو رجع الزمان من أول

وغمرت وجه الحياة المياه

يقول لي يا نوح أنقذ لنا

الأحياء لم أحفل بقول الإله

ورحت في فلكي أزيح الحصى

¹ - المصدر نفسه، ص 468.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي

والطين عن محاجر الميتين
أفتح للطوفان أعماقهم
أهمس في عروقهم أننا
نعبره نمضي إلى منتهاه
نمضي ولا نصغي لذاك الإله
تقنا إلى رب جديد سواه¹.

ويقرّ أدونيس بغربته في هذا الواقع، لذا فإنه يتوق إلى الابتعاد والانفصال وهو في حالة تيه وسفر دائم، ويغدو نوحا غريقا على الرغم من أنه نجا من الغرق كما قال تعالى: "فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ"². «حيث يلجأ إلى العبث في البنيات القارة، فيقلب الأمور ذات الصبغة الثابتة التي تم التسليم بها على نحو حاسم»³. وتجلت من خلال صورة نوح الغريق فلسفة أدونيس الوجودية:

يدي هنا غريبة ووجهي
مسافر
والموت من رياحي
ونوح في سفيني غريق
يدي هنا غريبة، غريب
وجهي ...
شراعي الغربية

¹ - الأعمال الشعرية، ص 1/303 - 304.

² - سورة العنكبوت / 15.

³ - محمد حسين قاسم، الإبداع ومصادره الثقافية عند أدونيس، ص 223.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
لكل يوم متاهة¹.

ويريد الشاعر في أكثر من موضع شعري أن يخترق الحدث القصصي القرآني
ليجاوله إلى رسم ما يريد، فرفض الأمان والسلام مقابل استمراره في المخاطرة
والمغامرة، كما رفض القرار في الأرض مناشدا قرارا سحيقا يظل يبحث عنه متعلقا
بشراع السفينة رمز السفر اللاهوائي:

اذهبي لا نريدك أن ترجعي يا حمامة
إنهم أسلموا لحومهم للصخور
وأنا ها أنا أتقدم نحو القرار السحيق
عالقًا بشراع السفينة².

كما يختار أدونيس إحدى آيات القرآن الكريم: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ"³، ليوظفها في قصيدته "موت"، عن رحيل والده الذي مات محترقا بالنار،
حيث اتجه بها إلى اتجاه معاكس منح نصه بعدا أسطوريا حيث يؤكد أسطورة الفينيق
النارية وفكرة الموت والانبعث فيعادل والده الذي مات حرقا بطائر الفينيق الذي يبعث
بعد احتراقه بالنار بل يبعث من والده المحترق إلها للخصب . حيث يغيب الأب. ليعود
مجددا في صورة الإبن ويعاكس الصورة الماثلة لمعجزة إبراهيم عليه السلام ويثبت
أسطورة الفينيق ، معارضا بذلك إيجاء الآية التي تعد رمز الكلمة التي تبطل كل قول لأكما
الكلمة العليا التي لا ترد، محولا بذلك قدرة الله عز وجل التغييرية إلى ذات الإنسان،
وهي ذاته هو:

يا لهب النار الذي ضمّه

¹ - الأعمال الشعرية، 1/124.

² - المصدر نفسه، 1/285.

³ - سورة الأنبياء / 69.

لا تك بردا، لا تترف سلام
في صدره النار التي كُورَتْ
أرضا عبدناها وصيغت أنام
لم يَفِنُ بالنار ولكنه
عاد بها للمنشأ الأول
للزمن المقبل¹.

تحدث قصة أهل الكهف عن فتية لجأوا إلى الكهف هروبا من ظلم ملكهم. حيث ناموا مدة طويلة وحين استيقظوا ظنوا أنهم ناموا ليلة واحدة فقط فأرسلوا أحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعاما. فانكشف أمرهم وسقطوا ميتين. وقد قال تعالى عنهم: "إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى"². حيث عاشوا صراعا مريرا بين قيمهم وما كان سائدا في مجتمعاتهم، وكان الحل في معجزة نومهم "فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا"³. ثم بعثوا من بعد نومهم: "ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا"⁴. وردت القصة في القرآن الكريم لتقدم الموعدة والاعتبار بما حدث للأقوام السابقة، وذلك من خلال ما أكدته التفاسير. ومالت إلى الإيجاز والتكثيف وكانت أقرب إلى الإخبار والتاريخ منها إلى القصة الفنية. ولكن أضيف إلى

¹ - الأعمال الشعرية، 1/117.

² - سورة الكهف / 13.

³ - السورة نفسها / 11.

⁴ - السورة نفسها / 12.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
هذه القصة على المستوى الشعري أو حتى الروائي تفاصيل وأحداث وأفعال سردية
أخرى¹.

استعار الشاعر خليل حاوي عنوان قصيدته "الكهف" من النص القرآني (سورة
الكهف) التي أكدت حقيقة الانبعاث بعد الموت، إلا أن كهف حاوي عبارة عن ليل
متحجر، وصحراء قاحلة، وزمن متجمد تتحول فيه الدقائق إلى عصور، ليظل في سجنه
الوجودي:

وعرفت كيف تمط أرجلها الدقائق
كيف تجمد، تستحيل إلى عصور
وغدوت كهفا في كهوف الشط
يدمغ جبهي
ليل تحجر في الصخور².

وإن كان نذير العظمة أكثر استثمارا لقصة أهل الكهف كما أخبرنا عنها
القرآن الكريم، بدءا من عنوان قصيدته التي حملت اسم السورة نفسها (أهل الكهف)
لتجسيد معجزة البعث بعد الموت كما ورد في السياق الأصلي للسورة القرآنية:

نحن أهل الكهف خلف الصور
والغربة في ترحالنا

لا تضيء النار غير النوم في أجفاننا
آه من يهتك عن أعيننا سر الحجاب³.

¹ - عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث المكاني، ط1، المركز الثقافي
العربي، بيروت، 1992، ص 50 وما بعدها.

² - ديوان خليل حاوي، بيروت، دار العودة، 2001، ص 305.

³ - نذير العظمة، الخضر ومدينة الحجر، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1979، ص 22.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
لكن الشاعر يُخرج نص القصة من بعدها القرآني إلى البعد الأسطوري، إذ ترك
الانبعاث المعجز كما حصل لأهل الكهف وربطه ببعث تموز إله الخصب المرتجى الذي
يجسد دورة الحياة والموت، لا الله سبحانه وتعالى. ويتعد النص عن الجانب الإيجابي
الممتليء بالعبارة حين يجعل الفعل المعجز فعلاً أسطورياً:

من تُرى غيرك يا تموز يا سر التراب

يسكب الشمس لهيب الشمس واليقظة في أعراقنا

يصهر الصورة وسدّ الليل في أطرافنا؟!¹

ويربط قصة الكهف بالبعد الوجودي المختزل في "الأرض الخراب" لإليوت

ليعلن اغتراب الجيل الجديد (أهل الكهف):

أيها الطارق يا من تقرع الأبواب

المقيمون هنا في ليلنا أغراب

خلف سور النوم من يعمر في يقظتنا الأرض الخراب؟!²

وتقوم قصيدة "السماء الثامنة" لأودنيس على حدث ديني مقدس مستوحى من
رحلة الإسراء والمعراج الواردة في سورتي "الإسراء" و"النجم"، وإن مزجها بنصوص
تراثية أخرى تداخلت معها. هذه الرحلة الغيبية التي تجاوزت حدود المرئي والمحسوس،
وكسرت حدود الزمن، وأبانت عن قدرة الله سبحانه وتعالى، حيث تقمص الشاعر
شخصية الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) في عروجه إلى السماء والتقاءه
بجبريل ليخرج بعدها من العالم الغيبي إلى عالم المتخيل الشعري:

ها هو بيت المقدس

المعراج

1- المصدر نفسه، ص. ن.

2- المصدر السابق، ص 21.

يمد لي

يجيئني جبريل

بأكؤس ثلاث¹ ...

ولفني جبريل وابتدأنا

نصعد في أدراج

من ذهب وفضة

من لؤلؤ أحمر كالقטיפه² ...

وانطلق الرفرف صار يعلو

وحطني في حضرة الإله - ما رأيته

لم تره عين، وما سمعته

لم تستمعه أذن

نوديت ولا تخف

خطوت خطوة كأني خطوت ألف عام

أحسست حول كتفي

يدا، ولم تكن محسوسة³.

حرص الشاعر على تضمين حدث القصة بتفاصيلها وجزئياتها في نصه، على

الرغم من تباعدهما زمنا ومضمونا وشكلا. فنصه هو محاولة لرسم معاناة الشاعر رمزا

للإنسان العربي في واقعه المعاصر وهو يحلم بالتغيير والتنوير عبر موقف شعري نبوي من

خلال حادثة الإسراء والمعراج، ليعبر من خلالها عن رؤيا الرفض والانفصال عن واقعه

1- الأعمال الشعرية، 2 / 128.

2- المصدر نفسه، 2 / 129.

3- المصدر نفسه، 2 / 139.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
ومجتمعه وأمته حيث تحضر رؤياه معلنة ذلك وهو متمص لشخصية المسرى به والمرج
بعد عودته، محورا بذلك ما هو وارد في القرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة
النبوية ليؤكد حضور الرؤيا الحداثية ببعدها الوجودي والأسطوري. فهو يريد انفصالا
وجوديا عن الغيب والواقع باحثا عن عالم جديد:

ولم نزل ننزل ... ها وصلنا

ودعني جبريل قال حدث بما رأيت

واحتفى البراق¹ ...

رفضت وانفصلت

لأني أريد وصلا آخر ، قبولا آخر مثل الماء والهواء ...

يبتكر الإنسان والسماء

يغير اللحمة والسداة والتلوين

كأنه يدخل من جديد

في سفر النشأة والتكوين²

انفتحت هذه القراءة النقدية لنماذج من الشعر الحداثي على أفق آخر للنقد

والتقويم، تحدد فيما يأتي:

— لا يمكن المساواة بين القرآن الكريم وبين الكتب السماوية الأخرى، وكذلك

بينه وبين نصوص الكهنة والرهبان والقساوسة والمتصوفة، التي أطلقوا عليها نصوص

دينية. أننا قد نغض الطرف عن مساواة التوراة والانجيل بأي مآثر ديني فلا ضير في

مخالفة الشاعر لأي نص منها وتغييره وتحويره أما القرآن الكريم فهو نص إلهي مقدس

¹ - المصدر نفسه، 2 / 146.

² - المصدر نفسه، ص 148.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
 "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ"¹ فلا يمكن تحريف كلمة في منطوقها
 ومعناها وإنما البحث عن الشروط الصحيحة لاستلهامه. ولكن ما يعرف بالألواح
 والتوراة والإنجيل قد بدل وحرف وأعيدت صياغته مرات ومرات وأن ما بين أيدينا
 حالياً هو نصوص بشرية اختلطت بأخبار وقصص وأساطير، لا يمكن أن تقبل على أنها
 وحي إلهي أو يقين بعد أن حدث عليها التبديل والتحريف البشري. وتعرضت إلى
 الترجمات للعديد من اللغات المعروفة. وكما لوحظ الاختلاف والتناقض فيها بين
 الحقائق الكونية والتاريخية والعلمية وأما جمعت بين ما هو إلهي وما هو إنساني. بينما
 ظل القرآن الكريم هو النص الأصلي لبيان ما هو صحيح في التوراة والإنجيل. وقد قال
 تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"². ولو كان من قول البشر لتطرقت إليه
 الزيادة والنقصان، ولاشتمل على الاختلاف والتحوير والتحريف. قال تعالى: "أَفَلَا
 يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"³.

- لا يمكن أن يضيف الشعر إلى النص القرآني فيما إضافية دلالية على مستوى
 الإخبار والاستشراق. ولا يحق للشاعر تجاوز الفكرة النقدية التراثية والقائلة بعدم
 العبث والتحريف للمقدس القائمة على الأخلاقية والدينية. إذ أن النصوص لا تشترك
 في نوع المحاورة التناصية، فالنص القرآني يجعلنا نفكر في كيفية محاورته لأنه خطاب
 سماوي لا يمكن أن يصنف ضمن أي جنس أو موروث. فهو نص متعال عن معايير
 الأدب والنقد والفكر والثقافة. وأن أي تعامل فكري أو فني مع هذا النص القرآني
 المطلق القداسة "يوقظ في المتلقي حساسية دفاعية حادة، إذ لا يقبل منه عادة التعارض

¹ - سورة فصلت / 42.

² - سورة الحجر / 9.

³ - سورة النساء / 82.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواق
الصادم له. ولا يرضى منه مجرد التوافق معه بل يتربص به ليعرف كيف يخرج من المأزق
الذي وضع نفسه فيه"¹.

— لا تسمح الغاية الجمالية للتناص بمحاورة النص القرآني بأبعاده المرجعية
الدلالية والقصدية ذات العلاقة الوطيدة بصفاء المعتقد وسلامته، بل بما يمكن أن يقدم
التناس من علاقات أخرى تحمل مرجعية ودلالات أخرى تجعل العلاقة مهزوزة متحولة
وغير مألوفة أو مقبولة على مستوى المنظور والمقصد العقدي الثابت. ومهما بلغت
مبررات الإقناع الشعري. فإن ذلك قد يعود أيضا إلى ضعف الحس الديني للشعراء
الذي يقودهم إلى محاولة إدهاش المتلقي واستنفازه، وقد يعود إلى عدم فهمهم حقيقة
التعبير القرآني لمحدودية ثقافتهم الدينية، أو حتى عدم اطلاعهم على التفاسير القرآنية.

— لا يمكن النظر إلى النص القرآني على أنه نص عادي، وإنما ينظر إليه باعتباره
نصا إلهيا له قداسته التي تجعله محتفظا بمدلولاته الأصلية دون تغيير، فلا ندخله في أي
موضوع غزلي أو عاطفي أو سياسي أو اجتماعي. وقد تسبقه وتأتي بعده كلمات
وعبارات لا يصح أن يأتي في سياقها وبسببها يتغير مدلوله، فمن سوء التصرف أن
نتخير أي نص قرآني ثم نخالفه مهما كانت مبررات المخالفة. كما أن مناقضة المفهوم
القرآني ليس لها ما يبررها، بل إنها تضعف من كيان هذه الرموز في وضعها الجديد.²
كما أن الرمز القرآني هو باق بمفهومه الصحيح الصادق الذي ترسخ في وجدان المسلم،
وكان الشاعر "يعاند القارئ ويهدم ما استقر في وجدانه، وليته يهدم عرفا أو تقليدا، أو
مفهوما خاطئا، بل يهدم ديننا وعقيدة ونصا إلهيا"³.

¹ - صلاح فضل، قراءة الصورة وصور القراءة، ط 1، القاهرة، دار الشروق، 1977، ص 197.

² - جابر قمبيحة، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، ص 231.

³ - إخلاص فخري عمارة، استلهام القرآن الكريم في شعر أمل دنقل، ص 109.

قداسة النص القرآني في ضوء التناص الحواري ----- أ.د. آمال لواتي
— أراد بذلك شعراء الحداثة أن ينصهروا مع النص القرآني ضمن حدس الرؤية
الاستشرافية والاستيعاب النقدي للماضي، فانفلتوا من سطوة النص الإلهي وسلطته -
على حد تعبيرهم - وتعاملوا معه بجرأة وحرية، بل حاولوا إنتاج نص شعري مواز لهذا
النص الإلهي يعكسون فيه آلام الإنسان الوجودي وعذاباته¹. ولم يتقيدوا بحرفية النص
الديني بتحويله إلى قيمة فنية تتجاوز أخباره المدونة وإعجازه المتناهي وأبعاده المقدسة.
وبذلك فهم لم ينطلقوا منه من تجربة دينية قد تحول القصيدة - في رأيهم - إلى خطاب
ديني، وإنما أرادوا أن يمنحوها أفقا جديدا مليئا بأسئلة الحداثة، وانقلبت بذلك المعادلة
بين الإلهي / المقدس، والإنساني / الشعري.

¹ - كامل فرحان صالح، الشعر والدين، ص 394.

دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانج المبتدئين

أ. محمود بدوي

جامعة منتوري قسنطينة 1

الملخص:

للأنشودة قدرة عجيبة في بعث جو باسم في القسم، يشعر المتعلم بالسعادة والاسترخاء والدفء، فاتحا شهيته، تدريجيا، للتواصل والتفاعل مع أقرانه. وبعد هذه التصفية النفسية، تقوم الأنشودة بتغذية مخيلته، وتنشيط إبداعيته، بشق المعاني والصور والأحيلة والإيحاءات التي تستلهمها من كلماتها، وصوت المنشد، وإيقاعات لحنه. فههدف هذا المقال هو التعريف بهذه الأداة التربوية الفذة التي طالما غابت عن تعليم العربية للأجانج، وتبيان كيف تجعل هذا المتعلم، بمساعدة تقنيات وأنشطة إبداعية، متخيلا ومبدعا.

ABSTRACT

The aim of this paper is to shed light on the role of peans in stimulating creativity in the teaching of Arabic, as a foreign language, for beginners.

I will attempt to show Arabic teachers, working in this field, how two Peans, have stimulated the imagination of a group of Tanzanian learners and helped them to recall exciting childhood remembrances or imagine situations that they have illustrated through funny drawings.

مقدمة:

لطالما افتقد المتعلم الأجنبي في قسم العربية حس التخيل والإبداعية. ذلك أن الخطاب المتداول عادة في هذه الأقسام التقليدية، مصطنع، خال من عناصر الحياة والإثارة، مركز على الوظيفة التعاملية (TRANSACTIONNELLE) للتواصل (توفير معلومات حول النظام اللغوي)، متناسيا أهم وظائفه التفاعلية (INTERACTIONNELLES) الأخرى: كوظيفة اللعب، والتسلية، والممازحة، والغناء، والتعبير عن الانفعالات، والتخيل ...

ولا ريب في أن هذا الوضع التعليمي، المنافي للوضع الاكتسابي، كما أبرز ذلك كراشن (KRACHEN)¹، ينأى بالمتعلم عن التفاعل الحي، وما يقتضيه من تلقائية ومفاجأة وطرافة وإبداعية، مولدا لديه شعورا متزايدا بالرتابة والضحجر، كما لاحظت ذلك جورتريد مسكوفيتز (GERTRUDE MOSKOWITZ): "إن الكثير من المؤسسات التعليمية التي تعتمد الاستظهار والطرق التقليدية في التعلم والتعليم تجهل الخيال، ولذا فهي جد كئيبة لأنها ليست متخيلة"². وفي هذا يقول أيضا جان بير روبر (JEAN PIERRE ROBERT): "في تعليمية اللغات لم تكن للإبداعية خلال أمد

¹ - ينص كراشن ضمن فرضيته الشهيرة "فرضية الإكتساب والتعلم (the acquisition – learning hypothesis)" أنه في الوضع الإكتسابي تنسرب إلينا اللغة بصورة لا شعورية، في إطار التواصل الحقيقي، كما هو الشأن بالنسبة للطفل "يلتقطها"، فهو غير واع يكتسبها ولكنه واع بالتواصل، بينما، في الوضع التعليمي، حيث يكون الإنشغال بالتحليل النظام اللغوي، يتم التحصيل شعوريا، معزل عن التفاعل الحي. لمزيد من الإطلاع حول هذه الفرضية.

krashen, s.d. and tracy d. terrell, the natural approach. Language acquisition in the classroom. Pergamon press, oxford, 1985.p(26).

² -Moskowitz, g. the journal of Imagination in language learning. Connecting the powers of music to ,the learning of languages. Volume IV. 1997.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

طويل أية مكانة. فكانت الطرائق المصممة للمبتدئين محصورة في تمارين التكرار أو في تمارين لا تحتمل إلا إجابة واحدة صحيحة"¹.

ولحاربة هذا الوضع الإنساني، الخائق للقدرات الإبداعية، ظهرت المقاربة (humaniste L'approche) التي تدعو إلى الاهتمام بالبعد الوجداني للمتعلم، وإيقاظ انفعالاته، وخياله، بواسطة الأناشيد، وذلك حتى يغدو خياله "إنسانيا.

يستثمره في التعبير عن ذاته، وعن المعاني الطريفة التي لم تسمع أو تقرأ قط من قبل، وليس في تحليل النظام اللغوي، مثل آلة صماء، فاقدة الإحساس.

فلا ريب أن للأنشودة قوة إيجابية تميزها عن سائر الأجناس الكلامية الأخرى.

ومن بين أهم العوامل التي يمكن أن تفسر هذه القوة الإيجابية العجيبة للأنشودة، تعدد قنوات الخطاب الإنشادي، حيث يستخدم هذا الخطاب الثري الفذ قناتين تعبيريتين: لغوية، وشبه لغوية. فالقناة اللغوية تعمل بواسطة ثلاثة أنظمة (النظام اللغوي والشعري والثقافي)، ويشكل صوت المنشد أو المنشدة بجرسه المتميز ولحنه وما يتضمن من نبرة وإيقاع... العناصر شبه اللغوية.

وفيما يلي، سنحاول أن نبين، من خلال درسين أجريناهما مع طلبة تزانين في إطار بحثنا حول دور الأنشودة في تنشيط التفاعل اللفظي في مجال تعليمية العربية للأجانب المبتدئين، كيف يمكن أن تكون الأنشودة مصدر إلهام يغذي مخيلة المتعلم، ويحفزه على إنتاج خطاب أصيل وطريف.

درس 01

الموضوع: أنشودة: عليك مني سلام يا أرض أجدادي.

¹-Robert, j p. dictionnaire de didactique du français langue étrangère, et seconde. Paris 2003. P60.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشطة في مجال تعليمية العربية للأجانب

يا أرض أجدادي	عليك مني السلام
وطاب إنشادي	ففيك طاب المقام
وبهجة النادي	أحبيت فيك السهر
والكوكب الهادي	أحبيت ضوء القمر
والنهر والوادي	والليل لما إعتكر

المهمة: عبر من خلال رسم عن ذكرى من ذكريات طفولتك، تسترجمها خلال استماعك لهذه الأنشطة.

الإجراءات:

المرحلة الأولى: يستمع الطلبة للأنشودة وبعد شرح كلماتها يتمنون على إنشادها.

المرحلة الثانية: يقوم كل طالب إلى السبورة فيرسم الذكرى التي استرجعها.
المرحلة الثالثة: يقوم الطلبة أولاً بتأويل الرسم، طارحين بين الفينة والأخرى أسئلة استضاحية. وفي النهاية يتدخل صاحب الرسم لتوفير بعض الشروح الإضافية.

تعليق: لقد أثارت الأنشطة وأنغامها الرائعة في نفوس الطلبة ذكريات فكهة. وفيما يلي نورد بعد النماذج من الرسوم المنجزة.

رسم 01: أسرة مجتمعة ليلاً حول المدفئة. الأولاد ملتفون حول الجدة يصغون بشغف إلى حكاياتها والأب يطالع جريدته في ركن الغرفة والأم تشوي كسنتاء. وقد استرجع الطالب هذه الذكرى بواسطة الكلمات: أجدادي، السهر، النادي، الليل.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

رسم 02: أطفال يلعبون بالكرة ليلاً في ضوء القمر ومجموعة من الرجال ساهرين يتسامرون بقربه. بعثت الكلمات: في ضوء القمر، السهر، الليل، في نفس الطالب هذه الذكرى.

رسم 03: طفل مع والده في الريف. الطفل يلعب والأب مع كلبه وهو مصوب بندقيته إلى سرب من الطيور.

رسم 04: جماعة من الرجال ينقذون صبياً على وشك الغرق في النهر. ذكرت كلمة النهر الطالب بهذه الحادثة التي وقعت له عندما كان في الثامنة من عمره.

درس 02:

الموضوع: أنشودة: موطني

الجلال والجمال والسناء والبهاء

في رباك

الحياة والنجاة والهناء

والرجاء في هواك

هل أراك... هل أراك

سألما منعماً

وغيماً مكرماً

هل أراك في علاك

تبلغ السماك

المهمة: عبر من خلال رسم عما توحى به إليك هذه الأنشودة

الإجراءات:

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

المرحلة الأولى: يستمع الطلبة للأنشودة وبعد شرح كلماتها يتمرنون على

إنشادها.

المرحلة الثانية: يقوم كل طالب إلى السبورة في رسم ما أوحى له به

الأنشودة.

المرحلة الثالثة: يقوم الطلبة أولاً بتأويل الرسم، طارحين بين الفينة والأخرى

أسئلة استيضاحية. وفي النهاية يتدخل صاحب الرسم لتوفير بعض الشروح الإضافية.

تعليق: أوحى هذه الأنشودة بصور متباينة أنتجتها مخيلات الطلبة.

وفيما يلي نورد بعد النماذج من الرسوم المنجزة.

رسم 01: نشاهد دجاجة تتسلق جبل كيما نجارو الشهير في طرانيا، وخلفها

ديك. وقد تخيل الطالب الجبل انطلاقاً من كلمة الجلال والبيت الآتي: هل أراك في علاك
تبلغ السماك. وقد عبر عن ذلك في إطار فكاهي قصد التمييز وتسلية زملائه ونيل إعجابهم
بطرافة خياله.

رسم 02: يمثل ملعباً فيه مجموعة من الرياضيين وعلى أكتافهم لاعب بيده اليمين

الكأس الإفريقية وباليسرى العلم الطراني. وقد استلهم الطالب هذا المشهد من الأبيات:

هل أراك ... هل أراك

سالماً منعماً وغانماً مكرماً

هل أراك في علاك تبلغ

السماك

رسم 03: رجل يجلس على ربوة وهو يكتب شعراً، مستلهماً أفكاره من الطبيعة

الغناء التي تحيط به. وقد أوحى للطلاب بهذا المشهد كلمتا: الجمال ورباك.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

رسم 04: يمثل منزلا ريفيا تحيط به أشجار ومروجا تكسوها أزهار مختلفة الألوان. وعن بعد نشاهد قطيعا يرعى. وقد استلهم الطالب هذا المشهد الريفي الهادئ من كلمة: الهناء الواردة في الأنشودة. فقد أراد أن يرسم هذه الحياة الهنيئة المطمئنة.

استنتاجات:

إذا تأملنا إنتاجات الطلبة، أمكننا استنتاج مايلي:

عبر الطلبة عن مواقف غير جاهزة، كما جرت العادة، وإنما أبدعتها مخيالاتهم خلال تفاعلاتهم مع كلمات وأنغام الأنشودة التي ساعدتهم على خلقها أو استرجاعها. فقد جاء في تعريف الإبداعية في تعليمية اللغات بأنها: "قدرة التلميذ على ابتكار وخلق ملفوظات في أطر موضوعاتية يكتشفها بنفسه"¹. وتقول أيضا جورتريد مسكوفيتز (GERTRUDE MOSKOWITZ) في هذا الصدد: "إن اللغة المستعملة في الأنشطة الإنسانية يخلقها الطلبة الذين هم بصدد التعبير عما يريدون قوله، دالين بذلك على أن خيالهم يشتغل"².

نلاحظ أن المواقف التي رسمها الطلبة تعكس رؤى متباينة، وتخييلات أصيلة متباعدة، أو تجارب حقيقية معيشة، تتسم بالكثير من الطرافة والحدة والتنوع، بعيدة عن الفكر التكراري والمتقارب المعهود في الأقسام التقليدية، حيث لا تخيل ولا إبداع. فقد نص علماء البيداغوجيا أن الأنشطة الإبداعية: أصيلة وفريدة ومختلفة. وجاء في معجم تعليمية اللغة الفرنسية كلغة أجنبية،

¹ - Glossaire de Français Langue Etrangère. Créativité, P 108.

² - The journal of imagination in language learning and teaching. Humanistic imagination. Soul food for the language classroom. Vol 2 199.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

تحت مصطلح "إبداعية": "وتعليم لغة يقتصر على ممارسة تكرارية له أدنى الحظوظ في إعطاء التلميذ كفاءة إبداعية"¹.

استثمر الطلب في رسم جبل كليمانجاو حسه الفكاهي حيث نشاهد من جهة هذا الطود الشهير في جلاله وعلوه وعظمته ومن جهة أخرى مخلوقين في غاية التفاهة والصغر يتسلقانه: ديك ودجاجة. فاهتز الطلبة قهقهة لطرافة الموقف، واجدين في ذلك تسلية ولعبة شيقة تذكي تفاعلهم وتحفزهم على التخيل والابتكار.

وفي هذا يقول ولتر إيلياسن (Walter Eliason): "يبدو أن الخيال يتطلب منا الجمع بين أشياء هي في العادة مختلفة."² فالفكاهة، كما هو معلوم، من أبرز مظاهر الإبداعية. فقد كانت الأداة الفنية المفضلة لدى الجاحظ. يقول كولستر (MAURICE KOLESTER): في هذا الصدد "الفكاهة هي المجال الوحيد للنشاط الإبداعي حيث ينتج على درجة عالية من التعقيد استجابة نفسية شاملة و متميزة"³. ويعتبر بارسوكس (Barsouks) الفكاهة: "جوهر الفكر التعددي (...). تشجع ظهور الأفكار الجديدة، وتعددية الرؤى، كما تتيح الخروج من ضيق المرجعيات إلى استكشاف المجهول، مشجعة بذلك الإبداعية والتجديد"²

¹ - Glossaire de Français Langue Etrangère. Créativité, P 108.

³ - Koestler, M. Laugh while learning another language. Techniques that are functional and funny. English Teaching Forum XXVI n° 2 April, 1988. P20.

¹ - Barsouks, j. I. EUROPEN JOURNAL. Vol 141, issue 5 october 1996 p505.

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

وتجدر الإشارة إلى أن الفكاهة استراتيجية تعليمية عاطفية (strategie d'apprentissage affective) يستخدمها المتعلم لجعل تعلمه " سهلا وممتعا" كما نص أكسفورد (OXFORD)³.

استخدم رسام الجبل استراتيجية المفاجأة لاستثارة ضحك زملائه وإعجابهم بطرافته. فلما سألوه ماهذا؟ أجابهم: دجاجة تمارس هوايتها وهي تسلق الجبال. فباغتتهم بما لم يكونوا يتوقعونه حيث أن الإنسان هو الذي يقوم عادة بهذا الفعل. ثم لما سألوه ثانية: وهذا؟ فأجابهم: ديك يحميها من السقوط. فتلقوا ردا أوفر مباغتة وطرافة، قهقهوا له طويلا.

فالمفاجأة إحدى المكونات الأساسية للفكاهة، يحدثها البون الشاسع بين ما هو منتظر ومتوقع، وما هو حاصل فعلا. وتتفاوت درجاتها من المفاجأة البسيطة إلى الدهشة فالصدمة... يقول برومفيت (BRUMFIT) في مقال له حول الإبداعية في تعليمية اللغات، جاء تحت عنوان: " ليس هدي أن أتواصل ولكن أن أصدم أصدم¹ وقد: أولت المقاربة الإنسانية أهمية قصوى للمفاجأة التي تعتبرها روح الإبداعية والخطاب الأصيل، إذ بفضلها يجد المتعلم نفسه مشدوها منبها، في فضاء كله إثارة وجاذبية واكتشاف، يخلصه من رتابة وجمود القسم اللغوي التقليدي الشبيه بزنانة سجن.

تقول ألين مالي (Alan Malay) بشأن رسائل الأغنية التي يمكن تطبيقها على الأنشودة: " إنها تنفذ إلى أعماق الأوتار الانفعالية الجمالية"². فطلبتنا قد تأثروا بما

² - oxford, r... language learning strategies : what every teacher should know. Boston : heinle and heinle 1990 p08.

¹ - Holden, S. Creativity in Language Teaching. The British Council. Milan Conference. 1988. P 17.

² - Music and Song . p 3

أ. محمود بدوي----- دور الأنشودة في مجال تعليمية العربية للأجانب

سمعوه، فأنتمجوا بدورهم خطابا مؤثرا، ومواقف جد أصيلة، عبروا عنها من خلال رسوم أمتعتهم بطرافتها. فكل طالب قد أثر في زميله، وتأثر هو به في الوقت نفسه. وهذا التأثير المتبادل هو أحد خصائص التفاعل الحي، والإبداعي على وجه الخصوص، كما نص روبري فيون (Robert Vion)، معرفا التفاعل اللفظي بأنه عملية: " تشمل كل فعل مشترك تفاعلي أو صراعي يستدعي حضور طرفين أو أكثر"¹ فبفضل هذا التقاسم لتجارهم، والانفتاح المتبادل على جوانب حياتهم الخاصة، وجد الطلبة أنفسهم متكفلين بخطابهم الذي أتى مبدعا، حاملا بصمات التميز والأصالة، ومنغمسين في مهامهم البيداغوجية.

خاتمة:

إن دخول الأنشودة قسم اللغة العربية يمكن المتعلم الأجنبي من اكتشاف خطاب جديد، دائم التغير كالحرباء، طريفا مفاجئا، فكها تارة، متسرلا بالغموض والضبابية تارة أخرى، خارجا عن نسق العادة، يصدم العادي والمألوف، ينقله من حدود قاعة الدرس الضيقة إلى أفاق الإبداع الرحبة، فيجد هذا المتعلم نفسه، باستمرار، مشدوها منبهرا، في جو سحري، يلهب في كل لحظة إحساسه وفضوله، مثله في ذلك مثل نيوتن أمام تفاحته، أو طفل صغير: " تاركا بصره يتيه متعجبا مسلوبا"² كما وصفه فكتور هيجو، إذ لا ننسى أن التعجب والحيرة مفتاح المعرفة والإبداع، كما نبه إلى ذلك سقراط: " العالم ينكشف للإنسان في حال التعجب".

¹ -Vion, r.la communication verbale. Analyse des interactions. Hachette, 2000.

P17.

² -La littérature expliquée. P 320.

المصادر والمراجع:

- 1) Krashen, S.D. and Tracy D. Terrell, The Natural Approach. Language Acquisition in the classroom. Pergamon press, oxford, 1985.
- 2) Moskowitz, G. The Journal of Imagination in Language learning and teaching. Connecting the Powers of Music to the learning of languages. volume IV. 1997.
- 3) Robert, J P. Dictionnaire de Didactique du Français Langue Etrangère, et Seconde. Paris 2003.
- 4) Glossaire de Français Langue Etrangère. <http://insufle.hautetfort.com/media/01/01/1911778191.pdf>
- 5) The Journal of the Imagination in Language learning and teaching. Humanistic imagination. Soul food for the language classroom. vol 2 1994. <http://www.njcu.edu/cill/vol2/moskowitz.html>
- 6) Eliason, w. The Right to be Creative. The Journal of the Imagination. Vol 1,1993.
<http://www.njcu.edu/cill/vol1/eliason.html>
- 7) Koestler, M. Laugh while learning another language. Techniques that are functional and funny. English Teaching Forum XXVI n° 2 April, 1988.
- 8) Barsouks, J.L. European Journal. vol 14, Issue 5 October 1996.
- 9) Oxford, R.. Langue Learning Strategies : what every teacher should know . Boston : Heinle and Heinle 1990 .
- 10) Holden, S. Creativity in Language Teaching. The British Council. Milan Conference. 1988.
- 11) Vion, R. La communication verbale. Analyse des Interactions. Hachette, 2000.
- 12) Victor Hugo l'Art d'être grand-père . La Littérature Expliquée. M, Des Granges. Hatier Paris 1959.

تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

١. شافية هلال

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

يستهدف هذا البحث دراسة تجليات التراث في الشعر العربي القديم، حيث كشف البحث حضورا راسخا وواعيا للتراث في أديم التجربة الإبداعية للشاعر العربي القديم، الذي طالما آل إلى هذا المعين يسترشد منه نسج أروع نماذجه، التي تطفح بناها بتدخلات نصية تتواشج مع نصوص غائبة متعددة كانت محط انتباه قدامنا الأوائل - نقادا وشعرا- وفي إطار التفاعل بين اللاحق والسابق أثيرت قضية السرقات الشعرية، التي ألقت شكلا من أشكال التفاعل بالتراث الفني القديم، واستقرت نصوصا غائبة أسهمت إلى حد كبير في إبداع النصوص التالية وفق الرؤية النقدية العربية القديمة. وقد حمل النص الشعري العربي القديم موروثاته وأصبح النص السابق بمثابة التراث للنص اللاحق، فمن التراث يرفد الشاعر النمط وينطلق من حدوده إلى الأفاق الطامحة لنتاجه.

Abstract:

The major focus of this research is to study the Manifestation of the patrimony in the ancient Arabian poetry. The research revealed a steady and conscious presence of the patrimony in the field of the creative experience of the ancient Arabian poet who had always referred to this spring inspiring from it the best modals which are full with textual overlaps connected with various missing texts that's that grabbed the intention of our ancient ancestors-critics and poets.

In the scope of the interaction between the former and the latter, the issue of poetry plagiarism was evolved, and represented one of the aspects of the interaction with the

ancient artistic patrimony, Furthermore, the induction of many missing texts had largely contributed in the creation of the successive texts according to the ancient Arabian critic view.

The ancient Arabian poetic text born its legacies, and the former text became the patrimony of the latter one, considering that from the patrimony, the poet inspire the style, then he dashes from its borders to reach the ambitious horizons of its output.

تراث الأمة هو أئمن ما بجوزتها، هو جذورها، ونسيج وجودها، ومصدر قوتها الرئيسية، وهو قدرها وأساس رقيها، وهو جماع مقومات شخصيتها، به تتحقق هويتها وبه تتجلى ذاتها وتظل قادرة على مقاومة محاولات التذويب والتشويه والاستلاب¹.
التراث لغة مشتق من الفعل الثلاثي "ورث" فقلبت الواو تاء، لثقل الضمة على الواو، وتدل مادة "ورث" في المعاجم اللغوية على المال الموروث؛ أي الذي يخلفه الرجل بعد موته لوارثه.

جاء في لسان العرب «ورث الشيء ورثا ورثة وورثة وإرثته، والورث والإرث والتراث والميراث: ما وُورث، والميراث في المال، والإرث في الحسب، وأورث الميت وارثه ماله أي تركه له وتوارثناه: ورثة بعضنا عن بعض قدما. والتراث: ما يخلفه الرجل لوورثته»². أو هو بمعنى أشمل «أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب»³.

¹ - ينظر: جورج طرابيشي، المتقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 1991م، ص216.

² - ابن منظور، دار الجليل، بيروت، 1408هـ-1988م، مج6، ص907، مادة (ورث).

³ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1402هـ-1981م، ج6، ص105.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وقد وردت كلمة "تراث" في القرآن الكريم مرة واحدة في سياق قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا مَّمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾¹، فالتراث هنا هو المال الذي تركه الهالك وراءه². وذكر ابن عاشور في تفسيره أن وجه إثارة لفظ التراث دون أن يقال: وتأكلون المال «أن التراث مال مات صاحبه وأكله يقتضي أن يستحق ذلك المال عاجز عن الذب عن ماله لصغر أو أنوثته»³.

وبإمكاننا أن نقرر أن كلمة تراث (Patrimoine-Héritage) وردت في خطب أسلافنا وفي حقل تفكيرهم بمعنى يخالف مفهومها الحالي، وهذا يعني أن مفهوم التراث، كما نتداوله اليوم، إنما يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة، وليس خارجها⁴.

ولم يكن السابقون يطلقون على موروث سابقهم كلمة تراث فقد كانوا ينظرون إلى هذا الموروث باعتباره ممتدا فيهم، وهو الامتداد الجاري عبر اللغة، والمفاهيم، والتصورات العامة، ومن هنا توالى حلقات تاريخنا الثقافي والعلمي لزمان

¹ - سورة الفجر: 17-19.

² - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ج7، ص288. والطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، 1984م، ج30، ص183.

³ - تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج30، ص334.

⁴ - محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص24.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

طويل¹.

ويبدو أن مفهوم التراث غير مستقر بصورة دقيقة واضحة، فهو مصطلح خلافي وغامض، تعددت دلالاته وتشعبت، فهو تارة الماضي بكل بساطة، وتارة العقيدة الدينية نفسها، وتارة الإسلام برمته، عقيدته وحضارته، وتارة التاريخ بكل أبعاده ووجوهه².

واختلفت آراء الباحثين ووجهات نظرهم في تحديده، وبيان معناه ومضمونه.

فقد عرفه أحمد كمال أبو المجد بأنه: «ما وصلنا مما أنتجه الأقدمون من فكر

وما تركوه من أثر»³.

وقدم صاحب المعجم المفصل في اللغة والأدب تعريفاً أعم وأشمل: «التراث ما ترثه الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة، في تاريخ قوم، أو شعب، أو أمة، من مآثور التقاليد والعادات، ومن منجزات العقل والإبداع، في حقول العلم، والفكر، والأدب، والفن على اختلاف الموضوعات والأغراض والأنواع والاتجاهات»⁴.

والتراث بهذا المعنى هو ذاكرة الشعوب، تستحضره الثقافة السائدة، وتجسده أنماط الفكر والسلوك، وتحتزنه مناخات البيئة، وتوصله مناهج التربية، وتضمن استمراره وديمومته في واقع حياتي وفكري معرض للتطور والتبدل».

¹ - عمر أجه، دراسة مصطلحية لمفهوم: التراث - التنمية - الثقافة، ضمن التراث الإسلامي في الغرب الإسلامي والتنمية، إعداد: عبد العزيز فارح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة المغربية، 2004م، ص190.

² - إبراهيم منصور محمد الياسين، استحياء التراث في الشعر الأندلسي، (عصر الطوائف والمرابطين 400-539هـ)، عالم الكتب الحديث، -إربد- الأردن، ط1، 2006، ص5.

³ - المسألة السياسية: وصل التراث بالعصر والنظام السياسي للدولة، ضمن التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص572.

⁴ - إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م، مج1، ص371.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وأكد جبور عبد النور هذه النظرة للتراث عندما عرفه بأنه: «ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد، وعادات، وتجارب، وخبرات، وفنون، وعلوم، في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي، والإنساني، والسياسي، والتاريخي، والخلقي، ويوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه»¹.

ونظر محمد عابد الجابري للتراث على أنه تمام ثقافة الماضي وكرهتها: إنه العقيدة والشريعة، واللغة والأدب، والعقل والذهنية، والحين والتطلعات، وبعبارة أخرى إنه في آن واحد: المعرفي والأيدولوجي وأساسها العقلي وبطانتها الوجدانية في الثقافة العربية الإسلامية².

فالتراث بمفهومه الحضاري والأدبي يدل على تركة فكرية وروحية، تجمع بين مجموعة عوامل وعناصر جاعلة منها «عنوانا على حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر... ذلك هو المضمون الحي في النفوس الحاضر في الوعي، الذي يعطي للثقافة العربية الإسلامية عندما ينظر إليها بوصفها مقوما من مقومات الذات العربية، وعنصرا أساسيا ورئيسيا من عناصر وحدتها»³.

ووقف حسن حنفي من التراث موقفا مختلفا عن مواقف سابقه إذ رأى أنه «مجموعة التفاسير التي يعطيها كل جيل بناء على متطلباته، خاصة وأن الأصول الأولى التي صدر منها التراث تسمح بهذا التعدد لأن الواقع هو أساسها الذي تكونت عليه»⁴.

1 - المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1989، ص63.

2 - التراث والحداثة، ص24.

3 - المصدر نفسه، ص24.

4 - التراث والتجديد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1981م، ص13.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وأكد أنّ التراث ليس له وجود مستقل عن واقع حي يتغير ويتبدل، يعبر عن روح العصر وتكوين الجيل، بل إنه جزء من مكونات الواقع، والتراث عنده مرتبط زمنيا بالوحي، وكثيرا ما يوحد بين الوحي والتراث¹.

يكشف النص الشعري العربي القديم حضورا فاعلا وراسخا للتراث، وانسيابه التلقائي في بنيته الشاحصة مؤكدا استمرارية الشرعية الشعرية وحقيقة التفاعل مع كل النصوص السابقة.

يقول الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي في ملعقته:

ورثنا المجد، قد علمت معدُّ	نُطاعنُ، دُونُهُ حتى يُبيننا
ورثنا مجد علقمة بن سيف	أباحَ لنا حصون المجد، دينا
ورثتُ مهلهلا، والخير منهم	زهيرا، نعمَ دُخْرُ الدّاخرينا
وعتابا، وكلثوما، جميعا	بهم، نلنا تراثَ الأكرميننا
ومنا، قبله، السّاعي كليب	فأَيُّ المجدِ إلّا قد ولينا؟
ورثناهنّ، عن آباءِ صدق	ونورثها، إذا مُتّنا، بَيننا ²

ونص الشاعر يشير إلى التداول المستمر للتراث-المجد المؤثّل في أصحاب الشعر

¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص13، 20، 69.

² _ الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1427هـ-2006م، ص265-282. المجد: الشرف والرفعة، يبين: يظهر، علقمة: يقال أنه هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة، المهلهل: جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه، وزهير: جدة من قبل أبيه، كلثوم: ابن مالك بن عتاب، التراث: ما يورث، كليب: هو المعروف بكليب وائل، وهو أخو مهلهل، ورثناهن: ملكناهن، والصدق: الشدة والكرم.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وأصحاب السيف-من السابق للاحق وهكذا¹.

وقد التفت القدماء-شعراء ونقادا- إلى طبيعة العمل الإبداعي والتي توجب على الشاعر الاستعانة بمن سبق لصعوبة الخلق الفني على غير مثال سبق².

فهذا امرؤ القيس- وهو من هو شهرة وقدرة وشاعرية- والذي أقر له الأصمعي «بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الخطوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه»³، والذي سبق العرب- على حد قول ابن سلام- إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه والبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ...»⁴، والذي يعزى له -كما قال ابن قتيبة أنه «أول من فتح الشعر واستوقف وبكى في الدمن، ووصف ما فيها»⁵، يعرج على الديار يبكيها مقلدا، يقول:

دارٌ لهندٍ والرِّبابِ وفرتني ولميسَ قبل حوادث الأيام

¹ _ مدحت الجيار، الشاعر والتراث- دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ص116.

² _ ينظر: سعد إبراهيم عبد المجيد، التناص دراسة في الخطاب النقدي العربي، دكتوراه، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، 1420هـ-1999م، ص58.

³ _ فحوالة الشعراء أبو حاتم السجستاني، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، 1411هـ-1991م، ص106.

⁴ _ طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، ج1، مطبعة المدني، القاهرة، ص: 55.

⁵ _ الشعر والشعراء، قدم له: الشيخ حسن تميم، وراجع وأعد فهارسه: الشيخ عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ-1987م، ص67.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خدام¹
وعنترة بن شداد على عراقته في الشعر، يشير في مطلع معلقته أنه سبق بشعراء
وضعوا تقاليد هذا الشعر، وأتوا على كل ما يمكن أن يقال، فوقف حائرا متسائلا:
هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم²
فقول عنترة هذا، كما يقول ابن رشيق: «يدل على أنه يعدُّ نفسه محدثا، قد
أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئا»³.
ومما يؤيد أن كلام المتأخرين تكرار لكلام المتقدمين، وأن التراث يفرض نفسه
على الشاعر اللاحق، قول كعب بن زهير:
ما أرنا نقول إلا رجعيا ومعادا من قولنا مكرورا⁴
ولا يليق بنا - في هذا المقام - إلا أن نورد كلام علي عليه السلام «لولا أن الكلام يعاد
لنفد»⁵.

¹ _ ديوانه، تحقيق: حنا الفاحوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1409هـ-1989م، ص280، هند وما بعدها: أسماء نساء، عوجا: اعطفا، المحيل: المتغير، لأننا: لغة في لعنا، ابن خدام: شاعر بكى الديار قبل امرئ القيس وقيل: ابن خدام وابن جمام. ذكر ابن سلام في طبقاته، 39/1 أن ابن خدام: «رجل من طيء لم يسمع شعره الذي بكى فيه، ولا شعرا غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس».

² _ ديوانه، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط3، 1417هـ-1996م، ص186. ردمت الشيء: إذا أصلحته، التوهم: الإنكار، ومعنى بيته «هل بقي الشعراء لاحد معنى إلا وقد سبقوا إليه، وهذا كقولهم: هل ترك الأول للآخر شيئا».

³ _ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل للنشر والتوزيع للطباعة، ط5، 1401هـ-1981م، ص91.

⁴ _ شرح ديوانه: صنعة السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص154.

⁵ _ العمدة 91/1.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وتأكيد لما سبق، فقد تنبه النقاد العرب الأوائل إلى أن الشاعر لا يستغنى في كل زمان، وكل مكان عن ثقافة فنية تصقل الموهبة وتعين على التجديد، ومن هنا حرصوا على التنويه بدور الحفظ والرواية والتشبع بأساليب الماضين في تكوين الشاعر المجيد¹، فابن طباطبا العلوي يوجب على الشاعر المبتدئ «أن يُديم النَّظْرَ في الأشعار التي قد اخترناها لتلصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه وتصير مواد لطبعه، ويزدوب لسانه بألفاظها فإذا جاش فكره بالشعر أدى إليه نتائج ما استفاده، مما نظر فيه من تلك الأشعار فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تُخرجها المعادن، وكما قد اغترفَ من وادٍ قد مدته سيولٌ جارية من شعاب مختلفة، وكطيب تركب من أخلاطٍ من الطيب كثيرة فسيتغربُ عيائه، ويغمضُ مستنبطة»²، بل أن بعضهم ذهب إلى أن الرواية من أوثق آلات الشاعر، وأنه لا يحتل موضعه من الطبقة الأولى، إلا إذا كان من رواة الشعر³، وبذلك أضحت الرواية سمة للفحولة الشعرية «سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء، فقال: هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحال، قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه

¹ - ينظر: ربيعي محمد علي عبد الخالق، أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص16-17. ومحمود عبد الله الجادر، دراسات نقدية في الأدب العربي، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1990م، ص318.

² - عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المناع، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ص14.

³ - قال الجاحظ: «والشعراء عندهم أربع طبقات: فأوّلهم الفحل الخنديد، والخنديد هو التام، قال الأصمعي، قال رؤبة: «الفحولة هم الرواة»، ودون الفحل الخنديد الشاعر المقلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعروء»، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج2، مكتبة الجاحظ، بيروت، ص9.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

إلا على بصيرة»¹.

جاء في كتاب العمدة «فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء، فيقولون: فلان شاعر راوية؛ يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد، وسهل عليه مأخذ الكلام، ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضلّ واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو مائل بين يديه، لضعف آتته كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة»².

ولعل سندهم في ذلك أن فحول شعراء مرحلة التأسيس من الجاهليين كانوا أنفسهم رواة لأشعار أسلافهم³.

وفي إطار التنظير ذهب النقاد إلى أن من أدوات الشاعر: «...الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فنّ قالته العرب فيه، وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها والسّنن المستعملة منها، وتعريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلايتها، وعدوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مبادئها، وإيفاء كل معنى حظّه من العبارة وإلباسه ما يُشاكله من الألفاظ، حتّى تبرز في أحسن زيّ وأبصى صورة»⁴.

أما خارج هذا الإطار التوجيهي، فقد حرص القدماء على رسم الصيغة المثلى

¹ _ العمدة، 1/297.

² _ المصدر نفسه، 1/197.

³ _ جاء في كتاب العمدة، 1/198. أن «زهير كان راوية أوس بن حجر والطفيل الغنوي، وكان امرؤ القيس راوية أبي دؤاد الإيادي: مع فضل نخيرة، وقوة غريزة، ولا بد بعد ذلك أن يلوذ به في شعره، ويتوكأ عليه كثير».

⁴ _ عيار الشعر، ص6.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

لثقافة الشاعر وحدودها وروافدها¹، حتى قال القاضي الجرجاني: «إنَّ الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبعُ والروايةُ والذكاءُ، ثم تكون الدربةُ مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرر، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان»².

وبهذا التصور فإنَّ ثقافة الشاعر العربي القديم تستمد مقوماتها من هذا الإرث الذي خلفه أسلافه حتى عصره، يقول الفرزدق:

وهبَ القصائد لي التوايغُ، إذ مضوا	وأبو يزيد وذو القروح وجروُلُ
والفحلُ علقمةُ الذي كانت لهُ	حللُ الملوكِ كلامُهُ لا يُنحلُ
وأخو بني قيسٍ، وهنَّ قتلنهُ	ومهلهُ الشعراءُ ذاك الأوّلُ
والأعشيان، كلاهما، ومرقشُ	وأخو قضاةِ قوله يُتمثلُ
وأخو بني أسدٍ عبيدُ، إذ مضى	وأبو دؤادٍ قوله يُنحلُ
وابنُ أبي سلمى زهيرُ وابنهُ	وابنُ الفريعةِ حينَ جدَّ المقولُ
والجعفريُّ وكان بشرُّ قبلهُ	لي من قصائدهِ الكتابُ المُجملُ
دفعوا إليّ كتابهنَّ وصيةً	فورثهنَّ كأنهنَّ الجنادلُ
فيهنَّ شاركني المساوِرُ بعدهمُ	وأخو هوازنُ والشّامي الأخطلُ ³

¹ _ ينظر: دراسات نقدية في الأدب العربي، ص 318-319.

² _ الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1386-1966، ص 15.

³ _ شرح ديوانه، إيليا الحاوي، ج2، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص 323-324. النوايغ: النابغة الذبياني والنابغة الجعدي، أبو يزيد: المخيل السعدي، ذو القروح: امرؤ القيس، جرول: الخطيئة، علقمة: هو علقمة الفحل الذي قامت بينه وبين امرئ القيس منافرة وشهدت زوجة امرئ القيس له على زوجها فطلقها، أخو بني قيس: طرفة بن العبد،

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

ونص الفرزدق يعلن اعترافه بأخذه عن سبقه من الشعراء حتى وصل إلى الأخطل ويثبت حقيقة التراث الضاربة في ذات المبدع ووعيه وحصيلته الفكرية الأساسية، وعلى هذا النسق يقول أبو تمام:

يقول من تفرع أسماءه كم ترك الأول للآخر!¹

تقدم أن الشعر ملتبسا بعضه ببعض، وأخذ بعضه برقاب بعض، «ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصبّ على قوالب من سبقهم، ... ولو لا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول»²، وفي هذا السياق الفني العام نشأت السرقات الشعرية، هذه الأخيرة التي ألفت شكلا من أشكال التفاعل بالتراث الفني القديم.³

وحدها حمزة بن يحيى العلوي بقوله: «اعلم أن معنى السرقة في الأشعار هي أن يسبق بعض الشعراء إلى تقرير معنى من المعاني واستنباطه، ثم يأتي بعده شاعر آخر يأخذ

وقد قتله عمرو بن هند بشعر قاله فيه، المهلهل: هو المهلهل بن ربيعة أخو كليب وائل، الاعشيان: أعشى قيس وأعشى باهلة، المرقش: هو المرقش الأكبر وقد مات عشقا، أخو قضاة: الطمحن القيبي، أخو بني أسد: عبيد الأبرص وكان له شجر وهو الذي عمل على قتل حجر والد امرئ القيس، أبو دؤاد: حارية بن عمران، ابن الفريعة: هو حسان بن ثابت، ابن زهير: كعب صاحب البردة، الجعفري: لبيدة بن ربيعة، بشر: هو بشر بن حازم، الجنادل: الصخر، المساور: هو ابن هند بن قيس بن زهير العبسي، أخو هوازن: الراعي.

¹ _ العمدة، 91/1.

² _ أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إسماعيل، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ-1986م، ص196.

³ _ ينظر: عبد القادر بقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي - دراسة نظرية وتطبيقية - إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص30-31.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

ذلك المعنى ويكسوه عبارة أخرى»¹.

وبذلك فالسرقات الشعرية هي: أخذ الشاعر اللاحق معنى الشاعر السابق، ولأنّ الشاعر الحدث جاء تالياً، فقد وسم بالسرق².

يقول القاضي الجرجاني: «السَّرْقُ داءٌ قديم، وعيبٌ عتيق، ما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمدُّ من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه، وكان أكثره ظاهراً كالتوارد، وإن تجاوزَ ذلك قليلاً في الغموض لم يكن فيه غيرُ اختلاف الألفاظ، ثم تسبّب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب، وتغيير المنهاج والترتيب، وتكاد جبراً ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال، والتصريح في أخذ والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما يقصر معه عن اختراعه وإبداعه مثله»³.

فعندما قال المتنبي بيته:

يزورا لأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبها الكواكب

مشبهها لمعان الحراب في ظلام الغبار بلمعان النجوم في ظلام الليل، فإنّ النقاء

تبعوا هذا المعنى لدى سابقيه، فقالوا: إنّه مأخوذ من قول بشار بن برد:

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ثم وجدوا أنّ هذه الصورة الشعرية ليست من مبتدعات بشار، وإنما هي

¹ _ الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص188.

² _ محمد عزام، النص الغائب تجليات التناس في الشعر العربي- دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص44.

³ _ الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص214.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

مأخوذة من سابقه عمرو بن كلثوم في قوله:

تبنى سناكبها من فوق رؤسهم سقفا كواكبه البيض المباتير¹
وعندما قال أبو تمام:

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأها من الجيش، إلا أنها لم تقاتل
فقد أخذه من قول مسلم بن الوليد:

قد عود الطير عادات وثقن بها فهنّ يتبعنه في كل مرتحل
وقد ذكر المتقدمون هذا المعنى، فأول من سبق إليه الأفوه الأودي، وذلك قوله:
وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار
فتبعه النابغة فقال:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تتهيء بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب
فأخذه حميد بن ثور فقال يصف الذئب:

إذا ما إذا يوما رأيت غمامة من الطير ينظرن الذي هو صانع
وقال أبو نواس:

تتأيا الطير غزوته ثقة بالشبع من جزره²
وقد شغلت قضية السرقات الشعرية النقاد طويلا، فلا يكاد يخلو كتاب نقدي

¹ _ النص الغائب، ص44. ومحمد مصطفى هدارة، مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية

مقارنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط3، 1401هـ-1981م، ص43.

² _ الأمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحثري، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة

العلمية، بيروت، لبنان، 1363هـ-1944م، ص58-59.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

من فصل عنها، يقول ابن رشيق: «وهذا باب متسع جدا، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه، وفيه أشياء غامضة، لا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخرى فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل»¹.

وقد تشعبت الأقوال في السرقات الشعرية، وكثرت المصطلحات (كالسرق، والسلخ، والنسخ، والإغارة، والغصب، والاختلاس، والإمام، والملاحظة...) ². فمن أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقا، فإن غير بعض اللفظ كان سالخا³. والإغارة: هو وضع اليد على شعر الغير وأخذه منه قصرا دون مبالاة، والغصب مثل الإغارة.

والاختلاس: وهو أخذ المعنى ونقله إلى غرض جديد مع العدول به عن وزنه ونظمه وعن رويه وقافيته.

والإمام: وهو أخذ المعنى وبعض اللفظ في شيء قليل من الخفاء. أما الملاحظة: فهي أخذ المعنى مع التقليد والمحاكاة، وبذا تكون أكثر من الإمام بقرها من السرقة، وأقل إبداعا فيها⁴.

يقول الجرجاني: «وهذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير، والعالم المبرز، وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكملته، ولست تعدّ من جهابذة الكلام، وتقاد الشعر، حتى تميّز بين أصنافه وأقسامه، وتحيط علما برتبته

¹ _ العمدة 2/280.

² _ مشكلة السرقات في النقد العربي، ص 130-131.

³ _ العمدة، 2/281.

⁴ _ ينظر: ابتسام مرهون الصفار وناصر حلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ط2، 1999م، ص 267-268.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

ومنازله، فنفصل بين السرّ والعصّب، وبين الإغارة والاختلاس، وتعرف الإمام من الملاحظ وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادّعاء السرّ فيه، والمبتذل الذي ليس أحدّ أولى به، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياء السابق فاقتطعه، فصار المعتدى مُختلسا سارقا، والمشارك له محتذيا تابعا، وتعرف اللفظ الذي يجوزُ أن يقال فيه: أخذ ونقل، والكلمة التي يصحُّ أن يقال فيها، فهي لفلان دون فلان»¹.

وانتهى الأمر بنقادنا القدماء إلى تضييق نطاق السرقات وحصرها في البديع المخترع، يقول الآمدي: «وإنما السرقة يكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك... وكان ينبغي أن لا أذكر السرقات فيما أخرجه من مساوئ هذين الشاعرين، لأنني قدمت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ للشعراء، وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر»².

وهذا ليس بعيدا عما قاله ابن رشيق: «والسرقة أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يُورده أن يقال إنه أخذه من غيره»³. وعليه فقد اتفق النقاد القدماء على أن السرقة لا تتحقق في المعاني العامة التي هي حق مشترك بين الجميع، ولا في المعاني المبتذلة المتداولة بين الشعراء، ولا حتى في المعاني الخاصة التي ستصبح عامة لكثرة شيوخها، ولا في الألفاظ، لأنها مباحة للجميع، وإنما

¹ _ الوساطة: 183.

² _ الموازنة، ص50، 273.

³ _ العمدة، 281/2.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

تكون السرقة في المعنى الخاص المخترع الذي انفرد به صاحبه وعنه أخذ الآخرون¹.
وبذلك فإنَّ الرؤية النقدية العربية القديمة في تتبعها لحوار النصوص وتفاعلها من
خلال باب السرقات الشعرية تقر بأنَّ السرقات لم تعد قهمة تلصق بالشاعر انتقاصا من
شاعريته، ولم تعد من معائب الشعراء وليست داء قديما، وأصبح تماثل المعاني يندرج
تحت مصطلحات مثل (التضمين، والاقْتباس، والتلميح والإشارة...) ².

وقد قرب ابن رشيقي بين السرقة والتناص بقوله: غير أن المتبع إذا تناول معنى
فأجاده فهو أولى به من مبتدعه... فمما أجاد فيه المتبع على المبتدع قول الشماخ:
إذا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عرابة فاشرقِي بدمِ الوتين³
فقال أبو نواس:

أقولُ لِنَاقِي إِذَا بَلَّغْتَنِي لقد أَصْبَحْتَ مِنِّي بِالْيَمِينِ
فلم أَجْعَلْكَ لِلقُرْبَانِ نُحْرًا ولا قَلْتُ: اشْرُقِي بدمِ الوتين⁴
وكرره فقال:

وَإِذَا المَطِيُّ بِنَا بَلَّغْنَ مُحَمَّدًا فظهورهنَّ على الرجالِ حَرَامٌ
قُرْبَنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الحِصَى فلها عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ⁵

ويقدم القاضي الجرجاني -كذلك- تقريبا لطيفا بين السرقات والتناص بقوله:
ومن لطيف السرقة ما جاء به على وجه القلب، وقصد به النقص، كقول المتنبي:

¹ _ النص الغائب، 132-133.

² _ ينظر: التناص دراسة في الخطاب النقدي العربي (دكتوراه)، ص 81-82.

³ _ العمدة، 290/2-291.

⁴ _ ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1406هـ-1986م، ص 595. اليمين: أراد
البركة، لأنَّ العرب تتفاءل باليمين. أشرقِي: غصي. الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

⁵ _ المصدر نفسه، ص 575.

أَحَبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ إِنَّ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ
إِنَّمَا نَقَضَ قَوْلَ أَبِي الشَّيْصِ: حَبًّا لَذِكْرِكِ فَلَيْلَمْنِي اللَّوْمُ
أَجْدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةٌ وَأَصْلُهُ لِأَبِي نَوَاسٍ فِي قَوْلِهِ:
إِذَا غَادَيْتَنِي بِصُبْحِ عَذَلٍ وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ الْمُتَنَبِّي:
وَالْجِرَاحَاتُ عِنْدَهُ نِعْمَاتٌ إِنَّمَا نَاقَضَ بِهِ أَبَا تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ:
وَنِعْمَةٌ مَعْتَفٍ جَدَّوَاهُ أَحْلَى وَقَدْ تَبِعَهُ الْبُحْتَرِيُّ؛ فَقَالَ:
وَقَدْ تَبِعَهُ الْبُحْتَرِيُّ؛ فَقَالَ:
نَشْوَانٌ يَطْرَبُ لِلسُّؤَالِ كَأَمَّا غَنَّاهُ مَالِكُ طِيءٍ أَوْ مَعْبَدٌ²

ومن خلال استقراءنا لبعض النصوص الشعرية العربية القديمة وجدنا بناء تطفح بتداحلات نصية وتوشح مع نصوص غائبة متعددة مجسدة فاعلية التواصل الدائم مع الموروث، إذ لم ينفصل الشاعر العربي القديم عن تراثه.

ذكر الرواة أن بيت امرئ القيس:
وقوفا بما صحني علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتحمّل³
قد أخذه طرفة بن العبد فقال:
وقوفا بما صحني علي مطيهم يقولون: لا تملك أسي وتجلّد¹

¹ _ الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص 206-207.

² _ المصدر نفسه، ص 207.

³ _ ديوانه، ص 27. المطي: المراكب. تحمل: الصبر.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

فلم يغير في البيت غير قافيته فحسب².

وقد حمل الشعر العربي تراثه العربي قبل الإسلام وبعد، كما حمل النص الشعري موروثاته فيما بين الشعراء من الأجيال المختلفة وبين المتعاصرين، حتى أصبح النص السابق بمثابة التراث للنص اللاحق، وقد تبدى ذلك في شكل القصيدة وصياغتها وأساليبها التي تتشابه وتكرر فيها بين القصائد في العصر الواحد، وفي المتلاحقة، فأصبح الشاعر ينطلق من تراثه الشعري أولاً، وأصبح التراث هو النموذج الموجود لديه³.

فحين يقول عمر بن أبي ربيعة:

وكادت بمخفوض التحية تجهر	فحييت إذ فاجأتما فتولعت
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر	وقالت وعضت البنات فضحتني
	يجعلنا يسمع قول امرئ القيس:
فقال لك الويلاتُ إنك مُرجلي	ويومَ دخلتُ الخدرَ، حذر عُنيزةَ
⁴ عقرتَ بعيري يا امرأ القيس فانزل	تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً
	وهو ما نسمعه من الأعشى من معشوقته هريرة:
⁵ ويلي عليك، وويلي منك يا رجلُ	قالتَ هريرةُ، لما جئتُ زائرَها

¹ _ ديوانه، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ص19.

² _ الشعر والشعراء، ص68.

³ _ الشاعر والتراث، ص113.

⁴ _ ديوانه، ص30-31. الخدر: هو الهودج. عنيزة: اسم عشيقته. الويلات: دعاءٌ منها عليه. مرجلي: رجل الرجل يرجل رجلاً فهو راجل. الغبيط: ضربٌ من الرجال، عقرت بعيري: أي أدبرت ظهره.

⁵ _ شرح المعلقات العشر، ص336.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

ونسلم قول المنخل اليشكري:

ويوم دخلت على الفتاة الخذر في اليوم المطير

فدفعتها فتدافعت جرى القطا إلى الغدير.

وحين يقول عمر بن أبي ربيعة:

يمج ذكي المسك منها مقبل نقي الثنايا ذو عزوب مؤثر

تراه له إذا ما افتر عنه كأنه حصى برد أو أفحوان منور¹

فإننا نرى صدى ذلك عند الأعشى فيقول:

إذا تقومُ يَصُوعُ المسكُ أصورةً والزئبق الورْدُ من أردانها شميل²

ونسلم قول طرفة بن العبد:

وتبسمُ عن ألمى كأنَّ منوراً تخللَ حرّاً الرَّمْلِ دَعَصٌ له ندي³

وهو ما يقول له عنتره:

إذ تستيبك بأصلتي ناعم إذ عذب مقبله لذيذ المطعم

وكان فأرة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم

أو روضة أنفاً تضمَّنَ نبتها غيثٌ قليلُ الدَّمِنِ ليسَ بمعلم⁴

¹ _ الشاعر والتراث، ص 135-136.

² _ شرح المعلقات العشر، ص 333. يصوغ: يذهب ريحه كذا وكذا، أصورة: تارات، أردان: ج رُدن ووردن، وهي أطراف الأكام. شمِلٌ: أي طيبها يشمل.

³ _ ديوانه، ص 21. الألمى: الذي يضرب لون شفثيه إلى السواد، حر كل شيء: خالصه. الدعص: الكتيب من الرمل.

⁴ _ ديوانه، ص 194-196. تستيبك: تذهب بعقلك. الأصلي: الثغر البراق الناعم. فأرة: للمسك وهي نافحته سميت بذلك لفورها إذا فتقت. القسيمة: الجونة التي فيها الطيب. العوارض: ما بعد اللثات من الأسنان. الأنف: التي لم ترع. الدمن: البعر. المعلم: المكان المشهور.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

وعندما يقول البحري:

إلى فتى يُتبع النعمى نظائرها كالبحر يُتبع أمواجاً بأمواج

يجعلنا نسمع قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع المموم ليبتلي

ونسرع قول أبي دهب الجمحي:

وليلة ذات أجراس وأروقة كالبحر يتبع أمواجاً بأمواج¹

إن علاقة الشاعر العربي القديم بموروثه هي علاقة تفاعل بين اللاحق والسابق علاقة لم تكن أبداً معوقاً يحد من طموح الشاعر ويكبح جماح ذاته المبدعة المنفلة من الحواجز، فمن التراث يرفد النمط وينطلق من حدوده إلى الأفاق الطامحة لنتاجه.

فعندما قال سالم الخاسر:

من راقب الناس مات غمّاً وفازَ باللذة الجسور

كان ينظر إلى بيت معلمه بشار بن برد، ويتناص معه في بيته المشهور:

من راقب الناس لم يظفر بجاحته وفاز بالطيبات الفاتكُ اللهج²

ورغم أن (الأخذ) واضح في الفكرة والألفاظ كما يرى النقاد القدامى، فإن ما أضافه سلم هو إكمال المعنى (الموت غما)، وسهولة الألفاظ (الجسور بدل الفاتكُ اللهج)، وخفة الوزن العروضي ليكون أيسر على الألسنة، وكلها ليست بالقليل، لأنّ

¹ _ الموازنة، ص 279.

² _ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وحققه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج 3، دار نضرة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ص 258. الفاتك: القاتل واستعاره للجرى والذي لا يبالي إنكار الناس. اللهج: المعري بالشيء المتأثر عليه المقدار.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

اللاحق زاد على السابق فكرة مبتكرة، وصورة خيالية وعبارة جميلة¹.

وكان الناس يستجيدون للأعشى قوله:

وكأس شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

لكي يعلم، الناسُ أني امرؤٌ أتيتُ المعيشة من باهما²

حتى قال أبو نواس:

دع عنك لومي فإنَّ اللوم إغراءٌ وداوي بالتي كانت هي الداء³

«فسلخه وزاد فيه معنى آخر اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه، فلأعشى

فضل السبق إليه، ولأبي نواس فضل الزيادة فيه»⁴.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

● إبراهيم منصور محمد الياسين، استحياء التراث في الشعر الأندلسي، (عصر الطوائف والمرابطين 400-539هـ)، عالم الكتب الحديث، -إربد- الأردن، ط1، 2006، .

● أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر، ربيعي محمد علي عبد

¹ _ النص الغائب، ص128.

² _ ديوانه، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1972م، ص22.

³ _ ديوانه، ص7. الإغراء: الإيلاج بالشيء والحض عليه.

⁴ _ الشعر والشعراء، ص30.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

الخالق، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م.

● البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، بيروت.

● التراث والتجديد، حسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1981م.

● التراث والشاعر - دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث، مدحت الجيار، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

● التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.

● تفسير التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984،

● التناص في الخطاب النقدي والبلاغي - دراسة نظرية وتطبيق: عبد القادر بقشي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007م.

● جورج طرايشي، المثقفون العرب والتراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط1، 1991م

● دراسات نقدية في الأدب العربي، محمود عبد الله الجادر، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1990.

● ديوان أبي نواس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1406هـ - 1986م.

● ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1972م.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

• ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيين في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، مطبعة مصطفى الباجي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الاخيرة، 1391هـ—1971م.

• ديوان امرئ القيس، تحقيق: حنا الفاحوري، دار الجليل، بيروت، ط1، 1409هـ—1989م.

• ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

• ديوان كعب بن زهير، صنعة السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م.

• ديوان، عنتره بن شداد، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط3، 1417هـ—1996م.

• شرح المعلقات العشر، الخطيب التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1427هـ—2006م.

• شرح ديوان الفرزدق، إليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

• الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط2، 1407هـ—1987م.

• الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1406هـ—1986م.

• الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، 1984م.

أ. شافية هلال ----- تالافي النصوص في الشعر العربي القديم

● طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق: محمد محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

● الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

● العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، ط5، 1401هـ-1981م.

● عيار الشعر، بن طباطبا العلوي، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

● فحولة الشعراء، أبو حاتم السجستاني، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، 1411هـ-1991م.

● لسان العرب، ابن منظور، دار الجيل، بيروت، 1408هـ-1988م

● المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة.

● محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ابتسام مرهون الصفار، ناصر حلاوي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ط2، 1999م.

● محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991

● مشكلة السرقات في النقد العربي، محمد مصطفى هدارة- دراسة تحليلية مقارنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط3. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، 2006م.

أ. شافية هلال ----- تلاقي النصوص في الشعر العربي القديم

- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1989،
- المعجم المفصل في اللغة والأدب، إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م،
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1402هـ-1981م، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، .
- الموازنة بين أبي تمام والبحثري الأمدى، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1363هـ-1944م.
- النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي-دراسة، محمد عزام، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1386هـ-1966م.

الدوريات:

- التراث الإسلامي في الغرب الإسلامي والتنمية، إعداد: عبد العزيز فارح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، المملكة المغربية، 2004م.
- التناص دراسة في الخطاب النقدي العربي، سعد إبراهيم عبد المجيد، دكتوراه، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، 1420هـ-1999م.

ثنائية الكفاية والعامية في المجتمع العربي قراءة في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط-

أ. دلال لواتي جامعة الجزائر 2

الملخص:

تقدم هذه الدراسة قراءة في ثنائية الخاصة والعامية في المجتمع العربي من خلال أدبيات العصر الإسلامي الوسيط، وذلك من خلال ثلاث مستويات أساسية عالج المستوى الأول تاريخية الخاصة والعامية بداية بالعصر النبوي والخلافة الراشدة ومرورا بالعصر الأموي وانتهاء بالعصر العباسي، أما المستوى الثاني فقد عالج معايير التصنيف الطبقي في أدبيات العصر الوسيط من خلال جدولة الهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي المتمثلة في طبقة الخاصة التي حددت بالمعيار السياسي وجاه السلطة، وطبقة الأوساط المحددة بالمعيار الاقتصادي (جاه المال وجاه العلم)، وما عدا هاتين الطبقتين فهم عامة مسلوقة السياسة والمال والعلم، أما المستوى الثالث فقد عالج الهرمية التراتبية المعرفية واعتمدت في تحديد ثنائية الخاصة والعامية بناء على موقعها في منظومة الفكر الفلسفي الصوفي الأصولي.

Common people and the Elite in the Arab Society A Reading in the Literature of the Islamic Middle Age Abstract

This study presents a reading in the dichotomy of the common people and the elite in the Arab society through the literature of the Islamic middle age via three principal levels:

The first level examined the history of the common people and the elite starting from the prophetic era, the rightful succession era, the Umayyad era and the Abbasid era. The second level examined the criteria of categorization in the literature of the middle age though tabling the pyramidal

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي

hierarchy of the Islamic society represented by the elite defined by the political criterion and the strength of power, the middle class defined by the economic criterion (power of money and knowledge), and the common class which is not defined by politics, money or knowledge. The third level examined the knowledge pyramidal hierarchy and depended for the definition of the dichotomy of the common people and the elite on the Sufi philosophical thinking.

لقد سُئِلَ أبو عثمان بن بحر الجاحظ "هل على الناس أن يتخذوا إماما وأن يقيموا خليفة؟"¹ أجاب "إن قولكم الناس يحتمل الخاصة والعامة..."، وهو ما يعني أن المجتمع الإسلامي قد ظهر بثنائية الخاصة والعامة ترجع إلى صدر الإسلام، يشهد على ذلك الأثر النبوي الكريم الفعلي منه والقولي. فالرسول صلى الله عليه وسلم "كان يجعل وقت العامة بعد وقت الخاصة"²، "جمع الرسول -صلى الله عليه وسلم- قريشا فخصّ وعم"³، كما أثر عنه عليه الصلاة والسلام قوله: "إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة"⁴، وقوله: "وتقبلون على أمر خاصتكم وتدرّون أمر عامتكم"⁵.

1- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ/868م): الرسائل السياسية، تقديم وشرح أبو مسلم علي، ط1، دار مكتبة الهلال، بيروت، د ت، ص307.

2- ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد، ت241هـ/855م): المسند، دار الفكر بيروت، د ت، ج4 ص192.

3- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ت261هـ/874م): المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتاب الإيمان، ج1 ص133.

4- ابن حنبل، المصدر السابق، ج4 ص192.

5- السجستاني (أبو داود سليمان بن الأشعث، ت275هـ/888م): سنن أبي داود، كتاب الملاحم، 124/4.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
هذه نصوص منتخبة من المأثور النبوي أثبتت على سبيل التمثيل لا الحصر لفهم
نقطتين مهمتين، أما الأولى فهو قدم استعمال الزوج (خاصة/عامة) في التراث العربي¹
الإسلامي على خلاف من ربطوا ظهورها بالفترة العباسية من خلال نص الجاحظ²
"... وعنهم أخذنا ترتيب الخاصة والعامة". ويقصد بذلك الفرس الذين رسخوا معنى
الترتيب الذي تميز به العصر العباسي عن الفترات المتقدمة عنه مما هيأ لهؤلاء الجزم بأن
الكلمتين من الموروث الفارسي.

أما النقطة الثانية فهو ما يحدثه هذان المفهومان من وقع على مرجعية الدارس
وهو يحاول أن يستحضر الخصوصية التي امتاز بها واقع المجتمع الإسلامي في بداية
تكوينه، فخاصة وعامة يعني انقسام الناس إلى طبقتين أساسيتين هما: طبقة الخاصة وطبقة
العامة.

والنظر إلى الكيان الاجتماعي بهذا التقابل أو التضاد بين طرفي الزوج يجعلنا
وجها لوجه أمام كلمتي "انقسام" و"تراتب" ما معنى المساواة الحاضرة بكل ضخامتها
في نصوص القرآن الكريم ومأثور السنة النبوية؟ ما معنى الانقسام والتراتب وهذا
التواجد للثنائي خاصة/عامة، ما دامت المساواة بين الناس هي القاعدة الأساسية التي
نشأ عليها المجتمع الإسلامي؟

I- ف. ف. ناووس فكس، مسألة "الخاصة والعامة" والمفهوم التقليدي لـ "النخبة" و"الجمهور" في
الإسلام، الإسلام في تاريخ شعوب الشرق، نشر ضمن أكاديمية "العلوم في الاتحاد السوفياتي، ترجمة
محمد هلال علي مهدي، دار الفارابي، بيروت 1986م، ص48.

2- التاج في أخلاق الملوك، تحقيق باشا أحمد زكي، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، ص23؛
التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أمين أحمد وزين أحمد، منشورات دار الحياة، بيروت، دت، ج2
ص212.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
من جهة ثانية "مقابلة" هل من العدل أن تكون هناك مساواة والتراتب فضيلة
من فضائل المجتمع الصالح؟ "لأن المدن الجاهلة لا مراتب فيها ولا نظام، والنظام سنة من
سنن الكون"¹ وأن "الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساوا هلكوا"².

إن التقاء هذه التساؤلات المتناقضة أمر لا بد منه، لأن مقابلة النص الديني
بالواقع التاريخي يحدث خلطاً منهجياً ومعرفياً بين الدين والواقع المتطور، فلكون
الإسلام يدعو إلى مجتمع الأخوة الموحد، والخليفة الحاكم يمثل السلطة الإلهية في دار
الإسلام، وكافة القوى كانت تستند في أيديولوجيتها على الدين، تواتر -خطأ- وبمرور
الزمن منظور مثالي غيبي لدى الكثير من الدارسين المسلمين، صوروا في إطاره حركة
المجتمع كما يجب أن يكون لا كما هو كائن بالفعل³.

أولاً/ تاريخية الخاصة والعامة في المجتمع العربي الإسلامي

I - العصر النبوي والراشدي

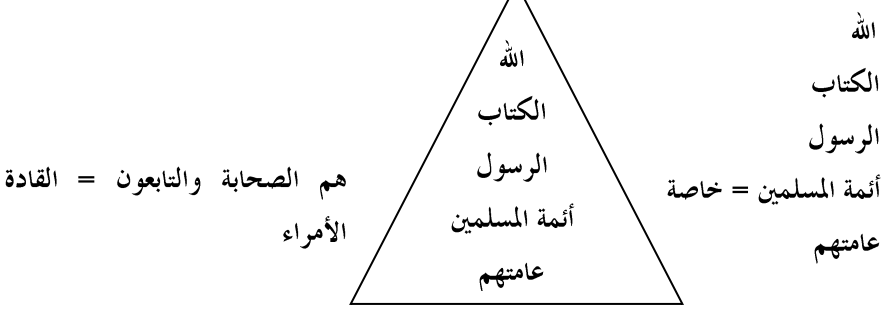
إن واقع المجتمع الإسلامي في بداية تشكله سواء في حياة الرسول صلى الله عليه
وسلم (المكية أم المدنية)، وفي زمن الخلفاء الراشدين الذين واصلوا ووسعوا مجال الدعوة
اقتداء بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولو بنسب متفاوتة وأشكال مختلفة. فالمرحلة
كانت مرحلة الفتوحات، وكانت الحاجة إلى القوة الأدبية والمادية للغزو والانتشار هي
الصورة الواضحة للفترة، فكان من الطبيعي أن يكون الصحابة والتابعون هم القادة
والأمراء، وتكون الرعية هم الجنود، فقد ورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم

I- الفارابي(أبو نصر محمد بن محمد، ت339هـ/950م): آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق نادر ألبير
نصر، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959م، ص128.

2- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد، ت328هـ/940م): كتاب العقد الفريد، منشورات دار
الكتاب العربي، بيروت، 1982م، ج3 ص33

3- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980م، ج I ص100.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
 "الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"¹؛ فهذا
 الحديث يكشف بوضوح أكثر من غيره عن مدلول هذا الترتيب:



ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل لفظ العامة جامعا لأبناء المجتمع غير
 أولي الأمر²، وأولي الأمر في البداية هم الأمراء والقادة الذين سيصبحون فيما بعد أهل
 الحل والعقد³ بالمفهوم الواسع وبالتالي كانوا خاصة وكانت الرعية عامة.

إن هذه الهرمية (التراتبية)، الزوج خاصة/عامة فرضه الواقع التاريخي في هذه
 الفترة فمن العدل أن يكون هنالك تراتب وقد تجسد هذا المفهوم في سلوك الخليفة
 الفاروق "العادل" عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت23هـ/643م) والتغيير الذي
 أحدثه في ديوان العطاء⁴ فَفَضَلَ السابقة من شهد بدر وقبلهم من أزواج الرسول صلى
 الله عليه وسلم ثم من هاجر قبل الفتح، ولمن أسلم بعد الفتح، ثم فرض للناس على

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج 1 ص 53.

2- "أولوا الأمر المأمور بطاعتهم، هم الأمراء والعلماء لأن الأمر منهم والحكم إليهم والعلماء يجب
 العمل بفتواهم ..."، أنظر: ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، ت543هـ/1148م):
 أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1987م، ج I ص 451.

3- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد، ت450هـ/1058): الأحكام السلطانية، تحقيق عبد الرحمن
 عميرة، دار الاعتصام، القاهرة، 1995م، ج I ص 63-65.

4- أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ج 2 ص 421-423.

ثنائية الخاصة والعامّة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
 منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، فجعل الديوان موضوعاً على دعوة العرب في
 ترتيب الناس فيه، معتبراً بالنسب وتفضيل العطاء ومعتبراً بالسابقة في الإسلام وحسن
 الأثر في الدين، ثم روعي التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء
 في الجهاد، كما عاتب عمر بن الخطاب أبو بكر الصديق رضي الله عنه
 (ت13هـ/634م) حين سوى بين الناس فقال "أتسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى
 القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟" فرد عليه أبو بكر "إنما عملوا لله وإنما
 أجورهم على الله وإنما الدنيا دار بلاغ". فردّ عليه عمر بمقولته الشهيرة "لا أجعل من
 قاتل رسول الله كمن قاتل معه"¹.

فحينما نقابل بين أهل الرسول وقربائه وصحابته وأولي السابقة والقادة والأمراء
 والعلماء (أهل الحل والعقد) وبين الرعية بمفهومها العريض بما فيهم الطلقاء والمؤلفة
 قلوبهم²، أو الهاربون من غرم الجزية³ نجد المساواة أمراً مستحيلاً ويظهر معيار التقوى
 والورع والإيمان والعمل (الجهاد) أساس التفاضل بين الناس مصداقاً لقوله عز وجل:
 (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)⁴، (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَلْمُونَ وَالَّذِينَ لَا

1- الماوردي، المصدر السابق، ج 2 ص 421.

2- أنظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت213هـ/828م): المعارف، تحقيق ثروة عكاشة،
 ط2، دار المعارف، مصر، 1969م. يورد أسماء المؤلفة قلوبهم، ص342، وأسماء المنافقين، ص343.

3- البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى، ت279هـ/892م): فتوح البلدان، تحقيق الطباع عبد الله
 أنيس والطباع عمر أنيس، دار النشر للجامعيين، دم ن، 1957م، ص33-49.

4- سورة الزخرف، الآية: 32.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
يَعْلَمُونَ¹، (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)²، "الله فضل
بعضكم على بعض في الرزق"³.

إن الخاصة التي تظهر بهذا المعيار تجعل الاندماج بين قمة الهرم الاجتماعي -
الخاصة- وبين سفحه -العامة- له ما يبرره على مستوى الواقع، فقد ترجمته⁴ الأحداث
التاريخية ومستوى التطبيق الفعلي للنص القرآني والسنة النبوية، وكانت دلالة المساواة
حاضرة بين الناس فهم من الناحية الاجتماعية متساويين بغض النظر عن الجنس أو
اللون أو الثروة أو الجاه أو المكانة وبالتالي فالناس سواسية كأسنان المشط فلا حواجز
متحجرة بين القمة والقاعدة، وبالتالي لا يمكن تحميل بعض الألفاظ مثل "انقسام"
و"تراتب" و"مساواة" أكثر من طاقتها الدلالية وخصوصيتها التاريخية.

2- العصر الأموي: إلا أن هذا الاندماج بين القمة والقاعدة لم يدم طويلاً،
وبدأ التوزع والتبعثر بداية معاوية بن أبي سفيان (ت60هـ/979م)، وعلى امتداد
الدولة الأموية (40-132هـ/660-749م) بكل مراحلها وخصائصها، ومن العبث
إغفال حقيقة أجمعت عليها معظم المصادر، وعبر عنها ابن خلدون بكثير من الصراحة
والعمق وهي انقلاب الخلافة إلى ملك عضود، "وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد
الرعية ويحجي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور، ولا يكون فوق يده يد قاهرة...".

1- سورة الزمر، الآية: 9.

2- سورة المجادلة، الآية: II.

3- سورة النحل، الآية: 71.

4- هو ما يتجسد في فترة الصحابة إذ تحفل المصادر بنماذج كثيرة، أنظر: ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت650هـ/1252م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت؛ الكاندهلوى (محمد يوسف): حياة الصحابة، تحقيق لجنة من العلماء والباحثين، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
ويجري ابن خلدون مقارنة بين الملك والخلافة "فالملك طبيعي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضارّ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها..."¹، فمن مقتضى الغرض والشهوة ومقتضى النظر العقلي إلى مقتضى النظر الشرعي اصطدم المثال بالواقع وتقاطع خطي ما يجب أن يكون وما هو كائن، ومن هنا بدأ الإشكال يأخذ بعداً آخر والذي يمثل حجر الزاوية في هذه الدراسة.

تظهر دولة الملك بكل دلالاتها ومستلزماتها، وأول صورة برزت أنّها لم تستلهم النموذج والمثال من حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء الراشدين ولا يمكن أن نتبع مظاهر هذا الملك بتجاوزاته ونتائجه لأنه ليس من أهداف الدراسة بقدر ما نريد أن نوضح بداية الانفصال النبوي بين "القمة" و"القاعدة".

إن أدبيات العصر الإسلامي الوسيط قد احتفظت لنا بالنظرة الأموية في تقسيم المجتمع، وفقاً للمرحلة الجديدة التي تعيشها، وسنعرض ثلاث روايات أموية أما الأولى فقد سأل معاوية صعصعة بن صوحان صف لي الناس، فقال: "خلق الله الناس أطواراً (أخفافاً)، فطائفة للسياسة (السيادة والولاية)، وطائفة للفقهاء والسنة (العبادة)، وطائفة للبأس والنجدة، وآخرون (رجرجة) بين ذلك يكدرون الماء ويغفلون الأسعار ويضيقون الطريق"². والرواية الثانية، مقولة لزياد بن أبيه لما ولي البصرة (ت53هـ/672م) "أني رأيت ثلاث نبتت إليكم منهن النصيحة، لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف شرفه إلا

1- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ت808هـ/1406م): المقدمة، ط2، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961م، ص333، 338.

2- الجاحظ، المصدر السابق، ص483.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
عاقبته، ولا كهل يحدث لم يعرف سنه إلا عاقبته، ولا عالم بجاهل لم يعرف عنته إلا
عاقبته، وإنما الناس بأشرفهم وذو سنهم وعلماهم"¹.

أما الرواية الثالثة فنسب لشهاب الزهري حين قدم على الخليفة عبد الملك بن
مروان وسأله من يسود مكة فأجابه بأنه عطاء بن أبي رباح، فسأله عن أصله "أفمن
العرب هو أم من الموالي" فأجابه "من الموالي" فسأله الخليفة "بما سادهم" أجابه
"بالديانة" فعلق بأن قال: "أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا"، فقال: من يسود أهل
اليمن؟ قلت: طوس بن كيسان، قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت: من الموالي
قال: فبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن
أبي حبيب قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت: من الموالي قال: فمن يسود
الشام؟ قلت: مكحول قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت من: من الموالي عبدا
نوتي أعتقته امرأة من هذيل قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران قال:
أفمن العرب هو؟ قلت: من الموالي قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن البصري
قال: أفمن العرب هو؟ قلت: من الموالي قال: ويلك فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت:
إبراهيم النخعي قال: أفمن العرب؟ قلتك من العرب قال ويلك فرجت عني والله
ليسودن الموالي العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها قلت: يا أمير المؤمنين
إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط².

إن الرواية وإن حددت الدين كمييار أساسي في السؤدد "من حفظه ساد ومن
ضيعه سقط" فبقية الحوار الذي تم بين الخليفة وابن شهاب الزهري يبين عمق الألم

I- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة،
بيروت، دت، 315/I.

2- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد، ت414هـ/1023م): البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي،
ط1، دار صادر، بيروت، 1988م، 85/8.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
الذي يحدّثه سيادة مولى على عربي، ومن سبع موالي سادوا كل من أهل مكة، واليمن،
ومصر، والشام، والجزيرة، والبصرة، وخراسان وعربي واحد يسود الكوفة يصبح وقعها
قويا على أمير أموي عربي ترجمتها مقولته "ويلك من يسود الكوفة" ولما يفسح له بأنه
عربي بعد سلسلة طويلة من الموالي ينبسط انبساطا مشوبا بعدم الرضا (فرجت عني).

يتضح بجلاء من خلال هذه الروايات الثلاث أن المفاهيم العربية القديمة التي
وجدت في العصر الجاهلي قد عادت من جديد كالسيادة والشرف والسن:
أما السيادة فهي منزلة ودرجة لا تتأني لأحد إلا باعتراف قومه له بسيادته
وبتصويبهم له سيدا عليهم، والسيد الذي فات غيره بالعقل والمال والنفع والدم،
والسادات هم الرؤوس، رؤوس الناس أما من دونهم فأذئاب، وعرفوا بأذئاب الناس
وذئبتهم أي أتباعهم¹، وأما الشرف فهم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم
فسادوا، ويقال لأشراف القوم والبارزين منهم وجوه القوم²، وللسن أهمية كبيرة عند
العرب، فالإنسان إذا تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله،

I- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن كرم، ت 711هـ/1311م): لسان العرب، تحقيق عبد الله علي
الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج 3 ص 2144؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب
قبل الإسلام، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1970م، ج 4 ص 559-544.
2- ووجهاء القوم وأما السروات مثل سروات الأنصار وسروات قريش ففي هذا المعنى وجوه
الأنصار وأسرانهم وسري هو الرئيس وتعني كلمة النواصي خيار العرب وأشرافهم فيقال هو ناصية
قومه أو هو من ناصيتهم والناصية الأخيار والأشراف. ابن منظور، المصدر السابق، ج 3 ص 2241، ج 6
ص 4448؛ جواد علي، المرجع السابق، ج 4 ص 560؛ البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد
الله، دار المعارف، مصر، 1959م، ج I ص 20.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
لذلك يكون مرجحا لمن هو دونه في العمر، وملاذا في المشورات ويعبر عنهم "بذوي
الأسنان"، "الأكابر والأشراف"، لذلك جعلوا في الطبقات العليا من الناس¹.

وأضيف إلى هذه المفاهيم القديمة مفاهيم جديدة كانت الصيغة الإسلامية
واضحة في تكوين بنية المجتمع الإسلامي وهي على التوالي: الموالي وأهل البأس والنجدة
وأهل الفقه والسنة؛ ذلك أن اتساع الرقعة الجغرافية - وهذا من أهم مميزات العصر
الأموي - ترتب عنه دخول الموالي بشكل كبير إلى الدولة الإسلامية - الأماصار أدى إلى
انفجار اجتماعي بدأ يعطي ملامح جديدة للمجتمع الإسلامي، أحييت فيه النعرة القبلية
العصبية والصراع² إلى جانب كونه قيسيا يمينيا فهو عربي - أعجمي أيضا - وأصبح
المجتمع عربيا وغير عربي، متمايز بين عرب سادوا³ بحق الفتح والدين وقوة السلطة،
وغير عرب عدوا رعية من الدرجة الثانية عليهم الكثير وهم القليل وأهم مظهر من

I- ابن منظور، المصدر السابق، ج 3 ص 2122؛ حواد علي، المرجع السابق، ج 4 ص 56؛ يراجع:
ر.ب. سرجنت، "الطبقات الاجتماعية" في شبه الجزيرة العربية، نشر ضمن ملتقى المدينة الإسلامية،
ص 133-153.

2- حول هذه المسألة أنظر ابن قتيبة، المعارف، تحقيق عكاشة ثروت، ط2، دار المعارف، مصر،
1969م، ص 350، 420، 421، 422؛ والجاحظ، الرسائل السياسية، تقديم وشرح أبو مسلم علي، ط1،
مكتبة الهلال، بيروت، د ت، ص 476، 482، 483؛ وابن خلدون، المقدمة، ص 326-327. بوبة مجاني:
أثر العرب اليمينية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، رسالة ماجستير مرقونة،
جامعة القاهرة، 1982م، ص 165.

3- إن السيادة الأموية تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، فهم ممثلو الأرستقراطية القرشية القديمة،
وسادة تجار مكة، وأصحاب رؤوس الأموال فيها، ولما دخلوا إلى النظام الجديد بعد الإسلام
استطاعوا بالسيادة والقوة والسيف أن يعودوا إلى مكانتهم القديمة. أنظر: رسالة مفاخر بني أمية،
الجاحظ، الرسائل السياسية، ص 436، 439، 440، 443؛ ونييه عاقل: ملاحم الصراع الطبقي في
التاريخ العربي، مجلة دراسات تاريخية، عدد 43، 44، 1992م، دمشق، ص 91، 92.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
مظاهر هذا التفاوت الطبقي بين العرب في العصر الأموي هو اضطراب كل مسلم غير
عربي أن ينتمي بالولاء لقبيلة عربية وعليه انقسم المجتمع إلى طبقتين تتمايزان بوضوح،
طبقة العرب وطبقة الموالي، هذه الأخيرة التي بدأت تشعر بتواجدها الهامشي وأضحت
تبحث عن وسيلة إعادة الاعتبار لمكانتها الاجتماعية¹، فكان الولاء طريق الموالي
للاستعراب في ظل الدولة العربية الإسلامية، وهذا الاستعراب تم على مستويين
الاستعراب اللساني بتعلم العربية والاستعراب الاجتماعي النسبي بالانتماء إلى القبائل
العربية وأنسابها، إن الولاء لحمة كلحمه النسب².

ثم إن مرحلة الفتوح أعطت سمة أخرى للمجتمع الأموي، وهو المجتمع المحارب
أناطت فيه السيادة بالقوة العسكرية -طائفة البأس والنجدة- لأنها مرحلة توسع، وكان
الاعتماد على الجند الذين اكتسبوا أهمية خاصة في ظل دولة تقوم مواردها الاقتصادية
على ريع الفتوح، فالمدن التي نزلها العرب أول الأمر كانت تعج بالقبائل العربية المحاربة،
وأصبحت مراكز تجمعات حضرية زالت عنها الصفة العسكرية ونشطت فيها الفعاليات
المدنية.

إن اتساع المجتمع الجديد تطلب نظاما جديدا إذ أضحت العلاقة بين الثنائي
خاصة/عامة مغايرة عما كانت عليه سابقا من مرونة واندماج، بل صارت تتوسط بين
طرفيه أجهزة إدارية ومؤسسات جديدة أحدثت الانفصال بين القمة والقاعدة، أو بين
الخاصة والعامة أو بتعبير أكثر دقة بين السلطة والرعية، لترتبط الخاصة في بنيتها

1- أنظر: رسالة في مناقب الفرس والتürk ومفاخر الموالي، الجاحظ، الرسائل السياسية، ص483.

2- أنظر: الجاحظ، الرسائل السياسية، ص483؛ وابن منظور، المصدر السابق، ج6 ص492؛ ابن
خلدون، المصدر السابق، ص237، 238؛ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر
العصر الأموي، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988م، ص135، 146، 147.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وعناصرها المميزة بالدولة أو الولاية مكونة الطبقة الحاكمة، وترتبط العامة بقطاعها
العريض بالمجتمع مكونة الطبقة المحكومة.

لقد تغيرت الخاصة في تركيبها وبنيتها بناء على ما وقفنا عليها من جديد في
ظل حكم الأمويين، سواء في العاصمة المركزية أو الولايات التابعة، وأصبحت الخاصة
مقتفية سياسة "الخليفة" أو "الأمير" ولمن يراهم "أوفياء" و"ثقاة"، ويраهم هو خاصة له
فأصبح انتقاؤها له ما يبرره على المستوى الديني والسياسي¹ وبعد الثورات التي قامت
بها فرق الخوارج والعلويون والشيعية على الحكم الأموي، تشكلت قوة معارضة من
العلماء "أهل الفقه والسنة" و"أهل العبادة" خرجت عن طاعة السلطة وبالتالي الدولة،
بهذا الطرح فالذين يشكلون "نخبة" خارجة عن دائرة السنة تكون بالضرورة خارجة عن
دائرة الدولة، وعززت هذه المعارضة قوتها باحتواء غضب وتذمر العامة -الموالي منهم-
من تجاوزات السلطة الأموية وشكلوا سلطة أدبية وروحية لها، هذا الاحتواء من قبل
المعارضة للعامة جعل المجتمع ينقسم إلى جانب الانقسام الأفقي انقساماً عمودياً²
شخصها ابن العربي³ بكثير من الوضوح والعمق في قوله "كان الأمراء قبل هذا اليوم
وفي صدر الإسلام هم العلماء والرعية هم الجند فاطرد النظام وكان العوام والقواد فريقاً

1- عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1998م، ص258.

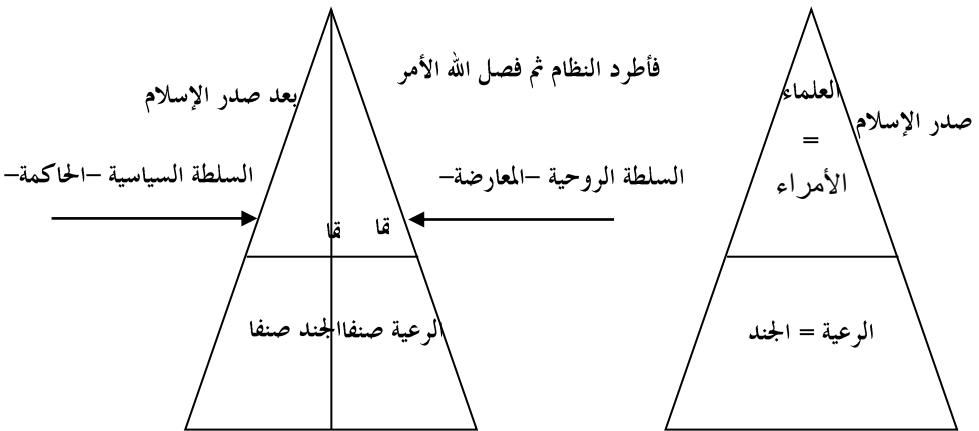
2- محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت،
1991م، ص333.

3- هذا النص أورده ابن الأزرق (أبو عبد الله، ت896هـ/1490م): بدائع السلك في طبائع الملك،
تحقيق وتعليق علي سامي النشار، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978م، ج1
ص391.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
والأمراء آخر ثم فصل الله الأمر بحكمته البالغة وقضائه السابق، فصار العلماء فريقا
والأمراء آخر وصارت الرعية صنفا، وصار الجند آخر، فتعارضت الأمور ولم ينتظم
حال الجمهور وطرح الناس عن الطريق".

من خلال هذا النص يتبين اندماج بين القمة والقاعدة -الخاصة والعامة- فالمعيار
هنا ديني مع أن مفهوم الرعية تجلى في الجند لأن الفترة هي فترة الدعوة والفتوح، وعليه
كان الانقسام أفقي في الهرم الأول وانقسام عمودي في الهرم الثاني على مستوى القمة
العلماء فريق، والأمراء فريق كبنية جديدة للخاصة لا يميزها العلم والتدين فقط بل
السياسة أيضا. وانقسام عمودي آخر على مستوى القاعدة الرعية بقطاعها العريض ثم
الجند الموالي لحكم السلطة، فهذا التشخيص نجده تقريبا في معظم الدول والإمارات التي
انشقت عن السلطة المركزية.

يمكن قراءة النص من خلال الشكلين التاليين:



ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
لقد أصبحت الأزواج المفاهيمية السابقة انقسام/مساواة خاصة/عامة تحمل أبعادا
ومعطيات غير الخاصة والعامة التي ظهرت بكثير من القداسة في فترة الدعوة والخلافة
الراشدة -صدر الإسلام- بل تحكمت فيها معايير جديدة تعكس التنظيم السياسي بكل
مقوماته ودعائمه النظرية والتشريعية، رسختها الدولة العباسية بكثير من العمق والتقنين.

3- العصر العباسي:

لقد شكل الانتماء إلى الخاصة، والانتماء إلى العامة حلقة من حلقات الدستور
العباسي المأخوذ عن الفرس، إذ أقر الجاحظ¹ "عندهم أخذنا قوانين الملك والمملكة،
وترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية وإلزام كل طبقة حظها والاقتصار على
جديلتها". هؤلاء الفرس الذين دخلوا إلى الكيان الإسلامي على المستوى الرسمي
والشعبي، ومارسوا نوعا من الوصاية السياسية والثقافية على البلاط العباسي وبطانته
قننتها طبقة الكتاب والأدبيات السلطانية².

يعتبر عبد الله بن المقفع (ت148هـ/765م) من أوائل الكتاب -ومعظمهم من
ذوي أصول فارسية³ - الذين ألحوا على ضرورة تمييز الناس بجعلهم "طبقتين متباينتين
يلبس لهم لباسين مختلفين، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحفظ في
كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الانسة
واللطفة والبذلة والمفاوضة، ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من الألف، وكلهم ذو
فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السر ووفاء بالإخاء"⁴.

I- التاج في أخلاق الملوك، ص23.

2- ظهور الكتابة كحرفة سلطانية ارتبطت بالخليفة (الملك)، أنظر حول هؤلاء الكتاب ابن النديم (أبو
الفرج محمد بن اسحاق، ت385هـ/1047م): الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، دت، ص168.

3- ابن النديم، المصدر السابق، ص421-424.

4- ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار بيروت، بيروت، 1980م، ص22.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواق

وابن المقفع من موقعه ككاتب يحدد في تأليفه المعايير السياسية لتقسيم الناس إلى خاصة وعامة وفق الميراث الساساني، وقد لقي هذا التقسيم في الكتابات اللاحقة رواجا وتطورا كما هو عند الجاحظ (ت255هـ/868م) الذي نسب له "التاج في أخلاق الملوك". وهو في سيرة ملوك الفرس وقد أضيف له فصل في سيرة بعض بني العباس ليظهروا.مظهر المستلهمين لسيرة أولئك الملوك الفرس والمقتفين آثارهم في سياسة الملك، فعلى سبيل المثال يجمع الجاحظ بين حكي آنوشروان ومعاوية بن أبي سفيان وبعض أهل العلم بحكي هارون الرشيد كتفرد الملك بالتصيب والتجمل ونحوهما وما يلفت الانتباه حول سيطرت النموذج الفارسي في عقلية الكتاب واتجاهاتهم حينما تنظر إلى التسوية بين الطبقات في أيام يزيد بن عبد الملك فنجد الجاحظ قد عابه وانتقده لأنه خالف ما كان يقوم به ملوك الأعاجم والعرب، فأقسام الناس عند الفرس أربعة: القسم الأول هم الأساورة من أبناء الملوك والقسم الثاني النساك وسدنة بيوت النار والقسم الثالث الأطباء والكتاب والمنجمون أما القسم الرابع فهم الزراع والمهان وأضراهم¹.

وعليه فقد حاول هؤلاء الكتاب النظر إلى المجتمع العباسي بخلفية فارسية، وأضحت مقولات أردشير بن بابك الذي عرفته الأدبيات الناقلة عن الفرس بأنه أوّل من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب في الآداب الملوكية، وعلم مراتب الخلق في الديوان، ونصب الموبدان، وأصبح تقسيمه للناس الميثاق الشائع بينهم في رسم سياسة الحكام وأسلوب التعامل مع الخاصة والعامة، ومن أهم العهود التي عهد بها أردشير نصيحته الشهيرة "ما من شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتى يرفع الوضع إلى مرتبة الشريف ويحط الشريف إلى مرتبة الوضع"²، وفي موضع آخر عند صاحب "آداب الملوك"¹ ينصح أردشير الملك

I- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص25-30.

2- المصدر السابق، ص24.

ثنائية الخاصة والعامّة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
"سوسوا الأحرار والأشراف باللين والعطف والأنذال والأراذل بالغلظ والعنف وامزجوا
العامّة الرغبة بالرهبة واللين بالشدة".

ولا يتعد ابن الطقطقي² عن الجاحظ والثعالبي في مصنّفه "الفخرى في الآداب
السلطانية" وهو يحدّد نوع المعاملة لكل صنف من أصناف الرعية فالأفضل يساسون
بمكارم الأخلاق والإرشاد اللطيف والأوساط يساسون بالرغبة المزوجة بالرهبة والعوام
يساسون بالرهبة والزمامهم الحدّد المستقيم وقصرهم على الحق الصريح.

إن النظام الكسروي لم يخل من إشادة وتمجيد له عند الجهيشاري³
(ت331هـ/942م) الذي وجدها فرصة لإثارة انتباه البلاط العباسي إلى الدور البالغ
الذي كان يضطلع به الكاتب في دولة بني ساسان، وما كان يتمتع به من قدرة على
التدبير حتى في مواطن الظلم، وعند مرافقته للجيوش وأرباب السيوف، فعهود أردشير
تؤكد على أهمية الوزير في التراتب السياسي في كل دولة، سلطتي القلم والسيوف.
كعائلة "البرامكة" و"بني سهل" الذين نجحوا في الترويج داخل بلاط الخلفاء والسلطين
للنموذج السياسي الكسروي، وقد حفل مصنّف "الكتاب والوزراء" على نصوص
مهمة حول شريحة الكتاب والوزراء، وترسيخهم كخاصة سياسية كانوا هم نواها
وبنتها.

لقد حاول هؤلاء الكتاب أن يطبقوا الناس إلى طبقات ويرتبوا مراتبهم ويتزلوهم
على منازلهم، فالماوردي في نصيحته الخامسة للملوك في سياسة العامّة كان تقسيمه
للمجتمع يتقرب مع تقسيم الجاحظ إلى حد التناس، مما يوضح دلالة التأثير الفارسي

1- الثعالبي، آداب الملوك، تحقيق عطية جليل، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص81.

2- الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت، بيروت، 1966م، ص4.

3- كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاري، ط1، دار الصاري، القاهرة، 1938م،

ج6ص134-249.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
على مستوى المضمون والشكل، خاصة مبنى اللغة فعلى الملك "أن يعرف طبقات الناس
ومراتبهم من أبناء الملوك وأشرف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم والعلماء
والنساك وذويهم وأرباب الصناعات والأراضين والتجار والصناع والمهنة وأصحاب
الأقدار منهم ويرتبهم مراتبهم ويتزلهم منازلهم"¹.

ومسألة "إنزال الناس منازلهم" بدأت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دون
الديوان ونادى "أكتبوا الناس على منازلهم، وابدأوا ببني هاشم فكتبوهم بقرابة الرسول
صلى الله عليه وسلم، فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله... ثم فرض للناس
على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم..."².

إن فكرة "إنزال الناس منازلهم" في العصر الإسلامي الوسيط، كانت من "مظاهر
العدل السياسي والاجتماعي"³ وإن تغير النسب فيما بعد من قرابة الرسول صلى الله
عليه وسلم إلى قرابة الخليفة أو الأمير ومن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى
صحابه الخليفة أو الأمير، فقد تشكل المبدأ الأساسي الذي جرى عليه أي تفاضل "فإن
أرادت العامة منازل الخاصة حسدتها عليها وتمنت أمثالها..."⁴، وإن أردت أن تبلغ
أحضى درجة الآداب وأهلها "فاصحب ملكاً أو وزيراً"⁵.

1- الماوردي، نصيحة الملوك، تحقيق خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، بيروت، د ت، ص205.

2- الماوردي، الأحكام السلطانية، ج2 ص419-422.

3- الجابري، المرجع السابق، ص332.

4- التوحيدي، البصائر والذخائر، ج1 ص277.

5- ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد، ت بعد 290هـ/902م): مختصر كتاب البلدان،

مطبعة ليدان، 1885م، ص1.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
إن هؤلاء الكتاب الذين طعموا الثقافة العربية والمجتمع الإسلامي بعناصر أجنبية
جديدة وروجوا أدبا سياسيا فارسي المرجع¹، قسموا الناس بالنظر إلى أنفسهم إلى
قسمين، وهنا تلميح واضح إلى خاصة تتشكل من شرائح يكونون هم على رأسها
باعتبارهم "الصحابة"²، المميزين بالقدرات العقلية والصفات المعنوية لدى الأمير وبالتالي
فهم بعض خاصته فلا يشدنا العجب من مقولة المأمون (ت218هـ/833م) "السوقيون
سفل والصناع أنذال والتجار بخلاء، والكتاب ملوك على الناس"³؛ ومن هنا يجب أن
تتحدد العلاقة بين الأمير والخاصة والعامة، كانت على شكل نصائح أخذت بعدا
نظاميا مقننا، مما جعل الخاصة والعامة منذ بداية العصر العباسي كمصطلحين يحلمان
تركيبا جديدا ومعايير متداخلة لها أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية.

ثانيا/ معايير التصنيف الطبقي في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط

I- جدولة للهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي:

لا يمكن دراسة الخاصة والعامة بمعزل عن المعايير الأساسية المحددة للتصنيف
الطبقي للمجتمع من خلال أدبيات العصر الإسلامي الوسيط، ولأن العامة بمدلولها
اللغوي ومنظور المصادر إليها لا تتسع لها هذه الدراسة التي تحاول أن تقدم قراءة
للهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي في العصر العباسي عن طريق الجداول التالية لأنها
تعد اللغة الناطقة القادرة على توضيح أكثر من الكتابة النثرية، وقد أمدتنا بعدة قراءات:

I- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،
1996م، ص145.

2- ابن المقفع، رسالة في الصحابة ضمن جمهرة رسائل العرب، تصنيف صفوت أحمد زكي، المكتبة
العلمية، بيروت، دت، ص44.

3- ابن الفقيه الهمداني، المصدر السابق، ص1.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
 - الأولى: يجب أن ننظر إلى الجدولين لنلاحظ أن هناك تقسيمان شائعان للمجتمع الإسلامي في العصر العباسي، ولكل قسم قراءته - تقسيم رباعي والآخر ثلاثي.

- الثانية: إن التقسيم الثلاثي نوعان الأول مستمد من خلال كتب الأدب ومرايا الملوك من أقوال الأمراء والكتاب والنوع الثاني من خلال آراء الفلاسفة والأصوليين والمتكلمين

- الثالثة: هو قراءة هذه الجداول قراءة عمودية، وذلك لمعرفة الترتيب من الذين يبدأ بهم إلى أن نصل إلى الذين ينتهي إليهم - كل عمود على حدة.

- الرابعة: هو قراءة هذه الجداول قراءة أفقية لمقابلة النصوص لنلاحظ عمق التناسل الموجود بينها ودرجة اتفاقها واختلافها في تغيير بعض المراتب خاصة المستوى الثاني والثالث.

- الخامسة: أن هذه الجداول تمنح المعايير الثلاث في التقسيم الطبقي للمجتمع (المعيار السياسي والاقتصادي والمعرفي)، فالنص الواحد من هذه النصوص يستدل به في كل المعايير مما يعطي دلالة التداخل.

- التقسيم الرباعي:

طبقات الناس عند المأمون أربع ³	طبقات الناس عند الماوردي أربع ²	طبقات الناس عند الفرس أربع الجاحظ ¹	طبقات الناس عند الأحنف بن قيس أربع مجازا ²	طبقات الناس عند الفضل بن يحيى أربع ¹
---	--	---	--	---

I- ابن الفقه الهمداني، المصدر السابق، ص I.

2- المصدر السابق، ص I.

I - سيادة/إمارة	I - الملوك والأشراف وذوي الأחסاب والأنساب وأولادهم	I - الأساورة من أبناء الملوك	I - رؤوس رفعهم الحظ	I - ملوك قدمهم الاستحقاق
2- وزراء	2- العلماء والنسك وذويهم	2- النسك وسدنة بيوت النار	2- أكتاف عظيمهم التدبير	2- وزراء فضلتهم الفطنة والرأي
3- تجارة	3- أرباب الضياع والأرضين والتجار	3- الأطباء والكتاب والمنجمون	3- أعجاز شهرهم المال	3- عليّة أنصفهم اليسار
4- زراعة - وما سوى ذلك فإنهم يغفلون الأسعار ويكدرون المياه	4- الصناع والمهنة	4- الزراع والمهتان وأضرابهم	4- أدباء ألحقهم بهم التأدب - ثم الناس بعدهم أشباه	4- أوساط ألحق بهم التأدب - والناس بعدهم زبد وجفاء وسيل غناء لكع

I - الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص30.

2- الماوردي، نصيحة الملوك، ص205.

3- الراغب الأصفهاني، المصدر السابق، ص459؛ البيهقي، المحاسن والمساوي، مطبعة السعادة، مصر،

د ت، ج I ص77.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي

			ولكاع وريضة أقضاع هم أحدهم طعمه ونومه	البهائم إذا جاعوا ساموا وإذا شبعوا ناموا
--	--	--	--	---

- التقسيم الثلاثي (النوع الأول):

ابن رسته ¹ الناس ثلاثة طبقات	الجاحظ ² الناس ثلاثة أنماط	العامري ³ الناس ثلاثة أصناف	ابن الطقطقي ⁴ الناس ثلاثة أصناف
I- الرؤساء والأجلة الخاصة	I- المملوك الخاصة	I- ملوك أعزة ولاة المنابر الخاصة	I- الأفاضل الخاصة
2- ويلبهم الأوساط الطبقة الوسطى	2- النمط الأوسط الطبقة الوسطى	2- أصحاب المغازي حازوا نعمًا جسيمة وأملك عريضة الطبقة الوسطى	2- الأوساط الطبقة الوسطى
3- السوق العامة	3- العامة	3- الجمهور العامة	3- العوام

1- الأعلام النفيسة، ليدن، 1891م، ص153.

2- المصدر السابق، ص17.

3- العامري: الاعلام بمناب الإسلام، تحقيق عزاب أحمد عبد الحميد، دار الكتاب العربي، القاهرة،

1967م، ص13.

4- المصدر السابق، ص41.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي

– التقسيم الثلاثي (النوع الثاني):

الفارابي ¹ الناس ثلاثة طبقات	الغزالي ² الناس ثلاثة أصناف	ابن رشد ³ الناس ثلاثة أصناف	البقاعي ⁴ أقسام الناس ثلاثة
I- الخواص الفلاسفة	I- خواص	I- خواص	I- الموصوفون بحدة الخواطر والأذهان ووقور العقول والألباب المتفرغون للتأمل - خواص-
2- علماء الدين الجدليون المتكلمون والفقهاء	2- أهل جدل المتكلمون الجدليون	2- أهل جدل الفقهاء المتكلمون	2- الموصوفون برجاحة العقول والمشتغلون بالمصالح الدنيوية والمكاسب التي يقوم بها أسباب المعاش - الأوساط-
3- العامّة والجمهور	3- عوام	3- الجمهور - العوام-	3- المجهولون على بلادة الأفهام وغلط الخواطر عوام

I- المصدر السابق، ص43، 44.

2- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سليمان دنيا، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1961م، ص96.

3- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تقديم أبو عمران الشيخ وجلول البدوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص60.

4- مقامة الإعلام بأهل العلم والعوام ضمن مجموع مخ دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 17934، ص81، 82.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
لقد ورد المجتمع الإسلامي في العصر العباسي بتقسيمين شائعين، تقسيم ثلاثي
وتقسيم رباعي، ولكلا التقسيمين دلالة، فالثلاثي يوضح بعمق الطبقات الثلاث
للمجتمع بين الملوك والأوساط والعامة، وأهمية هذا التقسيم تكمن في إجرائيته وتوضيح
الأوساط في الهرم الاجتماعي، وإن عابه شرائح هذه الطبقات الضامرة، وهي مزية
نجدها في التقسيم الرباعي لأنه يوضح التقسيم الثلاثي ويبيّن ملامح وشرائح كل طبقة
من الطبقات الثلاث سواء تصريحاً أم ضمناً.

2- المعيار السياسي -الخاصة وجاه السيف:-

إن القراءة الأفقية للجدول تعطي تركيبة الخاصة التي تبلورت منذ بداية العصر
العباسي، وقد تم الوقوف عندها من خلال طبقة الكتاب والأدبيات السلطانية وأعطت
للسلطة والسلطان المعيار الأول في بنية خاصة المجتمع، ترسخ أكثر مع امتداد العصر
العباسي -زمان ومكاناً.

فالفضل بن يحيى البرمكي (ت193هـ/808م)، من موقعه كفارس الأصل
وزبير أول لدى الخليفة هارون الرشيد (ت193هـ/808م)، يبدأ "بالمملوك قدّمهم
الاستحقاق"¹ وهم مجازاً "رؤوس رفعهم الحظ" "وأسود يفرسون ويأكلون"، وتصريحاً
عند المأمون في السيادة والإمارة، وعند الفرس "الأساورة من أبناء الملوك" وعند
الموردي "الملوك والأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم" وعند العامري
"ملوك أعزة وولاة المنابر والأسرة نفذ حكمهم على الأقربين والأبعدين".

الحديث عن "الملك" و"السلطان" و"الخليفة" و"الأمير" يقود للحديث عن الجاه
لأنه جزء من السلطة والسيادة والمطلب المفضل للارتقاء، فالكلمة تعني لغويًا² المتزلة
والقدرة عند السلطان، ويعد فقدان الإنسان قدره من أسوأ النكبات فالخير والسعادة

I- التوحيد، الإمتاع والمؤانسة، ج2 ص218.

2- ابن منظور، المصدر السابق، ج I ص734.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
مقترنان بحصوله، فصاحب المال مخدوم بالأعمال يتقرب بها في سبيل التزلف والحاجة
إلى جاهه كما أن الأعمال لصاحب الجاه كثيرة تفيد الغنى ويزداد مع الأيام يسارا
وثروة¹.

فالجاه مطلب الخاصة من وزراء وكتاب وقادة، ورتبوا بعد الملوك "وزراء
فضلتهم الفطنة والرأي" و"أكتاف عظيم التدبير"، "وأهل الصناعة عند المأمون"
"فالرئاسة الدنيوية مقسومة بين السيف والقلم فأما رياسة السيف فللملوك والأمراء
وقواد العساكر، ورياسة القلم فللوزراء والكتاب والقضاة والخطباء ومن يجري مجراهم،
وأصحاب السيوف هم الحماة، وأصحاب الأقلام هم الكفاة وكل صناعة غير هاتين
فليس يذكر صاحبها بعز² ويؤكد ابن خلدون هذا الكلام فيذكر أن طبقة الخاصة
تشمل كبار رجال السلطة ورجال الإدارة حيث وصفهم بأنهم "أوسع جاها وأعلى
رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا"³.

فالتقسيم الثلاثي للمجتمع نجد في قمة الهرم الاجتماعي "الرؤساء والأجلة" ثم
"الأفاضل" "الملوك"، فالملك بقرابته وبطانته وحاشيته تشكل طبقة الخاصة التي تستمد
جاهها من الملوك وتصل حد المساواة مع الملك فالثعالبي جعل الخواص نظراء للملوك
لهذا فعلى هؤلاء الملوك أن يُستروا على الناس ولا يطلع عليهم غير هؤلاء الخواص"⁴.
"ومن حقه الملك أن لا يغسل أحد بحضرتة يديه من خاصته وبطانته إلا أن يكون معه

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص694.

2- أمل إبراهيم صادق أبو ستة، عامة دمشق في العصر الفاطمي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة،
كلية الأدب، قسم التاريخ، 1997م، نقلا عن الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص32.

3- ابن خلدون، المصدر السابق، ص456.

4- الثعالبي، المصدر السابق، ص104.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
من يساويه في الجاه والبيت والعز والمالاة"¹، هذه المساواة بين الملك أو الخليفة وبين
خاصته -أهل السيف والقلم- ضخمتها الأدبيات السلطانية كثيرا، "إن كان الوزير
يساوي الملك في الجاه والهيبة والطاعة من الناس، فليصرعه الملك، فإن لم يفعل، فيعلم
أنه المصروع"².

بناء على كل ما سبق توضيحه ندرك أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا، لأنها
لا تبدو منسجمة أو متماسكة، مما أدى إلى الاختلاف حول موقع الطبقة الوسطى -
الأوساط- فهناك من يصنفها ضمن الخاصة وهناك من يصنفها ضمن العامة و"خاصة
العامة" أحيانا، ذلك أن الأوساط أكثر الطبقات حراكا صعودا ونزولا اجتماعيا تبعا
للتحولات السياسية والثقافية والاقتصادية لهذا نجد الخاصة تتسع أو تضيق تبعا لذلك.

3- المعيار الاقتصادي -الأوساط وجاه المال-:

إذا كان المعيار السياسي يتصدر طبقات الناس لأنه "أحد أسباب المعاش"³
فالمعيار العلمي والاقتصادي مقترنان به، ونلاحظ من خلال الجداول بروز الأوساط إما
تصريحا كما في التقسيم الثلاثي أم ضمنا من خلال الشرائح في التقسيم الرباعي،
والظاهرة البارزة في هذين الجدولين هو التداول بين العلم والمال، حتى النظرة الانطباعية
الأولى تعطينا ملامح الطبقة التي تجمع بين العلم والمال وفرضت نفسها على أن تكون
متزلة بين منزلتي الخاصة والعامة، "فاطلب في حياتك هذه العلم والمال تملك بهما الناس
لأنك بين الخاصة والعامة، فالخاصة تعظّمك لفضلك والعامة تعظّمك لمالك"⁴.

1- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص17.

2- الجهيشاري، المصدر السابق، ص8.

3- ابن خلدون، المصدر السابق، ص294.

4- أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤسسة، ج2 ص48، 49.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
إن نفوذ العلم بكل فروعها بدأ مع دولة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء
الراشدين ثم الدولة الأموية "أهل العبادة"، "أهل الفقه والسنة"، أخذوا مواقعهم من
الخاصة والسلطة، وسواء أضححت خادمة أو محايدة أو معارضة فقد اتسعت شريحتهم
في القرن الثالث الهجري، فبالإضافة إلى العلماء فهناك الكتاب غير الرسميين والأطباء
والزهاد والمتصوفة إلى جانب من تولوا الوظائف في الجهاز الإداري والمالي شكلوا مع
"كبار التجار" طبقة وسطى لها ملامحها وخصائصها وأصبحت معتمدة كقوة هامة
فكريا واقتصاديا واجتماعيا، وإنما سيعزز هذا المعيار من خلال تعريف إخوان الصفا
للعلم "... فالعلم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة، أولها الشرف وإن كان دُنيا،
والعز وإن كان مهيبا، والغنى وإن كان فقيرا، والقوة وإن كان ضعيفا، والنبل وإن
كان حقيرا، والقرب وإن كان بعيدا، والقدر وإن كان ناقصا، والجود وإن كان
بخيلا، والحياء وإن كان صلفا، والمهابة وإن كان ضيعا، والسلامة وإن كان
سقيما"¹ وكل هذا مصداقا لقوله عز وجل: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَلْمُونَ وَالَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)²، وقال سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ)³ وآيات كثيرة في القرآن الكريم في مدح العلماء وفضائلهم وحسن الثناء
عليهم.

ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري وعلى امتداد القرنين الثالث والرابع، أصبحت
المعايير السابقة غير قادرة على استيعاب التطورات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع
الإسلامي، الذي كان يشهد ذروة نشاطه وازدهاره التجاري وتدفق الأموال عليه،

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء: الرسائل، دار بيروت، بيروت، 1983م، ج1، ص348.

2- سورة الزمر، الآية: 9.

3- سورة فاطر، الآية: 28.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
فكان كبار التجار من أهم شرائح الطبقة الوسطى، باستنادهم إلى قوة السلطة شكلوا
هيمنة على تجارة العبور، بعد إحكام السيادة على الطرق والمنافذ البرية والبحرية.

كان من الطبيعي في مثل هذا المجتمع الاقتصادي الرائج أن ساد نفوذ المال¹
وأصبح ميزان الرجال والإنسان تقدر قيمته ويحدد طراز معيشتة ومكانته الاجتماعية
وتساوت قيمته مع قيمة العلم² كعامل من عوامل الحراك الاجتماعي والارتقاء من
طبقة لأخرى، وفتح الباب على مصراعيه أمام المجددين من كل الطبقات لاكتناز ما

I- القرآن الكريم يشيّد بالمال في مواضع كثيرة انظر على سبيل المثال لا الحصر: قوله عز وجل:
(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) سورة الكهف، الآية: 46؛ وقوله أيضا: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)
سورة الفجر، الآية: 20؛ وقوله: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ
بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ) سورة المؤمنون الآية: 55-56؛ وقوله أيضا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ
وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) سورة الحديد الآية: 20؛ وقوله أيضا: (بِمَا فَضَّلَ
اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) سورة النساء الآية: 34؛ وقوله أيضا: (فَضَّلَ اللَّهُ
الْمُجَاهِدِينَ بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً) سورة النساء الآية: 95.

2- لقد تجلت قيمة المال في الأدبيات بشكل كبير جدا من قول الشاعر:

المال يستر كل عيب في الفتي *** والمال يرفع كل نذل ساقط

فعليك بالأموال فاقصد جمعها *** واضرب بكتب العلم عرض الحائط

وأكد شاعر آخر:

إن الغني إذا تكلم بالخطأ قالوا *** أصبت وصدقوا ما قالوا

وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم *** أخطأت يا هذا وقلت ضلالا

إن الدراهم في المجالس كلها *** تكسو الرجال مهابة وجمالا

فهي اللسان لمن أراد فصاحة *** وهي السلاح لمن أراد قتالا

أنظر: الراغب الأصفهاني، المصدر السابق، ج 3 ص 191.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
يشاءون من أموال، فظهرت طبقة اجتماعية جديدة وكبيرة من أرباب الأموال¹
والأملاك والتجار والموظفين والإداريين والصيارفة والسماسرة وغيرهم.

تنصهر جميع الأجناس في بوتقته، ولم يعد هناك فرق بين عربي ومولى وضعفت
حدّة العصبية القبلية إثر ازدياد نفوذ الفرس والترك والبربر، واضطروا للزول إلى ميدان
العمل والكسب واشتغلوا بالزراعة والصناعة (الحرف) والتجارة، مما ساعدهم على
الاستقلال تدريجياً عن قبائلهم، فدابوا في مختلف العناصر الموجودة في المجتمع، وأصبح
الإنسان يلقب بمهنته، ومن ناحية أخرى اتسم هذا المجتمع بالمرونة، فطبقاته مفتوحة غير
مغلقة، أو جامدة وانعدمت فيه الحواجز الاجتماعية الفاصلة كالتّي تطالعنا عند دراسة
المجتمعات الأوربية في العصور الوسطى واتسمت بأثما مغلقة وغير مرنة يحيطها سياج
من الحواجز والفواصل الاجتماعية المتشددة التي تمنع انتقال الفرد من طبقة لأخرى،
ويذكر أحد المختصين في الدراسات الأوربية الوسيطة "بأنه من الصعب النادر أن
يستطيع رجل وضع المولد أن يصبح صاحب إقطاع، ولو كان حراً وكان يحدث في
كثير من الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة ولكنه يظل مع ذلك وضعياً في نظر
الخاصة بحكم أصله"²، لهذا عرفت الطبقة بأثما "زمر مغلقة نسبياً ذات منزلة متفاوتة"³
فالمرور من طبقة إلى أخرى صعب جداً في المجتمع الأوربي عكس المجتمع الإسلامي،
حيث سمحت ظاهرة الحراك الاجتماعي أن تنشط وتتسع، فقد أثبت الواقع أن هناك
شخصيات كثيرة نشأت من عامة المجتمع واستطاعت بقدراتها ومواهبها العلمية

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المصدر السابق، ج I ص 320.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986، ج 2
ص 276.

3- بيار لاروك: الطبقات الاجتماعية ترجمة: جوزف عبور كبه، ط: I، الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع، الجزائر، 1973، ص 5.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
والتجارية أن تحرز ثروات طائلة وأن ترتقي إلى أعلى المناصب الإدارية ومنهم من أصبح
رأساً في شتى أنواع العلم.

وسوف نجد ملامح الطبقة الوسطى لدى إخوان الصفاء بكثير من التوضيح
لأنهم ينتمون إليها في صيغة "الكرام الفضلاء" و"الأصدقاء النصحاء" من أولاد العلماء
وحملة الدين والفقهاء وأولاد التجار وأرباب الأموال المستبصرين بالعلوم الفلسفية،
والأحكام الشرعية، والآداب الرياضية مثل الهندسة والنجوم والطب والفراصة والتدبير
والسياسة"¹.

– التداخل بين السياسي والاقتصادي والعلمي:

إن التقسيم الطبقي المثبت في هذه الجداول هي عباسية الفترة تبنت الميراث
الفارسي في النظر إلى المجتمع إلى جانب الصبغة الإسلامية التي أعطت خصوصية
للتقسيم في التداخل بين الجاه والسلطة والثروة والعلم، لكن المشكلة أن قراءة هذه
النصوص في بعض الأبحاث²، كانت قراءة أحادية عند الاستدلال بها في معالجتها
لأساس التصنيف الطبقي، ذلك أن الأساس الاقتصادي ومعيار الثروة هو المعيار الوحيد
الذي تنطق بهذه النصوص، مع أن في الجداول لم تتصدر الثروة طبقات المجتمع، خاصة
نص الفضل بن يحيى اليرمكي الأكثر شهرة وتداولاً بين الباحثين ففي هذا النص
بالذات، كانت المرتبة التي احتلها أهل الثروة وهم عليه أهمهم اليسار" "وأعجاز
شهرهم المال" الثالثة من أربع مراتب، والمجتمع في هذا النص يتحدد مكان الفرد فيه
بنوع المنصب الذي يشغله، أو بمقدار الثروة والثقافة التي يملك، والناس بعدهم زبد
وحفء، لكن لم يحدد الناس في الفقراء فقط، بل كلمة "الناس" فضفاضة نستطيع أن

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المصدر السابق، ج 4 ص 189-170.

2- أنظر: محمود إسماعيل، دراسات في الفكر والتاريخ، دار سينا للنشر، القاهرة، 1993م، ص 16، نبيه
عاقل، المرجع السابق، ص 94.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
نذهب أبعد من الفقر، ونقرأ النص بعمق أكثر وفق المعطيات السابقة وتضع في كلمة
"الناس" السوقة ≠ (السلطان)، والجهلة ≠ (العلماء)، والفقراء ≠ (الأغنياء) على
السواء.

كما أن الطبقة الوسطى، ارتبطت ارتباطا شديدا بالدولة، ومنها كانت تستمد
الجاء المفيد لمال، فالدولة عند ابن خلدون¹ هي "السوق الأعظم للتجارة"، وإذا "توفر
المال لدى التاجر فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة، فعل ذلك من أجل
الظهور والشهرة"، "وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال، فلا يكون يساره إلا
بمقدار ماله وعلى نسب سعيه، وهؤلاء هم أكثر التجار".

إن ابن خلدون يبرز أهمية "الدولة" فهي كانت وما تزال "صورة المجتمع". بمعنى
المقوم الأساسي لوجوده، ووحدته، والمسؤولة عن ازدهاره، أو ذبوله... وهي المهيمنة
على الاقتصاد المتصرف في الأموال والمتاع... وهي المشرفة على التعليم الموجهة للفكر،
المراقبة للتفكير، هذا بالإضافة إلى مهامها الدينية التي رسمتها لها الشريعة الإسلامية
كإقامة الحدود وحماية الثغور"².

فهذا التداخل بين السياسي والاقتصادي، قرأت معظم نصوص ابن خلدون
قراءة مادية بحتة³، "فالجاه متوزع في الناس ومرتب فيهم طبقة بعد طبقة، ينتهي في
العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي الأسفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا

I- ابن خلدون، المصدر السابق، ص506، 694.

2- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت،
1991، ص220.

3- ناصيف نصار: الفكر الواقعي عند ابن خلدون تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته
ومعناه، ط3، دار الطليعة، بيروت، ص1994م؛ محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام
والماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص24-29.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
من أبناء جنسه، وبين ذلك طبقات متعددة، بما ينتظم معاشهم وتسير مصالحهم ويتم
بقاؤهم"، ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من
دونها من الطباق، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد الجاه من أهل الطبقة التي فوقه
ويزداد كسبه تصرفا في من تحت يده على قدر ما يستفيد منه، فإن كان الجاه متسعا
كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيقا قليلا فمثله¹.

إن هذه القراءة الخلدونية للمجتمع وإن ركزت على المال والكسب فقد قرنته
بالجاه والسلطة والعلم، وما يُعزّر هذا هو مقابلته جاه العلم بجاه السلطة "أنا نجد الكثير
من الفقهاء وأهل الدين والعبادة، إذا اشتهروا حسن الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملة
الله في إرفادهم، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم، والاعتماد في مصالحهم
أسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتني، إلا ما يحصل لهم من قسم
الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم، رأينا ذلك أعدادا في الأمصار والمدن وفي
البدو، يسعى لهم الناس في الفلح والتجر وكل قاعد بمثلته لا يبرح من مكانه، ينمو ماله
ويعظم كسبه، ويتأتل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفظن لهذا السرّ في حال ثروته
وأسباب غناه ويساره"².

ثالثا- الهرمية التراتبية من خلال الفكر الفلسفي الإسلامي:

يبدو أن مفهوم الطبقة قد أثار سلسلة من النقاشات لدى الفلاسفة والعلماء
والمثقفين، إلا أن هذه الدراسة ستحاول قراءة ثنائية الخاصة والعامة من خلال أربع
فلسفات؛ أما الأولى فهي فلسفة المعلم الثاني أبو نصر الفارابي والثانية فلسفة إخوان
الصفا القريبة إلى التصوف منها إلى الفلسفة، الثالثة فلسفة الإمام أبو حامد الغزالي ثم
الرابعة فلسفة ابن رشد.

I- ابن خلدون، المصدر السابق، ص694، 696.

2- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج3 ص121.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي

I- الخاصة والعامة عند الفارابي - بين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة-:

ففي كتاب الحروف يضع الفارابي¹ "الخواص على الإطلاق هم الفلاسفة الذين هم فلاسفة بإطلاق" وسائر من يعدّ من الخواص إنما يعد منهم، لأن فيهم شبيها من الفلاسفة، ثم الجدليون والسوفسطائيون ثم واضعو النواميس ثم المتكلمون والفقهاء، والعوام والجمهور"، إن معيار التفاضل عند الفارابي هو قدراتهم العقلية، أولا مرتبة الفلاسفة ثم تليها من يشتغل بالعلوم الدينية -علماء الدين- وأخيرا العامة والجمهور التي لا تحتاج في حياتها العملية إلى استخدام قواها العقلية العليا من تفكير أو تخيل أو تعقل والتي تقتصر على ما حفظ وما رسم لها.

إن الفارابي ينتقد المجتمع الذي يعيش فيه وعبر عنه "بالمدين الجاهلة والضالة" القائمة على الغلبة والعصبية القبلية أو الدينية أو المذهبية "...فالإنسان يكون ذا حسب عندهم -المدين الجاهلة- وهو يرجع إلى أحد الأشياء وذلك أن يكون آباؤه وأجداده إما موسرين وإما أن تكون اللذة وأسبابها واتتهم كثيرا، وإما أن يكونوا غلبوا من أشياء كثيرة، فإن كان كذلك فينبغي أن يكون له من الحسب أكثر مما غيره، إن كانت الرئاسة عندهم بالحسب فقط وكذلك إن كانت الكرامة عندهم باليسار فقط، ثم يتفاضل الناس ويتربعون على مقدار اليسار والحسب ومن لم يكن له يسار أو حسب لم يدخل في شيء من الرئاسات والكرامات"².

يمكن استلهاهم معايير التقسيم الطبقي من خلال المدين الجاهلة التي يعيش فيها الفارابي والتي لا تختلف في مبناها عن التقسيمات التي وردت في الأدبيات العباسية ولم تخرج من آليات الحسب والمال والسلطة والجاه، ويحاول الفارابي إيجاد تصور آخر

I- تحقيق مهدي محسن دار المشرق، بيروت، 1969م، ص133، 134.

2- الفارابي، كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق نجار فوزي، ط1، المطبعة

الكاثوليكية، بيروت، 1964م، ص91.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
للمجتمع المتمدن الذي يربط الناس بروابط فكرية ودينية ذلك أن "مراتب أهل المدينة في الرئاسة والخدمة تتفاضل بحسب فِطْرِ أهلها وبحسب الآداب التي تأدبوا بها، والرئيس الأول هو المخول لترتيب الطوائف وكل إنسان من كل طائفة في المرتبة التي يستحقها واضعا طبقتين أساسيتين وهما طبقة الخدمة وطبقة الرئاسة دون أن يكون هناك مانع لوجود بعض المراتب تقترب أو تبتعد كثيرا أو قليلا عن الطبقتين الأساسيتين، فأساس التصنيف هو القدرات العقلية وتدرّج المعارف و"المهرمية" هنا ليست مبنية على أساس توزيع الثروات أو امتلاك وسائل الإنتاج الأساسية بل على أساس الملكات التي يحصل بها وهي الصناعات والرياسات، والمعنى الطبقي أو التراكمي بعيد كل البعد عن المفهوم السوسيولوجي المعاصر¹.

2- الخاصة والعامة عند إخوان الصفا - بين الباطن والظاهر -:

إن طبقات المجتمع عند إخوان الصفا غير واضحة أو غير محددة تحديدا دقيقا بسبب اختلاف المعايير التي صنّفوا على أساسها هذه الطبقات من جهة، وإلى صعوبة ضبطها في الرسائل لأنها متفرقة في أماكن عديدة من جهة ثانية، وإلى اختلاف عدد الطبقات من مكان على آخر في الرسائل، واعتبار شرائح الطبقة الواحدة طبقات مستقلة من جهة ثالثة.

بناء على هذه الصعوبات تم عرض النصوص كما وردت وتوضيح مقدماتها ومتونها وخلاصاتها، ثم مقابلة هذه النصوص فيما بينها عن طريق الجدول التالي ليتضح الاختلاف فيما بينها من خلال اختلاف الأسس التي قسموا على أساسها الطبقات، فمن المعيار الديني إلى الدنيوي ثم الديني والدنيوي معا إلى المادي، ففهم الحالات

1- الفارابي، المصدر نفسه، ص83؛ عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة السياسية عند الفارابي، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص78.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
المختلفة التي صفت وطبقت الناس من خلال أساسها نسلم من التضارب والتناقض
الذي قد يلتمسه الدارس في تعريفه للطبقات دون أن يضع هذه المعايير في الاعتبار.
ثم إن الذي يجمع بين هذه الرسائل نسق عام، فلا يمكن أخذ النص مبتورا من
سياقه والمقصود بالسياق هنا الفصل الذي جاء فيه النص والذي كان قبله والفصل
الذي يأتي بعده مع عنوان الرسالة ستكون قراءة النصوص إذن بفصولها وكليتها. والنظر
إلى الكلية لا يكون إلا في إطار نسق متماسك تنبني وتتكون وترتب الأجزاء في هيكله
ترتيباً فعالاً، فإلخوان الصفا وضعاً فكرياً ودينياً وسياسياً شائعاً ليس من السهل أن
نسلم بأننا قد وصلنا إلى الفهم الدقيق لأفكارهم.

فصل في مراتب الصناعات أهل الصنائع	فصل في باين رجحان العقول للعقلاء أهل الدنيا والدين	فصل في الحرص والزهد ودرجات الناس أهل الدين	فصل في ترتب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة أهل الدنيا
- المقدمة: واعلم يا أخي أن الناس كلهم صنائع وتجار أغنياء وفقراء.	- المقدمة: وقد تبين مما ذكرنا طرق من علل تفاوت العقلاء في درجات عقولهم... فنقول أن ذلك يتبين فيهم ويعرف بحسب طبقاتهم في أمور الدنيا ومراتبهم في	- المقدمة: ... أسَّ كل خير وأصل كل فضيلة الزهد في الدنيا، وقلة الرغبة في شهواتها... إن الخلق كلهم عبید الله وأهل طاعته، ولكن منهم خاص	- المقدمة: واعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن الناس أصناف وطبقات في متصرفاتهم في أمور الدنيا لا يحصي عددها إلا الله.. ولكن يجمعهم

<p>هذه السبعة أقسام:</p> <p>وعام، وما بينهما</p> <p>طبقات متفاوتة</p> <p>الدرجات</p>	<p>أمر الدين وهي</p> <p>كثيرة تجمعهم تسعة</p> <p>أقسام:</p>		
<p>- المتن:</p> <p>I- أرباب الصنائع والحرف والأعمال.</p> <p>2- أرباب التجارات والمعاملات والأموال.</p> <p>3- أرباب البنايات والعمارات والأمالك.</p> <p>4- الملوك والسلاطين والأجناد وأرباب السياسات.</p> <p>5- المتصرفون والخدامون والمتعيشون يوماً</p>	<p>- المتن:</p> <p>I- أول الخواص هم العقلاء الذين توجه نحوهم الخطاب بالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم.</p> <p>2- رفع قدر المؤمنين على سائر العقلاء، وهم المقرون والقابلون أو امره ونواهيته المنقادون لطاعته.</p> <p>3- ثم رفع من المؤمنين المقربين المخلصين وهم العلماء والفقهاء الذين اجتهدوا في</p>	<p>- المتن:</p> <p>I- أهل الدين والشرائع والنبوات وأصحاب النواميس ومن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها... 2- أهل العلم والحكماء والأدباء، وأصحاب الرياضات. 3- الملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء وأرباب السياسات. 4- المتعلقة بخدمتهم من الجنود والأعوان والكتاب والعمال والخزان</p>	<p>- المتن:</p> <p>I- الصناع هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم مصنوعاتهم الصور والنقوش والأصباغ والأشكال وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة الدنيا. 2- التجار هم الذين يتبايعون بالأخذ والإعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون. 3- الأغنياء هم</p>

<p>الذين يملكون هذه الأجسام المصنوعة الطبيعية والصناعية وغيرهم في جمعها مخافة الفقر. 4- الفقراء هم المتحاجون غليها وطلبهم الغنى</p>	<p>والوكلاء ومن شاكلهم. 5- البتاء والزارعون والأكرة والرعاة للشاة وساسة الدواب. 6- الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للأمتعة. 7- التجار والباعة المسافرون والجلابون. 8- المتعيشون الذين يعيشون في خدمة غيرهم. 9- الضعفاء ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين</p>	<p>تعلم أوامر الناموس ونواهيه. 4- ثم رفع من جهة العلماء طائفة، وهم التائبون العابدون والصالحون الورعون المتقون. 5- رفع من هؤلاء طائفة وهم الزاهدون في الدنيا والعارفون عيوبها، الراغبون في الأخرة". ج I/ 357-356.</p>	<p>بيوم. 6- الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ 7- أهل العلم والمدين والمستخدمون في الناموس.</p>
<p>- الخلاصة: واعلم أن الغرض في كون الناس أكثرهم فقراء، وخوف</p>	<p>- الخلاصة: أن كل إنسان من هذه الطبقات لا يخلو من أن يكون رئيسا</p>	<p>- الخلاصة: ثم يأتي ما بين الخاص والعام الذين يعملون بظواهر</p>	<p>- الخلاصة: كل طائفة من هذه السبعة تنقسم على أصناف كثيرة...</p>

<p>الأغنياء من الحث لهم على الاجتهاد في اتخاذ البضائع والثبوت فيها... تتمم النفس بالمعارف الحقيقية والأخلاق الجميلة. ج/ I - 385 - 386.</p>	<p>سائسا لغيره أو يكون مرؤوسا مسوسا فيها بغيره، ورجحان عقل كل رئيس سائس يتبين فيها. ج/ I - 428.</p>	<p>الشريعة، "غير عارفين بأسرارنا"... ورزقوا من الفهم والتمييز قدرا فخرجوا من جملة العامة ولم يحصلوا في جملة الخاصة" العامة النساء والصبيان واللاحقين بهم في العقل من الرجال "من قصر فهمهم ومعرفتهم" "ضعفاء العقول".</p>	<p>ولكن نريد أن نذكر ما يُحتاج إليه من الأخلاق أهل الدين المتمسكون بأحكام الناموس" ج/ I - 320 - 321 "... إذا نظر العقلة وتفكر برويته في أحوال الناس، وميز بين طبقاتهم، واعترى تصاريف أمورهم في دنياهم، عرف وتبين له بأن منهم خاصا وعاما وملوكا وسوقة" ج/ I - 335</p>
--	---	---	--

لقد ورد في الرسالة التاسعة من القسم الرياضي في ثلاث فصول متتالية ومكاملة لبعضها البعض، ولا يمكن أن نفهم كل فصل على حدة، فأول الثلاث هو فصل في ترتب الأخلاق بعضها على بعض وكونها فضيلة أو رذيلة، وهو تقسيم سباعي

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
للمجتمع بدؤه بأرباب الصنائع والحرف وانتهوا فيه إلى أهل العلم والدين والمستخدمين
في الناموس، وهذا النص كان أكثر النصوص تداولاً بين الباحثين، ودل على إثبات أن
الثروة هي المعيار للتقسيم الطبقي عند إخوان الصفا. فقد قرأ النص كالتالي: الناس
أصناف وطبقات منهم أرباب الصنائع والحرف والعمال وإلى آخر النص، من خلال
هذا الانتقاء والقص أشار المؤرخ محمود إسماعيل عبد الرزاق بتصنيف إخوان الصفا
الاقتصادي وكيف برز معيار الثروة كأساس لتحديد الفوارق بين الطبقات بوضوح
شديد، وإن عابه التسبيق بالطبقة الوسطى ثم التثنية بالطبقة العليا كذلك حين جعلوا
أهل العلم والدين طبقة بعينها بينما كانوا ضمن شرائح الطبقة العليا والوسطى¹.

الملاحظة نفسها نجدها عند تلميذه إبراهيم القادري بوتشيش، أخذ النص
بالصيغة السابقة ويجزم بأن "اعتماد هذا التصنيف على مقياس اقتصادي ما أكسبه -
على الرغم من شموليته- الوضوح والأهمية التي نفتقدها عند غيرهم"².

لقد حاولت هذه القراءات أن تجزأ النص عن سياقه والهدف الذي من أجله
وضعه إخوان الصفا، وهو كما نلاحظ ونقرأه بعنوان الفصل ومقدمته ومنتنه وخلاصته،
أن التقسيم في هذا النص هو تقسيم أخلاقي بحث، فأصناف وطبقات الناس في
متصرفاتهم في أمور الدنيا، ولم يكن الترتيب على أساس التفاضل، ولا نعتقد أن جماعة
مثل إخوان الصفا والتي تنتمي إلى أهل العلم والدين أن ترتب هؤلاء في الطبقة الأخيرة
-السابعة- إلا إذا كان الترتيب لا يعني التفاضل في الدنيا لسببين:

1- سوسولوجيا الفكر الإسلامي، ج3 ص122، 123.

2- أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، منشورات
عكاظ، د م ن، د ت، ص160، 161.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
- أما الأول فهم بدأوا بأصحاب الدنيا، الراغبين فيها، والحريصين على طلب
شهواتها ولذاتها، وعليه بدأوا بأصحاب وأرباب الصنائع وأهل المعاش والكسب، وأهوه
بالعلماء لأنهم أقل الناس حرصا في طلب الدنيا.

- والثاني أن موقع العلماء في الطبقة السابعة والأخيرة توضحها خلاصة الفصل
"لكن نريد أن نذكر منها ما يحتاج إليه من الأخلاق والسجايا والخصال والأعمال
والآداب أهل الدين المتمسكون بأحكام الناموس الحافظون أركانها الذين يزجى بهم
النجاة بها والفوز باستعمالها، لكي تربط بالفصل الرابع عشر في مراتب الناس في
الأخلاق حسب الأعمال، فهم أخذوا من الطبقة السابعة أهل العلم والدين وصنفوا من
ثمانية أصناف أخرى وكلها لحفظ أركان الناموس، ثم نجد في الرسالة نفسها بيان
الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها. درجات الناس في الحرص والزهد والدين
وهي الصورة النقيضة للفصل الثالث عشر أول الفصول الثلاث. وهو ترتب الأخلاق
على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة.

فهم في التصنيف الأول انتهوا إلى العلماء وصنفوهم بدورهم إلى ثمانية أصناف،
ثم ركزوا في التصنيف الثالث على الخواص وهم العقلاء بدأ الاختصاص إلى أن يصلوا
إلى الزاهدين في الدنيا العارفين عيوبها الراغبين في الآخرة.

فهؤلاء الخواص هم الذين "يفهمون المعاني الدقيقة واللطيفة من كلام الأنبياء،
والذي يصلح من علم الدين لهذه الطبقة هو النظر في أسرار الدين وبواطن الأمور الخفية
وأسرارها المكنونة... والبحث عن مرامي أصحاب النواميس في رموزهم وإشاراتهم
اللطيفة"¹ ومعنى ذلك أن الخواص هم الذين لديهم علم الباطن والذين لهم حق التأويل
وهذا لب التفاضل عند إخوان الصفا، إن التقسيم في هذا النص كان على أساس

I- إخوان الصفا وخلان الوفاء، المصدر السابق،

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
أخلاقي وميز بين أمر الدنيا والدين، فإن قُراً بهذه الكلية والشمولية نصل إلى هذه
النتيجة، لكن إذا جُزأ وقُراً بطريقة التصيد والقص سوف يطوع لأي جهة يراد لها.
ويميل إخوان الصفا في الرسالة الثامنة من القسم الرياضي وبالضبط في الفصل
الخاص حول مراتب الصناعات إلى القول باتخاذ الصنائع، ويعتبرون المعيار فيها
الرياسات والاجتهاد، وعللوا ذلك بامتناع النفس الواحدة من الارتياض بجميع أصناف
العلوم وبوجود عوائق مختلفة، وضرورة اتخاذ الصنائع "كون الناس أكثرهم فقراء،
وخوف الأغنياء من الفقر هو الحث لهم على الاجتهاد في ذلك والغرض أن تتمم النفس
بالمعارف الحقيقية والأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية"¹.
والاهتمام بأهل الصنائع والحرف من قبل إخوان الصفا يعطي دلالة واضحة
للفكر الاقتصادي والاجتماعي، هذه الشريحة التي نُجدها تتكرر في معظم النصوص،
وقد تصدرت التقسيم الرباعي في النص الأول، وخصصوا رسالة كاملة من رسائلهم
حول "الصنائع العملية والغرض منها" وقراءة هذا النص بمعزل عن باقي الرسائل
سيكون تقسيم المجتمع على أساس مادي -فالناس صناع وتجار وأغنياء وفقراء- كما
ذهب إلى ذلك بعض الباحثين²، لكن نعود دائماً إلى موقع النص ضمن هذه الرسائل
ومقارنته بما جاء حول طبقات المجتمع في مواضع أخرى.

I- المصدر نفسه، ج I ص 286.

2- صباح إبراهيم سعيد الشихلي، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، دار الحرية للطباعة،
بغداد، 1976، ص 56؛ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط2،
دار المشرق، بيروت، 1974، ص 86؛ محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، 1982، ص 285.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وعليه يخلص في الأخير إخوان الصفاء¹ إلى حصر طبقات المجتمع إجرائيا إلى
أربع طبقات مستعملين معظم النصوص والتركيز على النص الثالث في الجدول وهو
طبقات الناس في أمور الدنيا ومراتبهم في أمر الدين لأنه أقرب النصوص شمولية واتساعا
ووضوحا، فهم حصروا الناس في تسعة أقسام لكن سنقوم بحصرهم إجرائيا في أربع لأن
معظم شرائح داخل طبقة واحدة.

– **الطبقة الأولى:** أهل الدين والشرائع وأهل العلم والحكماء والأدباء وأصحاب
الرياضات وهؤلاء هم خاصة الخاصة وقد جعل الإخوان هذه الطبقة أرقى الطبقات
لأنها مرتبطة بالإمامة وعدم إمكان أي إنسان بلوغ مرتبة، الإمامة لما يتمتع به الأئمة من
آل البيت من استعدادات طبيعية والهجمات إلهية خصصوا بها دون غيرهم وهو علم الباطن.

– **الطبقة الثانية:** طبقة الحكم من الملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء وأرباب
السياسات وهم الخاصة من الوزراء والكتاب والعمال وأصحاب الدواوين والحجاب
والقواد وخدم الملوك وأعوانهم من الجنود أتباع الخاصة.

– **الطبقة الثالثة:** التجار وأرباب النعم وكبار الصنائع والمسافرون، ويطلق
عليهم "أوساط الناس" علاوة على الأغنياء والأشراف.

– **الطبقة الرابعة:** الزُّرَّاع والبُناة والأكررة والصنائع وأصحاب المهن وهم العامة
من الرعاة والباعة والمتعيشون في خدمة غيرهم الضعفاء ومن شاكلهم من الفقراء وأهل
المساكين ولقد خصصوا فضلا في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوي.

فإخوان الصفا يميزون بين البشر من خلال ثلاث مراتب رئيسية هي مرتبة
الخواص ومرتبة العوام ومرتبة الأوساط بين الخواص والعوام، وهو يعكس أيضا التنظيم
السياسي الذي بني على أساس هرمي يكون فيه الإمام على رأس الطبقة العالية، وأن

I- المصدر السابق، ج I ص 429.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
مرتبته هي مرتبة "النبوة والناموسية"، وهي لا تخرج عن مصطلحات الشيعة، وكلمة
"الشيعة" ترادفها كلمة "الخاصة" وهو ما يقابل العامة وأخلاطها والغارقة في العمامة
والضلال لألها غير مؤهلة للوقوف على أسرار الجماعة وأسرار التنظيم¹، إلا أن هذا لا
يمنع من وجود مرشحين لعضوية الجماعة من بين أهل الأوساط والعامة، على اعتبار أن
التنظيم يسعى إلى التوسع والانتشار بين القاعدة، وتبدأ الدعوة بين هؤلاء من خلال
قيام الداعي بتعليمهم علوم الشريعة والدين على أن يتمكن منهم من يخرج من جهة
الأوساط والعامة ويصبح في أدنى درجات الخواص وهي التي يسميها الإخوان "مرتبة
العقلاء" ثم يتدرج في مراتب الدعوة من العقلاء إلى المؤمنين إلى العلماء والفقهاء على
التائبين العابدين إلى مرتبة الزاهدين، وغاية المراتب البشرية في الشرف، الانتقال من
الظاهر إلى الباطن ومن العامة إلى الخاصة.

3- الخاصة والعامة عند الشافعي والغزالي - بين الاجتهاد والتقليد:-

لقد سئل الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ/767-
820م) ما العلم؟ وما يجب على الناس في العلم؟ فأجاب العلم علمان "علم عامة لا
يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله مثل الصلوات الخمس وأن لله على الناس صوم
شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوا، وزكاة في أموالهم... وما كان في معنى هذا
مما كلف العباد أن يعقلوه ويعطلوه من أنفسهم وأموالهم... والوجه الثاني ما ينوب
العباد من فروع الفرائض، وما يخص به من الأحكام وغيرها، مما ليس فيه نص كتاب
ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة، لا

I- أنظر: جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة موسى محمد يوسف وآخرون، دار
الرائد العربي، بيروت، د ت، ص204؛ بوبة مجالي: النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر
الفاطمي، (296-362هـ/909-973م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، مرقونة، جامعة
قسنطينة، ص3.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
أخبار العامة، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً... ومن وجه ثالث هي
درجة العلم ليس تبلغها العامة، ولم يكلفها كل الخاصة، ومن احتمال بلوغها من الخاصة
فلم يسعهم كلهم كافة أن يعطوها، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يخرج
غيره ممن تركها، والفضل فيها ممن قام بها على من عطلها"¹.

فالشافعي² حريص على أن يكون "الناس في العلم طبقات موقعهم من العلم
بقدر درجاتهم في العلم به"، وحريص على التمييز في المعرفة بين صنف أول يجب على
العامة ومن ثم فهو يلزم كل الناس، وصنف ثاني تلزم الخاصة بمعرفته ولا تكلف بها حتى
الخاصة كلها.

فعلى العامة أن يسلموا لأمر المعرفة السامية -الخاصة- بكل ما يقولونه ويروونه
لهم في أمور العقيدة ومسائل الشريعة، وليس لهم أن يطلبوا سوى الإفهام اللغوي والمعنى
المراد، كما عليهم أن يلتزموا بأحكام القرآن الكريم، ولكن ليس لهم أن ينشغلوا بأدلته
وطرق بياتها ويحظر عليهم الاشتغال بالكلام والنظر في موضوعات أصول الدين، لهذا
نجد الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ/III م)، يلجم العوام عند علم الكلام، لأن
عاقبته الشرك والكفر وربما كان أسلم له أن يخوض المعاصي البدنية من المعاصي
الكلامية لأن الأولى عاقبتها الفسق والثانية الشرك والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما
دون ذلك³.

I- أبو عبد الله بن محمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ-)، الرسالة، تحقيق الشيخ خالد السبع
العلمي وزهير شفيق، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999، ص245، 246.

2- المصدر نفسه، ص46.

3- الغزالي، رسالة إلجام العوام عن علم الكلام ضمن رسائل الغزالي، ط1، دار الكتب العلمية،
بيروت، 1994م، ص57-60.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
ويكفي للعامي أن يطمئن أن هناك خاصة عامة تسير على ما سار عليه السلف
من الصحابة والتابعين، وهذا الاطمئنان تجب فيه سبعة أمور "التقديس ثم التصديق ثم
الاعتراف بالعجز، ثم السكوت ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة وهي
سبعة وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام"¹. وإنما انطوى عنه لعجزه
وقصور معرفته فلا ينبغي أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين، والناس
أشتات متفاوتين كمعادن الذهب والفضة والجواهر... فكذلك القلوب معادن لسائر
جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله، وبعضها معدن
للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية. ومن ثم وجب على الخاصة أن تلجم العامة
كما يلجم الفرس فلا يرضى له العنان إلا بمقدار².

والغزالي من موقعه كفيلسوف أصولي متصوف قسم الناس إلى ثلاثة أصناف
خواص وعوام وأهل جدل طائفة تتولد بين الخاصة والعامة؛ أما الخواص وهم قوم
احتمعت فيهم ثلاث خصال، الأولى القريحة النافذة والفتنة القوية، وهي عطية فطرية
وغيرية جلية لا يمكن كسبها، أما الثانية خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب
موروث مسموع فإن المقلد لا يصغى والبليد وإن أصغى لا يفهم، أما الثالثة أن يعتقد
أن من أهل البصرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم
منك. وأما البله وهم جميع العوام، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق فادعوا
هؤلاء بالموعظة كما ادعوا أهل البصيرة بالحكمة وادعوا أهل الشعب بالمجادلة³
مستوحيا قوله عز وجل: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ

1- المصدر نفسه، ص42، 46، 47، 61، 62.

2- سعيد بن سعيد العلوي: الخطاب الأشعري مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، ط1، دار
المنتخب العربي الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992م، ص43.

3- الغزالي، رسالة إجماع العوام عن علم الكلام ضمن رسائل الغزالي، ص96.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ¹. وأما أهل الجدل فهم طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام،
ولكن كياستهم ناقصة، إذ كانت الفطرة كاملة، ولكن في باطنهم خبث وعناد،
وتعصب وتقليد، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ولهذا فهؤلاء يجادلهم الغزالي وإن اشمأزوا
منها أهل الحكمة².

من خلال هذا التصنيف -خواص- عوام- أهل جدل- نجد أن الغزالي يقدم
للناس ألوان مختلفة من المعرفة **الحكمة- الموعظة- المجادلة-** وأن هناك طائفة من الناس
لا ينبغي أن يكشفوا بالحقيقة، لعدم طاقتهم إياها، بهذا فهو يقف منهم الموقف الذي
يرى أن الشرع أمر به، وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم، مستشهدا بقوله عليه
الصلاة والسلام: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، تريدون أن يكذب الله ورسوله"³.
وذكر الغزالي مسألة مهمة وهو دخول العوام في الإجماع، إذ بين أن الشريعة
تنقسم إلى ما يشترك في دركه العوام والخواص كالصلوات الخمس ووجوب الصوم
والزكاة والحج، فهذا يجمع عليه، والعوام وافقوا الخواص في الإجماع وإلى ما يختص
بدركه الخواص، كتفصيل أحكام الصلاة والبيع والإيجار مما أجمع عليه الخواص، فالعوام
متفقون على أن الحق فيه من أجمع عليه أهل الحل والعقد فلا يضمرون فيه خلافا

1- سورة النحل، الآية 125.

2- الغزالي، المصدر السابق، ص97.

3- القسم الأول من الحديث "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" ضعيف، من حديث ابن عباس رضي
الله عنه، السيوطي (أبو الفصل عبد الرحمن بن أبي بكر، ت911هـ/1505م): جامع الأحاديث،
تحقيق عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد، دار الفكر، بيروت، 1994م، ج2 ص175؛ القسم الثاني
من الحديث "تريدون أن يكذب الله ورسوله" صحيح، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه،
البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت256هـ/870م): الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى
ديب، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م، ج1 ص59.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وأطلق عليه "إجماع الأمة"¹ وحدد الغزالي في فائدة الإجماع على غير المعلوم من الدين
بالضرورة هو انتقال الحكم من مرتبة الظن إلى مرتبة القطع.

التركيز على الاجتهاد وآلة الاستنباط هي كما أشرنا سابقا من موقعه كأصولي
مجتهد، لأن رُبَّ متكلم ونحوي ومفسر ومحدث ناقص الآلة في درك الأحكام، ويدخل
معهم الفقهاء أيضا، لأن الأصولي العارف بمدارك الأحكام وكيفية تلقيها من المفهوم
والمنظوم وصيغة الأمر والنهي والعموم. وكيفية تفهيم النص والتعليل أكثر من الفقيه
الحافظ للفروع غير القادر على إدراك الأحكام، أما النحو والتمكلم فلا يعتد لهما لأهما
من العوام في حق العلم، إلا أن يقع في مسألة تبني على النحو أو علم الكلام².

4- الخاصة والعامة عند ابن رشد -الحكمة والشرعية-:

يستخدم ابن رشد اصطلاح "الجمهور" في مقابل اصطلاح "الخواص" والجمهور
(العوام) هم أيضا الخطابيون الذين ينبغي أن يظلوا بمنأى عن التأويل³، إذ أن التصريح
لهم بالتأويل أو اطلاعهم عليه مفسد لهم صاد عن الشرع⁴.

والشرع وعى تفاوت طباع الناس في التصديق فدعاهم من طرق ثلاثة: خطابية،
جدلية، برهانية، وعلى هذا الأساس صنف ابن رشد الناس في الشريعة إلى ثلاثة
أصناف: صنف ليس هو من أهل التأويل وهم الخطابيون وهم يمثلون الجمهور الغالب

1- الغزالي: كتاب المستصفي من علم الأصول، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص143.
2- وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996م، ج I ص499؛ عبد
الحميد الصغير، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة في الإسلام، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات،
بيروت، 1984م، ص187؛ حمادي ذويب، مواقف العلماء المسلمين من العامة في ق 5هـ، ضمن
الدوة الثانية -المسلم في التاريخ- الدار البيضاء، 1999، ص120.

3- ابن رشد، المصدر السابق، ص60.

4- المصدر نفسه، ص56.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وصنف هو من أهل التأويل وهم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة وصنف هم
من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة ويعني بها صناعة الحكمة
وهذا التأويل لا ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل فضلا عن الجمهور¹.

إن هذا التقسيم الثنائي - الثلاثي للمستويات الذهنية عند ابن رشد من مسلمة
واضحة وهو أن الشرع ظاهر وباطن²، واختلاف درجات الناس في التصديق اقتضى
أن يكون هناك طبقتين من الناس، طبقة محدودة من الناس هم أهل الباطن البرهانيون
أصحاب التأويل اليقيني ويقصد بهم الفلاسفة الراسخون في العلم³ الذين ذكروهم القرآن
الكريم بأنهم القادرون على الفهم والتأويل⁴، وبالتالي فهم خاصة.

I- ابن رشد، المصدر السابق، ص33، 47، 56، 58؛ وأنظر: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ص154؛ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ص208؛ محمد عابد الجابري: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص246، 248؛ محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991م، ص594؛ علي أومليل: في التراث والتجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م، ص25، 26، 27؛ عبد الرحمن التليلي: ابن رشد الفيلسوف العالم، ط1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1998م، ص16، 99، 155، 161.

2- ابن رشد، المصدر نفسه، ص47.

3- المصدر نفسه، ص39.

4- قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) سورة آل عمران، الآية: 7.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وطبقة عريضة من الناس وهم أهل الظاهر الجدليون والخطابيون الذين لا يقع
التصديق لهم إلا من قبل الحس والتخيل نظرا لارتباط قدراتهم الإدراكية بالحسوسات¹
وبالتالي فهم عامة (الجمهور).

وإن كان التسليم بالظاهر مقصورا على الجمهور، فلم يسلم منه أهل الجدل
وهم الفقهاء المتكلمون² الذين ليسوا بفلاسفة، وهنا يقابل ابن رشد بين القياس الفقهي
الشرعي (الظني) = (الفقيه) وبين القياس العقلي (اليقيني) = (العارف)، وأن إدراك
الحقيقة والوصول إليها لا يتم إلا عند هذا الأخير لأنه برهاني يجمع بين الشرع والعقل
(المعقول والمنقول). لهذا كان موقع أهل الجدل في الهرم العلمي هو الوسط بين مرتبة
الخواص (أهل البرهان) ومرتبة العوام والجمهور (أهل الخطاب)، ولأنهم لا يصلون إلى
الحقيقة وقياسهم ظنيا عدوا من أهل الظاهر وبالتالي ضمن الجمهور التي أصبحت
تشمل مرتبتين (جدلي وخطابي).

فالصورة الطبيعية أدت لوجود حقيقتين حقيقة العامة وحقيقة الخاصة أي حقيقة
دينية شرعية وحقيقة فلسفية عقلية، فالحقيقة الدينية موجهة إلى كافة الناس لأن هدفها
الأساسي هو تقويم السلوك البشري، وبحكم الطابع العملي التي لا تحتل التأجيل حتى
يتعلم العامة البرهان لأنه من الطبيعي أن يوجد نوعان من تمثل الحقيقة تمثل بالحس
والخيال (الظاهر) وتمثل بالعقل (الباطن)، هذا الأخير الذي ينطلق من الحس إلى النظر
في الموجودات بواسطة العقل والفهم والتأويل وبالتالي يجمع بين الحس والعقل وبين
الدين والفلسفة وبين الظاهر والباطن، لتصبح حقيقة واحدة وإدراك العلماء يختلف عن
إدراك العامة لها والاختلاف في الإدراك يعود إلى المستوى العلمي المعرفي لا غير.

I- ابن رشد، المصدر نفسه، ص48، 49.

2- المصدر نفسه، ص32، 33، 55، 67، 68.

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
إن الاختلاف الذي وقفنا عليه بين هؤلاء العلماء فلاسفة ومتصوفة وفقهاء
أصوليين، ناتج عن رؤية هؤلاء للناس من خلال مواقعهم التي تواجدوا بها.

فالفارابي من موقعه كفيلسوف لا يرى التمييز بين الخاصة والعامة إلا من خلال
قدراتها العقلية وركز على الفلسفة، والصوفية لا يميزون بينهما إلا من خلال القدرات
الروحية الأخلاقية (الإمام عند الشيعة والشيخ والولي عند السنة)، والغزالي من موقعه
كفقيه أصولي لا يرى التمييز إلا من خلال القدرة على الاجتهاد (الشريعة)، وابن رشد
من موقعه كفقيه أصولي فيلسوف وإن انتصر للثانية (الفلسفة/الحكمة) فلم يبلغ الأولى
(الشريعة) بل جمع بينهما لأن الوصول إلى الحقيقة يجب أن تبدأ بالحس وتنتهي بالعقل.
فالهرم إذن هرم علمي مغاير تماما عما وقفنا عليه سابقا، وهو الهرم الاجتماعي
الذي تدخل فيه السلطة والثروة والعلم والمال والشرف والحسب كمعايير أساسية في
تكوين الطبقة وفي التقسيم الثنائي بين الخاصة والعامة.

فالناس في النظام المعرفي مراتب ودرجات ومنازل بناء على استعداداتهم الذاتية
والفطرية وبناء على التخصص في المعارف -علم الكلام- الاجتهاد -ملكة الاستنباط-
فيصبح الهرم الاجتماعي هرما علميا خاضع للترتيب المعرفي فهم بذلك خاصة وعامة،
إن الاختلاف الذي وقفنا بين هؤلاء العلماء فلاسفة ومتصوفة وفقهاء أصوليين، ناتج
عن رؤية هؤلاء للناس من خلال مواقعهم التي وجدوا فيها.

فالفارابي من موقعه كفيلسوف لا يرى التمييز بين الخاصة والعامة إلا من خلال
قدراتها العقلية وركز على الفلسفة، والصوفية لا يميزون بينهما إلا من خلال القدرات
الروحية الأخلاقية، (الإمام عند الشيعة والشيخ والولي عند السنة)، والغزالي من موقعه
كفقيه أصولي لا يرى التمييز إلى من خلال القدرة على الاجتهاد، (الشريعة).

ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي ----- أ. دلال لواتي
وابن رشد من موقعه كفقيه أصولي فيلسوف وإن انتصر للثنائية (الفلسفة/
الحكمة) فلم يبلغ الأولى (الشريعة) بل جمع بينهما لأن الوصول إلى الحقيقة يجب أن تبدأ
بالحسن وتنتهي بالعقل.

فالهرم إذن هرم علمي مغاير تماما للهرم وقفنا عليه سابقا، وهو الهرم الاجتماعي
الذي ندخل فيه السلطة والثروة والعلم والمال والشرف والحسب كمعايير أساسية في
تكوين الطبقة وفي التقسيم الثنائي بين (الخاصة والعامة).

فكل هذه الثنائيات الشائعة في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط وإن تم
الاستشهاد بأشهرها، تؤكد شيوع استعمالها وفق الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية
والمعرفية، والتعامل معها بدون أي إسقاط معاصر وبدون أي استعارة مؤدجلة.

الزوايا في الجزائر بين إرث التاريخ الاستعماري وضرورة الإصلاح والتجديد

أ. فوزيت لوصيف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

لم تنس إدارة الاستعمار الفرنسي في الجزائر للزوايا موقفها الرفض لوجوده، وتزعمها لأكثر المقاومات الشعبية، فعملت على تشتيتها وهدمها ومصادرة أملاكها، كما انتهج مع بعضها سياسة الاختراق من الداخل، مما أدى إلى تدجينها واحتوائها. بل إنَّ بعض الزوايا لم يكتف بمجرد الوقوف مع الاحتلال؛ بل صار من المدافعين على وجوده وسياساته المدمرة بالجزائر.

بعد الاستقلال لم ترجع مؤسسة الزوايا إلى سابق عهدها المشرق، فصار لابد من إعادة النظر في بعث رسالة الزوايا وإصلاح برامجها الدينية والتربوية، لاستعادة دورها الريادي في الإصلاح الاجتماعي والثقافي.

Abstract

After the French occupation to Algeria, Religious orders known as 'Zawiyas', having a major influence, were to play a prominent role during the first years resistance to the colonial onslaught. After the definitive victory of France, however, some religious orders suffered an overall decline because of their consistent attitudes against the colonizer whereas others started playing the very role formulated for them by the colonialists. For them, the colonial fact was destined to be, and was thus the expression of the will of God. After independence, however, it is of prime importance to

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد-----أ. فوزية لوصيف

rehabilitate the influence of 'Zawiyas' in their spiritual, religious, social functions and also educational efficiency.

خطة العمل:

مقدمة:

أولاً/ الغاية من استهداف الزوايا

1/ الأهداف الاقتصادية

2/ الأهداف السياسية والعسكرية

3/ الأهداف الدينية

4/ الأهداف الحضارية والثقافية

ثانياً/ مراحل السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا

1/ مرحلة الاستهداف العام للزوايا

2/ مرحلة الاهتمام وبداية المراقبة

3/ مرحلة الاستهداف المخصوص بالتضييق والقمع ومحاولات التجديدين

أ — الاستهداف الخارجي

ب — الاختراق الداخلي

4/ مرحلة السيطرة والاستقرار

5/ مرحلة العودة للاستهداف العام

ثالثاً/ الزوايا بعد الاستقلال وأهمية إصلاحها وسبل تحقيقه

1/ الزوايا بعد الاستقلال

2/ إصلاح الزوايا أهميته وسبل تحقيقه

أ/ العناصر الإيجابية للزوايا وآليات المحافظة عليها

ب/ العناصر السلبية للزوايا وكيفية تفاديها

ج/ ضرورة الاستفادة من معطيات العصر

مقدمة:

في إطار فعاليات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي بالجزائر عام 1972م، وفي محاضرة لها حول الأشكال الرئيسية للمقاومة الجزائرية، وصفت الدكتورة "إيفون تورين / Yvone Turin"¹ الحملة الاستعمارية على الجزائر بقولها: (كل واحد منا يعلم أن المغامرة الاستعمارية عام 1830 كانت مغامرة لم يسبقها تحضير،... ولقد كان الارتجال والجهل والوهم مصادر تلك المغامرة)².

وقد نوافقها الرأي في أن الجهل والوهم كانا أهم مصادرها؛ أما كونها مرتجلة ومن غير سابق تحضير، فهذا ما تفنده المصادر والوثائق التاريخية التي تؤكد في مجملها أن الاستعدادات كانت مكثفة، والمخططات كانت جاهزة، والأحلام كانت كبيرة، في مغامرة سهلة تنتهي بالغنيمة والاستسلام في شهور قليلة وبأقل الخسائر.

لكن صمود الشعب الجزائري واستمراره في مقاومات عنيدة ومكثفة لم تنقطع رغم جميع الضربات القاتلة؛ مما جعل ساسة الاحتلال وقادته يغيرون في مخططاتهم ويطورون فيها وفق معطيات واقعية بعيدة عن الجهل والوهم، مكنتهم من إحكام قبضتهم الحديدية الغاصبة أكثر فأكثر، ولا يهمننا من تلك السياسة ومخططاتها في هذه العجالة؛ إلا ما كان متعلقا بالزوايا وما استهدفت به.

كانت الزوايا قبيل الاحتلال منتشرة بكثرة في المدن كما في الأرياف، ولها مساهمة فعالة في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية بالجزائر؛ باعتبارها من أهم المراكز والمؤسسات التعليمية، ولامتلاكها كنوز من الكتب والمخطوطات التي لا تقدر بثمن،

¹ - مستشرقة فرنسية وأستاذة بجامعة الجزائر سابقا.

² - إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر إبان القرن التاسع (شهادة الوثائق الفرنسية ومظاهر ضعفها)، منشورات وزارة التعليم الأهلي والشؤون الدينية المجلد الأول، ص 249.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
وتعد الزوايا في تلك الفترة من أغنى المؤسسات بالبلاد، بفضل الأوقاف الكثيرة المحبسة عليها، والتي تضمن لها موارد ومداحيل كبيرة جداً هي عمادها وأساس نشاطها وحياتها. كما تحظى الزاوية باحترام و قدسية خاصة، باعتبارها من المؤسسات القائمة على تطبيق الشعائر والعبادات الإسلامية، ثم إن مؤسسيها أو القائمين عليها كانوا يتميزون بالتقوى والصلاح والسمعة الطيبة، وهو الأمر الذي أكسبها ثقة وزعامة روحية ودينية في الأوساط الشعبية؛ ولأجل ذلك كانت في بدايات الاحتلال راعية للمقاومة وحاملة لراية الجهاد المقدس.

فإذا كان هذا دور الزوايا ومكانتها في المجتمع الجزائري قبيل الاحتلال الغاصب وحتى في بدايته الأولى؛ فلا غرابة أن تكون مستهدفة من السياسة الاستعمارية ومخططاتها.

لكن ما حجم هذه المخططات التي استهدفت بها الزوايا ؟ وما هي أهدافها الحقيقية ؟ وما هي الأساليب والطرائق التي استخدمت؟ وهل كانت نفسها طوال فترة الاحتلال؟ ثم ما مدى نجاعة تلك المخططات؟ وهل نجحت في تحقيق جميع أهدافها ؟

أولاً/ الغاية من استهداف الزوايا:

إنّ المتتبع لأوضاع الزوايا وما واجهته خلال فترة الاحتلال، يجد أنّ مواقف الاحتلال اتجاهها لم تكن ذاتها في جميع الأوقات، كما لم تكن ذاتها في جميع الجهات، فمواقفها في بدايات الاجتياح تختلف عن مواقفها في فترات الاحتلال المتعاقبة، ومواقفها اتجاه زوايا المدن تختلف على ما كانت عليه اتجاه زوايا الأرياف والقرى، ومواقفها اتجاه زوايا المناطق الساحلية والداخلية ليست مثل ما كانت عليه اتجاه زوايا الصحراء، غير أنّ الأمر المشترك بين جميع المواقف في جميع المناطق وفي كل الأوقات؛ هي الأهداف العامة لتلك السياسة التي لا تخرج بالتأكيد عن الأهداف الاستعمارية الكبرى (الاقتصادية، السياسية، العسكرية، الدينية، الحضارية)، ويتفرع عن هذه الأهداف

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد-----أ. فوزية لوصيف
الكلية أهداف جزئية، وهي كثيرة ومتنوعة حسب كل مرحلة زمنية وحسب كل منطقة وما تتطلبه من مخططات، ولا يمكن الحديث عنها إلاّ بربطها بمختلف المراحل التي مرت بها السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا خلال فترة الاحتلال المظلمة، وسيأتي الحديث عنها في حينها.

1/ **الأهداف الاقتصادية:** الجزائر ثروة كاملة متكاملة بخيراتها وثرواتها ومناجمها وكنوزها المتنوعة، ولذلك أسالت لعاب الطامعين، وهيجت غريزة النهب لدى اللصوص والغاصبين.

2/ **الأهداف السياسية والعسكرية:** على العموم الجزائر بالنسبة لفرنسا بوابة إفريقيا، وأهم قاعدة لحماية مصالحها بالحوض الأبيض المتوسط، وهي وسيلة إثبات التفوق على غريماتها إنجلترا حول الاستيلاء على مناطق النفوذ في العالم.

3/ **الأهداف الدينية:** لقد كانت فرنسا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي من أكثر الدول الأوروبية تعصبا للديانة المسيحية، بل تأتي مباشرة بعد الفاتيكان، وكانت تعتبر نفسها حامية المسيحية، لذلك فإنّ (الحملة الفرنسية ضد الجزائر قد قررها شارل العاشر اليسوعي المتحمس، وباركها البابا وأيدتها الكنيسة في فرنسا وفي غيرها من أوروبا، وبعد نجاح الحملة تماطل على الجزائر المبشرون)¹ بأعداد هائلة أفرادا ومنظمات، وأهم وأخطر تلك المنظمات "منظمة الآباء البيض/les pères blancs" التي أسست من طرف الكاردينال "الافيجري/ la vigerie" عام 1868م، وهذا لا يدل بالضرورة على رغبة الاحتلال في نشر المسيحية - وإن وجدت هذه الرغبة بصورة ضئيلة جداً -؛ بقدر ما يدل على رغبته في محاربة الإسلام واستتصاله من قلوب وأفئدة الجزائريين، فالمهم عند هؤلاء هو إخراج المسلمين من إسلامهم حتى وإن لم يدخلوا في

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 (1990م)، ص16.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد-----أ. فوزية لوصيف
المسيحية، وهذا ما كان يرمي إليه الكاردينال "لافيجري" بقوله في إحدى المناسبات:
(علينا أن نخلص هذا الشعب من قرآنه)¹. فليس من المبالغة حين نقول إنّ أهداف
الاستعمار الفرنسي الحديث هي الوريث الشرعي والامتداد الطبيعي لأهداف وروح
الحمالات الصليبية الحاقدة .

4/ الأهداف الحضارية والثقافية: نعم هناك أهداف حضارية وثقافية للسياسة
الاستعمارية، لكنها ليست كما أوضحتهما الكتابات الفرنسية وحتى بعض الكتابات
العربية المتفرنسة - المفتونة بفرنسا والغرب عامة-، التي ترجعها إلى رغبة الاحتلال في
نقل الحضارة الغربية وثقافتها الفكرية إلى العالم الثالث لتتويره وتطويره!"- وهذا هراء
-، بل إنّ الهدف الحقيقي يتمثل في محاولة القضاء على ما بقي من آثار الحضارة
الإسلامية والعربية، بمحاربة أركانها وطمس معالم العلم والفكر والثقافة فيها، وذلك
وفق مبادئ وفلسفات غربية كثيرة مستمدة من قانون الغاب؛ ومنها فلسفة الصراع من
أجل البقاء، وفلسفة البقاء للأصلح، التي رسخت مبدأ الصراع الفكري والثقافي، ومبدأ
صراع الحضارات. فلم تأتي فرنسا لإعطاء حضارة أو تلقين ثقافة، بل جاءت لتحافظ
وتدعم وجودها الحضاري على أنقاض ورفات ما بقي من آثار حضارتنا العربية
والإسلامية.

ثانياً/ مراحل السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا:

لقد مرت السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا بخمس مراحل متلاحقة ومتداخلة هي:

1/ مرحلة الاستهداف العام للزوايا : بدأت هذه المرحلة مع بداية الاحتلال
واستمرت حوالي عشر (10) سنوات، كان الغزاة فيها منهمكين بالاستيلاء والتوطين
ومحاربة المقاومة بجميع الوسائل القمعية والتدميرية الممكنة، حتى تمكنوا من فرض

¹ - حسن عبد الرحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسراً، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،
ط4 (1984م)، ص29.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

سيطرتهم على جميع المدن الساحلية والداخلية، وما أحاط بها من قرى ومدشر، وفي هذه المرحلة لم تستهدف الزوايا بضربات خاصة تقصدها بمفردها؛ بل كان استهدافها عام وغير مخصوص، لكونها عنصر ضمن مجموع وجزء من كل؛ فضربت لكونها جزء من الأملاك والمؤسسات والأوقاف الدينية الإسلامية، وضربت باعتبارها جزء من المراكز التعليمية، واستهدفت لأنها جزء من الثروات والأملاك والعقارات التي لا بد من وضع اليد عليها واستغلالها في الأغراض والمصالح الاستعمارية، وضربت أكثر من مرة لأنها فقط جزء من الكيان الجزائري الرافض للاحتلال، وقد تميزت السياسة الاستعمارية في هذه الفترة بقوانين تعسفية وأساليب قمعية منها:

— قرارات الجنرال "دوبرمون" في سبتمبر 1830م: وتعتبر أعنف ضربة أصابت

الزوايا في مقتل؛ لأنها قضت (بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها مع حق التصرف في الأملاك الدينية)¹ مساجد وزوايا وباقي المؤسسات الإسلامية، ومن تم بدأت حملة مسعورة تكالبت فيها الغزاة على اقتسام الغنائم الوقفية والمؤسسات الدينية الإسلامية في كل منطقة يحتلوها، ففي مدينة الجزائر تؤكد المصادر التاريخية على أنه قد كان بها (ما يبلغ 167 مؤسسة إسلامية منها: 109 مسجد، 32 ضريح، و13 مسجدا جامعاً، و13 زاوية)²، من بينها (ست زوايا مجاورة للمساجد لإيواء المتعلمون الغرباء ... اختفت جميعها - الزوايا - ولم يبق منها بعد سنة 1846 سوى واحدة كانت تقع

¹ - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1400هـ / 1980م، ج3،

424 عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1400هـ / 1980م، ج3، 424.

² - المصدر نفسه، ج3، ص443.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
في سوق الجمعة)¹، وحسب تصريح لرئيس "جمعية الجزائر العتيقة" "هـ كلان"، فإنّ
الأماك المحبسة على زاوية ضريح الشيخ "سيدي عبد الرحمن الثعالبي وحدها قد (بلغت
69 عقارا وكان فيما احتله الفرنسيون إبان نزولهم بالجزائر 55 عقارا اتخذوها كلها
مأوى للحيش)².

وفي مدينة قسنطينة³: جاء في تقرير قائد مقاطعة قسنطينة عن حالة الأوقاف
الإسلامية بما سنة 1866م ما مفاده: أنّه من مجموع 95 مسجداً وزاوية كانت كلها
تابعة للمسلمين يستفيدون منها ومن أوقافها لصالح نشر الدين والعلم، لم يبق
للمسلمين منها في هذه السنة سوى 32 مسجداً أو زاوية، والباقي وهو 63 مؤسسة
دينية فهي إما حولت إلى: خدمة المصالح العسكرية الاستعمارية: ثكنات، سجون،
مستشفيات، مخازن ... أو خدمة المصالح التنصيرية: أديرة، وكنائس، ومعابد، وملاجئ
ودور أيتام، ورياض الأطفال... أو أهديت، أو مُلِّكت، أو هدمت بسبب إنشاء
طرقات، وحتى بدون سبب.

هذه الوضعية تصدق على جميع الزوايا وباقي الممتلكات الدينية في كل منطقة
يستوطنها الغزاة، ولهذا استطاعت السياسة الاستعمارية - بفضل قرارات "دوبرمون" -
أن تقضي نهائياً على عدد هائل من الزوايا منذ بدايات الاحتلال بالمصادرة والاستيلاء،
والقليل الباقي من الزوايا التي لم تصادر، لم تستطع الصمود بسبب حرمانها من أوقافها

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1(1998م)، ج3،
22-23.

² - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ص426.

³ - عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1900)، ديوان المطبوعات
الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 253 - 258.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
التي تعتبر السند المالي و(المصدر الوحيد الذي كان يساهم في حياتها الثقافية والدينية،
وبفقدانه فقدت فعاليتها وحيويتها واضطرت إلى التراجع والتقهقر)¹.

— سياسة النهب والتخريب للمكتبات : إنَّ جميع المكتبات الجزائرية العامة

والخاصة، التابعة للزوايا ولغيرها، قد طالتها يد الإجماع الاستعماري؛ فهي إما أحرقت
أو نُهبت ونقلت إلى مختلف المكتبات الفرنسية في فرنسا أو باقي الدول الأوروبية،
والأمثلة على هذه الجرائم لا تعد ولا تحصى، نكتفي للتدليل عليها بذكر مصير
مخطوطات مدينة قسنطينة²؛ فقد جمع الغزاة فيها بعد سقوطها (أكثر من 5000 مخطوط
ومؤلف ثمين؛ لم يسلم منها إلى مكتبة الجزائر سوى 700 مخطوط، والباقي أتلّف ونهب
باعتراف الفرنسيين أنفسهم)³، وقصة (الأمير عبد القادر الذي أصابته نوبة من الحزن
العميق)⁴ وهو يسير في الصحراء يجمع الشتات الباقي من أوراق أعز وأنفس الكتب
والمخطوطات في مكتبته الخاصة التي خربها الجنود الفرنسيين تغني عن أي تعليق.

واليوم نجد المكتبات الفرنسية تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات العربية
الإسلامية، حيث تذكر بعض الإحصاءات أن مكتبة باريس الوطنية (وحدها تحوي 7
آلاف مخطوط عربي، بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية، ونوادير قلما توجد في غيرها،
كما تحتوي على عدد هائل من الكتب العربية)⁴، والحال نفسها بباقي المكتبات

¹ - عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962) - سلسلة المعرفة-،
ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 03-1995م، ص103.

² - جيلالي صاري: مخطوطات قسنطينة ومصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837م، مجلة الثقافة،
س14 ع80 (جمادي الثانية-رجب 1404هـ/مارس-أفريل).

³ - تركي رابع: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية(1931م-
1956م)، سلسلة الدراسات الكبرى، الشركة الوطنية، الجزائر، 1981م، ص97.

⁴ - نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط4، ج1، ص142-143.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
الفرنسية العريقة؛ سواء العامة منها أو الخاصة مثل مكنتبات المستشرقين أو أهالي
المحتلين، وكذا الأمر في معظم الدول الأوروبية، حيث كان الكثير من الفرنسيين
والأوروبيين حريصون كل الحرص على اقتناء (نفائس الكتب والمخطوطات الجزائرية
من هؤلاء اللصوص عن طريق تجار الكتب الأوروبيين)¹، ويقدر معهد المخطوطات
العربية، عدد المخطوطات العربية بالغرب بنحو (ثلاثة ملايين مخطوط)². وبالتأكيد فإن
جزءا معتبرا من هذا الكم الهائل من المخطوطات الموزعة بين المكنتبات الغربية؛ هو من
مكنتباتنا الجزائرية التي نهبت وأفرغت من كنوز العلم والفكر والمعرفة.

وقد عانت الزوايا كثيرا من فراغ رفوف مكنتباتها من الكتب والمخطوطات
النفيسة، التي كانت معتمد أصحابها في نشر العلم والقيام به، وهذا مما أثر سلبا على
المناهج التعليمية بالزوايا، مما طبعها بالجمود والتقليد وجعلها تدور في فلك بعض
المؤلفات القليلة التي سلمت من بطش اليد الاستعمارية، لذلك وجدنا أن بعض الأسماء
وبعض المؤلفات قد اكتسبت طابع القداسة، وصار لا يعتبر علم من العلوم ومعرفة من
المعارف إن لم يؤخذ عنها أو منها بالذات؛ بل قد يكتفي الكثير من المعلمين والمدرسين
بتلك المقررات على اعتبار أنها كافية ووافية ومغنية عن غيرها.

— عمليات التدمير الشامل والتقتيل الجماعي في المدن وفي القرى المجاورة

لها: حسب شهادات بعض القادة والضباط الذين شاركوا في الغزو؛ فإن عدد القرى
التي دمرت تدميرا شاملا كان كبيرا جدا عد بالعشرات والمئات، حيث لم يسلم فيها لا
بيت ولا مسجد ولا زاوية ولا ضريح ولا حتى إسطنبول، أما سكانها فسعداء الحظ منهم
من استطاعوا النجاة بحياتهم والهروب نحو المناطق البعيدة عن الغزاة داخل الجزائر وحتى
خارجها، والبقية الباقية منهم فقد قتلوا بكل بشاعة وشراسة برجالهم ونساءهم،

¹ - تركي رايح: التعليم القومي، ص 96.

² - عبد اللطيف صوفي: لمحات من تاريخ الكتاب والمكنتبات، دمشق، دار طلاس للنشر، 1987.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
وبشيوخهم وأطفالهم، وبعلمائهم وطلابهم، وبعيواناتهم أحياناً -وكأنهم لخوا في نباها
وصياها وموائها نبرات الرفض والمقاومة-!

2/ مرحلة الاهتمام وبداية المراقبة: بعد مرور عشر سنوات من الاحتلال

والاهماك في التوسع والقمع، داخل المدن والقرى المجاورة لها، وعند بداية التغلغل في
الأرياف الجزائرية؛ أدركت السياسة الاستعمارية أن كل ما قامت به طوال تلك المدة،
لم يحقق لها الأهداف التي سطرها، فلم تبسط نفوذها إلا على جزء صغير من البلاد
الجزائرية، ولم تستطع أن تقضي على المقاومات الشعبية التي لا تكاد تنقطع، وقد
تكبدت خسائر لم تكن تتوقعها. لذلك فكرت في ضرورة التغيير والتطوير في طرقها
وأساليبها، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بزيادة المعرفة بخصوصيات البلاد المستعمرة
ومميزات أهلها من جميع النواحي، لتوضع المخططات وفق مقاسها. ولأجل ذلك :

— تمّ تجنيد (بعض الضباط ليتعلموا اللغة العربية)¹، مع التأكيد على الاحتكاك
بالسكان الأصليين ومحاولة التقرب إليهم - بالتأكيد ليس حبا فيهم - مع مراقبة مناطق
التمرد والشخصيات البارزة والمهمة، وتحرير تقارير عنها وعن أسباب التمرد والمقاومة
في كل منطقة، ثمّ تطورت التقارير وتحولت إلى أبحاث ومؤلفات من طرف الضباط
الذين تعلموا العربية، وأهمها على الإطلاق كتاب النقيب "إدوارد دو نوفو/ Edward
de neveu" المسمى "الإخوان"² الذي صدر في سنة 1845م، وهو عبارة عن مجموعة
من التقارير الناتجة عن المراقبة المستمرة، مقدمة بطريقة منهجية، وبه تحليلات وجهت
الأنظار نحو دور العامل الديني في المقاومة، حيث مما جاء فيه: (يجب سبر الجانب

¹ - محمد الملي: الشيخ مبارك الملي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م، ص 53-54/ نقلا عن

أيفون تورين: Affrontements culturels dans l'Algerie coloniale.maspero. Paris 1971

² - إدوارد دو نوفو: الإخوان (دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر)، ترجمة
وتحقيق: كمال فيلاي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 2003.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

السياسي لهذه الجمعيات التي غالباً ما أنتجت بين الأشخاص علاقة ذاتية تمنح إمكانية اتصال سريعة تكاد تكون خارقة للعادة، ونعتقد أنّ جمعيات الإخوان هذه أصبحت تلعب دوراً ذا أهمية كبيرة في المسائل السياسية بالوسط والغرب ونعتقد أنّ ندائنا لجلب انتباه السلطة حول هذه النقطة يعتبر مبادرة جادة ... علينا معرفة كل ما يتصل بدين المسلمين،... هذه الدراسة توجهنا لمعرفة الرجال الذين يسكنون بأيديهم الخيوط التي تسمح عند الضرورة بتحريك السكان، وعليه فاهتمامنا بمؤلاء الرياس ومنحهم الرعاية والمعاملة الخاصة يمكننا من الحصول على متعاونين أقوياء يساعدوننا على إطفاء الحماس الذي ينشط روح القبائل العربية الخاضعة لنا)¹.

وفي حديثه عن الطريقة الرحمانية: (يقال أنّ إخوان بن عبد الرحمان أكثر تعصبا، فعلاً يبدو أكثر نفوراً من الفرنسيين عن إخوان الطرق الأخرى، وأصبح من السهل تصور الاهتمام الذي يولونه للكفاح الطويل الذي جمعنا بأخيهم عبد القادر... من المؤكد أيضاً أنّ إخوان بن عبد الرحمان قدموا مساعدات من المال والرجال وساهموا في حروب عبد القادر الأخريرة ... استطاعت طريقة بن عبد الرحمان أن توحد تحت راية دينية واحدة العرب والبربر، فهي العلاقة التي توحد بين هذين الجنسين اللذين فرقتهما السياسة، ولم يجمعهما نظام واحد ...)². أما زميله النقيب "ريتشارد" فقال: (المتتبع للدوافع العميقة للمقاومة الجزائرية إلى ثورة الضهرة التي قامت في سنة 1845،... أبرز بوضوح الدور الذي قامت به الجماعات الدينية)³ ؛ ويقصد بها الزوايا والطرق الصوفية.

¹ - إدوارد دو نوفو: الإخوان، ص 24.

² - المصدر نفسه، ص 72-73.

³ - إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص 254.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

لأول مرة تَنبّه قادة الاحتلال إلى الخطر الحقيقي الذي تمثله الزوايا والطرق الصوفية؛ حيث وجدوا أنّ نشاطها لم يكن مقصور على العبادة والتعليم والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية؛ بل تعادها للقيام بأنشطة سياسية واجتماعية، ساهمت في نشر الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد دفاعاً عن الدين والوطن، فكانت سنة 1845م نقطة تحول وبداية لمرحلة جديدة للسياسة الاستعمارية اتّجاه الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر.

3/ مرحلة الاستهداف المخصوص بالتضييق والقمع ومحاولات التدجين: بعد

أن أحست سلطات الاحتلال بخطورة الزوايا والطرق الصوفية، سارعوا إلى استدراك الأمر، وشنّت موجة عظيمة من التحقيقات، بدأت بتركيز الملاحظة والمراقبة على الزوايا والطرق، بعد مضاعفة عدد الضباط المجندين للمراقبة والتجسس، فتضاعفت التقارير والأبحاث، وكانت تتعلق بجمع المعلومات صغيرة كانت أو كبيرة عن (أماكن الزوايا، القائمين بها، المترددين عليها، أعمالهم، نشاطاتهم...)، وهذه بعض المقتطفات من تلك التقارير:

التقرير الأول: (...لقد كان بفرع المدينة مذهباً، الدراواة الذين كانوا معادين

لنا كل العداة؛ لأنّ غايتهم كانت سياسية بوجه خاص، فأرادوا أن يشيدوا من جديد صرح إمبراطورية إسلامية ويطردوننا. إنّ هذا المذهب منتشر جداً في الجنوب ومن الصعب جداً مراقبتهم، لقد كانت ندوات الإخوان سرية، ولقد كانت أغلبية رؤسائهم مع ذلك معروفة ...)¹.

التقرير الثاني: (...تسعى الزوايا التي يدير معظمها مقدمون من مختلف المذاهب

إلى إفساد عقول الأجيال المقبلة، يبث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب وحملهم

¹ - إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص 255.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
على كراهية الكافر، إذ أنّ مشايخ الزوايا يختارون في تدريسهم للقراءة نصوصا من
القرآن معادية لنا مما يحطم فيهم وبسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم من طرف
مؤسساتنا، وتعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا والتي يجب أن نخشاها ونخطط لها
سياستنا¹.

ثمّ تطورت التقارير والمؤلفات إلى تحقيقات ودراسات متخصصة تجمع بين
دراسات إحصائية وتاريخية و سسيولوجية عن المنطقة وعن الزاوية وعن أصحابها، ومن
أشهرها كتاب "بلاد القبائل" لمؤلفيه "هانوتو" و"التورنو"، ثمّ ظهر عام 1884م كتاب
"لويس رين" "Louis Rinn"، المسمى: "مرابطون وإخوان" "Marabouts et
"Khouan"، وقد وضع تحته عنوانا فرعيا: "دراسة عن الإسلام في الجزائر"، ويمثل (هذا
الكتاب ذروة اهتمام السياسة الاستعمارية بالطرق والزوايا في الجزائر)².

أسفرت التحقيقات والدراسات عن معطيات كثيرة، استطاعت بفضلها السياسة
الاستعمارية أن توجه ضربات قاضية للزوايا من خارجها ومن داخلها كذلك:

أ - **الاستهداف الخارجي** : ونعني به مختلف الأساليب التي خصت بها الزوايا
من خارجها:

- **تشديد الحراسة على المشبوه فيهم ومحاصرتهم ومنعهم من أي نشاط
سياسي.**

- **منع التنقل من غير رخص**: وقد نبهت التقارير إلى وجود شبكة للاتصالات
والعلاقات بين الزوايا داخل الجزائر، وحتى بفروعها أو أصولها خارج الجزائر، فحاء
الأمر في الحين بالشروع (في مراقبة التنقلات وإعطاء رخص للمرور، الأمر الذي كان

¹ - محمد الملي: الشيخ مبارك، ص39.

² - إيفون تورين: الأشكال الرئيسية للمقاومة في الجزائر، ص258.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
يسمح بالعثور على الذين لا يملكون هذه الرخص¹، مما يعرضهم لشتى أنواع
الاضطهاد (تحقيق، ضرب، تغريم،...).

– **النفي والسجن**² والتشريد والترويع لزوايا وطرق بعينها، مثل: "الرحمانية"،
و"السنوسية".

– **سياسة فرق تسد** وضرب الزوايا والطرق بعضها ببعض، حيث عمل
الاحتلال الفرنسي على خلق نزاعات وخلافات (حول بعض القضايا الهامشية – فرعية
– كالقبض في الصلاة والجهر بالبسملة وقراءتها، وكان ذلك سببا في قيام مشاحنات
وحزازات بين الأتباع)³، وأخطر تلك النزاعات هو ما كان يؤدي في بعض الأحيان
إلى التقاتل، أو إلى خيانة الوطن والتعاون مع العدو.

– **اختلاق القضية البربرية والأمازيغية** وتكثيف الحملات التنصيرية على منطقة
زواوة بالذات، بمحاولة لاستبدال الزوايا بالأديرة والكنائس.

– **إقامة مدارس فرنسية مجاورة للزوايا**، وهذا ليس من باب الاهتمام؛ ولكنه
تمهيد للقضاء على تعليم الزوايا بسحب تلاميذها تدريجاً، (فإنَّ كل الدلائل تدل على
أنَّ الفرنسيين قد خططوا لعرقلة التعليم في الزوايا ومنافسته ووضع الشروط المضادة له
وسحب التلاميذ منه وعدم التوظيف من خريجي الزوايا)⁴.

ب – الاختراق الداخلي: ومن الأساليب التي اخترقت بها الزوايا من داخلها:

¹ – عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق، ص191-194.

² – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص176-177.

³ – يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، في القرنين التاسع عشر والعشرون، منشورات المتحف الوطني
للمجاهد، ط2، 1996م ج1، ص349.

⁴ – توفيق المدني: كتاب الجزائر، دار الكتاب، البلدية، ط2(1382هـ/1963م)، ص351.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

- استعمال شبكة من الجواسيس من أهل الزوايا أنفسهم أو من باقي الأهالي.

- توقيف النشاطات التعليمية لكثير من الزوايا وتشجيعها على الدروشة

والخرافات والدجل، وحتى السحر والألعاب البهلوانية، مثل: "العمارية" و"العيساوية"، وقد استغل الكثير من أهل الزوايا الأوضاع الاستعمارية وجعلوا من طلاب الزوايا خدما وعبيدا لأهوائهم، ومن الشهادات الحية ما رواه الشيخ محمد الصالح بن عتيق عن بعض الزوايا التي تعلم بها في صباه. ومنها زاوية الشيخ بورصاص بمكان يسمى الخنق"بالقاف المعقودة" وتقع شمال قسنطينة، وتبعد عنها بنحو 30 كلم، وتنسب إلى الطريقة الطيبية. - رحل إليها هو وابن عمه ومكثا بها مدة شهرين- فقال¹: أصبحنا عاملين في دار "الشيخ" بدون أجر، كان الطلبة يقومون في الصباح الباكر فيذهبون إلى الحقول ويخلصون الزرع من المواد الضارة، ويقطعون الحشائش ويجمعون الجاف منها، يصدرونها علفا لدواب الشيخ. أما القراءة ففي أوقات الفراغ من العمل وما أقلها! ولا يدورن بخلدك أن في هذا خسارة للطالب "فاللوحة المعلقة خير وأفضل من اللوحة المستعملة" وهذه عقيدة أهل الزاوية ومريديهم، ويعنون بهذا أن لوح القراءة المتروك في الحائط معلقا لأن صاحبه في شغل عنه بالعمل والسخرة لدار الشيخ، يفتح عليه، أفضل من الطالب الذي يقرأ في اللوحة ولا يشتغل بالسخرة!

أما الطلبة الذين استطاعوا حفظ القرآن في بعض الزوايا الحريضة على ذلك كما هو الحال في (زاوية الشيخ الزواوي وتقع غرب قسنطينة بنحو 30 كلم، وتنسب إل الطريقة الحنصالية، فتتحصر أعمالهم عند رجوعهم إلى أهليهم في تعليم أبناء قريتهم مقابل أجرة لا تفي بحاجتهم، فيضيفون إلى هذا الوظيف صناعة " اليقشة" كتابة الحروز

¹ - محمد الصالح بن عتيق: أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، ص37.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
والقراءة على الأموات، وانتظار الصدقات، وقد تفننوا في التحايل والتدجيل لصيد
الدرهم بوسائل شيطانية ماهرة¹.

وبضيف الشيخ²: قضيت بالزاوية حوالي السنة وضاق الصدر من نظامها
ووظيفتها التي يسمونها "السفارة" بترقيق الرءاء، وهي عبارة عن عمل دائم وسخرة
مستمرة فالطلبة عليهم أن يكونوا على استعداد في كل وقت لمطالب دار الشيخ التي لا
تنتهي؛ ففي كل يوم يحملون البريد ويأتون به على مسافة خمسة كلم، وفي الغالب
يسحبون معهم عند الرجوع زجاجات من الخمر يحملونها على ظهورهم هدية لدار
الشيخ! ... وقد يذهبون بكلاب الصيد إلى أمكنة بعيدة مختلفة حيث يوجد حد من
أبناء الزاوية، ... ولأجل مثل هذه الأوضاع وغيرها طغى الفكر الخرافي وانتشرت
الحزعلات والبدع، وصارت مظاهر التدين عند أغلبية الجزائريين تكاد تنحصر في:
(ضرب الدفوف والرقص واختلاط الرجال بالنساء...وأكل الحشرات السامة، والتمرغ
في الأشواك)³ والتمسح والتبرك بالأشجار والأحجار وحتى الكلاب⁴، والاستشفاء
بالفكارين "السلحف" والثيران والتيوس⁵، والديوك السود..، وأعمال الدجل
والشعوذة والسحر؛ بل وحتى (المخدرات والكيف)⁶ عند بعضهم.

¹ - المصدر نفسه، ص40-41.

² - المصدر نفسه.

³ - محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص76.

⁴ - ذكر الشيخ مبارك الميلي في رسالة الشرك: أنه قد تواتر أن كلاب عبد الرحمان بن الحملاوي
هامت ذات سنة في عدة جهات فكان الناس يكرمونها بالذبائح والضيافات ولكنهم يؤذونها بانتزاع
شعورها تبركا وزلفا.

⁵ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص86-87.

⁶ - المصدر نفسه، ج3، ص181-184/ ويحي بوعزيز: ثورات الجزائر، ج1، ص243-244.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

– الإغراء بالمناصب والألقاب والنياشين والامتيازات: من أشهر شيوخ

الزوايا الذين قبلوا الوظيفة الرسمي؛ شيخ زاوية شلاطة – وتسمى أيضا زاوية أقبو – "محمد السعيد بن علي الشريف"¹، الذي تعاون مع الجنرال "بيجو"، وساعد الجيش الفرنسي على عبور منطقة وادي الساحل، ومنح لقب "باشاغا"، وشيخ زاوية "طولقة"، "سي علي بن عمر"، الذي (أعلن طاعته لسلطات الاحتلال منذ عام 1844م وفتح زاويته للقوم والجنود الفرنسيين في أحداث بسكرة في نفس العام)²، والحال نفسها مع زاوية نفطة فبعد أن (كانت ملجأ لكل الفارين والمضطهدين من طرف سلطات الاحتلال،... سياستها تغيرت بعد أن أصبح على رأسها "سي الحسين بن علي بن عثمان" شقيق رئيس زاوية طولقة،... وهو الذي أبلغهم – الفرنسيين – عام 1871 بوصول محي الدين ابن الأمير عبد القادر)³.

– الزواج المختلط: وأشهر حادثة تتعلق بالطريقة "التيجانية"، التي اشتهرت

بمواالاتها للاستعمار، بعد أن قام رأس الطريقة "أحمد التيجاني" وتزوج بالفرنسية "أوريلي بيكار"، التي أصدرت كتابا أسمته "أميرة الرمال" – تعني نفسها – ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية وذكرت أن أحمد التيجاني تزوجها على يد الكاردينال "لافيجري" على حسب الطقوس المسيحية⁴، وحتى بعد وفاته خلفه في زواجه بها خليفته في الطريقة! وتذكر عدة مصادر تاريخية أن هذه المرأة؛ قد (أعطت للاستعمار مئات المهكتارات من الأرض وأدارت أعمال رئيسي الطريقة وزاويتها ومن جاء

¹ – يحي بوعزيز: ثورات الجزائر، ج1، ص242.

² – المصدر نفسه، ج1، ص242.

³ – محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص109-110.

⁴ – أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة، ط1 (1405هـ/1984م)، ج1،

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
بعدهم إدارة عادت بالنفع الجسيم على الدولة، كما ساهمت التيجانية زمن الحرب
العالمية الأولى بجيوش من المتطوعين)¹.

- **تضييق الخناق على التعليم القرآني** بمرسوم 6 أكتوبر 1852، حيث (لم يعد
يسمح لأحد بتعليم القرآن إلاّ برخصة، ولم تكن تمنح هذه الرخصة إلاّ بعد إجراءات
مشددة وموافقة عدة مستويات من سلم الموظفين الفرنسيين)².

- **دمج تعليم الزوايا في المدارس الابتدائية الفرنسية** بمرسوم 18 أكتوبر
1892، وهذا ما (أخضعها للمراقبة وتفتيش السلطات الأكاديمية المدنية، أو المحلية -
العسكرية - مثلها في ذلك مثل المدارس الإقليمية الثلاث - الشرعية -، وقد اشترط
المرسوم: أن يكون لكل زاوية سجل تسجل فيه أسماء التلاميذ وعائلاتهم ومحل إقامتهم
وتاريخ ميلادهم)³، أما معلمو القرآن الذين يتطوعون ويفدون من خارج البلدة أو
المدينة للقيام بهذه المهمة...فإنّهم يعتبرون "أجانب" و"يمنعون من ممارسة النشاط
التعليمي"⁴.

- **التدخل في المناهج والمقررات التعليمية داخل الزوايا**: حيث (أجبروا المعلمين
على تحفيظ القرآن دون تفسير، وتدخلوا في تدريس الفقه بحذف بعض الأبواب
"كالجهاد"، ومنعوا أحيانا تدريس التوحيد)⁵، وشجعوا اللهجات المحلية على حساب
اللغة العربية. بذلك ألت وضعية التعليم في معظم الزوايا إلى مأزق، وغلب عليه الجمود
والانغلاق، أضف إلى ذلك أنّه غلب على اعتقاد عامة الناس وبعض الخاصة منهم (أنّ

¹ - محمد الميلي: الشيخ مبارك الميلي، ص55.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص176.

³ - محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي، ص55.

⁴ - المصدر نفسه، ج3، ص20.

⁵ - توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص351.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
علوم العمران والأكوان - التي خدمها أسلافنا أمس وترقت بها أوروبا ورقتها اليوم -
هي علوم النصارى! ومن يتعاطاها كافر...!)¹، فقاطعوا لأجل ذلك علوم العصر
الجديدة والحديثة وتمسكوا بكل ما هو قديم مرتبط بأبائهم وأجدادهم؛ ولو كان لا
طائل منه ولا نفع، فكان هذا من الأسباب المباشرة في ظهور طائفة من الجزائريين
المنبهرين بالحضارة الغربية، الذين نعموا على المناهج القديمة العربية والإسلامية، حتى
وصل الحد ببعضهم إلى التنكر لأصله ودينه والمروق منه والإلحاد-العباد بالله-.

4/ مرحلة السيطرة والاستقرار: ما إن حل القرن العشرين حتى تمكن الاحتلال

من تدجين أغلب الطرق والزوايا، واستطاع بفضلها أن يحقق ما عجز عن تحقيقه
بجيوشه الجرارة، حيث استسلم معظمها للإرادة الفرنسية بعد أن أصابهم التعب
والوهن، وأما البقية الباقية منهم فقد فضلوا النجاة بأنفسهم واختاروا العزلة والحياد مع
قيامهم ببعض المهام التعليمية، فصارت لأجل ذلك معظم الطرق والزوايا سلاحاً بيد
المستعمر يوجهه كيفما شاء وعلى من يشاء، واستطاع أن يخلق بينها وبين باقي
الحركات الدينية والوطنية عداوة كبيرة، وبخاصة الحركة الإصلاحية الحديثة بزعامة
الشيخ عبد الحميد بن باديس (رحمه الله)، حيث صارت عدوها ومنافسها الأول، ذلك
أنّ القضية لم تعد مجرد اختلاف في الرأي أو اختلافات فقهية وفرعية فحسب؛ بل
أصبحت قضية تحدي من أجل المحافظة على ذلك العرش الذي سادت عليه لأزمان؛
وبالطبع ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر كان سبباً مباشراً في زعزعة ذلك العرش
العظيم الذي تزعمت عليه بمفردها طويلاً، فتحولت القضية إلى مسألة وجود وصراع
من أجل البقاء.

¹ - محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص89.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد-----أ. فوزية لوصيف
وسخرت الطرق والزوايا لأجل ذلك كل الوسائل والأساليب؛ فتلونت بلون
القرن الجديد، وطورت في أساليبها ومناهجها بمساعدة من السلطات الاستعمارية،
حيث (استفادت من النظم العصرية)¹؛ فاستحدثت الاجتماعات العامة للمذاكرة في
المسائل الدينية والاجتماعية، ولجأت إلى تنظيم المحاضرات والندوات والمؤتمرات،
وعملت على تكوين جمعيات على الطراز العصري، مثل: جمعية "أحباب الإسلام"،
وجمعية "التنوير العليوية"، كما جعلت لنفسها جرائد خاصة ناطقة بلسانها وأفكارها
ومبادئها، ومن أشهر جرائدها في تلك الفترة جريدة "لسان الدين" التي أسست عام
1923م، وجريدة "البلاغ الجزائري" التي أسست عام 1926م، وأخرها "المرشد الغراء"
التي أسست عام 1946م، ثم صار لبعضها مطبعة خاصة وهي مطبعة الطريقة العليوية
بمستغانم.

5/ مرحلة العودة للاستهداف العام: في فترة الحرب التحريرية الكبرى، توقفت
الزوايا — نوعاً ما — عن أداء رسالتها التعليمية بسبب انخراط العلماء والطلاب في
صفوف الثورة المسلحة، والاستعداد لمعركة الحرية والاستقلال؛ كما انشغلت عنها
السياسة الاستعمارية بمواجهة هذه الثورة العارمة ومحاولة إحباطها، وكل ضربة وجهت
في هذه المرحلة نحو الزوايا فهي لا تقصدها بعينها، وإنما في إطار استهدافها لمناطق
الثورة وللثوار في كل بقعة من وطننا الجزائر، ولذلك فإنّ العدد القليل الباقي من الزوايا
قبل الثورة دمر أكثره في أثنائها.

ثالثاً/ الزوايا بعد الاستقلال وأهمية إصلاحها وسبل تحقيقه

1/ الزوايا بعد الاستقلال: مع كل تلك المخططات الاستعمارية الجبارة التي
قصدت بها الزوايا؛ فهي لم تمت أو تتلاشى، ولم تتوقف عن أداء رسالتها التربوية

¹ - محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص138.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
والتعليمية وبخاصة في زوايا الصحراء والمناطق المعزولة، أما بعد الاستقلال فلم تبق
الزوايا على ما كانت عليه أيام الاستعمار، وعندما أوكل أمرها فيما بعد إلى وزارة
الشؤون الدينية استعادت بعض ما كان لها، وأصبحت مورداً هاماً لتزويد المعاهد التي
تعتمد عليها الوزارة في إعداد أئمة ووعاظ ومعلمين؛ لتدريس القرآن بالمساجد
والإشراف عليها... ومعظم طلاب الزوايا اليوم ممن أكمل المرحلة الابتدائية في المدارس
الرسمية، ولم يوفق للمواصلة فيها، حيث تعتبر الزوايا بمثابة مرحلة متوسطة، يلتحق
الطالب بعد إكمالها بالمعاهد التابعة لوزارة الشؤون الدينية.

أما دور الزوايا في التثقيف الشعبي فقد أصبح محدوداً ومقتصراً على دروس في
القرآن والفقهاء المالكي مع شيء من علم التوحيد وعلوم اللغة، وكلها على طريقة المناهج
والمقررات القديمة. أما القليل من الزوايا التابعة للطرق الصوفية المهرجة فقد استعاضت
عن التعليم بالتهريج والشعوذة والدجل، وصارت تستغفل عقول العامة وتحدرها لتنهب
أموالها وممتلكاتها باسم الشيوخ والصالحين والكرامات.

2/ إصلاح الزوايا أهميته وسبل تحقيقه:

إنّ الزوايا من المؤسسات القديمة في الجزائر، وتمتلك رصيداً تاريخياً وثقافياً
ضخماً، قدمت من خلاله خدمات جليلة لهذا الوطن ولأهله، وإن كانت -لظروف
تاريخية متراكمة- قد انحرفت عن هذا الرصيد وتراجعت، فهذا لا يعني عدم جدواها
اليوم، فقد كانت وستبقى من المؤسسات العريقة ذات الامتداد الشعبي والتأثير المباشر؛
إن حسن استغلالها وتوظيفها، وهذا بالتأكيد يتطلب عمليات إصلاحية كثيرة، يجبر بها
الخلل ويصوب بها الطريق، حتى تشرق صفحة الزوايا، وتعود لعطائها ونضالها كما
كانت في سابق عهدها، وهو الأمر الذي تنبه له علماء الإصلاح ورجاله في بدايات
القرن العشرين، ونخص منهم بالذات أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف
وجدنا لهم آراء ومواقف حول الزوايا الجزائرية، وهذه الآراء في مجملها لا تخرج عن
ثلاث اتجاهات:

الأول منها فهو الاتجاه المسالم الشاكر لفضل ذوي الفضل من أعلام بعض
الزوايا - على قلتهم -، ويمثله كل العلماء المصلحين الذين اعترفوا بفضل بعض أهل
الزوايا وعلمائها في بعض المناطق من البلاد.

والثاني منها فهو: الناقد والمرشد المتميز بالشدة والصرامة والصرامة -يسميه
بعض أهل زوايا فضح، وتشنيع، وتشهير¹-، ويمثل هذا الاتجاه الشيخ مبارك الميلي
(رحمه الله) الذي كثيرا ما تطرق في كتاباته لنقد الزوايا في أساليبها ومناهجها
التعليمية²، كما انتقد بشدة على القائمين عليها كل أمر مبتدع أو مخالف لثوابت الدين
وأساسياته³.

وأما الثالث فهو الاتجاه المصلح، الذي يرمي إلى إدخال تعديلات وإصلاحات
على الزوايا وطرائقها، ويمثل هذا الاتجاه الشيخ: أبي يعلى الزاوي⁴ (رحمه الله)، حيث

¹ - مبارك الميلي: التعليم الديني بالجزائر وحظ الزوايا منه، آثار الشيخ مبارك الميلي، جمع وترتيب:
أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد، الجزائر، ط1، 1433هـ / 2012م، ج1، ص106.

² - المصدر نفسه، ج1، ص94-107.

³ - انظر: مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، وكذا العديد من المقالات في الشهاب والبصائر
وغيرهما.

⁴ - هو أبي يعلى بن محمد الشريف بن العربي المشهور الزاوي، ولد سنة 1866م في دائرة اعزازقة
بولاية تيزي وزو، أخذ تعليمه الأول على يد والده بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى زاوية سيدي عبد
الرحمن اليلولي أين تتلمذ على شيوخها ومنهم الشيخ الصادق زكري، سافر إلى سوريا عام 1902م
أين التقى بكوكبة من العلماء المعروفين آنذاك، مثل: شكيب أرشلان، ورشيد رضا، وغيرهم، وقد
كتب بعض الصحف المشرقية، عاد للجزائر عام 1924م، فاشتغل إماما خطيبا بجامع سيدي رمضان
بالعاصمة، ومن أعلام الحركة الإصلاحية الجزائرية البارزين وأحد أقلامها المحمدا والمجتهدة. له عدة

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

يعرض في بعض مقالاته لمشروعه الإصلاحى الخاص بالزوايا بقوله: لا بد للزوايا من الإصلاح وجوبا دينيا علميا واختصر في بيان الإصلاح الأول فأقول¹:

— من الضروري بلا أدنى تأمل لزوم تعيين الهيئة الحاكمة المتصرفة في الزاوية أعضاء مسؤولين، ويكون دفتر حصر للدخل والخرج، وينبني على ذلك عدد الطلبة المستطاع الإنفاق عليهم.

— التصريح القانونى بمن يقبل من الطلبة للدخول في الزاوية من: بيان السن، القدر اللازم من مبادئ القراءة والكتابة.

— تعيين المدة اللازمة لتحصيل الفنون والمعارف التي تقرأ في الزاوية، ثم يعطى الطالب الإجازة عن أهليته في تلك العلوم التي أخذها. والذي لم يحصل على الإجازة يخرج من الزاوية مكثفيا بشهادة حسن السيرة الإسلامية العربية. والذي لم يحصل على شيء من ذلك كله يطرد ويخرج ليعمل فيما له فيه أهلية من الأشغال الضرورية لحياته.

— تعيين المدير القدير، والمدير هو الذي يعين المدرسين: اثنين أو ثلاثة أو أكثر

على قدر الطلبة، وعلى قدر العلوم التي يقرر تدريسها في الزاوية.

— تعيين المفتش المعبر عنه في اللسان الفرنساوي (انسيكتور) للاطلاع على سير الطلبة، وعلى أهلية ومقدرة كل طالب، والحال أن لكل طالب دفتر باسمه، يرسم له شيوخه مقدرته ومبلغه من العلم، ويطلع على ذلك المفتش ليرى تقدمه، وتأخره عند حضوره للزاوية مرتين أو ثلاثاً في السنة. ثم بعد تمام المدة المعينة تعطى الإجازة

مؤلفات (خمسة منها مطبوعة)، والكثير من المقالات في الشهاب والبصائر. توفي في 4 جوان 1952م. انظر: أحمد الرفاعي شرفي: مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين، دار الهدى، عين مليلة، ط2011م، ص3-4.

¹— أي يعلى الزواوي: إصلاح الزوايا في بلاد الزاوية (2)، مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين، ص396.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد-----أ. فوزية لوصيف
للمتخرج ليحصل على وظيفة الإمامة في الزوايا، والقرى والمدن، ...، وكذلك
التدريس في العلوم التي أجزى عنها.

والملاحظ أن الشيخ الزواوي يتكلم بلغة عصره، ولذلك دعا إلى الأساليب التي
كانت موجودة في زمانه؛ فأكثرها كان مطبق في المدارس التعليمية الحكومية آنذاك،
وهو بآرائه النيرة هذه كأنه يريد أن يجعل من الزوايا معاهد -أو شبه جامعات-
لتخريج الأئمة والمدرسين الموثوق فيهم وفي علمهم وكفاءتهم المهنية والأخلاقية. وبعد
مضي ثلثي قرن تقريبا على هذه الاقتراحات؛ نجد ما زالت صالحة للاستفادة منها
حتى في أيامنا هذه، مع إضافة ما يتعلق بعصرنا علنا نحقق الإصلاح والتجديد المنشود
قديمًا وحديثًا، ولا يتم ذلك إلا من خلال الخطوات التالية:

أ/ العناصر الإيجابية للزوايا وآليات المحافظة عليها: من خلال إعادة إحياء

مهامها وأدوارها التي كانت تقوم بها في عهودها المشرقة:

— إذا كان التصوف نزعة تميز بها الجزائريون في عهود الاضطهاد، وأوجدت
منهم شعباً مجاهداً قل مثيله في العصور الحديثة، فإن الزوايا تعتبر المؤسسات الشعبية التي
مورست من خلالها حياة التصوف وتحققت بين أركانها تلك الروح الجهادية التي
عملت على غرس الوعي الديني والتعبئة العقائدية، التي أخرجت كتائب الجهاد للدفاع
عن الدين والوطن، ولهذا كان لا بد من إحياء هذه التركة الصوفية الروحانية لمواصلة
طريق الجهاد لحفظ الدين وبناء الوطن والنهوض به، ولحماية أبنائه ونجدتهم في زمن
سادت فيه المادية وخيم الفراغ الروحي حتى عند المتدينين منهم، وبخاصة الشباب
منهم، الذين فقدوا الثقة في أنفسهم وفيمن حولهم، وغمرهم اليأس ولعبت بعقولهم
أبواق الإغراء والتخريب والفساد، فصاروا إلى إحدى المهجرتين: إما هجرة إلى الآخرة
وبدايتها موت -ظاهرة الانتحار-، وإما هجرة إلى وطن الأحلام الجديد وأكثرها
ينتهي بالموت -الحرقاة-.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

— إنَّ أهم المهام الواجب إحيائها هي ما كان يتعلق بالتربية والتعليم والتحصين الثقافي والحفاظ على اللغة العربية والتقاليد الإسلامية والهوية الحضارية، وبخاصة في هذا الزمن، زمن العولمة، وتأثيراتها السلبية على الهوية والموروث الثقافي للأمم والشعوب، ومخاطرها الفاتكة التي تمس قضاياها التراثية الجوهرية، بما يهدد الهوية الوطنية بالتشويه والاضمحلال. والعولمة بمفهومها المعاصر تعني إحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي وهو اختراق يستهدف العقل والنفس والتراث إنه مفهوم يترتب عليه ضياع تراثنا وهويتنا وبخاصة منها العربية الإسلامية.

فكان لابد أن تتكاثف الجهود والمؤسسات والجهات الفاعلة على تنوعها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وبخاصة إذا تعلق الأمر بشريحة الشباب التي تتقاذفها هيئات وجهات لا تحصى تبعتها عنوة عن كل ثابت وأصيل من هويتها؛ فمن الضرورة بما كان أن تتنوع الوسائل والمؤسسات الفاعلة لمواجهة كل ذلك، ومؤسسة الزاوية إحدى أهم الوسائل المتاحة.

— لقد صاحب دخول الاحتلال موجة شرسة من الإرساليات التبشيرية، بدأت مع الكاردينال لافيغري "واستمرت مع باقي الجمعيات التبشيرية من بعده، من "كاثوليك" و"بروتستانت" "لتنتم ما بدأه، فقد بدل المبشرون في سبيل تنصير أبناء المسلمين الجزائريين؛ وسائل حجة وأموال طائلة، وبطرق عدّة، ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع، ووجدت من المسلمين مقاومة صلبة، وحذرا متيقظاً¹، وقد كانت الزوايا والطرق الصوفية هي إحدى أهم البواعث لهذا النوع من المقاومة، وهي المقاومة التي نرمي إلى إحيائها وبعثها من جديد لمكافحة هذه المحجمات التبشيرية التي تتعرض لها مناطق كثيرة من الوطن، ولما لا خارجه كذلك.

¹ - محمد ناصر: المقالة الصحفية، ج1، ص138.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

يجب استثمار هذه الأعمال النوعية باستخلاص مناهجها وأساليبها وتطورها بما يناسب العصر ومتطلباته، حتى تتمكن من مواجهة الهجمات التبشيرية كيفما كانت وحيثما حلت.

— إنَّ العلماء الذين تخرجوا من هذه الزوايا هم الذين حافظوا على الإسلام والعربية في الجزائر، وجعلوا من الإيمان والعقيدة قوة فاعلة استطاعت أن تصد محاولات المستعمرين لاختراق الشخصية الإسلامية وتشويهها، وكم نحن بحاجة إلى ربط الجزائريين بدينهم ولغتهم، لأن المؤسسات التعليمية الحكومية لن تستطيع بمفردها أن تحقق ذلك.

— استرجاع الدور الاجتماعي والأخلاقي للزوايا، وبخاصة فيما يتعلق في المحافظة على الأخلاق والسلوكيات العامة والإصلاح بين الناس في المجتمع.

— استغلال المؤسسات الوقفية وحسن استثمارها لفائدة العلم والتعليم والأعمال الاجتماعية الخيرية المتنوعة. وذلك عن طريق تكليف مختصين يتميزون بالكفاءة والخبرة الكافية في إدارة الأوقاف وتشغيلها وفق الشروط الشرعية والقانونية والاقتصادية والعلمية.

ب/ العناصر السلبية للزوايا وكيفية تفاديها: بتجنب عثراتها ومواطن الضعف فيها وأسباب انحرافها:

— إنَّ أكثر ما يحسب على العديد من الطرق والزوايا هو ابتعادها عن التصوف السني، وخوضها غمار التصوف المبني على البدع والخرافات، حتى آل أمر بعض الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام بنشر الشرك ومظاهره باستغلال جهل العوام وسذاجة عقولهم. فلا بد من تنقية عبادتها من كل ذلك ليعود لها التأثير المأمول في إصلاح هذا الوطن.

— من الأمور التي تحسب عليها كذلك، إتباع المناهج والمقررات العتيقة والجمود عليها، فيجب الخروج عن هذه الدائرة المفرغة، والانفتاح على المناهج والمقررات الحديثة التي تتماشى وروح العصر ومميزاته.

الزوايا في الجزائر بين إرث الاستعمار و التجديد----- أ. فوزية لوصيف

— و كما يحسب عليها كذلك انغلاقها على نفسها وعدم التعاون والتشارك مع غيرها من المؤسسات المختلفة العلمية منها أو الثقافية، وكذا انعزالها عن ساحة التأثير الاجتماعي.

— يؤخذ على الكثير من الزوايا تكريسهم للمذهبية، والقبلية، والطائفية،... مما يزيد في أسباب الخلاف والاختلاف بين الزوايا أنفسهم، أو مع غيرهم.

— استغلال كنوز الكتب والمخطوطات المحبوسة على الزوايا ولا يسمح بتداولها بين طلبة العلم والباحثين، وهذا من خلال مشروع وطني¹ مشترك بين الزوايا ووزارة التعليم العالي، يعمل على فهرسة هذه الكنوز، وتوفير وسائل الحماية لها، مع تمكين الباحثين منها وفق الشروط القانونية والعلمية المعمول بها في جميع دول العالم.

— يؤخذ عليها كذلك عدم استغلالها للأموال الوقفية بطرق حديثة ومفيدة.

ج/ ضرورة الاستفادة من معطيات العصر: على تنوعها، ويدخل فيها مختلف وسائل الإدارة والتسيير والتعليم والاتصال المتداولة حالياً من أبسطها إلى أعقدها، ويدخل فيها كذلك استعمال لغة هذا العصر واصطلاحاته وطرائقه، لاستقطاب فئة الشباب خاصة، كما يجب الاستعانة والاستفادة من خبراء ومختصين في ميادين عصرية لا يمكن إيجادها بين أهل الزوايا. إن إصلاح الزوايا المراد تحقيقه لن يؤدي ثماره إلا إذا تضافرت جميع الجهود الفاعلة من أجل إنجاحه، جهود أصحاب الزوايا أنفسهم، وجهود السلطات المعنية، وجهود فئة العلماء المخلصين العاملين، من أجل إصلاح ورفقي هذا الوطن الحبيب بجميع مؤسساته. وهذا ليس حلم؛ بل هو ضرورة وحتمية تفرض نفسها في ظل المتغيرات التي تعيشها بلادنا بل وكل بلدان العالم.

¹ - وقد بدأ في تحقيق هذا المشروع من خلال "المشروع الوطني لجرد وفهرسة المخطوط".

دور لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن

في مكافحة الإرهاب الدولي

أ. هشام بوخوش

جامعة باجي مختار - عنابة

الملخص :

"دور لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن في مكافحة الإرهاب الدولي".

تسعى لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن انطلاقا من قراري مجلس الأمن

1373 (2001) و 1624 (2005) إلى تعزيز قدرة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة

على منع وقوع أعمال إرهابية سواء داخل حدودها أو خارجها .

وتتمثل أساليب عمل لجنة مكافحة الإرهاب أساسا في:

- الزيارات القطرية ، وذلك بناء على طلب الدول المعنية ، لرصد التقدم

الحرز ، فضلا عن تقييم طبيعة ومستوى المساعدة التقنية التي قد تحتاجها الدول .

- المساعدة التقنية .

- تقارير الدول .

SUMMARY

" The role of the fighting against terrorism committee of the security consil in fight against international terrorism"

The committee of fight against terrorism seeks to strengthen the ability of the member states in the united nations in order to prevent from the terrorism's acts either inside or outside these states through the two resolutions of the security council 1373 (2001) and 1624 (2005) .

The methods of the committee of fight against terrorism are essentially as follows:

- The visits of countries at the request of the concerning states in order to control the realized progress , besides

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
the assessment of the nature and the level of technical
assistance that states need .

- Technical assistance .
- The states reports .

مقدمة:

لفتت الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية في 11 سبتمبر 2001، وما ترتب عليها من نتائج، انتباه المجتمع الدولي بشدة إلى قضايا الإرهاب، وأصبحت مكافحة الإرهاب الدولي تشكل إحدى أهم وأكبر التحديات بالنسبة لجميع الدول وكذلك المنظمات الدولية، وعلى رأس هذه الأخيرة منظمة الأمم المتحدة .

فالأمم المتحدة بدأت صراعها مع الإرهاب الدولي منذ سنة 1972، معتمدا على عدد من الاتفاقيات الدولية كرد فعل على بعض الأفعال الإجرامية الدولية التي اعتبرت من صور الإرهاب الدولي، كما أصدر مجلس الأمن قراره 1269 (1999) شدد فيه على ضرورة تكثيف التعاون الدولي على الصعيدين الوطني والدولي لمكافحة الإرهاب الدولي، لكن القرار لم يتضمن أي بند يلزم الدول بتنفيذ ما ورد به من أحكام، كما أنه لم يحتوي على أية آلية لرصد إذعان الدول له، فتم تجاهل معظم أحكامه، كما أن معظم الدول كانت تفتقر للقدرة اللازمة لاتخاذ التدابير الملائمة لمنع الإرهاب الدولي أو التعاون فيما بينها لمكافحته .

لكن مجلس الأمن سرعان ما تدارك هذا النقص بعد هجمات 11 سبتمبر 2001، وذلك بإصداره للقرار 1373 (2001) في 28 سبتمبر 2001، تحت إطار الفصل السابع، فرض بمقتضاه التزامات موحدة على جميع الدول الأعضاء، وأنشأ لجنة لمكافحة الإرهاب لرصد تنفيذ تلك الالتزامات .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
انطلاقاً مما سبق، يثور التساؤل حول أهداف لجنة مكافحة الإرهاب والوسائل
التي تعتمد عليها لتحقيقها؟ وما هي الإنجازات التي حققتها؟ وما هي التحديات التي
تواجهها؟

لقد أنشأ مجلس الأمن لجنة مكافحة الإرهاب بموجب الفقرة 6 من القرار 1373
(2001) وذلك من أجل الوقوف على مدى التزام الدول بتنفيذ القرار 1373، كما
تعمل اللجنة على تعزيز قدرة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة على منع وقوع أعمال
إرهابية سواء داخل حدودها أو خارجها¹.

وتتألف لجنة مكافحة الإرهاب من جميع أعضاء مجلس الأمن الـ 15، وقد
بدأت أعمالها في أكتوبر 2001 بميكال يتكون من مكتب يضم رئيس اللجنة وثلاثة
نواب للرئيس²، وثلاث لجان فرعية تضم كل منها خمسة من أعضاء اللجنة ويرأس
كل لجنة من هذه اللجان الفرعية أحد نواب الرئيس الثلاثة، بالإضافة إلى مجموعة من

¹ - غالباً ما ترفع اللجنة تقاريرها إلى مجلس الأمن حول أنشطتها من خلال رسائل يوجهها رئيسها
إلى رئيس مجلس الأمن وعبر التقارير الشفهية التي تعرض خلال اجتماعات مجلس الأمن بشأن
الإرهاب، وتضع لجنة الإرهاب أنشطتها على أساس (برنامج عملها) المتعمد بتوافق الآراء والمقدم
إلى مجلس الأمن، وتعتمد اللجنة برنامج عمل جديد كل 90 يوم وتشره بوصفه وثيقة من وثائق
مجلس الأمن، وقد اعتمدت ثلاثة عشر برنامج عمل خلال ثلاثة الأعوام الممتدة من أكتوبر 2001
إلى ديسمبر 2011.

² - كان أول رئيس للجنة مكافحة الإرهاب هو السير جيرمي جرينستوك الممثل الدائم للمملكة
المتحدة بالأمم المتحدة، ثم انتقلت الرئاسة بعد ذلك إلى إسبانيا للسفير اينوثثيوف أرياس في 5 أبريل
2003 وأستمر حتى 28 ماي 2004 حيث انتقلت إلى الإتحاد الروسي وتسلمها السفير الكسندر
كونورين القائم بالأعمال بالنيابة إلى أن وصلت إلى سفير المملكة المغربية السيد محمد لوليشكي،
والذي يتولى رئاسة اللجنة منذ جانفي 2013. أنظر الموقع الإلكتروني الرسمي المتعلق بلجنة مكافحة

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
المستشارين الخبراء المستقلين الذين تم تعيينهم لإسداء المشورة إلى لجنة مكافحة الإرهاب
بشأن عملها¹.

وباعتبار أن اللجنة تعد بمثابة هيئة فرعية تابعة لمجلس الأمن، فقد دعاها في
إعلانه الوزاري المرفق بالقرار 1377 (2001) إلى تحديد السبل التي يمكن من خلالها
مساعدة الدول على تنفيذ متطلبات القرار 1373، كما طلب مجلس الأمن في الإعلان
الوزاري المرفق بالقرار 1456 (2003) من اللجنة أن تأخذ في الاعتبار، عند رصد
تنفيذ القرار، أفضل الممارسات والمعايير الدولية ذات الصلة، وشجع المنظمات الدولية
الإقليمية ودون الإقليمية أن تعمل مع اللجنة من أجل تسهيل تبادل أفضل الممارسات
في مجال مكافحة الإرهاب، وأن تساعد أعضائها على الوفاء بالتزامهم بمكافحة
الإرهاب الدولي، كما صدر عن المجلس القرار 1530 (2003) وافق فيه على بعض
التغيرات في هيكلها وإجراءاتها من خلال عملية تحويل هيكل دعمها إلى هيئة تنفيذية؛
إذ يدعو إلى توثيق التعاون بين اللجنة والهيئات الأخرى التابعة لمجلس الأمن التي تعالج
جوانب مختلفة من مكافحة الإرهاب الدولي (اللجنة المنشأة بالقرار 1267 (1999)،
واللجنة المنشأة بالقرار 1540 (2004))، ووجه اللجنة إلى أن تبدأ، على سبيل الأولوية
في القيام بزيارات إلى الدول لتعزيز رصد تنفيذ أحكام القرار 1373 وتيسير تقديم
مساعدات تقنية لها من أجل ذلك التنفيذ، وطلب من اللجنة أن تعد بالتشاور مع
المنظمات الدولية والإقليمية ودون الإقليمية ذات الصلة وهيئات الأمم المتحدة، مجموعة
من أفضل الممارسات لمساعدة الدول على تنفيذ أحكام القرار 1373 فيما يتعلق بتمويل
الإرهاب .

1 - قامت الأمانة العامة بعد موافقة اللجنة بتعيين الخبراء حرصت في اختيارهم على تحقيق التوازن
الجغرافي وتمثيل معظم النظم القانونية، ولدى اللجنة 10 خبراء من البهاماس والبرازيل ومصر وفرنسا
والهند وإيرلندا وجامايكا وروسيا وجنوب إفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
كما تم إنشاء الهيئة التنفيذية للجنة مكافحة الإرهاب بموجب الفقرة الثانية من
قرار مجلس الأمن 1535 (2004) الصادر في مارس 2004 من أجل مساعدة اللجنة في
القيام بدورها في مراقبة تنفيذ القرار 1373 (2001)، وقد عين الأمين العام سفير
إسبانيا لدى الأمم المتحدة خافيير روبيريز مديرا تنفيذيا للإدارة¹، وقدم هذا الأخير
بالتشاور مع الأمين العام وعن طريق خطة تنظيمية للهيئة التنفيذية للجنة مكافحة
الإرهاب تم إقرارها من مجلس الأمن فيما بعد، وتتألف الهيئة التنفيذية، برئاسة مدير
تنفيذي، من هيئتين هما مكتب التقييم والمساعدة التقنية²، ومكتب الإعلام والشؤون
الإدارية، وتتمثل إليهما بشأن جميع مهامها وعهد إلى الهيئة التنفيذية بالاضطلاع بالعمل
اليومي للجنة مكافحة الإرهاب ومن بين أولوياتها ما يلي :

أ - كفالة جمع المعلومات فيما يتعلق برصد جهود الدول الأعضاء لتنفيذ القرار
1373 (2001)، بما في ذلك عن طريق القيام بزيارات بموافقة الدولة المعنية .

ب - تعزيز المساعدات التقنية التي ترمي إلى زيادة قدرات الدول الأعضاء
لمكافحة الإرهاب، وكفالة تكييف أحكامها مع احتياجات البلدان .

ج - تعزيز التعاون والتنسيق فيما بين المنظمات الدولية والإقليمية ودون
الإقليمية في مكافحة الإرهاب، وكذلك فيما بين سائر هيئات الأمم المتحدة .

وقد أكد مجلس الأمن في الفقرة 7 من قراره 1535 (2003) على أنه لكفالة
مواصلة اللجنة العمل بصورة فعالة خلال عملية تحويل هيكل دعمها إلى هيئة تنفيذية

¹ - راجع الرسالة الموجهة إلى الأمين العام من رئيس مجلس الأمن بشأن إقرار مجلس الأمن الخطة
التنظيمية للهيئة التنفيذية للجنة مكافحة الإرهاب والمقدمة إلى لجنة مكافحة الإرهاب .

² - يتألف المكتب من 20 خبيراً يمتلكون خبرة في كل ميدان من الميادين المشمولة بقرار مجلس الأمن
1373 (2001) ويمثلون جميع النظم القانونية الرئيسية. الفقرات 14، 15، 16 من الخطة التنظيمية
للهيئة التنفيذية للجنة مكافحة الإرهاب .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش لها، ستواصل لجنة مكافحة الإرهاب عملها باستخدام هيكل دعمها الحالي، إلى أن تقرر اللجنة، بالتشاور مع الأمين العام، أن الهيئة التنفيذية أصبحت قادرة على العمل .

أما عن أهداف لجنة مكافحة الإرهاب فهي تتمثل في صون وتعزيز توافق الآراء في صفوف المجتمع الدولي بشأن أهمية مكافحة الإرهاب، وفي زيادة وعي المجتمع الدولي بأن كل عمل إرهابي يشكل تهديدا للسلم والأمن الدوليين، مع التركيز على التدابير العملية التي من شأنها زيادة السبل المتاحة لجميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في مجال مكافحة الإرهاب، وتحديد مصادر المساعدات للدول التي تواجه صعوبات في تنفيذ القرار 1373، ومواصلة العملية المفضية إلى الانضمام على نطاق عالمي إلى الاتفاقيات الدولية ذات الصلة بمكافحة الإرهاب، واتخاذ كل السبل الضرورية لتيسير تنفيذ القرار 1373 (2001) بالكامل، ولتحقيق تلك الأهداف العامة، تعمل اللجنة على تقييم تنفيذ قرار مجلس الأمن 1373 عن طريق تيسير تقديم المساعدات إلى الدول الأعضاء، وتشجيع قيام تعاون وتنسيق أوثق مع المنظمات الدولية والإقليمية ودون الإقليمية، بالإضافة إلى الحوار مع الدول الأعضاء .

أ- تيسير تقديم المساعدات إلى الدول الأعضاء :

يلزم القرار 1373 (2001) الدول ببذل جهدها في مجال مكافحة الإرهاب الدولي، وذلك بتعزيز قوانينها ومؤسساتها للتغلب على التهديدات الحديثة للإرهاب وفي الجلسة التي عقدها مجلس الأمن على المستوى الوزاري في 12 نوفمبر 2001 اعتمد المجلس إعلانا مرفقا بقراره 1377 (2001)، اعترف فيه بأن الدول سوف تواجه صعوبات في تنفيذ القرار 1373 وأن العديد منها يفتقر إلى القدرة على تنفيذه، ومن ثم ستحتاج إلى المساعدة في تنفيذ جميع متطلبات القرار، ولهذا دعا مجلس الأمن لجنة مكافحة الإرهاب إلى إيجاد الطرق التي يمكن بها مساعدة الدول، وطلب إلى جميع الدول مساعدة بعضها البعض في القيام باتخاذ إجراءات عاجلة لتنفيذ القرار 1373

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
تنفيذا كاملا، ودعا الدول التي في حاجة إلى المساعدة أن تبلغ لجنة مكافحة الإرهاب
بالمجالات التي تحتاج إلى الدعم فيها والتي يمكن أن تتلقى بها الدول المساعدة التقنية
والمالية والتنظيمية والتشريعية، وتعتبر المساعدة التقنية من العناصر الأساسية لعمل لجنة
مكافحة الإرهاب، وتيسر التعاون بين الدول، وتحسن حماية الدول ضد الإرهاب،
ويؤدي تقديم المساعدة إلى الدول الراغبة في الاستفادة منها إلى تحسين قدراتها التقنية
على بلوغ المعايير الدولية لمكافحة الإرهاب¹.

وبالرغم من أن لجنة مكافحة الإرهاب ليست بحد ذاتها جهة تقديم المساعدة -
فهي لا تقدم المساعدة التقنية مباشرة إلى الدول - فإنها تقوم حاليا مقام لوحة التبادل
الهاتفي بين طلبات المساعدة والجهات المقدمة لها، حيث تتمثل ولايتها في تعزيز التعاون
التقني بين الدول التي تحتاج إلى المساعدة في مجال مكافحة الإرهاب وغيرها من الدول
أو المنظمات القادرة على توفيره، ويمكن للدول التي تحتاج إلى المساعدة أن تبلغ اللجنة
بذلك إما في تقريرها أو بصورة مستقلة في أي وقت من الأوقات.

ولإسداء المشورة للجنة بشأن المسائل المتعلقة بتوفير المساعدات للدول في تنفيذ
القرار 1373، قامت الأمانة العامة بموافقة اللجنة بتعيين فريق من الخبراء المستقلين
للمساعدة التقنية اضطلع بمهام تحليل احتياجات الدول إلى المساعدة، والاتصال بالدول
بشأن أي من برامج المساعدة التقنية وغيرها من البرامج المتاحة التي يمكن أن تسهل
تنفيذ القرار 1373، ولتسهيل توفير المساعدة وضعت اللجنة (دليل للمعلومات المتعلقة
بمكافحة الإرهاب ومصادر المساعدة) و(مصفوفة طلبات المساعدة) والدليل مصمم
ليكون مصدرا للمعلومات حول أفضل الممارسات والقوانين وبرامج المساعدة المتوفرة
بشأن القضايا المتعلقة بمكافحة الإرهاب، وهو متاح على موقع اللجنة على شبكة

¹ - د. أحمد فتحي سرور، المواجهة القانونية للإرهاب، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، 2008،

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش الأنترن، وتشجع اللجنة جميع الدول التي تسعى إلى الحصول على المساعدات بعد التشاور مع كل دولة على حدى، وهي تلخص الاحتياجات والطلبات المتعلقة بالمساعدة في المجالات التي يتناولها القرار 1373، ويتم تحديثها وتعميمها شهريا على الدول والمنظمات، وتتيح تلك المصفوفة للجهات التي يحتمل أن تقدم المساعدة الوصول إلى معلومات مركزية شاملة عن الاحتياجات في مجال المساعدة تساعدها على تكوين فكرة عامة عن نوع المساعدة التي تحتاجها الدول واتخاذ قرارات صائبة بشأن المجالات التي ينبغي أن تركز فيها، وتأتي في مقدمة الجهات التي تقدم المساعدة في مجال صياغة تشريعات مكافحة الإرهاب، فرع منع الإرهاب بمكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة¹، وأمانة الكومنولث، وصندوق النقد الدولي ومجموعة الدول الثمان الصناعية

1 - في ندوة بعنوان "مكافحة الإرهاب الدولي، مساهمة الأمم المتحدة" والتي عقدت في فيينا يومي 3 و4 جوان 2009 أعرب رئيس لجنة مكافحة الإرهاب عن رغبة أعضاء اللجنة في أن يؤدي مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، الذي يوجد مقره في فيينا، دورا هاما بتقديم المساعدة من أجل التنفيذ التشريعي لتدابير مكافحة الإرهاب، لأن اللجنة مسؤولة عن تحليل احتياجات الدول الأعضاء في مجال مكافحة الإرهاب، ولكنها لا تقدم بنفسها مساعدة تقنية، وكانت الهيئة التوجيهية للمركز المعني بمنع الإحرام الدولي، التابع لمكتب مراقبة المخدرات ومنع الجريمة، التابع للأمانة العامة، وهي لجنة منع الجريمة والعدالة الجنائية، فقد توخت اضطلاع المركز بهذا الدور ... ونتيجة لهذا، أطلق مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة البرنامج العالمي لمكافحة الإرهاب في أكتوبر 2009، وذلك لتقديم المساعدة إلى الدول الطالبة من أجل تعزيز النظام القانوني لمكافحة الإرهاب، كما قام المكتب بتصميم دليل تشريعي للصدك العالمية لمكافحة الإرهاب وقائمة مرجعية ملحقه بما تشجيع الدول ومساعدتها على التصديق على الصكوك العالمية وتنفيذها، وهو متاح كمنشور رسمي بلغات الأمم المتحدة الست وكذلك على الموقع الشبكي الخاص بالمكتب

<http://www.unodc.org/undoc/terrorism - documents.html>

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش الكبرى، بالإضافة إلى عدد من البلدان المانحة التي تقدم المساعدة بناء على اتفاقيات ثنائية .

وقد أشارت أكثر من خمسين دولة في تقاريرها الأولى أنها في حاجة إلى المساعدة لتنفيذ القرار 1373، وقد تزايد هذا الرقم إلى 80 في نهاية جويلية 2003، وبالإضافة إلى ذلك تلقت 79 دولة مساعدات تقنية من دول أو منظمات، ومن بين 109 دولة التي تلقت المساعدة في بناء قدراتها، 90 دولة تلقت أو تتلقى المساعدة في مجال صياغة تشريعات مكافحة الإرهاب، والقوانين والممارسات المالية، وهناك 143 دولة تتلقى المساعدة في مجال تدريب موظفي إنفاذ القانون والجمارك والهجرة والشرطة على مكافحة الإرهاب .

وعلى أية حال، فقد قررت لجنة مكافحة الإرهاب في برنامج عملها أن "تقدم المساعدات التقنية إلى البلدان التي تحتاج سبيل أحد أولويات اللجنة"، وإذا كانت اللجنة تقوم حاليا بدور همزة وصل بين الدول التي تحتاج إلى المساعدة والجهات المانحة، مركزة على تحديد الاحتياجات وبرامج المساعدة الممكنة، فإنها تعمل على تعزيز هذا الدور، بحيث لا تقوم بالربط بين الجهات التي تطلب المساعدة والجهات المانحة فحسب، بل تكون قادرة على التأثير في عنصرى المساعدة التقنية، وهما العرض والطلب، بحيث تعمل على تقييم وترتيب أولويات الاحتياجات المحددة للدول فيما يتعلق بالمساعدة من جانب، وتوجيه الدول والمنظمات الدولية فيما يتعلق بملائمة إعداد وتنفيذ برامجها للمساعدة التقنية في مجال الإرهاب من جانب آخر.

ب - التنسيق مع المنظمات الدولية والإقليمية ودون الإقليمية :

تعمل لجنة مكافحة الإرهاب على مساعدة الدول الأعضاء في الوفاء بالتزاماتها بموجب القرار 1373 (2001)، وأصبحت زيادة قدرات الدول على التصدي للإرهاب من مهامها الأساسية، ولكنها لا تستطيع وحدها أن تنجز هذه المهمة، فهي تحتاج إلى

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
المساعدة في هذا الشأن من المنظمات والمؤسسات الدولية التي تتمتع بالكفاءة في الميادين
المتعلقة بالقرار 1373 (2001)، والتي أنشأت ووضعت قواعد ومعايير دولية في مجال
اختصاصاتها ولديها برامج قائمة لزيادة وتنمية القدرات .

وتستطيع المنظمات الإقليمية ودون الإقليمية أن تؤدي دورا هاما في تقوية
وتعزيز القدرات الدولية لمكافحة الإرهاب من خلال اشتراكها في عمليات بناء
القدرات وتسييرها لأعضائها والعمل على كفاءة تنفيذ أعضائها لأفضل الممارسات
والامتثال للقواعد والمعايير الدولية ذات الصلة بمكافحة الإرهاب¹ .

واعترافا بأهمية الدور الذي تستطيع أن تقوم به تلك المنظمات، حرصت لجنة
مكافحة الإرهاب على إقامة صلات بالمنظمات الدولية والإقليمية وغيرها من
المؤسسات الدولية المنخرطة بشكل مباشر في مكافحة الإرهاب، ولتعزيز التعاون على
رفع مستوى قدرات الدول ومساعدتها على تنفيذ القرار 1373، عقدت اللجنة
اجتماعا خاصا في 6 مارس 2003 في مقر الأمم المتحدة ضم ممثلي أكثر من 60 منظمة
دولية وإقليمية ودون إقليمية، ودعي إلى عقد هذا الاجتماع الخاص في أعقاب
الاجتماع الوزاري الذي عقده مجلس الأمن في 2 جانفي 2003 والذي أسفر عن
اعتماد الإعلان الوزاري المرفق بالقرار 1456 (2003) .

ومن بين ما اتفق عليه المشاركون، أن تتقاسم المنظمات المعلومة حول المدونات
والمعايير وأفضل الممارسات في ميادين اختصاصها، وأن تضع المنظمات الإقليمية وتدير
آليات لمساعدة أعضائها على الوفاء بواجباتهم الدولية في مجال الإرهاب، وأن تبدل
جميع المنظمات جهودا للحد من ازدواجية الجهود وتداخل الأنشطة .

¹ - أنظر الموقع الإلكتروني الرسمي المتعلق بلجنة مكافحة الإرهاب:

<http://www.un.org/ar/sc/ctc.vu> le 15 /12/2013

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
ووضعت اللجنة لجنة عمل توجز متابعتها للاجتماع، أكدت من خلالها أنها
سوف تعمق اتصالاتها مع المنظمات الدولية والإقليمية، وسوف تشطف تبادل
المعلومات بشأن المسائل التي شملها القرار 1373 مع تلك المنظمات والدول فيما بينها،
وستقوم بتيسير توافر المعلومات وتبادلها بشأن أفضل الممارسات والقواعد والمعايير
الدولية ذات الصلة بتنفيذ القرار 1373 (2001)، وستشجع المنظمات على تنفيذها
على نطاق واسع ضمن اختصاصاتها وعلى توعية أعضائها بتنفيذها، ولتيسير تقديم
المساعدة، وستعمل اللجنة على تشجيع جميع الدول والمنظمات على تقديم المعلومات
بانتظام إلى "دليل معلومات مكافحة الإرهاب ومصادر المساعدة" التابع للجنة،
وسوف تعمم "مصفوفة الاحتياجات" شهريا على جميع المنظمات والدول التي تطلبها،
وستقوم بتطويرهم وصيانتهم .

ولمواصلة تعزيز تعاون المنظمات الإقليمية ودون الإقليمية مع اللجنة وغيرها من
المنظمات الدولية لتيسير تبادل الممارسات الفضلى ومساعدة الدول الأعضاء فيها على
الوفاء بالتزاماتها بمكافحة الإرهاب، عقد اجتماع متابعة لاجتماع مارس 2003 بمقر
منظمة البلدان الأمريكية في واشنطن العاصمة في أكتوبر 2003، ثم استضافت منظمة
الأمن والتعاون في أوروبا بالتعاون مع مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة
اجتماع متابعة آخر للاجتماع الخاص عقد بفيينا في مارس 2004 وكان الموضوع العام
لهذا الاجتماع هو تعزيز التعاون العملي بين المنظمات الإقليمية والدولية، وقد أسفر
الاجتماع عن إعلان التزامات فيه المنظمات الأربعون المشاركة بالقيام بأنشطة مشتركة
لتعزيز التعاون ولتجنب الازدواجية المحتملة في تقديم المساعدة التقنية للدول في المجالات
ذاتها لتنفيذ القرار 1373¹.

¹ - IRENE COUZIGOU , la lutte du conseil de sécurité contre le terrorisme international et les droits de l'homme , revue générale de Droit international public , tome 112 , paris , 2008 , p 72 .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش

ج - حوار اللجنة مع الدول :

لجنة مكافحة الإرهاب ليست محكمة وهي لا تصدر أحكاما على الدول، ولكنها تنتظر أن تعمل كل دولة بأسرع ما يمكنها على تنفيذ الالتزامات البعيدة الأثر المحددة في القرار 1373 (2001)¹، لذلك تسعى اللجنة إلى إرساء الأسس لإجراء حوار مستمر بين مجلس الأمن وجميع الدول الأعضاء حول أفضل الطرق التي يمكن زيادة القدرة الوطنية على مكافحة الإرهاب .

حيث طلب مجلس الأمن في القرار 1373 (2001) من جميع الدول موافاة لجنة مكافحة الإرهاب بحلول 27 ديسمبر 2001 بتقارير عن الخطوات التي اتخذتها تنفيذاً لهذا القرار، وأن تقوم بذلك فيما بعد وفقاً لجدول زمني تقترحه اللجنة، كما طلب رئيس لجنة مكافحة الإرهاب إلى الدول أن تقدم تقاريرها إلى اللجنة في الموعد المحدد أو قبل ذلك، ولمساعدة الدول على الوفاء بالتزامها، قامت اللجنة بوضع مبادئ توجيهية لإعداد التقارير التي تقدمها الدول عن تنفيذ القرار 1373 (2001)، وعممت تلك المبادئ التوجيهية على الدول² .

وتشكل هذه التقارير الأساس الذي يقوم عليه تعامل اللجنة مع الدول، وينبغي للدول أن تهدف عند إعداد تقاريرها إلى توفير بيان موجز وواضح بالتدابير التشريعية القائمة أو المتوخاه لإنفاذ القرار 1373، وأن تبلغ اللجنة عن الكيفية التي تنفذ بها كل

¹ - راجع كلمة السير جيرمي جرينستوك رئيس لجنة مكافحة الإرهاب السابق أمام مجلس الأمن في جلسته المفتوحة رقم 4618 بتاريخ 4 أكتوبر 2002، وثائق الأمم المتحدة رقم (S/PV.4618) vu le :14/12/2013 . <http://daces-dds-ny.un/doc/undoc> .

² - راجع برنامج عمل لجنة مكافحة الإرهاب خلال الـ90 يوماً الأولى من إتخاذ القرار 1373 (2001)، وثائق الأمم المتحدة (OCT.19.2001) (S/2001/986) . vu le :14/12/2013 . <http://daces-dds-ny.un/doc/undoc>

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
واحدة من الفقرات والفقرات الفرعية من القرار 1373، وعن الخطوات التي يجري
اتخاذها لتحسين التعاون الدولي في المجالات التي يشملها القرار، فهي ملزمة بأن تبلغ
اللجنة عن الإجراءات التي اتخذتها بشأن كافة المجالات التي يشملها القرار والتي تضم :
تشريعات مكافحة الإرهاب، القوانين والممارسات المالية، القوانين والممارسات
الجمركية، القوانين والممارسات المتعلقة بالهجرة، القوانين والممارسات المتعلقة بتسليم
المجرمين، الشرطة وإنفاذ القانون، الاتجار غير المشروع بالأسلحة، وأي مجالات أخرى
ذات صلة .

وتصل جميع التقارير إلى اللجنة التي تقسم مهمة تحليلها بين اللجان الفرعية
الثلاث، وكل لجنة مسؤولة عن دول معينة، وتجتمع اللجان الفرعية باستمرار لتقييم
تقارير الدول، ولالإطلاع على المعلومات التي يقدمها الخبراء العاملون مع اللجنة، كما
تدعو اللجان الفرعية ذات الصلة الدول المعنية لحضور جانب من مناقشة اللجنة الفرعية
للتقرير، وبمجرد قيام اللجنة الفرعية بصياغة الرد والموافقة عليه يحال للجنة لإقراره،
وتقييم لجنة مكافحة الإرهاب، في ضوء تحليلها للتقارير وأي معلومات متاحة أخرى،
مدى امتثال الدول للقرار 1373، ثم تبعث اللجنة إلى كل دولة رسالة يتم إعدادها
بمشورة من خبراءها، ويرد في هذه الرسائل مزيد من الأسئلة الموجهة إلى الدول حول
المواضيع المستعرضة في تقاريرها، وحول أي مسائل أخرى تراها اللجنة ذات الصلة
بتنفيذ القرار 1373، والمطلوب من الدول أن ترد على لجنة مكافحة الإرهاب في
غضون ثلاثة أشهر، ويعد تنفيذ القرار 1373 على هذا النحو عملية مستمرة .

ونظرا إلى أن مجال القرار 1373 مجال واسع، ويشمل التشريعات المحلية
والآليات التنفيذية، والتعاون الدولي، ولتمكين الدول من التركيز على اتخاذ إجراءات
فعالة في المجالات ذات الأولوية بالنسبة لها، حددت اللجنة ثلاث مراحل لتحليل عملها
مع الدول :

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش

1- مراقبة القوانين الداخلية لمكافحة الإرهاب :

وضع التشريعات التي تغطي جميع جوانب القرار 1373 والمشروع في عملية تؤدي إلى الانضمام في أسرع وقت ممكن إلى كل الاتفاقيات والبروتوكولات المتعلقة بالإرهاب .

- إنشاء آلية فعالة لمنع أنشطة تمويل الإرهاب وقمعها .

2- السهر على تقوية الجهاز التنفيذي للدول :

بعد أن تنتهي الدول من وضع التشريعات التي تغطي جميع جوانب القرار 1373، يمكن تعريف المرحلة الثانية من التنفيذ بوصفها تعزيز الدولة لأجهزتها التنفيذية بما يمكنها من تنفيذ التشريعات المتصلة بالقرار، ويدخل في ذلك العمل إقامة آلية تنفيذ فعالة تشمل في جملة الأمور ما يلي :

أ- هياكل الشرطة والاستخبارات للكشف عن المتورطين في أنشطة إرهابية ومساندي الأنشطة الإرهابية، لرصدهم والقبض عليهم.

ب- وضع ضوابط للجمارك والهجرة والحدود تمنع تنقل الإرهابيين وإقامة أماكن لجوء آمنة لهم .

ج- وضع ضوابط تمنع حصول الإرهابيين على السلاح .

3 - تكريس آليات التعاون وتعزيزها :

وتشمل المجالات المتبقية من القرار 1373 بما في ذلك :

أ- التعاون على الأصعدة الثنائية والإقليمية والدولية، بما في ذلك تبادل المعلومات .

ب- التعاون القضائي بين الدول وتقديم الإرهابيين ومسانديهم للعدالة (من ذلك مثلا المحاكمة أو تسليم المجرمين وتبادل المعلومات والإنذار المبكر، وإنفاذ القوانين والتعاون القضائي العملي) .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
ت- أوجه الارتباط بين الإرهاب وتهديدات الأمن الأخرى (الاتجار بالأسلحة،
والمخدرات، والجريمة المنظمة، وغسل الأموال والنقل غير المشروع للأسلحة الكيميائية
والبيولوجية والنووية)¹.

وقد ركزت اللجنة عند استعراض التقارير على رصد موقف جميع الدول فيما
يتعلق بأولويات المرحلة ألف، وأتفق على ألا تنتقل أي دولة إلى المرحلة ب إلا إذا لم
تعد اللجنة مكافحة الإرهاب أي تعليقات أو أسئلة تتصل بالمرحلة السابقة، وقد بلغ
عدد التقارير التي تلقتها اللجنة فيما مجموعه 284 تقريراً، تضمنت التقارير الأولى من
178 دولة عضواً و5 جهات أخرى وتقارير الجولة الثانية من 100 دولة ومن جهة
واحدة أخرى، ولم تقدم 13 دولة عضواً تقاريرها. وبحلول 31 مارس 2003 وهو
الأجل الأقصى لتقديم التقارير المحددة من قبل مجلس الأمن في قراره 1456 (2003)²،
لم تتقدم ثلاث دول تقاريرها، وفي نهاية ماي 2003 كانت جميع الدول الأعضاء في
الأمم المتحدة قد أرسلت تقاريرها الأولى إلى اللجنة. وبحلول 30 سبتمبر 2004، أي
بعد ثلاثة أعوام من بدء عمل اللجنة، كانت اللجنة قد تلقت 526 تقريراً من الدول
ومن جهات أخرى، فبالإضافة إلى التقارير الأولى من جميع الدول الأعضاء، تلقت
اللجنة 160 تقريراً ثانياً و117 تقريراً ثالثاً و49 تقريراً رابعاً، وكون أن كل الدول
قدمت تقريرها الأول، وأن عدداً كبيراً منها قدم التقرير الثاني والتقرير الثالث، على نحو
لم يسبق له مثيل من قبل في تاريخ الأمم المتحدة، يشهد على الاعتراف بأهمية الكفاح
ضد الإرهاب، والالتزام العالمي ببرنامج الأمم المتحدة لمكافحةه .

¹ - د. أحمد محمد أبو مصطفى، الإرهاب ومواجهته جنائياً، منشأة المعارف، مصر، 2007، ص 8 .

² - الفقرة 4 "أ" من القرار 1456 (2003) المؤرخ 20 جانفي 2003 .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
وبعد أن كفلت اللجنة تعاون كل أعضاء الأمم المتحدة، باتت لديها صورة
واضحة تركز على أساس التقييم الذاتي الذي أجرته الحكومات في تقاريرها الأولى عن
التشريعات الحالية، والثغرات التي يلزم سدها¹.

وقد اتضح من الجولة الأولى لاستعراض التقارير أن البعض من الدول لم توفى
بجميع متطلبات القرار 1373، وطلب من جميع الدول النظر في وضع تشريعات جديدة
من أجل التنفيذ الكامل للقرار خاصة فيما يتعلق باتخاذ تدابير الإنفاذ الداخلية
للاتفاقيات والبروتوكولات الدولية ذات الصلة بالإرهاب، والواقع أن اللجنة لم تكن
تنتظر أن تقدم أي دولة تقريرها بأنها نفذت القرار 1373، كما أنها لم تعلن أن أي
دولة "ممتثلة بالكامل" ولكنها تنتظر أن تعزز كل دولة قدرتها على مكافحة الإرهاب
بتنفيذها القرار 1373 بأقصى سرعة ممكنة، فقد تبين أنه بالنسبة لعدد كبير من الدول،
ليس الامتثال لأحكام القرار 1373 مهمة سهلة، ولا يعود ذلك إلى عدم الالتزام أو
الإخفاق في إدراك أهمية مكافحة الإرهاب، بل سببه الأساسي الافتقار إلى القدرة
الوطنية والإقليمية معا على تلبية متطلبات ذلك القرار، فلقد سنت بلدان نامية عديدة
من التشريعات لمكافحة الإرهاب، ولكن مواردها المالية والفنية والبشرية الضئيلة تعيق
التنفيذ الكامل للإطار التشريعي، وبالتالي فإن المشاركة العالمية في مكافحة الإرهاب لن
تصبح ممكنة ولا فعالة ما لم تتمكن الدول التي تلقى صعوبات في التنفيذ الكامل للقرار
1373 من الاستفادة من المساعدات المالية والتقنية الدولية التي تحتاج إليها، ولهذا اتجهت
لجنة مكافحة الإرهاب إلى تركيز عملها على التعاون مع الدول ومساعدتها ليس على
تقديم التقارير فحسب، ولكن أيضا من أجل العمل معها للتغلب على الصعوبات
والمشاكل التي تواجهها في تنفيذ متطلبات القرار 1373 .

¹ - د. أحمد محمد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص 539.

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش

- إنجازات اللجنة والتحديات التي تواجهها :

على مدى عدة سنوات من وجودها أنجزت لجنة مكافحة الإرهاب الكثير من الأعمال، وحققت نتائج إيجابية في تعزيز التعاون الدولي لمكافحة الإرهاب وأسهمت في ضمان مواصلة أن تشغل مسألة مكافحة الإرهاب مكانة عالية في جدول أعمال مجلس الأمن، وكفلت استمرارية المجلس في قيادة الجهد العالمي لبناء القدرة في مجال مكافحة الإرهاب، كما أنها أثرت في إحداث تغير حقيقي في عدد كبير من البلدان، فهناك تقريبا وعي عالمي بخطير الإرهاب كشكل بالغ البشاعة من أشكال الجريمة العنيفة، وقد أدى ذلك إلى تنقيح التشريعات التي أصبحت في بعض الدول سارية بالفعل، بينما شرعت البرلمانات في دول أخرى في النظر في وضع قوانين جديدة أو اعتمادها، واستعرضت حكومات قوة مؤسساتها لمكافحة الإرهاب، وأعادت الدول النظر إلى الاتفاقيات والبروتوكولات الدولية المتعلقة بالإرهاب، وزاد عدد التصديقات عليها زيادة كبيرة منذ إنشاء اللجنة عام 2001¹.

وتتضمن إنجازات اللجنة حشد مجموعة ضخمة من المعلومات ذات الصلة بالقدرة العالمية لمكافحة الإرهاب، فمنذ إنشائها تطورت ونمت أعمالها والبيانات المتراكمة لديها بحيث لم تعد تقتصر فقط على التقارير العديدة التي تشكل مختلف

¹ - منذ إنشاء اللجنة لم تكن سوى بتسوانا والمملكة المتحدة قد صادقت على كل الصكوك المتعلقة بالإرهاب الدولي، وفي نهاية أكتوبر 2004، فيوجد 57 دولة طرفا في جميع الصكوك، كذلك نجد أنه في عام 2001 بعد أربعة أعوام من اعتماد الاتفاقية الدولية لقمع الهجمات الإرهابية بالقنابل 1997 لم تصدق على الاتفاقيات سوى 28 دولة فقط، أضيف إليهم 87 دولة صادقت عليها بعد سبتمبر 2001، فأصبح مجموع الدول التي صادقت عليها حتى الآن 164 دولة، وبعد عامين من اعتماد الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب سنة 1999، لم تصادق عليها سوى خمس دول، أما اليوم فهناك 173 دولة قد صادقت عليها . . http://www.un.org/ar/sc/ctc.vu le :15 /12/2013

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
المعلومات والتدابير التشريعية التي اتخذتها الدول الأعضاء لتنفيذ القرار، ولكنها شملت
أيضا أنشطة الاتصال التي جرى الاضطلاع بها مع المنظمات الدولية والإقليمية، والتي
تطورت لتصبح بمثابة تجميع للمعلومات المتعلقة بما تقوم به هذه المنظمات من أعمال
لمكافحة الإرهاب، وبرامجها والتدابير التي تتخذها، وهكذا فإن لجنة مكافحة الإرهاب
تضع يدها على قدر هائل من التدابير والمعلومات المترابطة ببعضها البعض بشأن
مكافحة الإرهاب .

كما قامت اللجنة بعمل ذي أهمية في ميدان المساعدات الفنية من خلال تحديد
الدول التي تحتاج إلى المساعدة في مجال مكافحة الإرهاب ونوع هذه المساعدة،
والمساعدة في مضاهاة هذه الدول بجهات مانحة ملائمة، كذلك قامت بمهام التنسيق بين
المنظمات الدولية الأخرى في ميدان مكافحة الإرهاب، وتشجيع المنظمات الإقليمية
لتفعيل قدراتها في مكافحة الإرهاب، بما يؤدي إلى زيادة قدرة الدول الأعضاء جميعا في
هذا المجال .

ولقد حققت اللجنة نجاحها بأربع طرق رئيسية، بالحفاظ على الوحدة، وبخلق
الزخم وتكريسه، وإرساء مبدأ الخضوع للمساءلة، وتوفير التوجيه للدول الأعضاء،
ففيما يتعلق بالوحدة، تساعد اللجنة على كفالة وحدة الدول الأعضاء والمجتمع الدولي
وعملها معا، والزخم خلق بالإبقاء على مسألة الإرهاب بين الأولويات العليا في جدول
الأعمال الدولي، والخضوع للمساءلة ينبع من الطريقة التي تدرس بها اللجنة تشريعات
وممارسات الدول الأعضاء للمساعدة على التعرف على أوجه الضعف والفجوات،
وأخيرا وفرت اللجنة التوجيه عن طريق نظام لتيسير توفير المساعدة الفنية للدول
الأعضاء.

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
وبالرغم من هذا النجاح واجهت اللجنة صعوبات وسوف تواجه تحديات
ومشكلات يمكن أن تنال من أداء اللجنة لمهامها على المدى الطويل ما لم يتم التصدي
لها، وستتوقف نجاح اللجنة في السنوات القادمة على كيفية مواجهتها لتلك التحديات .
فبخلاف النقص في الموارد المالية والبشرية اللازمة لترجمة وفحص وتحليل الكم
الهائل من تقارير الدول، لم يعد بوسع اللجنة أن تكتفي بأن تنظر من نيويورك في
التقارير الوطنية لتقييم تنفيذ الدول للقرار 1373 (2001)؛ فالرصد الفعال لهذا التنفيذ
سوف يتطلب أكثر من مجرد تقييم للتقارير، فاللجنة في حاجة إلى رصد ميداني للدول،
وربما تعارض بعض الدول مثل هذا الإجراء باعتباره تدخلا في شؤونها الداخلية .

وبالرغم من الزيادة الكبيرة في عدد الدول التي أصبحت أطرافا في الاتفاقيات
والبروتوكولات الدولية لمكافحة الإرهاب لا يزال يوجد عدد كبير لم يقم بالعمل في
هذا المجال، كما أن التقارير المقدمة إلى لجنة مكافحة الإرهاب تبين أن عددا كبيرا من
الدول تصادق على هذه الاتفاقيات دون الشروع في اتخاذ التدابير **الإنفاذ** الداخلية، التي
بدونها لا يكون لهذه الاتفاقيات أي أثر عملي، ويجب أن يكون هناك متابعة من أجل
مراقبة فعالية تنفيذ هذه الاتفاقيات ¹ .

وبينما تبقى قدرة لجنة مكافحة الإرهاب على رصد تنفيذ القرار 1373
(2001) شرطا لازما أساسيا لمكافحة الإرهاب على نحو فعال، فإن العديد من الدول
مازالت تواجه صعوبات كبيرة في التنفيذ الكامل للقرار، وأحد المؤشرات على ذلك هو
العدد المتزايد باستمرار للدول المتأخرة في تقديم تقاريرها في المواعيد النهائية المحددة،
لذلك فإن الوفاء بشكل فعال باحتياجات الدول من المساعدة ينبغي أن يكون إحدى
الأولويات العليا للجنة.

¹ - د. علاء الدين راشد، الأمم المتحدة والإرهاب قبل وبعد 11 سبتمبر، دار النهضة العربية، مصر،

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
ولعل من أبرز الأنشطة التي اضطلعت بها اللجنة، الجهود التي بذلتها عام 2004
تنفيذ عملية تنشيط عملها، عملاً بقرار مجلس الأمن 1535 (2004)، لمواجهة
التحديات والصعوبات التي تواجه الدول الأعضاء ولجنة مكافحة الإرهاب نفسها في
تنفيذ القرار 1373 (2001) والتي حددها رئيس اللجنة في تقريره إلى رئيس مجلس
الأمن في عدة ميادين تشمل تمويل الإرهاب، واختصاص المحاكم، والتصديق على
الاتفاقيات الدولية المتعلقة بالإرهاب دون إقران ذلك بتدابير للإنفاذ، والصلات القائمة
بين الإرهاب والجريمة المنظمة، بالإضافة إلى مجموعة من المشاكل في هيكلها وإجراءاتها،
ولمساعدة اللجنة على مواجهة تلك التحديات أصدر مجلس الأمن قراره 1535
(2004) الذي كان نتيجته الرئيسية إنشاء الإدارة التنفيذية للجنة مكافحة الإرهاب،
وسوف تقوم اللجنة من خلال هيئتها التنفيذية على تدعيم تيسير المساعدة التقنية
المقدمة إلى الدول معتمدة على تعزيز الحوار المباشر مع الدول الأعضاء والهيئات المانحة
بشأن مسائل تقديم المساعدة التقنية المصممة على نحو أفضل لتلبية الاحتياجات
الحقيقية، كما ستقوم بتقييم احتياجات البلدان من المساعدة استناداً إلى تقارير الدول
الأعضاء عن قدرات مكافحة الإرهاب، كما اعتمدت اللجنة مبادئ توجيهية عامة
لتنظيم زيارات اللجنة إلى الدول الأعضاء بوصفها أداة جديدة تستخدمها اللجنة بهدف
الاضطلاع بفاعلية بولايتها الممثلة في رصد تنفيذ القرار 1373 (2001) وتيسير توفير
المساعدات التقنية، ووافقت اللجنة على إجراءات التحضير لتلك الزيارات بعد موافقة
الدولة .

وبجانب تلك الصعوبات التي واجهتها اللجنة، توجد تحديات أخرى ذات طبيعة
سياسية تجتنب اللجنة مواجهة بعضها حتى الآن¹، ومن بين تلك التحديات وأهمها

¹ - د. علاء الدين راشد، المرجع السابق، ص 61 .

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
مشكلة عدم وجود تعريف متفق عليه للإرهاب بين الدول الأعضاء وإذا كانت اللجنة
قد تجنبت التعامل مع هذا الموضوع الخلافي خاصة وأن القرار 1373 (2001) لم
يتضمن تعريفا للإرهاب، الأمر الذي ساهم في الاستجابة العالمية من الدول الأعضاء
لعمل اللجنة، غير أنه مع دخول عمل اللجنة إلى ما أسمته بالمرحلتين باء وجيم، ورصد
ما يتعلق بوجود آلية حكومية لمنع الأنشطة الإرهابية وتقديم الإرهابيين إلى العدالة،
ستجد اللجنة نفسها في موقف مع دول لم تقدم إرهابيين للعدالة لأنها لا تعتبر الأفعال
التي قاموا بها من قبيل الأعمال الإرهابية وفقا لتعريفها بينما تعد من قبيل ذلك في نظر
دول أخرى. فهل ستغض اللجنة بصرها عن تلك المشكلة على أساس أنه ليس من
مهامها تحديد من هو الإرهابي؟ أم ستتطرق إلى مناقشة مسألة التعريف التي ستؤدي
حتما إلى الانقسام بين أعضائها وتفقد الوحدة التي كانت من عوامل نجاحها؟

وإذا كانت النتيجة قد حظيت بقبول ودعم واسع النطاق من كافة الأعضاء، لعدم
شعورها بالتهديد من قبل اللجنة التي حرصت على إيضاح أنها ليست لجنة جزاءات ولا
وسيلة من وسائل التحقيق، ولكنها تعمل بالتعاون مع الدول لتوجيهها ومساعدتها على
تنفيذ القرار 1373 (2001)، فإن النهج الذي تتبناه اللجنة مع الدول يسير حتى الآن
بشكل جديد مع العديد من الدول التي ترغب في أن تفي بالتزاماتها بتنفيذ القرار 1373
(2001) عند إنشائه للجنة حتى لا تنفر الدول من التعامل في المراحل الأولى من جهود
مكافحة الإرهاب، فهل سيفرض المجلس جزاءات على تلك الدول فيما بعد؟

وتواجه اللجنة تحد آخر يتعلق بالتفاعل بين جهود مكافحة الإرهاب وحماية
حقوق الإنسان، فهناك اهتمام بشأن عدم التدرع بتنفيذ التدابير المتضمنة بالقرار 1373
لتقليص حقوق الإنسان، ولهذا ناشدت مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان اللجنة
بأن تعين خبيرا في حقوق الإنسان ضمن فريق الخبراء التابع لها، وأن تتولى مسؤولية
رصد التزام الدول بالقواعد والمعايير الدولية لحقوق الإنسان في مجال مكافحة الإرهاب،

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
ولكن لجنة مكافحة الإرهاب، بالرغم من إدراكها للتفاعل بين شواغل حقوق الإنسان،
وقيامها بالاتصال والتحاور مع مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ترى أن رصد
أداء الدول فيما يتعلق بالتزاماتها تجاه حقوق الإنسان فيما تتخذه من تدابير لمكافحة
الإرهاب، لا يندرج ضمن الولاية التي أنيطت بها اللجنة، ويجب أن يترك ذلك العمل
لهيئات ومنظمات حقوق الإنسان، والمجال مفتوحاً أمام تلك المنظمات كي تدرس
تقارير الدول الأعضاء والتطرق إلى مضامينها على صعيد مندييات أخرى، وقد صرح
الأمين العام بأن حماية حقوق الإنسان لا تقع ضمن الاختصاصات الرئيسة لمجلس الأمن
بل تقع على عاتق هيئات أخرى تابعة للأمم المتحدة، وتدعو الحاجة إلى الأخذ بجبراتها،
وفي هذا الصدد أوضح مجلس الأمن في قراره 1456 (2003) في الفقرة السادسة منه أنه
يجب على الدول أن تحرص على أن تكون أي تدابير تتخذ لمكافحة الإرهاب متمثلة
لكافة التزاماتها بموجب القانون الدولي، وأن تتخذ تلك التدابير وفقاً للقانون الدولي
الخاص وبخاصة القانون الدولي لحقوق الإنسان واللاجئين والقانون الدولي الإنساني،
ومنذ صدور ذلك القرار تقوم اللجنة بإدراج تلك الفقرات في رسائلها إلى الدول بصدد
تقارير الإبلاغ عن تنفيذ القرار 1373 (2001)¹.

نستنتج في نهاية هذا المقال، أنه ينبغي الاعتراف بوجود تغيرات عميقة في الدور
الذي تضطلع به الأمم المتحدة في مجال مكافحة الإرهاب الدولي، فقد اتخذت خطوات
عديدة لتحديد الأبعاد العريضة لسياسة مكافحة الإرهاب الدولي على المدى الطويل
بالنسبة للأمم المتحدة وترتيب أنشطتها في هذا الصدد حسب أولوياتها، وبدأت في
استخدام أدوات جديدة، من أهمها وأبرزها إنشاء لجنة مكافحة الإرهاب، والتي تمثل
إحدى أهم الأدوات المتمتعة بأعظم وأوسع تأثير عالمي يمكن للمجتمع الدولي أن يعتمد

¹ - د. حسين خليل، مكافحة الإرهاب الدولي، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، 2012، ص

دور لجنة مكافحة الإرهاب... في مكافحة الإرهاب الدولي ----- أ. هشام بوحوش
عليه في تنسيق جهوده وتعاوننه للتصدي للإرهاب الدولي، وقد أظهرت هذه الدراسة
أهمية دور اللجنة، وأنشطتها خاصة فيما يتعلق بمساعدة الدول على بناء وتعزيز قدراتها
في مجال مكافحة الإرهاب الدولي، بحيث أصبح مجلس الأمن - التابعة له هذه اللجنة -
يضطلع الآن بدور قيادي في توجيه وتنسيق الجهود الدولية لمكافحة الإرهاب الدولي .

ظاهرة الإرهاب الدولي وجهود الجزائر في مكافحته

أ. محمد قاسمي

جامعة قسنطينة - 1

الملخص:

إنه من الصعوبة بمكان التركيز عند إعطاء مفهوم للإرهاب الدولي على جانب العمل الإرهابي أو تعداد الأفعال الإجرامية وتحديد بواعثها، وهذا نظرا لاختلاف التعريفات والمفاهيم السائدة لدى المجتمع الدولي، وإن الإرهاب قد يكون سياسياً أو عقائدياً أو تخريبي من دون أي قيود قانونية أو خلقية أو مكانية، وعلى كل حال فإن مكونات العمل الإرهابي هي العنف المرتكب بأي وسيلة كانت، والمسبب لأذى جسدي أو خسارة مادية، بحق الأفراد الأبرياء، بقصد ترويع وتخويف الناس أو إهانتهم، أو من اجل الحصول على مكاسب معينة، وذلك من دون تبرير للوسيلة المرتكبة.

ولقد سعت المجموعة الدولية إلى تجرّمه خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 بتطوير استراتيجيات مكافحته على الصعيدين الوطني والإقليمي من اجل تقديم الدعم والمساعدة المتكاملة في مجال بناء القدرات لمكافحة تمويل الإرهاب، والعمل على تشجيع الحوار والتفاهم ومكافحة الانحذاب إلى الإرهاب، وحماية حقوق الإنسان وحقوق الضحايا والأهداف المعرضة للخطر في سياق مكافحته.

abstract:

From this research, it is clear to us that it is difficult to give one acceptable definition of International Terrorism if we focus on the side of the terrorist act or the listing of criminal acts and define its motivations, and this is because of the different definitions and concepts prevailing in the international community, The terrorism may be politically or ideologically motivated action or a sabotage ,without any legal, ethical or

territorial restrictions, The elements of the terrorist act is the violence perpetrated by any means, and causing physical harm or material loss, against innocent people, in order to terrorize and humiliated them, or for getting specific profits with unjustified means.

The international community endeavored to incriminate this act, especially after the events of the eleventh September 2001 by developing strategies to fight it on both national and regional levels. The development of such strategies helps to provide full support and assistance in order to sharpen skills that allow fighting terrorism's financing. It also helps to promote dialogue, to facilitate understanding, to fight the attraction to terrorism, and to protect the human rights and the rights of victims and targets at risk while fighting terrorism.

مقدمة:

إن معظم الدراسات الحقوقية المتداولة حول ظاهرة الإرهاب الدولي تشير إلى غياب تعريف موضوعي واضح ومحدد لها يتمتع بقوة قانونية ملزمة لجميع الدول ، وهو ما تعتبره في حال الفوضى التي يتخبط فيها المجتمع الدولي سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 في ظل ما بات يعرف العدالة الانتقائية أو الانتقامية التي غالبا ما يشار لضلوع الأمم المتحدة فيها¹ ، وأن هذه السياسات تمثل تحد لجوهر فكرة القانون الدولي وجدوى آلياته وتندر تداعياتها بالفوضى العالمية الشاملة.

وإن أهم ما يدور حوله النقاش في تحديد مفهوم الإرهاب هو عدم توافق الدول واختلاف نظرتها له وفي طبيعة العمل الإرهابي في حد ذاته وصوره والأساليب المختلفة لمظاهره، فقد يراها البعض إرهابا والبعض الآخر لا يراه كذلك.

¹ - انظر: أحمد حسين سويدان - الإرهاب الدولي في ظل المتغيرات الدولية - منشورات الحلبي الحقوقية - بيروت لبنان الطبعة الأولى، سنة 2005، ص 27.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
ونظرا لتلك الصعوبات تم إرجاء عدة جهود دولية لوضع اتفاقية عالمية لمكافحته
وتبرير الأعمال الإرهابية نفسها باعتبارها إرهابا مضادا أو كفاحا للقضاء على
الإرهاب ، إلا أنه ورغم غياب (اتفاقية الإطار) فإن قواعد القانون الدولي توفر بعض
الأحكام التي تهتم بظاهرة الإرهاب الدولي من أجل تبيان عناصره وخصائصه وأساليبه
والسبل الكفيلة لمكافحته بالرغم ما يشوبها الكثير من الغموض.

وعليه لجأت لهذا الموضوع نظرا لأهميته على الساحة الدولية ولما تعرفه العديد
من مناطق مختلفة في العالم منها الجزائر التي لا تزال تعاني من ويلات الإرهاب ومنه
تطرق في هذا البحث إلى ثلاث محاور رئيسية، ففي المطلب الأول احدد مفهوم
الإرهاب الدولي من خلال مختلف تعاريفه اللغوية والفقهية ثم في القانون الدولي أما في
المطلب الثاني نتطرق إلى موقف التشريع الجزائري الذي عرف الظاهرة ونوضح تطور
التشريع بتطور الظاهرة، كما أوجد آليات لمكافحة الإرهاب وذلك من خلال
استعراض التجربة الجزائرية في مكافحته.

المطلب الأول: مفهوم الإرهاب الدولي:

لقد اكتنف تعريف الإرهاب الدولي صعوبة واختلف الفقهاء وشرّاح القانون
حول إعطاء تعريف موحد لمدلول الإرهاب لأن مصطلح الإرهاب بدلالته الحديثة يعد
دخيلاً على القاموس العربي كونه عبر مختلف مراحل التطور الفكري في التاريخ المعاصر
اكتسبت عبارة الإرهاب مضمونا سياسيا واضح المعالم¹، كما أن مدلول الإرهاب لم
يعرف تعريفا في الشريعة الإسلامية بمصادرها الأساسية القران والسنة، وعليه نحاول

¹ - انظر: أدونيس العكرة، الإرهاب السياسي - بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية - دار
الطبعة للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية 1993، ص 25 .

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
البحث في المعنى اللغوي والفقهي ثم نتطرق إلى موقف الشريعة الإسلامية من ظاهرة
الإرهاب بوجه عام.

الفرع الأول: المعنى اللغوي للإرهاب :

لم تذكر المعاجم العربية القديمة كلمة إرهاب ولكنها عرفت بالفعل (رهب) و(يرهب) رهبة ورهبا، أي خاف، والرهبة هي الخوف والفرع، وهذا ما جاء في قاموس لسان العرب¹، وأرهبه ورهبه وإسترهبه أي أخافه وفرّعه وإسترهبه بمعنى استدعى رهبته حتى رهبه الناس .

وحسب القاموس المحيط : رَهَبَ، كَعَلَّ رِهْبَةً وَرُهْبًا بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ وَبِالتَّحْرِيكِ، وَرُهْبَانًا بِالضَّمِّ وَيَجْرُكُ أَي خَافَ².

كما يشير صاحب تاج العروس إلى أن كلمة (رَهَبَ) بفتح الراء وكسر الهاء و(رَهَبَ) بفتح الراء والباء إلى معنى خاف وخشي ومصدرها الرهب وهو الخوف والرعب والخشية والفرع³، ويقال أرهبه واسترهبه أي أخافه ويقال تَرَهَّبَهُ أي توعدده. ويستخلص مما سبق بأن المعنى العربي الأصيل لكلمة رهب هو الخوف والخشية من الله والخوف من احتمال وقوع الأذى ، وعليه فإن المعاجم القديمة لا يوجد لها أثر

¹ - انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الأندلس بيروت، بدون سنة، ص 325 .

² - انظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط والقاموس الوسيط - لما ذهب من كلام العرب شماميط، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت الطبعة الثانية 1982، ص 118 .

³ - انظر: محمد مرتضى الزبيدي - تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة - بيروت - من دون طبعة ولا تاريخ، ص 280 .

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
في ذكر الإرهاب أو الإرهابي ، وهناك من يرى بأن مفردة أو مصطلح الإرهاب لم
يكن من خمسين سنة ولم تستخدم إلا نادرا جدا ¹.

وكلمة رعب (TERREUR) ظهرت لأول مرة في اللغة الفرنسية عام 1355
بقلم الراهب BERSUIRE وجاءت من اللغة اللاتينية TERROR وهي تعني في
الأصل الخوف²، وقد أخذت هذه الكلمة معنى جديدا في نهاية القرن التاسع عشر بعد
إعدام "روبسير" واتهامه بالإرهاب TERRORISM أي الإرهاب الذي تمارسه الدولة.
أما في المعاجم الحديثة فلقد أقر وأطلق مجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط بان
كلمة الإرهاب أساسها رهب أي أخاف، وأطلق على الإرهابيين وصف يطلق على
الذين يسلكون سبيل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية ³.

ولقد ورد في قاموس المورد⁴ بأن كلمة « TERROR » تعني الرعب، الذعر
والهول وكل ما يوقع الرعب في النفوس، إرهاب ، والاسم « TERRORISM » يعني
إرهاب، ذعر ناشئ عن الإرهاب و« TERRORIST » تعني الإرهابي ، وهذا نفس
المعنى الوارد في معاجم اللغة العربية المعاصرة .

ولقد جاء في قاموس أوكسفورد "OXFORD DICTIONARY" الذي بين أن
كلمة إرهابي TERRORIST أو الإرهابي هو الشخص الذي يستعمل العنف المنظم

¹ - انظر: عبد الرحمن عماد، قضية الإرهاب بين الحق والباطل، منشورات اتحاد وكتاب العرب،
دمشق، 2003 ص 32 .

² - انظر: د/ إمام حسانين عطا الله - الإرهاب والبيان القانوني للجريمة، دار المطبوعات الجامعية،
الإسكندرية، 2004، ص 97 .

³ - انظر: مجمع اللغة العربية، المجمع الوسيط، الطبعة 2، القاهرة 1972، ص 282 .

⁴ - انظر: منير البعلبكي، قاموس المورد - قاموس إنجليزي عربي - دار العلم للملايين، بيروت،
الطبعة 31، 1997 .

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
لضمان نهاية سياسية، والاسم **TERRORISM** يعني استخدام العنف والتخويف أو
الإرهاب والقتل، التفجير، وبخاصة في أغراض سياسية¹.

أما القاموس الفرنسي **LE PETIT ROBERT** فقد عرف الإرهابي بأنه
"الاستخدام الممنهج للعنف من أجل تحقيق هدف سياسي، تنفيذها منظمة سياسية
للتأثير على بلد ما (سواء بلد الأم أم لا)، والإرهاب يكون وسيلة للحكم"².
وباستعراضنا لبعض المعاجم والقواميس العربية والأجنبية فإنه علينا القول بأن
الدلالة اللغوية لمصطلح الإرهاب تتفق معظمها في الربط بين الإرهاب واستخدام العنف
السياسي لتحقيق أهداف سياسية بالرغم من عدم تطابق المعنى اللغوي للإرهاب
واستخدام العنف السياسي .

الفرع الثاني : تعريف الفقه للإرهاب :

إن أهم ما يدور حوله النقاش هو صعوبة تمهيد مفهوم دقيق وموحد لمفهوم
الإرهاب الدولي نظرا لطبيعته واختلاف نظرة الدول إليه، وكان أول ظهور لفكرة
الإرهاب الدولي في فقه القانون الدولي كان في المؤتمر الأول لتوحيد القانون العقابي
الذي انعقد في مدينة وارسو في بولندا عام 1930³.
وعليه أصبح إعطاء تعريف يمثل كبرى أمام الباحثين في هذه الظاهرة سواء
القانونيين أو غيرهم⁴، وقد ألفت هذه المشكلة بظلالها على الجهود الدولية والوطنية
لمكافحة هذه الظاهرة، وأصبحت حتمية وضع إطار محدد للإرهاب باعتباره مسألة

¹-Longman dictionary of English language and culture, London, éd , 1993. -

²- Dictionnaire : le Petit Robert , éd, 1993;paris , p :2505

³- انظر:د/ محمد مؤنس محب الدين- الإرهاب في القانون الجنائي على المستويين الوطني والدولي،
دار الوزان للنشر القاهرة -1987، ص197.

⁴- انظر:د/ إمام حسنين عطا الله، الإرهاب والبيان القانوني للجريمة، مرجع سابق، ص 89.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

ضرورية وملحة تمكن الهيئات الدولية من اعتماد مرجعية قانونية موحدة من جهة، كما تمكن الدول من وضع التزام قانوني موحد وغير خاضع لمصالح أي دولة من الدول من جهة ثانية¹، غير أن هذه الجهود لم توفق إلى بلورت التزامات محددة وشاملة تأخذها الدول على عاتقها يوحي من تعريف موضوعي في معاهدة دولية تعنى بمكافحة الإرهاب والقضاء على أسبابه ودوافعه وهذا ما دفع بجانب من الفقه إلى اعتبار أن الإرهاب لا يشكل جريمة في القانون الدولي، وهذا الاتجاه دعا إلى تجاهل مسألة التعريف والبحث عن آليات أخرى تجرم أفعالاً محددة متفق عليها على اعتبارها تشكل مظهر للإرهاب الدولي، غير أن هناك جانب كبير من الفقه من أصر على وضع تعريف وإيجاد التعريف الإطار²، وتبلورت عليه عدة اتفاقيات دولية في هذا الصدد .

وإن النتائج المترتبة على صعوبة التعريف أدت في الكثير من الأحيان إلى تبرير الأعمال الإرهابية والانتقائية والعشوائية في وصف الأفراد والجماعات والدول بالإرهاب وفقاً للمصالح السياسية لكل طرف³.

ولإزالة اللبس والغموض حول الظاهرة كان لزاماً دفع الجهود الدولية لإيجاد إطار قانوني موحد يتم بموجبه التمييز بين الإرهاب وغيره ، لأن بعض الدول تستعمل الإرهاب بصورة معلنه ضد دول وجماعات أخرى لتحقيق أهداف سياسية وأيديولوجية

¹ -انظر: أ/ المصري شفيق، الإرهاب في ميزان القانون الدولي -مجلة شؤون الشرق الأوسط، العدد 105 -2002، ص 46.

² - انظر: د/ خليل إمام حسانين، الإرهاب وحروب التحرير الوطنية، الطبعة الأولى، دار مصر المحروسة، القاهرة، 2002، ص58

³ - انظر: محمد عبد اللطيف عال، جريمة الإرهاب دراسة مقارنة، دار النهضة العربية، القاهرة 1994، ص 98 .

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

في الوقت التي تصف حركات التحرير الوطنية بأنها حركات إرهابية وتلدجا تلك الدول إلى مساعدة حركات التمرد وتخصص لها مساعدات مالية ومعدات عسكرية .

وظهرت عدة اتجاهات في تعريف الإرهاب، منها الاتجاه الوصفي الذي يبرز خصائص عمليات الإرهاب والتركيز على عناصر العمل الإجرامي على أنه فجائي وله دوافع سياسية وأيديولوجية كما وجد اتجاه تحليلي الذي يتركز على تحديد طبيعة الأفعال المكونة للإرهاب وما تتسم به من عنف فجائي الذي يخلق حالة من الرعب، وهناك اتجاه حصري الذي يسعى إلى تحديد مجموعة من الأفعال تعد أعمالا إرهابية مثل خطف الطائرات والديبلوماسية وأخذ الرهائن ، فإذا ارتكبت تعد أعمالا إرهابية، ومن بين الفقهاء الذين أخذوا بهذا المفهوم الفقيهان -AMELIO- وألوازي - ALOISIYEO- اللذان وضعوا تعريفا للإرهاب يقوم على تعداد أنواع من الجرائم ، أي أن الإرهاب يقوم على تعداد الأفعال والجرائم الإرهابية¹ ، وما يؤخذ على هذا التحديد الحصري للأفعال يصبح مع مرور الوقت ناقصا وأمرأ خاطئا نسبيا نظرا للابتكارات الإرهابية المتجددة وتطور أعمالها وأساليبها، وهنا تكمن الصعوبة في التفرقة بين العمل الإرهابي والغرض السياسي منه .

وهناك من عرف الإرهاب بأنه كل عمل إرهابي منظم بهدف خلق حالة من اليأس أو الخوف بقصد زعزعة ثقة المواطنين أو بقصد تهدم بنية نظام كائن أو بقصد تدعيم أو تقزيز سلطة حكومية قائمة².

وعرف أيضا بأنه كل عمل منظم يستعمل فيه العنف أو التهديد باستعمال العنف لخلق جو من الخوف العام بقصد القمع والإكراه، أو هو كل عمل عنف منظم أو التهديد به الذي يقوم به أفراد أو جماعات أو حكومات أو دول لخلق حالة من

¹ - انظر: د/ إمام حسانين عطا الله، المرجع السابق، ص 108.

² - انظر: أ/ احمد حسنين سويدان، نفس المرجع السابق، ص 84.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
الخوف أو الذعر أو اليأس بقصد تحقيق أهداف عامة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية
وتعتبر أعمالا إرهابية ، أعمال القمع والتوسع والاحتلال والاستغلال والهيمنة بكل
أشكالها التي تمارسها الأنظمة الاستعمارية وأنظمة التمييز العنصري والهيمنة الأجنبية،
ولا تعتبر أعمالا إرهابية كقتال الشعوب وحركات التحرر الوطني لا بل تقرير المصير
والتحرر والاستقلال¹.

كما تم تعريفه بأنه استراتيجية عنف مجرّم دوليا تحفزها بواعث عقائدية وتتوخى
أحداث عنف مرعب داخل شريحة خاصة من مجتمع معين لتحقيق الوصول إلى السلطة
أو القيام بدعاية لمطلب أو لمنظمة بغض النظر عما إذا كان مقترفو العنف يعملون من
أجل أنفسهم أو نيابة عنها أو نيابة عن دولة من الدول للحصول على أهداف عسكرية
أو سياسية².

كما تم تعريفه بأنه نوع من البرامج السياسية يعتمد العنف فيها كآلية لإحداث
التغيير، فالإرهابيون يستخدمون على نحو منظم القتل والدمار أو التهديد باللاجوء
إليهما لإرهاب الأفراد والمجتمعات، والحكومات لإجبارها على الرضوخ لمطالبها
السياسية³.

ورغم تعدد الجهود والمحاولات القانونية لوضع تعريف جامع ومانع لظاهرة
الإرهاب فإنه لا يوجد حتى الآن تعريف متفق عليه وهو الاتجاه السائد في القانون

¹ - انظر: د/ محمد وليد عبد الرحيم، إرهاب الدولة في تحديد الإرهاب، كتاب الفكر، مجموعة
باحثين، أعمال ندوة نظمها الحزب السوري القومي الاجتماعي - بيروت - 2001 ص 73.

² - Blakesly Christopher (L): terrorism, drugs, international law, and the protection
of human liberty, transnational publishers, inc, new York, non printing date, page
41.

³ - انظر: د/ عبد الكريم درويش، دراسات في منع الجريمة والعدالة الجنائية، الجزء الأول - القاهرة،
1998، ص 10.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

الدولي الجنائي ، وعليه فإن التعريف الأمثل يجب أن يتصف بالتحديد والموضوعية بحيث لا يتفق فقط مع وجهة نظر طرف من أطراف الصراع دون الطرف الآخر مع الإلمام بالجوانب المختلفة للظاهرة دون إغفال أي منها¹ ، وهناك من يعتبر لان مفهوم الإرهاب الدولي يستعمل فقط من أجل الملائمة اللغوية لتغطية جملة من الأفعال التي اعتبرت جرائم في القوانين الوطنية لمعظم الدول بالإضافة إلى أفعال أخرى مثل اختطاف الطائرات .

ويعتبر الدكتور عبد الله سليمان أن الإرهاب الدولي لا يختلف عن الإرهاب الداخلي من حيث المضمون وكلاهما عبارة عن أعمال تؤدي إلى حالة من الرعب لدى فئة أو أفراد أو جمهور ما بغية الوصول إلى أهداف معينة، وأن ما يميز الإرهاب الدولي هو وجود عنصر أجنبي إذ يتجاوز حدود الدولة ويخلق حالة تنازع في الاختصاص وتنازع في القوانين² .

ويرى حسنين إبراهيم صالح عبيد بأن الإرهاب الدولي هو كافة أفعال التخريب والتدمير التي تقع على المرافق العامة وكذلك القتل الجماعي الذي يقع على الأشخاص ومن ثم فهو يشجع الاضطرابات في المجتمع الدولي³ .

كما يعرف الدكتور عبد العزيز سرحان الإرهاب الدولي بأنه كل اعتداء على الأرواح والأموال والممتلكات العامة أو الخاصة بالمخالفة لأحكام القانون الدولي العام بمصادره المختلفة بما في ذلك المبادئ الأساسية لمحكمة العدل الدولية، ويركز على فكرة

¹ - انظر: ثامر إبراهيم الجهماني، مفهوم الإرهاب في القانون الدولي، دار الكتاب العربي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2002، ص61.

² - انظر: د/ عبد الله سليمان، المقدمات الأساسية في القانون الدولي الجنائي، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر، 1992، ص219.

³ - انظر: د/ حسنين إبراهيم صالح عبيد، مرجع سابق، ص220.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
أنه استغلال غير مشروع للقوة ويُدْرَج ضمن أعمال الإرهاب الدولي فكرة التفرقة
العنصرية الممارسة من طرف الدول، ويعتبر الفعل خارجاً عن الإرهاب الدولي إذا كان
الباعث منه هو الدفاع عن الحقوق المقررة للأفراد وحقوق الإنسان أو حقوق الشعوب
في تقرير المصير ومقاومة الاحتلال لأن القانون الدولي يبررها لها سند قانوني يتضمن
القوة¹.

أما الدكتور صلاح الدين عامر² فيرى: أن اصطلاح الإرهاب الدولي يستخدم
في الأزمنة المعاصرة للإشارة إلى الاستخدام المنظم للعنف لتحقيق هدف سياسي وبصفة
خاصة لجميع أعمال العنف التي تقوم بها منظمة سياسية بممارستها على المواطنين وخلق
جو من عدم الأمن ، وهو ينطوي في هذا المفهوم على طرائق متعددة من الأعمال
أبرزها أخذ الرهائن واختطاف الأشخاص بصفة عامة وخاصة الممثلين الدبلوماسيين
وقتلهم ووضع متفجرات أو عبوات ناسفة في أماكن تجمع المدنيين أو وسائل النقل
العامة والتخريب وتغيير مسار الطائرات بالقوة، ومن جهة أخرى عرف الدكتور
إسماعيل الغزال³ الإرهاب بأنه "الإرهاب أو النضال الثوري وهو إيديولوجية ، مبدأً،
فكر، مؤسسة وميثاق يسوغ العنف أو استراتيجية تعطي الأفضلية لتلك الأعمال".

ويتضح من خلال هذه التعريفات اشتراط عدم مشروعية العنف ووصف
الأعمال بالقسوة والشدة والفجائية ويكون عنف مسلح حتى يوصف العمل بان
إرهابي، وهنا يصعب الفصل بين العمل الإرهابي والوسيلة المستخدمة لإحداثه وأهدافه،

¹ - انظر: د/ حسنين إبراهيم صالح عبيد، مرجع سابق، ص 223.

² - انظر: د/ صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة قانونية النزاعات المسلحة، الطبعة الأولى، دار الفكر
العربي، مصر 1976، ص 86.

³ - انظر: د/ إسماعيل الغزال، الإرهاب والقانون الدولي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر
والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1990، ص 16.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

كون العمل الإرهابي لا يتحقق بدون اللجوء إلى وسيلة عنيفة أو التهديد باللجوء إليها وتحقيق النتيجة من خلال العمل الإرهابي .

ورغم هذه التعريفات التي توصف الفعل الإرهابي بالشدّة والقسوة وغير الاعتيادية التي تجعل منه عملا قادرا على إحداث الرعب الذي يمكن بدوره من فرض آراء المستخدمين له فهو يحمل رسالة معينة بغض النظر على مدلولها وأهدافها إلى ضحايا محتملين وإلى مجتمع معين .

و أخيرا يوجد اتجاه تبنى في تعريفه للإرهاب على الغاية التي يسعى إليها الإرهابي أو الجماعة الإرهابية من خلال العمل الإرهابي في حد ذاته¹ ، ومن وجهة نظر أصحاب هذا الرأي فكل عمل باستعمال العنف الذي يخلق حالة من الرعب والفرع الشديدين لتحقيق هدف غير مشروع سواء كان سياسي أو عقائدي أو أيديولوجي فيوصف بأنه عمل إرهابي، غير أن هذا التعريف واسع وفضفاض حسب رأي لأنه يمكن أن يغطي كل صور استخدام العنف السياسي بما في ذلك الحروب النضالية المشروعة وبخاصة حروب التحرير الوطنية وتقرير المصير للشعوب المختلفة .

إذن يتضح لنا من خلال العروض السابقة أنه من الصعوبة بمكان التركيز عند إعطاء مفهوم للإرهاب الدولي على جانب العمل الإرهابي أو تعداد الأفعال الإجرامية وتحديد بواعثها وهذا نظرا لاختلاف التعريفات والمفاهيم السائدة لدى المجتمع الدولي ومنه برزت هذه الاختلافات في التعاريف، غير انه يمكن إعطاء مفهوم عام للإرهاب الدولي على أنه هو استخدام العنف ضد الأفراد والمدنيين الأبرياء من أجل الحصول على غايات عسكرية سياسية أو فلسفية من فريق ثالث، سواء من الحكومة أو من مجموعة ما، والإرهاب قد يكون سياسياً أو عقائدياً من دون أي قيود قانونية أو خلقية، وعلى

¹ -Martin John(M)-Anne(T),Romano, multinational crime , terrorism , espionage ; drugs, and arms trafficking- sage publications , printed in USA ,1992 p,30.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
كل حال فإن مكونات العمل الإرهابي هي العنف المرتكب بأي وسيلة كانت،
والمسبب لأذى جسدي أو خسارة مادية، بحق الأفراد الأبرياء، بقصد ترويع الناس أو
إهانتهم، ومن اجل الحصول على مكاسب معينة، وذلك من دون تبرير ولا عذر
للسيلة المرتكبة .

الفرع الثالث : موقف الشريعة الإسلامية من الإرهاب

إن الشريعة الإسلامية بمصادرها سواء القرآن أو السنة (الحديث النبوي
الشريف) لا يوجد بها أثر لكلمة الإرهاب فيهما ولم يتم استعمالها بهذه الصيغة وإنما
اقتصرت الاستعمال على عدة صيغ مختلفة مشتقة من المادة اللغوية نفسها ، بعضها يدل
على الخوف من الله والفرع ، وبعضها الآخر يدل على التعبد .

و الملاحظ أيضا أنه لم ترد في الحديث النبوي الشريف كثيرا هذه المصطلحات،
ولعل أشهر ما ورد في لفظ (رهبة) في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي
يرويه في دعاء (وأجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك)¹ ، وقيل أي الرغبة في الثواب
ورهبة أي خوفا من غضب وعقاب الله² .

أما في القرآن الكريم فإن أغلب الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة تدعو إلى
مخافة الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى (... وإياي فارهبون ...)، وباستعراض الآيات
القرآنية نجد أن فعل رَهَبَ لا يوجد فيه قتال ولا قتل، أما في القتال والحرب فاستعمل
الله تعالى مصطلح الرعب منها (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق
الأعناق واضربوا منهم كل بنان) "سورة الأنفال 12" وقوله تعالى (وقذف في قلوبهم

¹ - انظر: كتاب صحيح مسلم بشرح النووي، مجلد 09 جزء 17، دار الفكر للطباعة والنشر، 1981،
ص33.

² - انظر: ابن جرير العسقلاني، فتح الباري - شرح صحيح البخاري- ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي،
جزء 11، مكتبة دار الصحابة دمشق، ص111.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
الرب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) "سورة الأحزاب 26"، وللتأكيد فإن الرهبة في
الإسلام ليس إرهابا كما أصبح شائعا في الوقت الحالي وليس مقرونا بالجهاد الذي لا
يعني القتال بالضرورة .

قد وردت عدة آيات قرآنية تستعمل مفاهيم عدة ومستقاة من اللفظ (الرَّهْب) منها قوله تعالى (وإياي فارهبون) "البقرة 40"، وقال ابن كثير في تفسيره¹ . بمعنى أي فاحشوني، والترهيب والرهبه أي الرجوع للحق ، كما وردت لفظة الرهب في سورة الأنفال بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) "الأنفال 60"، إذن فالترهيب هنا للأعداء، ويعتبر حق شرعي إلهي منحه الله لعباده المسلمين في زمن الحرب لإرهاب أعداء الله وهو حق الدفاع الشرعي .

كما وردت لفظة الرهب في سورة الأنبياء بصيغة المصدر الأصلي للكلمة في قوله سبحانه وتعالى (ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) "الأنبياء 90" ، وهو يدل على الرجاء والأمل والرغبة في عطاء الله تعالى والخوف من عذابه² .

و يمكن استخلاص أبعاد مصطلح الرهبة في القرآن الكريم بما يفيد منتهى الخوف والانبهار من معجزات الله أو الترهيب لأعداء الله و ثم فإن الرهب تعد حالة داخلية تنجسد سلوكيا وظاهريا في تصرفات الفرد ربطها الله سبحانه وتعالى بنفسه عند إرادته التخويف لعموم الكافرين واليهود المعاندين، كما هو حق شرعي منحه الله لعباده

¹ - انظر: ابن كثير(الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) تفسير القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1987، ج1، ص79.

² - انظر: ابن كثير، المرجع السابق، ص 355.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
المؤمنين للدفاع به عن حرمة الدين ضد أعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية¹، وحرّم الله
تعالى الاعتداء ونهى عنه في قوله تعالى "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا
إن الله لا يحب المعتدين" (البقرة آية 190)، وان الاعتداء معناه أن لا يقاتل المسلم إلا
الذين يقاتلونهم وان تراعى ضوابط الحرب الخلقية عند القتال²، كما جعل قاعدة السلم
قاعدة امرة في قوله تعالى "وان جنحوا للسلم فاجنح لهم" (سورة الأنفال آية 61)،
وهذا دلالة على أن الإسلام لا يستخدم العنف كمنهج في الدعوة إلى الإسلام .

أما عموم فقهاء الشريعة الإسلامية فإنهم حرّموا الإرهاب، وهو ما ذهب إليه
الجمع الفقهي الإسلامي في اجتماعه الذي عقد في 2002/01/10 في رابطة العالم
الإسلامي بمكة المكرمة في دورته الـ 16 وأكد بأن التطرّف والعنف والإرهاب ليس
من الإسلام في شيء وإنما أعمال خطيرة ولها آثار فاحشة وفيها اعتداء على الإنسان
وظلم له .

وأصدر على اثر ذلك الجمع الفقهي الإسلامي الدولي قرارا في دورته الرابعة
عشرة وعرف فيه مصطلح الإرهاب بأنه "العدوان و أو التخويف أو التهديد ماديا أو
معنويا الصادر من الدول أو الجماعات أو الأفراد على الإنسان في دينه أو نفسه أو
عرضه أو عقله أو ماله بغير حق بشق صفوفه وصور الإفساد في الأرض"³.

¹ - انظر: أ/ أحمد عيساوي، مفهوم الإرهاب في القرآن الكريم، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم
الإسلامية، جامعة باتنة، الجزائر، على الموقع الإلكتروني: <http://www.dahsha.com.view>
-id=26329. .php article

² - انظر: كتاب، القانون الدولي الإسلامي، إعداد وترتيب مجمع الفقه الإسلامي، دار الثقافة للنشر
والتوزيع 2012، ص 63.

³ - انظر: قرارات وتوصيات الدورة الـ 14 لمجلس مجمع الفقه الإسلامي - الدوحة- قطر- في 8
و13 ذو القعدة 1423 هجري، في كتاب القانون الدولي الإسلامي، إعداد وتقديم المجمع الفقهي
الإسلامي، مرجع سابق.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

ومما سبق يتضح بأن الإرهاب ليس من الإسلام في شيء وأن الجهاد في سبيل الله الذي شرع نصرة للحق وإقرارا للعدل والسلام والأمن ودفاعا للظلم كما يحدث في فلسطين وأرض الشيشان فانه ليس من الإرهاب في شيء .

وحسب رأيي فان الإسلام حارب هذه الظاهرة الغريبة عن ديننا وبعثتها باعتبارها فسادا في الأرض، ويستشف ذلك من خلال الآيات الكثيرة المتعلقة بالفساد والإفساد في الأرض ولقد نهي الإسلام عنه، في قوله تعالى (و لا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) "سورة القصص 77"، وقوله تعالى (و يسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)، وهنا نجد القرآن جعل من الفساد في الأرض عمل غير مشروع ولا يحبه الله تعالى ولا يثبت عمل المفسدين بل يزيهه ويمحقه ويظهر بطلانه في قوله تعالى أيضا (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) "سورة يونس 81"، كما أمرنا الله بالابتعاد عن الفساد في الأرض في قوله تعالى (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) "سورة هود 85"، وغيرهم من الآيات الكثيرة التي جعلت الأعمال التي فيها فساد دلالة على معصية الله، وإن الإرهاب والأعمال الإرهابية تدخل لا محالة في مطاف هذه الأعمال التي يبعثها الإسلام وينهى عنها.

الفرع الرابع: مفهوم الإرهاب في القانون الدولي

لقد أدى انتشار الإرهاب في دول العالم على اختلاف أوضاعها وثقافتها ونظمها وتطورها إلى أن أصبح يشكل تهديدا خطيرا للأمن والاستقرار الوطني والدولي على سواء، ورغم هذا فلا يوجد إطار موحد لمواجهة هذه الظاهرة رغم تعدد محاولات تعريف الإرهاب على المستوى الدولي إلا أنه لم يتم الاتفاق على تحديد تعريف دقيق نظرا لتلاصق الظاهرة مع الأعمال الإجرامية، إضافة إلى اختلاف نظرة الدول إليه، كما أصبح لدى بعض الدول أداة مهمة في إدارة السياسة الخارجية لها فقد تشجع جماعة

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
وتدين جماعة أخرى بوصفها منظمة إرهابية، وبالتالي فهي تبحث عن تعريف للإرهاب
حسب سياستها وطبقا لاحتياجاتها الدبلوماسية¹.
غير أن المتفق عليه لدى غالبية الدول خاصة في العصر الحالي بأن الإرهاب لا
يمكن أن يكون إلا دوليا في الغالب بالنظر لآثاره التي تمتد لأكثر من دولة، وعليه
وجدت عدة معاهدات أو اتفاقات دولية تعنى بالظاهرة منها معاهدات دولية مثل
اتفاقية جنيف لمنع ومقاومة الإرهاب لعام 1938، وتعتبر أول ممارسة دولية لتقنين
الإرهاب على المستوى الدولي ، ولقد وضعت تعريفين للإرهاب، الأول وصفي للعمل
الإرهابي بصفة عامة ونصت على كل الوقائع الإجرامية الموجهة ضد دولة وهدفها أو
طبيعتها وهو إثارة الرعب لدى شخصيات محددة في مجموعات أو في الجمهور، غير أن
هذا التعريف تم وصفه بالغامض ، أما التعريف الثاني فهو تعريف تعدادي بموجبه
عددت الأعمال التي تكون أعمالا إرهابية وكانت على سبيل الحصر ، وهناك من انتقد
هذا التعريف كونه أعطى سلطة تقرير الصفة الإجرامية أو غير المشروعة للوقائع للدول
التي لها سلطة تفسير المعاهدة²، ولقد اشترطت الاتفاقية المذكورة أعلاه أن يرتكب
الفعل الإجرامي بعنصريه المادي والمعنوي دون اشتراط تحقيق نتيجة ، ويعاقب على
مجرد الشروع فيه، وأن يوجه الفعل إلى دولة ما بقصد خلق حالة رعب في أذهان
الشعب نتيجة القتل والجرح والتخريب والتدمير للممتلكات العامة وتهديد الأمن العام
وتعريض الكافة للخطر، وهناك معاهدات إقليمية مثل الاتفاقية الأوروبية لمنع ومعاقبة
الإرهاب ستراسبورغ التي أبرمت بتاريخ 1977/01/27، وإن هذه الاتفاقية لم تضع
تعريفا للإرهاب هي الأخرى ولكنها أوردت أعمالا وصفتها بأنها أفعال إرهابية ، كما
أما تركت للدول الأعضاء حرية اعتبار أفعال أخرى إرهابية وهذا ما يؤدي بالضرورة

¹ - انظر: إمام حسانين عطا الله، المرجع السابق، ص 150 إلى 154.

² - انظر: د/ إمام حسانين عطا الله، المرجع السابق ص 165.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
إلى اختلاف تكييف الفعل الواحد من دولة لأخرى¹، وكذا الاتفاقية العربية لمكافحة
الإرهاب التي صدرت بتاريخ 22-04-1998 ودخلت حيز التنفيذ في 07-05-
1999 وفقا للمادة 40 منها أبواب وعرفت المادة الأولى في الفقرة الثانية الإرهاب بأنه
كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيا كانت بواعثه أو أغراضه، يقع تنفيذها
لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم
بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو
بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة، أو احتلالها أو الاستيلاء عليها، أو تعريض
أحد الموارد الوطنية للخطر، وعرفت الفقرة الثالثة منها الجريمة الإرهابية بأنها أية جريمة
أو شروع فيها ترتكب تنفيذها لغرض إرهابي في أي من الدول المتعاقدة.
كما وجدت أيضا عدة إعلانات وقرارات دولية تتضمن تعريف وإدانة الأعمال
الإرهابية وردت في الفصل الأول من ميثاق الأمم المتحدة أحكام متعلقة بحقوق
الإنسان، كما حول مجلس الأمن الدولي الحق في إصدار قرارات لأجل التدخل وحماية
حقوق الإنسان سواء الحماية القانونية أو الجسدية²، وعليه صدرت العديد من
القرارات عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تتضمن في مجملها إدانة الأعمال الإرهابية،
خاصة في مجال الطيران وكان ذلك منذ صدور قرارها في الدورة 24 بتاريخ
12/12/1979، وكذا القرار الصادر في الدورة 25 بتاريخ 25/11/1980.

¹ - راجع: مقال، إبراهيم محمد العناني، النظام الدولي الأممي، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، العدد
الثاني، 34، جويلية من سنة 1992 ص 447.

² - انظر: أ/ يحاوي نورة بن علي، حماية حقوق الإنسان في القانون الدولي والقانون الداخلي، دار
هومة للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الثاني 2006، ص 80 إلى 84.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
ولقد اعتمدت الجمعية العامة منذ 2006/09/08¹ قرارا أكدت فيه على
إدانتها القوية للإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره، أيا كان مرتكبه، وحيثما ارتكب،
وأيا كانت أغراضه، وتوالت قرارات الجمعية العامة التي تدين الإرهاب إلى أن صدر
عن الجمعية قرار رقم 10/66² في دورتها المنعقدة في 2011/11/18 الذي رحبت
فيه على إنشاء مركز الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب في مقر الأمم المتحدة الذي من
أولوياته تطوير إستراتيجية مكافحة الإرهاب على الصعيدين الوطني والإقليمي
ومكافحة تمويل الإرهاب، وعن هذا التطور في مفهوم الإرهاب للدليل على خطورته .
أما على الصعيد مجلس الأمن هو الآخر فإنه يتعامل معه منذ ظهوره بإجراءات
متطورة تأخذ شكل إجراءات يفرضها على الدول التي لها صلة بالإرهاب إلى أن عقد
المؤتمر العالمي في 2005/04/14 لمجلس الأمن حول الإرهاب أين تم فيه إدانة صريحة
وإعطاء تعريف واسع للإرهاب بجميع أشكاله بغض النظر عن دوافعه وكذا إدانة
التحريض على هذه الأعمال.

المطلب الثاني/ موقف المشرع الجزائري من الإرهاب:

تعتبر ظاهرة "الإرهاب" ظاهرة حديثة نسبيا في الجزائر، حيث لم يعرفها المجتمع
الجزائري إلا في بداية التسعينات إذ ورد ذكرها لأول مرة بموجب تشريعات
خاصة ضمن المرسوم التشريعي 92-03 المؤرخ في 30 سبتمبر 1992 والمتعلق
بمكافحة التخريب والإرهاب والمعدل بموجب المرسوم التشريعي رقم 93-05 المؤرخ
في 19 أبريل 1993، ثم ظهرت في قانون العقوبات بموجب الأمر رقم: 95-11
المؤرخ في 25 فبراير 1995 ثم توالت التعديلات والنصوص الجديدة التي أخذت

¹ - انظر: قرار الجمعية العامة 60/288 الصادر في 08-09-2006.

² - انظر: انظر قرارات الجمعية العامة على الموقع الإلكتروني: <http://www.un.org/arabic>

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
بنفس الفكرة سواء من الناحية الموضوعية أو الإجرائية، كما خص المشرع الجزائري آليات لمعالجة الأفعال الإرهابية بنصوص وتدابير خاصة، وسوف نستعرض تعرف الإرهاب في الفرع الأول ثم نتطرق إلى آليات معالجة الظاهرة التي انتهجها المشرع الجزائري على المستوى الداخلي والدولي.

الفرع الأول: تعريف الأفعال الإرهابية في التشريع الجزائري

لقد عمد المشرع الجزائري إلى وضع نصوص قانونية أوردها في قانون العقوبات، وعرف المشرع الجزائري ثلاث مراحل، ففي المرحلة الأولى التي أطلق مرحلة الشمولية، أمام عدم قدرة تلك النصوص قبل التعديلات في سنة 1992 على وضع إطار شامل للجريمة الإرهاب، وبعد انتشار الأعمال الإرهابية في فترة التسعينات أصبحت تلك النصوص الواردة في قانون العقوبات غير قادرة على التصدي للظاهرة، وحينها انتقل المشرع للتجريم عن طريق نصوص خاصة بموجب المرسوم التشريعي رقم 92_03 الصادر بتاريخ 30|09|1992 والمتعلق بمكافحة التخريب والإرهاب، والذي غلب عليه الطابع الإستصالي ورد الفعل الآني والردعي محاولة منه وضع حد لتفاقم الظاهرة، وسميت هذه المرحلة بمرحلة التخصيص، ولقد أدخل المشرع الجزائري فيها بموجب ذلك المرسوم أحكام جديدة من حيث التجريم والعقاب في محاولة أولى منه لاحتواء الظاهرة الدخيلة على المجتمع الجزائري فجرّم أفعال استمدها من الواقع وفرض عليها تجريماً خاصاً فنص في مادته الأولى على أنه: " يعتبر عملاً تخريبياً أو إرهابياً ، في مفهوم هذا المرسوم التشريعي كل مخالفة تستهدف أمن الدولة والسلامة الترابية، واستقرار المؤسسات وسيرها العادي ، عن طريق أي عمل غرضه ما يأتي:

— بث الرعب في أوساط السكان وخلق جو انعدام الأمن من خلال الاعتداء على الأشخاص أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو المس بممتلكاتهم.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
- عرقلة حركة المرور أو حرية التنقل في الطرق والساحات العمومية.
- الاعتداء على المحيط ووسائل المواصلات والنقل والملكيات العمومية والخاصة
والاستحواذ عليها أو احتلالها دون مسوغ قانوني ، وتدنيس القبور أو الاعتداء على
رموز الجمهورية.

أما المادة 04 فقد نصت على أنه يعد من قبيل الأعمال الإرهابية الإشادة أو
التشجيع بأي وسيلة كانت بالأفعال المنصوص عنها في المادة الأولى أعلاه ، وتكون
الإشادة بإعادة طبع أو نشر الوثائق أو المطبوعات أو التسجيلات عن عمد وقصد.
— ويأخذ وصف الأعمال الإرهابية إذا قام جزائري بالانخراط والتجنيد في الخارج في
الجمعيات أو المنظمات المذكورة آنفا حتى وإن كانت أفعالها غير موجهة ضد الجزائر
طبقا للمادة السادسة منه .

— وكذا حيازة أسلحة نارية أو ذخائر أو مواد متفجرة أو حملها أو الاتجار فيها
أو استيرادها أو صنعها أو إصلاحها دون ترخيص من الجهات المختصة (المادة 07).

وفي المرحلة الثالثة التي يطلق عليها بمرحلة الإدماج في القانون العام وسعى لوضع
آليات معالجة أوسع وأكثر موضوعية وعدلا نظرا لامتداد أثار الظاهرة ليس بالجزائر
فقط بل اتسعت لتشمل دول أخرى بالعالم، بحيث نص المشرع الجزائري في المادة
الأولى من الأمر 11/95 على إدراج قسم رابع مكرر بعنوان "الجرائم الموصوفة بأفعال
إرهابية أو تخريبية" في الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب الثالث من قانون
العقوبات، وضمنه تكرير للمادة 87 منه بما يشمل كل الجرائم المتعلقة بالظاهرة، ولم
يعط المشرع بموجب الأمر تعريف للجريمة الإرهابية وإنما نص في المادة 87 مكرر
وعدد الأفعال الإرهابية بالنص عليها¹، إذ عمل على تعداد حصري لبعض الأفعال

¹ - لقد نصت المادة 87 مكرر من ق/ع على انه "يعتبر فعلا إرهابيا أو تخريبيا في مفهوم هذا الأمر،
كل فعل يستهدف أمن الدولة والوحدة الوطنية والسلامة الترابية واستقرار المؤسسات وسيورها

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
واعترها إرهابية دون أن يكون هذا التعداد جامعا لكافة صور النشاط الإرهابي، وعليه
يعد قصورا منه نظرا لتطور صور الأعمال الإرهابية فلم يدخل في تعريفه جرائم هي
كذلك بموجب اتفاقيات دولية مثل احتجاز الرهائن، واختطاف الطائرات، والجرائم
ضد الإنسانية والإبادة الجماعية رغم مصادقة الجزائر على معاهدة منع الإبادة الجماعية
والجرائم ضد الإنسانية في 11-09-1963، كما إن المشرع لم يتفادى الوقوع في
استعمال العبارات الفضفاضة مما جعل الصياغة يغلب عليها الخلط بين العمل الذي
يمكن اعتباره إرهابيا وبين الباعث¹.

الفرع الثاني: التجربة الجزائرية في مكافحة الإرهاب

لجأت الجزائر على غرار بعض الدول إلى إصدار تشريعات خاصة من أجل
مكافحة الإرهاب على الصعيد الداخلي، كما اكتفى البعض الآخر من الدول في إجراء
تعديلات على القوانين القائمة حتى تكون أكثر ملائمة للمتطلبات التي تفرضها

العادي ، عن طريق أي عمل غرضه ما يأتي: بث الرعب في أوساط السكان وخلق جو انعدام الأمن
من خلال الاعتداء المعنوي أو الجسدي على الأشخاص أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم أو
المس بممتلكاتهم وعرقلة حركة المرور أو حرية التنقل في الطرق والتجمهر أو الاعتصام في الساحات
العمومية والاعتداء على رموز الأمة والجمهورية ونيش أو تدنيس القبور والاعتداء على وسائل
المواصلات والتنقل والملكيات العمومية والخاصة والاستحواذ عليها أو احتلالها دون مسوغ قانوني،
والاعتداء على المحيط أو إدخالها مادة أو تسريبها في الجو أو في باطن الأرض أو إلقائها في المياه بما
فيها المياه الإقليمية من شأنها جعل صحة الإنسان أو الحيوان أو البيئة الطبيعية في خطر وعرقلة عمل
السلطات العمومية أو ممارسة العبادة والحريات العامة وسير المؤسسات المساعدة للمرفق العام وعرقلة
سير المؤسسات العمومية أو الاعتداء على حياة أعضائها أو ممتلكاتهم، أو عرقلة تطبيق القوانين
والتنظيمات".

¹ - انظر: د/ أحسن بوسقبة/ الوجيز في القانون الجنائي العام، الطبعة الحادية عشرة، 2012،

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
عمليات مواجهة الإرهاب، وذلك بوضع قوانين خاصة لمعاقبة مرتكبيها نظرا لتطور
الظاهرة، وقامت بسن تشريعات بموجب أوامر وقوانين ذات الصلة لمعالجة الظاهرة منها
تدابير الرحمة بموجب رقم 12/95 كخطوة أولى لفتح باب التوبة، وتأكدت النية
بصدور قانون استعادة الوثام المدني 08/99 ثم الأمر 01/06 المتضمن تنفيذ ميثاق
السلم والمصالحة .

وما يؤخذ على التشريع الجزائري بأنه قام بتعداد صور الأعمال الإرهابية
بوصفها عناصر مكونة للجريمة الإرهابية من دون إعطاء لها تعريف واضحا، أيضا عدم
تبنيه للاختصاص الجنائي العالمي كآلية مكتملة للعدالة الجنائية على الصعيد الدولي
للقضاء على ظاهرة الإفلات من العقاب ومكافحة جريمة الإرهاب الدولي ومحكمة
مرتكبي الجرائم الدولية وجريمة الإرهاب الدولي على الخصوص على النحو الذي فعلته
العديد من الدول مثل فرنسا وبلجيكا في إطار مكافحة الجريمة الدولية التي تعتبر الأشد
خطورة على المجتمع الدولي وإقرارا بمبدأ أهم وهو عالمية المتابعة الجنائية لجريمة الإرهاب
الدولي بناء على التزام الدول بتشريع مبدأ الاختصاص الجنائي العالمي في تشريعاتها
الوطنية كالتزام دولي خاصة وإن الجزائر صادقت على العديد من الاتفاقيات الدولية
مثل اتفاقيات جنيف الأربعة عام 1960 عن طريق الحكومة المؤقتة¹، وكذا اتفاقية
قمع وتمويل الإرهاب لعام 1999. بموجب المرسوم الرئاسي رقم 445/2000 المؤرخ

¹ - أنظمت الجزائر إليها أثناء حرب التحرير عن طريق الحكومة المؤقتة بتاريخ 20-06-1960،
وانظر في هذا الصدد :

Mohahmed Bejaoui « Un certain 20 juin 1960 », petite et grand histoire de l
adhésion de l Algérie combattante aux conventions de Genève sur le droit
humanitaire , in acte du premier colloque algérien sur le droit humanitaire ,
organisé par la Croissant-Rouge Algérien avec la collaboration du comité
international de la Croix-Rouge , Alger le : 19 et 20 mai 2001 , éd ; casbah , 2006 ,
p 139 ,153

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

في 23/12/2000، وكذا ما نصت عليه المادة 132 من الدستور لعام 1996 التي أكدت بان الاتفاقات التي يصادق عليها رئيس الجمهورية ضمن الشروط المحددة في الدستور تسمو على القوانين الداخلية والتي تفيد بان القاضي الجزائري يمكنه ان يتذرع بتطبيقها، ولقد اخذ المشرع الجزائري بمعيار الاختصاص الشخصي في المواد 582 من قانون الإجراءات الجزائية وما بعدها، كما نصت المادة 08 مكرر من قانون العقوبات على عدم تقادم الجرائم الإرهابية .

غير إن هذه التدابير لم تشفي غليل المنظمات الدولية مثل منظمة العفو الدولية واللجنة الدولية للصليب الأحمر المتعلقة بدراسة حقوق الإنسان، والتي كانت مهمتها إعطاء تفسيرات حول التجاوزات المرتكبة في إطار مكافحة ظاهرة الإرهاب ومدى تطبيق القانون الدولي الإنساني، وكذا فيما يخص إجراءات العفو عن الإرهابيين ورفعت عدة تقارير في هذا الشأن .

أما على الصعيد الدولي فان نشاط الدبلوماسية الجزائرية التي تمكنت، مند سنة 1999 من كسر طوق العزلة المفروضة عليها خلال عشرية الإرهاب أو ما يطلق عليها بالعشرية السوداء، نجحت في استعادة مكانتها الطبيعية على الصعيد العالمي، ولقد تميزت الدبلوماسية الجزائرية بحضورها القوي والفعال في شتى المحافل الدولية وساهمت بذلك في البحث عن حلول لرفع التحديات التي تواجه المجموعة الدولية ومنها القضايا المتعلقة بالإرهاب والأمن الدولي ونزع السلاح وإشكالية التنمية وحماية البيئة وحوار الحضارات.

وجاء انتخاب الجزائر سنة 2003 في مجلس الأمن تكريسا للعودة على الساحة الدولية وفي ذلك شكل ملموس للعرفان بإسهامها النشط في مسار إصلاح المنظومة الأممية من خلال تأسيس مجلس حقوق الإنسان ولجنة تعزيز السلام، وبشكل خاص الإستراتيجية الدولية لمكافحة الإرهاب التي اعتمدها الأمم المتحدة .

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

ولم تنفك الجزائر عن المطالبة بضرورة إبرام اتفاقية دولية شاملة بخصوص قضية الإرهاب ولقد ساهمت بفعالية كبيرة في إطار المنتدى المتوسطي ومنتدى "فوروميد" لحث الدول المشاركة فيه على تبني موقف موحد ضد الإرهاب، كما دعت أيضا إلى إبرام عدد من الاتفاقيات الدولية للوقاية من الإرهاب ومكافحته على الصعيد الإفريقي والعربي والإسلامي، ولقد تُوجت تلك الجهود بتأسيس المركز الإفريقي للدراسات والبحوث حول الإرهاب "CAERT" ومقره بالجزائر العاصمة¹.

وكان اعتداء تقينتورين الأخير خلال يومي 16 و 17 جانفي 2013 الذي استهدف الموقع الغازي بتقينتورين في الجنوب (إن أميناس) الذي قامت به مجموعة إرهابية متعددة الجنسيات من حوالي ستة جنسيات التي دخلت إلى الجزائر عبر الحدود الجنوبية، الأمر الذي أكد عزم الجزائر على مواجهة الإرهاب بكل احترافية .

ولقد أكد الوزير المنتدب المكلف بالشؤون المغاربية والإفريقية في مداخلته خلال الدورة 22 العادية للمجلس التنفيذي للاتحاد الإفريقي بأن "هذا الحدث الذي أكد عزم الجزائر على مواجهة الإرهاب الذي لن يقدم له أي تنازل ولا يمكن أن يجعل الجزائر تتخلى عن مسؤولياتها الإقليمية والدولية في مكافحة هذه الآفة، أو واجب الجوار مع مالي وبلدان المنطقة".

كما أكد رئيس الحكومة الجزائرية في تصريحه بمناسبة إعادة تشغيل الوحدة الأولى من مصنع الغاز بعين امناس والاحتفالية بمناسبة تأميم المحروقات وتأسيس المركزية النقابية بان الجزائر تعرضت لعدوان إرهابي دولي وكان يهدف إلى ضرب استقرار الجزائر، وجاءت للانتقام من الوضع الذي تعيشه البلاد².

¹ - انظر الموقع : <http://www.djairress.com>.

² - انظر / مقال عبد الوهاب بوكروخ، تقينتورين، جريدة الشروق اليومي ليوم 25-02-2013

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

وأكدت الجزائر دائما في المناسبات الدولية بان اللجوء إلى القوة للقضاء على الإرهاب والجريمة المنظمة العابرة للأوطان ليس فقط أمرا "مشروعا" بل "واجبا" يعود إلى المسؤولية الفردية للدول والمسؤولية الجماعية لبلدان المنطقة والمجتمع الدولي، وأن هذه المسؤوليات تكتسي طابعا ملحا خاصة وأن الجماعات الإرهابية تحاول توسيع نطاق نشاطاتها سواء في منطقة الساحل أو في نيجيريا أو في الصومال، وأن هذا المسعى والإجراء يمثل حسب مواقف الجزائر للقضاء على الإرهاب بجميع أشكاله مقارنة مزدوجة قائمة على الحل السياسي واللجوء إلى القوة في نفس الوقت وهذا راجع لتوسع نطاق وعمليات الجماعات الإرهابية في هذه الدول، ومثل ذلك الاعتداء الذي نفذ بمنطقة كونا في (10 جانفي 2013) نجد بأن الجزائر أدانت رسميا وبشدة هذه الاعتداءات الإرهابية وأعربت عن تضامنها مع دولة مالي، ولقد أكد الوزير المنتدب المكلف بالشؤون المغاربية والإفريقية في تصريحه بأديس أبابا في مداخلته خلال الدورة الـ 22 العادية للمجلس التنفيذي للاتحاد الأفريقي بأن مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة تبقى تشكل "الأولوية في أجندة" المجتمع الدولي بفضل التعاون والشراكة اللذين لطالما دعت إليهما الجزائر .

كما إن الجزائر صادقت على العديد من الاتفاقيات الدولية والثنائية فيما يخص التعاون لمكافحة الإرهاب، مثل المصادقة على الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب وكذا الاتفاقية الدولية لقمع أعمال الإرهاب النووي، وكذا التصديق على الاتفاقية الثنائية بين دولة اسبانيا والجزائر في مجال الأمن ومكافحة الإرهاب والإجرام المنظم الموقعة في الجزائر بتاريخ 15-06-2008¹.

¹ - انظر: المرسوم الرئاسي رقم 10/270 المؤرخ في 03-11-2010 المتضمن التصديق بتحفظ على الاتفاقية الدولية لقمع أعمال الإرهاب النووي، وكذا المرسوم الرئاسي 09/185 المؤرخ في 12-05-

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
وعليه فان الجزائر عملت على صعيدين لمكافحة آفة الإرهاب التي عايشتها
الجزائر مند التسعينات إلى غاية يومنا هذا وكانت مواقفها ثابتة لتجريم الإرهاب بكل
صوره في القانون الدولي من خلال إيجاد اتفاقية إطار، وكانت مبادئ السياسة الخارجية
لها ثابتة من خلال توطيد أسس السلم في العالم الذي يعد من أكبر الرهانات التي تعمل
الدبلوماسية الجزائرية على كسبها، كما ناضلت من أجل تعزيز سبل التعاون بين الأمم
المتحدة والاتحاد الأفريقي وباقي منظمات العالم للقضاء على أشكال الإرهاب نظرا لما
حققته من خلال تجربتها في مكافحة الإرهاب .

الخاتمة والتوصيات:

انه من خلال استعراضنا لمسألة تعريف الإرهاب الدولي الذي اخذ حيزًا كبيرًا
من الأدبيات السياسية من جهة ومن النشاطات الدبلوماسية من جهة ثانية ومن
المحاولات القانونية من جهة ثالثة، فإن مسألة تعريف الإرهاب الدولي كانت وتظل
تصطدم بعدد من التحديات والتناقضات، ودارسو هذه المسألة مضطرون إلى النظر إلى
بعض الضرورات الأساسية منها :

أ - ضرورة التمييز بين الإرهاب الداخلي كعمل جرمي الذي يقع ضمن إقليم
الدولة ويخضع لقوانينها الجزائية وبين الإرهاب الدولي الذي يتجاوز تلك الحدود
ويخضع بالتالي إلى أحكام القانون الدولي .

ب - ضرورة الإحاطة الكاملة بكل أعمال الإرهاب من خلال الاتفاق الدولي
على تعريف موحد له.

2009 المتضمن التصديق على الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب، والمرسوم 08/427 المؤرخ في 28-
12-2008 المتضمن التصديق على الاتفاقية النائية بين الجزائر واسبانيا في مجال مكافحة الإرهاب.

ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي

ج- ضرورة اعتبار الإرهاب الدولي جريمة دولية تشكّل تهديداً للسلام والأمن الدوليين وتندرج ضمن الجرائم الدولية الأخرى التي يعاقب عليها القانون الدولي بصرف النظر عن موقف القوانين المحلية منها.

د- ضرورة تبني الاختصاص الجنائي العالمي في تشريعات الدول للقضاء على ظاهرة الإفلات من العقاب ومحاكمة مرتكبي جرائم الإرهاب الدولي .

قائمة المراجع

- 1- د/إمام حسانين عطا الله، الإرهاب والبيان القانوني للجريمة، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية 2004.
- 2- د/إمام حسانين خليل، الإرهاب وحروب التحرير الوطنية، دار مصر المحروسة الطبعة الأولى، القاهرة، 2002.
- 3- أحمد حسين سويدان، الإرهاب الدولي في ظل المتغيرات الدولية- منشورات الخلي الحقوقية، لبنان، الطبعة الأولى، 2005 .
- 4- د/عبد الله سليمان سليمان، المقدمات الأساسية في القانون الدولي الجنائي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992 .
- 5- أ/ يحيى نورة بن علي، حماية حقوق الإنسان في القانون الدولي والقانون الداخلي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية، 2006 .
- 6- أدونيس العكرة، الإرهاب السياسي، بحث في أصول الظاهرة وأبعادها الإنسانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الثانية، 1993 .
- 7- د/أحسن بوسقيعة، الوجيز في القانون الجنائي العام، دار هومة للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الحادية عشرة، 2012 .
- 8- عبد الرحمان عماد، قضية الإرهاب بين الحق والباطل، منشورات اتحاد وكتاب العرب، دمشق 2003.

- ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
- 9- محمد عبد اللطيف عال، جريمة الإرهاب، دراسة مقارنة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1994.
- 10- د/ عبد الكريم درويش، دراسات في منع الجريمة والعدالة الجنائية، الجزء الأول، القاهرة، 1998.
- 11- د/ محمد مؤنس محي الدين، الإرهاب في القانون الجنائي على المستويين الوطني والدولي، دار الوزان للنشر، القاهرة، 1987 .
- 12- ثامر إبراهيم الجهماني، مفهوم الإرهاب في القانون الدولي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، الجزائر 2002.
- 13- ابن عمر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار الصحابة، دمشق جزء 11، بدون سنة.

ثانيا: القواميس

- 1- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الأندلس، بيروت، بدون سنة .
- 2- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط والقاموس الوسيط لما ذهب من كلام العرب شاميط، مؤسسة دار الرسالة للنشر، بيروت، 1982.
- 3- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جوهر القاموس، دار مكتبة الحياة للنشر، بيروت، من دون سنة طبع ولا تاريخ .
- 4- منير البعلبكي، قاموس المورد -قاموس انجليزي-عربي- دار العلم للملايين، بيروت طبعة 31، 1997.

ثالثا: المقالات

- 1- المصري شفيق، الإرهاب في ميزان القانون الدولي، مجلة شؤون الشرق الأوسط، العدد 105 من سنة 2002 .

- ظاهرة الإرهاب الدولي و جهود الجزائر في مكافحته----- أ. محمد قاسمي
- 2- إبراهيم محمد العناني، النظام الدولي الأمني، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، عدد 02، 1992.
- 3- بوكروح عبد الوهاب، تيقنتورين، جريدة الشروق اليومي الجزائري، ليوم 25-02-2013 .

رابعاً: القوانين والمراسيم

- 1- قانون العقوبات الجزائري
- 2- قانون 99/08 المتعلق باستعادة الوثام المدني الصادر في 13 جويلية 1999 .
- 3- الأمر رقم 95/12 المتعلق بتدابير الرحمة.
- 4- الأمر 06/01 المؤرخ في 20 فيفري 2006.
- 5- المرسوم التشريعي 92/03 الصادر في 30-09-1992 المتعلق بمكافحة التخريب والإرهاب، المعدل والمتمم بالمرسوم 93/05 ثم أدرج في قانون العقوبات بموجب الأمر 95/11 المؤرخ في 25 فيفري 1995 .

خامساً: المراجع باللغة الفرنسية

Dictionnaire :

1- Dictionnaire ;Le petit Robert ; éd ; 1993, paris.

Article :

1- Mohamed Bejaoui « Un certain 20 juin 1960 » , petite et grand histoire de l'adhésion de l'Algérie combattante aux conventions de Genève sur le droit humanitaire , in acte du premier colloque algérien sur le droit humanitaire , organise par la Croissant-Rouge Algérien avec la collaboration du comite international de la Croix-Rouge , Alger le : 19 et 20 mai 2001 , éd ; casbah , 2006 , p 139 ,153.

سادساً: المراجع باللغة الانجليزية

1- Blakesly Christopher(L), terrorism, drugs, international law ,and the protection of human liberty, transnational publishers ,inc, New York, no printings date.

2- Martin Jhon(M)-Anne(T)Romano ,multinational crime ,terrorism, espionage, drugs and arms trafficking, sage pub, printed in USA, 1992.

3- Longman, dictionary of English language and culture , London, éd 1993.

